

اسم الكتاب: العقد الفريد

المؤلف: أبو عمر، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه ابن حبيب ابن

حدير بن سالم المعروف بابن عبد ربه الأندلسي (المتوفى: 328هـ)

الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت

الطبعة: الأولى، 1404 هـ

عدد الأجزاء: 8

[ترقيم الكتاب موافق للمطبوع]

مقدمة المحقق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين،
وبعد، فمنذ أن فتح العرب بلاد الأندلس عام 92 للهجرة نجد أن تلك الأصقاع قد شهدت نزوح
كثير من القبائل العربية إليها حيث ألفت هناك عصا الترحال واستقر بها النوى، ومكّنها ذلك فيما
بعد من إحداث نهضة أدبية سرعان ما نمت وتطوّرت وعرفت في عصر الدولة الأموية التي أنشئت
هناك على أنقاض الدولة الأموية التي انهارت في المشرق العربي تحت ضربات العباسيين، أوج
ازدهارها، وقمة عطائها، وقد ظهر في تلك الديار النائية التي لم تفقد في يوم من الأيام صلتها بالمشرق
الأم، كثير من العلماء والأدباء الذين حاكوا بنتائجهم أكثر من ظهر في المشرق العربي من نتاج،
والتزموا بأذواقهم الذوق الأدبي اسائد آنذاك، حتى أنّ الصاحب بن عباد بعد اطلاعه على «العقد
الفريد» نراه يقول: «هذه بضاعتنا ردت إلينا»، ومن هؤلاء الأدباء الكثر، صاحب العقد أبو عمر
شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب بن حدير بن سالم القرطبي، الذي كان مولى هشام
بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان.
ولد الرجل في مدينة قرطبة في العاشر من شهر رمضان سنة 246 هـ - الموافق للتاسع والعشرين من

تشريع الثاني سنة 860 م. وقرطبة حيث ولد ابن عبد ربّه من أعظم المدن الأندلسيّة، وكانت عظيمة الشبه بمدينة بغداد حاضرة العباسيين، وعنها يقول المقرري صاحب نفع الطيب: «يحكى أنّ العمارة في مباني قرطبة والزاهرة والزهاء اتصلت إلى أنه كان يمشى فيها بضوء لمن قطف بيده ما يمنحونه منه، وغرّها
€

(المقدمة/1)

إن صغر عندها عن عظمه عند اشبيلية فإنّ لتقارب برّيه هنا لك، وتقطع غدره ومروجه معنى آخر، وحلاوة أخرى، وزيادة أنس، وكثرة آمان من الغرق، وفي جوانبه من البساتين والمروج ما زاده نضارة وبهجة.

في هذه البيئة المليئة بالعطر والورود والأفياء نشأ صاحب العقد، وأمضى سحابة شبابه مستمتعا بطبيعة بلاده وأجوائها المساعدة على النظم واللهو والغناء، ولذا فقد أولع الرجل بسماع الغناء والطرب اللذين شاعا في المدن الأندلسيّة أيما شيوع، حتّى أصبحت بلاطات الأمراء مسارح للمغنيّات والقيان اللواتي كنّ يفدن إلى هناك من مختلف الأقطار العربية في بداية الأمر كالجارية العجفاء، وقد استأثرت قرطبة باستقبال رواد هذا الفن، ثم انتقل مركز الغناء إلى اشبيلية حتى ظنّ أنّها عاصمة هذا الفن. وتفرّدت قرطبة بالعلم والفقه، وأصبحت عاصمة الأدب وحاضنة علوم الدين.

وكان طبيعياً أن يتأثر أدينا بطبيعة بلاده، ويساير تلك الموجة العارمة من الطرب واللهو والعبث والجون، فشرب الخمر، وطرب لسماع الأصوات العذبة، وهذا ما يمكننا أن نستشقه من خلال شعره المبتوث في ثنايا عقده. ومن الواضح أنّ الرجل قد تاب عن غيّه وعاد إلى رشده خلال العقد الرابع من عمره، فطرق باب الفقه، وتتلّمذ على شيوخ عدة نذكر منهم الحشني، وابن وضاح، وبقي بن مخلد، وفي تلك الحقبة من الزمن كانت دراسة الفقه مدخلا ومهدا لتسلّم المراكز الرفيعة، فامتألت المدن الأندلسية التي خضعت للحكم العربي وخاصة قرطبة بالعلماء والأدباء والفقهاء..

ويظهر أنّ صاحب العقد كان على صلة مع أمراء عصره، فقد مدح أمير قرطبة محمد بن عبد الرحمن الحكم، كما كان على صلة بابنه المنذر أيضا، وفي هذه الحقبة من تاريخ الأندلس كثرت الفتن، حتى أن أحد قواد الفتنة، عمر بن حفصون، قد هدّد السلطة الأمويّة، وقد نعت ابن عبد ربه، بالمارق الفاسق..

واتصل صاحب العقد كذلك بالقائد العربي ابراهيم بن الحجاج الذي جعل أمارته في أشبيلية، وكان
كرما سخيا على الأدباء والشعراء، فوفد إلى بلاطه معظم علماء الأندلس وشعرائها.
€

(المقدمة/2)

وأقام الرجل كذلك علاقات طيبة مع عبد الرحمن بن محمد الملقب بالملك الناصر، الذي بنى مدينة
الزهراء، ومدحه بقصائد كثيرة منها قصيدته الرائعة التي أدرجها في المجلد الثالث من العقد. وابن عبد
ربه الذي يقول فيه الثعالبي النيسابوري صاحب بيتيمة الدهر إنه «أحد محاسن الأندلس علما وفضلا
وأدبا ومثلا، وشعره في نهاية الجزالة والحلاوة، وعليه رونق البلاغة والطلاوة» أصيب آخر أعوامه
بالفالج، كما أصيب الجاحظ من قبله، وأبو الفرج الأصبهاني من بعده، وتوفي يوم الأحد لثنتي عشرة
ليلة بقيت من جمادي الأولى سنة 328 هجرية وهو ابن إحدى وثمانين سنة وثمانية أشهر وثمانية أيام
ودفن في اليوم التالي لوفاته ...

هذه لمحة موجزة عن حياة الرجل، أما عن أعماله الأدبية فقد كان «العقد» أكثر كتبه شهرة، وقد
تحدث نفسه عن تسميته بهذا الاسم فقال: «وسميت كتاب العقد الفريد لما فيه من مختلف جواهر
الكلام، مع دقة المسلك وحسن النظام» وقد اعتمد كما لاحظنا في تأليفه واختياره لموضوعاته
وأخباره على مصادر كثيرة، منها ما هو ديني كالقرآن والانجيل والتوراة، والحديث النبوي الشريف،
ومنها ما هو أدبي وتاريخي، كعيون الأخبار، والمعارف لابن قتيبة، والحيوان، والبخلاء، والبيان
والتبيين، للجاحظ، والكمال للمبرد وكليلة ودمنة والأدب الكبير والصغير لابن المقفع، والأمال لأبي
عليّ القالي، ودواوين كثيرة لشعراء جاهليين وإسلاميين، وغير ذلك من الكتب التي تناولتها يده ...
وقد قسم الرجل كتابه إلى فنون عديدة، وضمته خمسة وعشرين كتابا انفرد كل كتاب منها باسم
جوهرة من جواهر العقد «بحيث يقع على كل من جانبي واسطة العقد، اثنتا عشرة جوهرة، كل منها
سميت باسم التي تقابلها من الجانب الآخر، وبذلك تكون أولى جواهر العقد وآخره على اسم واحد،
ففي العقد لؤلؤتان وزبرجدتان وياقوتتان وجمانتان وهلم جرا» وقد أشار ابن عبد ربّه في مقدمة كتابه
إلى ذلك فقال: «وجزأته على خمسة وعشرين كتابا كل كتاب منها جزآن، فتلك خمسون جزءا في
خمسة وعشرين كتابا» .

€

(المقدمة/3)

أما الموضوعات التي تناولها العقد، فقد تنوّعت وتوزّعت بين السياسة والسلطات، والحروب ومدار أمرها، والأمثال والمواعظ، والتعازي والمرثي وكلام الأعراب وخطبهم وأنسابهم وعلومهم وأدابهم وأيامهم وأخبار مشهورهم من الخلفاء والقادة، هذا فضلا عن تضمينه كتابه كثيرا من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وكثيرا من الأشعار والأخبار التاريخية، وإثباته لنفسه كثيرا من القصائد التي وردت على شكل معارضات لشعر كبار الشعراء في الموضوعات التي استشهد بأشعارهم عليها.

وقد صاغ صاحب العقد موضوعاته وما تضمّنها من معلومات بأسلوب أدبي، واضح بحيث نراه يهدّب كلّ ما جمعه، ويصقّيه من الأسانيد التاريخية لأنّ غايته من تأليف كتابه كانت أدبيّة بحتة، هذا ونلاحظ في كتابه ميلا إلى الفكاهة والدعابة، ونزوعا إلى القصص والتّوادر والنكات، فنراه في كتابه يذكر الكثير من ذلك أو لا يستتشف عن ذكر بذيء اللفظ وسافل المعنى، ورغم كلّ ذلك فإنّ المسحة الأدبيّة تبدو قويّة في كتابه بحيث يشعر بها كلّ من يقرأ العقد أو يتصفّحه فقد أراد الرجل أن يكون كتابه «مجموعة من متخير الآداب ومحصول جوامع البيان» وقد وفق إلى ذلك وسبق الكثيرين ممّن ألفوا على شاكلة كتابه، وامتاز على غيره بالوضوح والسهولة وحسن الترتيب والتنسيق حتى غدا كتابه كلاً متماسكا وسفرا جامعا لأكثر علوم عصره إن لم نقل كلّها، هذا وقد تضمّن العقد «ما لا يقل» عن عشرة آلاف بيت من الشعر لأكثر من مئتي شاعر من العصر الجاهلي والأموي والعباسي، وربما يصعب أن نذكر شاعرا معروفا لا نرى عنه خبرا أو نتفا من شعره، استشهد بما ابن عبد ربه لمناسبة ما فضلا عن تخصيصه كتابا لأعاريض الشعر وعلل القوافي، كما تضمّن العقد خطبا كثيرة ورسائل عديدة لكثير من الأدباء والمتراسلين..

كذلك فإنّ في العقد فصولا نقدية قيّمة نقلها من الكتب السابقة لكتابه ويجدر بمن يتعاطى مهنة الأدب أن يطلع عليها للإفادة منها، كما أن فيه فصولا دينية قيّمة، فقد ذكرنا من قبل أنّ الرجل كان فقيها، فلا غرو إذا ظهرت في كتابه الثقافة الدينية بمختلف فروعها، ونستطيع في هذا المجال أن نلاحظ أخبار كثير من الأئمة الذين تقدّموه كما نلاحظ كثيرا من أقوالهم وأحكامهم وفتاويهم في بعض المسائل.

€

(المقدمة/4)

بعد هذا العرض الموجز لما تضمّن العقد من مادة غنيّة ومتنوعة، نستطيع القول:
إنّ العقد كتاب عظيم النفع جليل القيمة، وافر المعلومات واسع الأفق، بحيث نراه يتحوّل بجهد صاحبه إلى سفر موسوعيّ ضخم يتضمّن كثيرا من المعارف والعلوم والآداب، التي رتبها ابن عبد ربه ونسقها بحيث غدت متّصلة العرى متألّفة الموضوعات متماسكة الحلقات، تشهد للرجل بحسن البراعة والاختيار، كما تشهد له بالعلم والمعرفة وسعة الاطلاع، فالرجل في مصنّفه لم يكن مجرد ناقل ومبوّب، بل كان صاحب رأي وصاحب ذوق يطلان في كثير من الأماكن بشكل واضح وجليّ، فضلا عن كونه شاعرا بارعا قويّ الديباجة، سلس الأسلوب دقيق المعاني، ولكن مع ميل إلى تقليد المشاركة، والعمل على محاكاةهم وإظهار التفوّق عليهم في أغلب الأحيان.
وهكذا فإنّ العقد بجواهره النفيسة التي تشعّ كثيرا من الأصواء والمعارف، كتاب ينبغي الاقتناء له والاستفادة من ألقه الرائع بين السطور والكلمات.
والله من وراء القصد.
د. مفيد محمد قميحة

(المقدمة/5)

الجزء الأول

[مقدمة المؤلف]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[ربّ يسّر وأعن قال أبو عمرو أحمد بن عبد ربّه الأندلسيّ، رحمه الله] :
الحمد لله الأوّل بلا ابتداء، الآخر بلا انتهاء؛ المنفرد بقدرته، المتعالي في سلطانه؛ الذي لا تحويه الجهات ولا تنعته الصّفات؛ ولا تدركه العيون، ولا تبلغه الظنّون؛ الباديء بالإحسان، العائد بالامتنان؛ الدالّ على بقائه بفناء خلقه، وعلى قدرته بعجز كلّ شيء سواه؛ المغتفر إساءة المذنب بعفوه، وجهل المسيء بحمله؛ الذي جعل معرفته اضطرارا، وعبادته اختيارا؛ وخلق الخلق من [بين] ناطق معترف بوحدانيّته، وصامت متخشّع لرؤبويّته؛ لا يخرج شيء عن قدرته، ولا يعزب «1» عن رؤيته؛ الذي قرن بالفضل رحمته، وبالعدل عذابه؛ فالناس مدينون بين فضله وعدله، آذنون بالزوال، آخذون في الانتقال؛ من دار بلاء، إلى دار جزاء.

أحمده على حلمه بعد علمه، وعلى عفوه بعد قدرته؛ فإنه رضي الحمد ثنا لجزيل نعمائه، وجليل آلائه
«2» ؛ وجعله مفتاح رحمته، وكفاء نعمته، وآخر دعوى أهل جنته، بقوله جلّ وعزّ: وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

«3»

(3/1)

وصلّى الله على [سيّدنا محمد] النبيّ المكرّم، الشافع المقرب، الذي بعث آخرا واصطفيّ أولا، وجعلنا
من أهل طاعته، وعتقاء شفاعته.

وبعد: فإنّ أهل كلّ طبقة، وجهابذة «1» كلّ أمة؛ قد تكلموا في الأدب وتفلسفوا في العلوم على كلّ
لسان، ومع كلّ زمان؛ وإنّ كلّ متكلم منهم قد استفرغ غايته وبذل مجهوده في اختصار بديع معاني
المتقدّمين، واختيار جواهر ألفاظ السالفين؛ وأكثروا في ذلك حتى احتاج المختصر منها إلى اختصار،
والمتخير إلى اختيار.

ثمّ إني رأيت آخر كلّ طبقة، وواضعي كلّ حكمة ومؤلفي كلّ أدب، أعذب ألفاظا وأسهل بنية وأحكم
مذهبا وأوضح طريقة من الأوّل، لأنه ناكص متعقب «2»، والأوّل باديء متقدم.

فلينظر الناظر إلى الأوضاع المحكمة والكتب المترجمة بعين إنصاف، ثمّ يجعل عقله حكما عادلا
[وفيصلا] قاطعا؛ فعند ذلك يعلم أنّها شجرة باسقة الفرع، طيبة المنبت، زكية الثّرة، يانعة الثّمرة.
فمن أخذ بنصيبه منها كان على إرث من النّبوة، ومنهاج من الحكمة؛ لا يستوحش صاحبه، ولا يضلّ
من تمسك به.

وقد ألّفت هذا الكتاب وتخيّرت جواهره من متخيّر جواهر الآداب ومحصول جوامع البيان، فكان
جوهر الجوهر ولباب اللباب؛ وإتّما لي فيه تأليف [الأخبار، وفضل] الاختيار، وحسن الاختصار،
وفرش في صدر كلّ كتاب؛ وما سواه فمأخوذ من أفواه العلماء، ومأثور عن الحكماء والأدباء.
واختيار الكلام أصعب من تأليفه. وقد قالوا: اختيار الرجل وافد عقله «3». وقال الشاعر:
قد عرفناك باختيارك إذ كا ... ن دليلا على اللبيب اختياره

(4/1)

وقال أفلاطون: عقول الناس مدوّنة في أطراف أقاليمهم، وظاهرة في حسن اختيارهم.
فتطلّبت نظائر الكلام وأشكال المعاني وجواهر الحكم وضروب الأدب ونوادير الأمثال، ثم قرنت كلّ
جنس منها إلى جنسه، فجعلته بابا على حدته؛ ليستدلّ الطالب للخبر على موضعه من الكتاب،
ونظيره في كلّ باب.

وقصدت من جملة الأخبار وفنون الآثار أشرفها جوهرًا، وأظهرها رونقًا، وألطفها معنى، وأجزها لفظًا،
وأحسنها ديباجة، وأكثرها طلاوة وحلاوة؛ آخذًا بقول الله تبارك وتعالى: الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ
فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ
«1» .

وقال يحيى بن خالد: الناس يكتبون أحسن ما يسمعون، ويحفظون أحسن ما يكتبون: ويتحدّثون
بأحسن ما يحفظون.

وقال ابن سيرين: العلم أكثر من أن يحاط به فخذوا من كلّ شيء أحسنه.
وفيما بين ذلك سقط الرأي، وزلل القول؛ ولكلّ عالم هفوة [ولكلّ جواد كبوة] ، ولكل صارم «2»
نبوة.

وفي بعض الكتب: انفرد الله تعالى بالكمال، ولم يبرأ أحد من النقصان.
وقيل للعتابي: هل تعلم أحدا لا عيب فيه؟ قال: إنّ الذي لا عيب فيه لا يموت [أبدا] ، ولا سبيل
إلى السلامة من السنة العامة.
وقال العتّابي: من قرض شعرا أو وضع كتابا فقد استهدف للخصوم واستشرف للألسن، إلا عند من
نظر فيه بعين العدل، وحكم بغير الهوى، وقليل ما هم.
وحذفت الأسانيد من أكثر الأخبار طلبا للاستخفاف والإيجاز، وهربا من

(5/1)

الثقيل والتطويل؛ لأنها أخبار ممتعة وحكم ونوادير، لا ينفعها الإسناد باتّصاله، ولا يضربها ما حذف
منها.

وقد كان بعضهم يحذف أسانيد الحديث من سنّة متّبعة، وشريعة مفروضة؛ فكيف لا نحذفه من نادرة
شاردة، ومثل سائر، وخبر مستطرف، [وحديث يذهب نوره إذا طال وكثر] .
سأل حفص بن غياث الأعمش عن إسناد حديث. فأخذ بحلقه وأسنده إلى حائط وقال: هذا إسناده!

وحدّث ابن السّمّاك بحديث، فقبل له: ما إسناده؟ فقال: هو من المرسلات عرفا «1». [وروى الأصمعيّ خيرا، فسئل عن إسناده. فقال: هو من الآيات المحكمات التي لا تحتاج إلى دليل وحجّة].

وحدّث الحسن البصريّ بحديث، فقبل له: يا أبا سعيد، عمّن؟ قال: وما تصنع بعمّن يا بن أخي؟ أمّا أنت فنالتك موعظته، وقامت عليك حجّته.

وقد نظرت في بعض الكتب الموضوعّة فوجدتها غير متصرّفة في فنون الأخبار، ولا جامعة لجمال الآثار؛ فجعلت هذا الكتاب كافيا [شافيا] جامعا لأكثر المعاني التي تجري على أفواه العامّة والخاصّة. وتدور على السنة الملوك والسّوقة. وحلّيت كلّ كتاب منها بشواهد من الشّعْر، تجانس الأخبار في معانيها، وتوافقها في مذاهبها؛ وقرنت بها غرائب من شعري، ليعلم الناظر في كتابنا هذا أن لمغربنا على قاصيته «2»، وبلدنا على انقطاعه، حظًا من المنظوم والمنثور.

(6/1)

وسمّيته كتاب (العقد الفريد) لما فيه من مختلف جواهر الكلام، مع دقة السّلك وحسن النّظام؛ وجزّأته على خمسة وعشرين كتابا، كل كتاب منها جزآن، فتلك خمسون جزءا في خمسة وعشرين كتابا [و] قد انفرد كلّ كتاب منها باسم جوهرة من جواهر العقد، فأولها:

كتاب اللؤلؤة في السلطان.

ثم كتاب الفريدة في الحروب [ومدار أمرها].

ثم كتاب الزّبر جده في الأجواد والأصفاد.

ثم كتاب الجمانة في الوفود.

ثم كتاب المرجانة في مخاطبة الملوك.

ثم كتاب الباقوتة في العلم والأدب.

ثم كتاب الجوهرة في الأمثال.

ثم كتاب الزّمردة في المواعظ والزّهّد.

ثم كتاب الدّرة في التعازي والمراثي.

ثم كتاب اليتيمة في النسب [وفضائل العرب].

ثم كتاب المسجدة في كلام الأعراب.

ثم كتاب المجنبة في الأجوبة.

ثم كتاب الواسطة في الخطب.

ثم كتاب المجنبة الثانية في التوقيعات والفصول والصدور وأخبار الكتبة.

ثم كتاب المسجدة الثانية في الخلفاء وتواريخهم وأيامهم.

ثم كتاب اليتيمة الثانية في أخبار زياد والحجاج [والطالبين والبرامكة].

ثم كتاب الدرّة الثانية في أيام العرب ووقائعهم.

ثم كتاب الزمردة الثانية في فضائل الشعر ومقاطعته ومخارجه.

ثم كتاب الجوهرة الثانية في أعاريض الشعر وعلل القوافي.

(7/1)

ثم كتاب الياقوتة الثانية في [علم] «1» الألمان واختلاف الناس فيه.

ثم كتاب المرجانة الثانية في النساء وصفاتهنّ.

ثم كتاب الجمانة الثانية في المتنبّين والممرورين والبخلاء والطّفيليين.

ثم كتاب الزبرجدة الثانية في بيان طبائع الإنسان وسائر الحيوان [وتفاضل البلدان].

ثم كتاب الفريدة الثانية في الطّعام والشراب.

ثم كتاب اللؤلؤة الثانية في [التنّف والهدايا و] الفكاهات والملح.

(8/1)

كتاب اللؤلؤة في السلطان

فرش الكتاب

: السلطان زمام الأمور، ونظام الحقوق، وقوام الحدود والقطب الذي عليه مدار [الدين و] الدنيا.
وهو حمى الله في بلاده وظلّه الممدود على عباده، به يمتنع حريمهم، وينتصر مظلومهم، وينقمع ظالمهم
«1» ، ويأمن خائفهم.

للحكماء

: قالت الحكماء: إمام عادل، خير من مطر وابل «2». وإمام غشوم، خير من فتنة تدوم. ولما يزع

الله بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن «3» .

وقال وهب بن منبه: فيما أنزل الله على نبيه داود عليه السلام: إني أنا الله مالك الملوك، قلوب الملوك بيدي. فمن كان لي على طاعة جعلت الملوك عليهم رحمة، ومن كان لي على معصية جعلت الملوك عليهم نقمة.

فحق على من قلده الله أمانة حكمه، ومملكه أمور خلقه، واختصه بإحسانه، ومكن له في سلطانه، أن يكون من الاهتمام بمصالح رعيته، والاعتناء بمرافق أهل طاعته، بحيث وضعه الله من الكرامة، وأجرى عليه من أسباب السعادة.

قال الله عز وجل: الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ
«4» .

(9/1)

للنبي صلى الله عليه وآله وسلم

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «عدل ساعة في حكومة خير من عبادة ستين سنة» . وقال

صلى الله عليه وآله وسلم.

كلكم راع، وكل راع مسئول عن رعيته.

وقال الشاعر:

فكلكم راع ونحن رعيّة ... وكلّ يلاقي ربّه فيحاسبه

ومن شأن الرعيّة قلة الرضى عن الأئمة، وتحجّر العذر عليهم «1» ، وإلزام الأئمة لهم ورب ملوم لا ذنب له. ولا سبيل إلى السلامة من السنة العامة إذ كان رضى جملتها، وموافقة جماعتها من المعجز الذي لا يدرك والممتنع الذي لا يملك.

ولكل حصته من العدل، ومنزلته من الحكم. فمن حق الإمام على رعيته أن يقضي عليهم بالأغلب من فعله والأعم من حكمه، ومن حق الرعيّة على إمامها حسن القبول لظاهر طاعتها وإضراجه صفحا عن مكاشفتها، كما قال زياد لما قدم العراق واليا عليها: أيها الناس، قد كانت بين وبينكم إحن «2» ، فجعلت ذلك دبر «3» أذني وتحت قدمي، فمن كان محسنا فليزدد في إحسانه، ومن كان مسيئا فليزدد عن إساءته. إني لو علمت أنّ أحدكم قد قتله السّل من بغضي لم أكشف له قناعا ولم أهتك

له ستر حتى يدي صفحته لي «4» .

لابن عمر

: وقال عبد الله بن عمر: إذا كان الإمام عادلاً فله الأجر وعليك الشكر، وإذا كان الإمام جائراً فله الوزر وعليك الصبر.

لكعب الأحبار

: وقال كعب الأحبار: مثل الإسلام والسلطان والناس: مثل الفسطاط والعمود

(10/1)

والأوتاد. فالفسطاط الإسلام، والعمود السلطان، والأوتاد الناس. ولا يصلح بعضهم إلا ببعض.
وقال الأفوه الأودي:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ... ولا سراة إذا جهّاهم سادوا «1»
والبيت لا يبتنى إلا له عمد ... ولا عماد إذا لم ترس أوتاد
وإن تجمّع أوتاد وأعمدة ... يوماً فقد بلغوا الأمر الذي كادوا

نصيحة السلطان ولزوم طاعته

قال الله تبارك وتعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ
«2» وقال أبو هريرة: لما نزلت هذه الآية أمرنا بطاعة الأئمة. وطاعتهم من طاعة الله، وعصيانهم من عصيان الله.

للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ:

وقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «من فارق الجماعة أو خلع يدا من طاعة مات ميتة جاهليّة»

وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «الدين النصيحة، الدين النصيحة، الدين النصيحة. قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولرسوله ولأولي الأمر منكم» .

فنصح الإمام ولزوم طاعته فرض واجب وأمر لازم، ولا يتم إيمان إلا به، ولا يثبت إسلام إلا عليه.

مما وصى به العباس ابنه حين قدمه عمر

: الشعبي عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال لي أبي: أرى هذا الرجل - يعني عمر بن الخطاب - يستفهمك ويقدمك على الأكابر من أصحاب محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ. وإني

(11/1)

موصيك بخلال أربع: لا تفشين له سرا، ولا يجربن عليك كذبا، ولا تطو عنه نصيحة، ولا تغتابن عنده أحدا.

قال الشعبي: فقلت لابن عباس: كل واحدة خير من ألف. قال: إي والله، ومن عشرة آلاف.

لرجل من الهند ينصح ملكا

: وفي كتاب للهند «1»: أن رجلا دخل على بعض ملوكهم فقال: أيها الملك، إن نصيحتك واجبة في الصغير الحقيق والكبير الخطير، ولولا الثقة بفضيلة رأيك، واحتمالك ما يشق «2» موقعه [من الأسماع والقلوب] «3» في جنب صلاح العامة وتلافي الخاصة، لكان خرقا مني «4» أن أقول؛ ولكننا إذا رجعنا إلى أن بقاءنا موصول ببقائك، وأنفسنا متعلقة بنفسك، لم نجد بدا من أداء الحق إليك وإن أنت لم تسلي ذلك، فإنه يقال: من كتم السلطان نصيحتة، والأطباء مرضه، والإخوان بئته «5»، فقد أخل بنفسه؛ وأنا أعلم أن كل كلام يكرهه سامعه لا يتشجع عليه قائله، إلا أن يثق بعقل المقول؛ فإنه إذا كان عاقلا احتتمل ذلك؛ لأنه ما كان فيه من نفع فهو للسامع دون القائل. وإنك أيها الملك ذو فضيلة في الرأي وتصرف في العلم، ويشجعني ذلك على أن أخبرك بما تكره، واثقا بمعرفتك نصيحتي لك وإيثاري إياك على نفسي.

ابن عتبة ينصح الوليد

: وقال عمرو بن عتبة للوليد حين تغير الناس عليه: يا أمير المؤمنين، إنه ينطقني الأوس بك، وتسكنني الهيبة لك، وأراك تأمن أشياء أخافها عليك، أفأسكت مطيعا أم أقول مشفقا؟ قال: كل مقبول منك، والله فينا علم غيب نحن صائرون إليه. فقتل بعد ذلك بأيام.

(12/1)

لابن صفوان في خالصة السلطان

: وقال خالد بن صفوان: من صحب السلطان بالصحة والنصيحة أكثر عدوا ممن صحبه بالغش والخيانة؛ لأنه يجتمع على الناصح عدو السلطان وصديقه بالعداوة والحسد، فصديق السلطان ينافسه في مرتبته، وعدوه يبغضه لنصيحته.

ما يصحب به السلطان

لابن المقفع في خادم السلطان:

قال ابن المقفع: ينبغي لمن خدم السلطان ألا يغتر به إذا رضي ولا يتغير له إذا سخط، ولا يستثقل ما حمّله، ولا يلحف في مسأله. وقال أيضا: لا تكن صحبتك للسلطان إلا بعد رياضة «1» منك لنفسك على طاعتهم. فإن كنت حافظا إذا ولّوك، حذرا إذا قرّبوك، أمينا إذا أئتمنوك ذليلا إذا صرموك «2»، راضيا إذا أسخطوك، تعلّمهم وكأنك متعلّم منهم، وتؤدّبهم وكأنك متأدّب بهم، وتشكرهم ولا تكلفهم الشكر. وإلا فالبعد منهم كلّ البعد، والحذر منهم كل الحذر. وقال المأمون: الملوك تتحمّل كل شيء إلا ثلاثة أشياء: القدح في الملك، وإفشاء السر، والتعرّض للحرم.

وقال ابن المقفع: إذا نزلت من السلطان بمنزلة الثقة فلا تلزم الدعاء له في كل كلمة؛ فإن ذلك يوجب الوحشة ويلزم الانقباض «3».

وقال الأصمعي: توصلت بالملح وأدرت بالغريب «4».

وقال أبو حازم الأعرج لسليمان بن عبد الملك: إنما السلطان سوق، فما نفق عنده حمل إليه.

(13/1)

وصاة أبي سفيان وزوجه لابنهما معاوية حين عمل لعمر

: ولما قدم معاوية من الشام، وكان عمر قد استعمله عليها، دخل على أمه هند؛ فقالت له: يا بني، إنه قلما ولدت حرة مثلك، وقد استعملك هذا الرجل، فأعمل بما وافقه أحببت ذلك أم كرهته. ثم دخل على أبيه أبي سفيان؛ فقال له: يا بني، إن هؤلاء الرهط «1» من المهاجرين سبقونا وتأخرنا عنهم، فرفعهم سبقهم وقصر بنا تأخرنا، فصرنا أتباعا وصاروا قادة؛ وقد قلّدوك جسيما من أمرهم؛ فلا تخالفن أمرهم، فإنك تجري إلى أمد لم تبلغه، ولو قد بلغت لتنفست «2» فيه. قال معاوية: فعجبت من اتفاقهما في المعنى على اختلافهما في اللفظ.

لا برويز ينصح صاحب بيت ماله

: وقال أبو ريز لصاحب بيت المال: إني لا أعذر في خيانة درهم، ولا أحمدك على صيانة ألف ألف؛ لأنك إنما تحقن بذلك دمك وتقيم أمانتك، فإنك إن خنت قليلا خنت كثيرا. واحترس من خصلتين: التقصان فيما تأخذ، والزيادة فيما تعطي؛ واعلم أي لم أجعلك على ذخائر الملك وعمارة المملكة

والعدّة على العدو، إلا وأنت عندي آمن من موضعه الذي هو فيه، وخواتمه التي هي عليه، فحقق ظني باختياري إياك أحقق ظنك في رجائك إياي؛ ولا تتعوّض بخير شرّاً، ولا برفعة ضعة، ولا بسلامة ندامة، [ولا بأمانة خيانة] «3» .

ليزيد بن معاوية ينصح سلماً حين ولاه خراسان

: ولما ولى يزيد بن معاوية سلم بن زياد خراسان قال له: إنّ أباك كفى أخاه عظيماً، وقد استكفيتك صغيراً؛ فلا تتكلنّ على عذر مني فقد اتكلت على كفاية منك. وإياك مني قبل أن أقول إياي منك؛ فإن الظن إذا أخلف مني فيك أخلف منك فيّ؛ وأنت في أدنى حظك فاطلب أقصاه، وقد أتعبك أبوك فلا تريح نفسك.

(14/1)

لعمر بن الخطاب ومعاوية حين قدم عليه الشام

: قال يزيد: حدّثني أبي أنّ عمر بن الخطاب لما قدم الشام قدم على حمار ومعه عبد الرحمن بن عوف على حمار، فتلقّاهما معاوية في موكب ثقيل، فجاوز عمر معاوية حتى أخبر به، فرجع إليه. فلما قرب منه نزل إليه، فأعرض عنه، فجعل يمشي إلى جنبه راجلاً. فقال له عبد الرحمن بن عوف: أتعبت الرجل. فأقبل عليه عمر فقال:

يا معاوية، أنت صاحب الموكب آنفا مع ما بلغني من وقوف ذوي الحاجات ببابك؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين. قال: ولم ذاك؟ قال: لأننا في بلد لا نمتنع فيها من جواسيس العدو ولا بدّ لهم مما يرهّبهم من هيبة السلطان؛ فإن أمرتني بذلك أقمت عليه، وإن نهيتهني عنه انتهيت. فقال: لئن كان الذي تقول حقاً فإنه رأي أريب «1» ؛ وإن كان باطلاً خدعة أديب، وما أمرك به ولا أمّاك عنه. فقال عبد الرحمن بن عوف: لحسن ما صدر هذا الفتى عما أوردته فيه! فقال: لحسن موارده جشّمناه ما جشّمناه «2» .

الربيع الحارثي في حضرة ابن الخطاب

: وقال الربيع بن زياد الحارثي: كنت عاملاً لأبي موسى الأشعري على البحرين. فكتب إليه عمر بن الخطاب يأمره بالقدوم عليه هو وعمّاله وأن يستخلفوا من هو من ثقافتهم حتى يرجعوا. فلما قدمنا أتيت يرفاً «3» ، فقلت: يا يرفاً، ابن سبيل مسترشد، أخبرني أيّ الهيئات أحبّ إلى أمير المؤمنين أن يرى فيها عمّاله؟ فأوماً إلى الخشونة. فأخذت خفين مطارقين «4» ، ولبست جبّة

صوف، ولثت رأسي. بعمامة دكنا. ثم دخلنا على عمر، فصقنا بين يديه وصعد فينا نظره وصوب
«5»، فلم تأخذ عينه أحدا غيري، فدعاني؛ فقال: من أنت؟ قلت: الربيع بن زياد الحارثي. قال:
وما تتولى من أعمالنا؟ قلت: البحرين. قال: فكم ترزق؟ قلت: خمسة دراهم في كل

(15/1)

يوم. قال: كثير! فما تصنع بها؟ قلت: أتقوت منها شيئا وأعود بباقيها على أقارب لي، فما فضل منها
فعلى فقراء المسلمين. فقال: لا بأس، ارجع إلى موضعك؛ فرجعت إلى موضعي من الصف. ثم صعد
فينا وصوب، فلم تقع عينه إلا عليّ، فدعاني؛ فقال: كم سنوك؟ فقلت: ثلاث وأربعون سنة قال:
الآن حين استحكمت.

ثم دعا بالطعام، وأصحابي حديثو عهد بلين العيش وقد تجوّعت له، فأتي بخبز يابس وأكسار بعير
«1»، فجعل أصحابي يعافون ذلك، وجعلت آكل فأجيد الأكل. فنظرت فإذا به يلحظني من
بينهم، ثم سبقت مني كلمة تمنيت أني سخت في الأرض ولم ألفظ بها، فقلت: يا أمير المؤمنين، إن
الناس يحتاجون إلى صلاحك، فلو عمدت إلى طعام هو ألين من هذا. فزجرني وقال: كيف قلت؟
قلت: أقول: لو نظرت يا أمير المؤمنين إلى قوتك من الطحين فيخبز لك قبل إرادتك إياه بيوم،
ويطبخ لك اللحم كذلك، فتؤتى بالخبز لينا وباللحم غريضا. فسكن من غربه وقال: هذا قصدت؟
قلت: نعم. قال: يا ربيع، إنا لو نشاء ملأنا هذه الرحاب من صلائق وسبائك وصناب، ولكني رأيت
الله تعالى نعي على قوم شهواتهم فقال: **أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا**
«2» ثم أمر أبا موسى أن يقرني وأن يستبدل بأصحابي!

ابن عبد ربه يفسر غريب الخبر

: قوله «لثتها على رأسي». يقال: رجل ألوث، إذا كان شديدا، وذلك من اللوث؛ ورجل ألوث، إذا
كان أهوج، مأخوذ من اللوثة. يقال: (لثت عمامة على رأسي) يقول: أدركتها بعضها على بعض على
غير استواء.

وقوله «صلائق» هي شيء يعمل من اللحم، فمنها ما يطبخ ومنها ما يشوى، يقال: صلقت اللحم،
إذا طبخته، وصلقته إذا شويته.

وقوله «غريضا» يقول طريا. يقال: لحم غريض، تراد به الطراوة قال العتايي:

(16/1)

إذا ما فاتني لحم غريض ... ضربت ذراع بكري فاشتويت
و «سبائك» يريد الحواري من الخبز، وذلك أنه يسبك فيؤخذ خالصه، والعرب تسمي الرقاق:
السبائك.

و «الصناب» طعام يؤخذ من الزبيب والخردل، ومنه قيل للفرس: صنابي إذا كان في لونه حمرة. قال
جرير:

تكلّفتني معاش آل يزيد ... ومن لي بالمرقق والصناب
وقوله: «أكسار بعير» فالكسر والقصل والجزل: العظم يفصل ما عليه من اللحم.
وقوله «نعمي على قوم شهواتهم» أي عابهم بها ووبخهم.

زياد أول من استن ترك السلام على قادم عند السلطان

: ومما يصحب به السلطان: ألا يسلم على قادم بين يديه، وإنما استن ذلك زياد بن أبيه؛ وذلك أن
عبد الله بن عباس قدم على معاوية وعنده زياد؛ فرحب به معاوية وألطفه وقرّب مجلسه ولم يكلمه زياد
شيئا فابتدأه ابن عباس وقال: ما حالك أبا المعيرة! كأنك أردت أن تحدث بيننا وبينك هجرا. قال:
لا، ولكنه لا يسلم على قادم بين يدي أمير المؤمنين. فقال له ابن عباس: ما ترك الناس التحية بينهم
بين يدي أمرائهم. فقال له معاوية: كفّ عنه يا بن عباس، فإنك لا تشاء أن تغلب إلا غلبت.

ترك أبي مسلم السلام على المنصور بحضرة السفاح

: دخل أبو مسلم على أبي العباس وعنده المنصور. فسلم على أبي العباس. فقال له: يا أبا مسلم؛
هذا أبو جعفر! فقال له: يا أمير المؤمنين. هذا موضع لا يقضى فيه إلا حقل!

(17/1)

معاوية وابن العاص بين يدي عمر حين مقدمهما من الشام ومصر

: أبو حاتم عن العتيبي قال: قدم معاوية من الشام، وعمرو بن العاص من مصر على عمر بن
الخطاب؛ فأفعدهما بين يديه وجعل يسائلهما عن أعمالهما، إلى أن اعترض عمرو في حديث معاوية،
فقال له معاوية: أعملي تعيب وإني تقصد؟ هلم تخبر أمير المؤمنين عن عملي وأخبره عن عملك! قال
عمرو: فعلت أنه بعملي أبصر مني بعمله، وأنّ عمر لا يدع أول هذا الحديث حتى يصير إلى آخره؛
فأردت أن أفعل شيئا أشغل به عمر عن ذلك، فرفعت يدي فلطمت معاوية. فقال عمر: تالله ما

رأيت رجلا أسفة منك! قم يا معاوية فاقتص منه. قال معاوية: إن أي أمرني ألا أقضي أمرا دونه.
فأرسل عمر إلى أبي سفيان. فلما أتاه ألقى له وسادة وقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
«إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه». ثم قصّ عليه ما جرى بين عمرو ومعاوية. فقال:
لهذا بعثت إليّ؟ أخوه وابن عمه؛ وقد أتى غير كبير، وقد وهبت ذلك له.

لبعضهم في تلمس الحيلة لنصيحة السلطان

: وقالوا: ينبغي لمن صحب السلطان أن لا يكتب عنه نصيحة وإن استثقلها، وليكن كلامه له كلام
رفق لا كلام خرق، حتى يخبره بعيبه من غير أن يواجهه بذلك ولكن يضرب له الأمثال، ويخبره بعيب
غيره ليعرف عيب نفسه.

وقالوا: من تعرّض للسلطان ازدراه، ومن تطامن له تخطّاه «1». فشبهوا السلطان في ذلك بالريح
الشديد التي لا تضر بما لان وتمايل معها من الحشيش والشجر، وما استهدف لها قصمته «2». قال
الشاعر:

إن الرّياح إذا ما أعصفت قصفت ... عيدان نبع ولا يعبان بالرّتم «3»

لشبيب في مسامرة السلطان

: وقال شبيب بن شيبّة: ينبغي لمن ساير خليفة أن يكون بالموضع الذي إذا أراد

(18/1)

الخليفة أن يسأله عن شيء لم يحتج إلى أن يلتفت، ويكون من ناحية إذا التفت لم تستقبله الشمس.

وزير للهند بين الملك والملكة

: وقرأت في كتاب للهند أنه أهدي لملك ثياب وحلى، فدعا بامراتين له، وخير أحظاهما عنده بين
اللباس والحلى. وكان وزيره حاضرا فنظرت المرأة كالمشيخة له، فغمزها باللباس تغضينا «1» بعينه،
فلحظه الملك. فاخترت الحلية لئلا يفطن للغمزة وصار اللباس للأخرى. فأقام الوزير أربعين سنة
كاسرا عينه لئلا تقرّ في نفس الملك، وليظن أنها عادة وخلقة.

اختيار السلطان لأهل عمله

لابن هبيرة يوصي مسلم بن سعيد حين وجهه إلى خراسان

: لما وجّه عمر بن هبيرة مسلم بن سعيد إلى خراسان قال له: أوصيك بثلاثة:
حاجبك، فإنه وجهك الذي به تلقى الناس: إن أحسن فأنت الحسن، وإن أساء فأنت المسيء؛

وصاحب شرطتك، فإنه سوطك وسيفك: حيث وضعتهما فأنت وضعتهما؛ وعمال القدر «2» قال: وما عمال القدر؟ قال: أن تختار من كل مورة «3» رجالا لعملك، فإن أصابوا فهو الذي أردت، وإن أخطئوا فهم المخطئون وأنت المصيب.

اختيار ابن أرطاة بين إياس والقاسم

: وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرطاة: أن اجمع بين إياس بن معاوية والقاسم بن ربيعة الجوشني فول القضاء أنفذهما؛ فجمع بينهما، فقال له إياس: أيها الرجل، سل عني وعن القاسم فقيهي البصرة: الحسن وابن سيرين - وكان القاسم يأتي

(19/1)

الحسن وابن سيرين وكان إياس لا يأتيهما - فعلم القاسم أنه إن سألهما أشارا به. فقال القاسم: لا تسأل عني ولا عنه؛ فوالله الذي لا إله إلا هو إن إياس بن معاوية أفقه مني وأعلم بالقضاء؛ فإن كنت كاذبا فما ينبغي أن توليني، وإن كنت صادقا فينبغي لك أن تقبل قولي. فقال له إياس: إنك جئت برجل فوقفته على شفير «1» جهنم فنجى نفسه منها يمين كاذبة يستغفر الله منها وينجو مما يخاف. فقال له عدي: أما إذ فهمتها فأنت لها. فاستقضاه.

بين عدي وإياس في القضاء

: وقال عدي بن أرطاة لإياس بن معاوية: دلني على قوم من القراء أولهم. فقال له: القراء ضربان: فضرب يعملون للآخرة ولا يعملون لك. وضرب يعملون للدنيا. فما ظنك بهم إذا أمكنتهم منها؟ ولكن عليك بأهل البيوتات الذين يستحيون لأحسابهم فولهم.

أبو قلابة والقضاء

: أيوب السخيتاني، قال: طلب أبو قلابة لقضاء البصرة، فهرب إلى الشام فأقام حيناً ثم رجع. قال أيوب: فقلت له: لو أنك وليت القضاء وعدلت كان لك أجران. قال: يا أيوب، إذا وقع السابح في البحر فكم عسى أن يسبح.

تولية عبد الملك الشعبي على قضاء البصرة

: وقال عبد الملك بن مروان جلسائه: دلوني على رجل أستعمله. فقال له روح ابن زنباع: أدلك يا أمير المؤمنين على رجل إن دعوتموه أجابكم، وإن تركتموه لم يأتكم، ليس بالملحف طلبا، ولا بالممعن هربا: عامر الشعبي؛ فولاه قضاء البصرة.

عمر بن عبد العزيز يسأل أبا مجلز عمّن يوليه خراسان
: وسأل عمر بن عبد العزيز أبا مجلز «2» عن رجل يوليه خراسان. فقال له: ما

(20/1)

تقول في فلان؟ قال: مصنوع له وليس بصاحبها. قال: ففلان؟ قال: سريع الغضب بعيد الرضا، يسأل الكثير ويمنع القليل، يحدس أخاه وينافس أباه ويحقر مولاه. قال: ففلان؟ قال: يكافئ الأكفاء ويعادي الأعداء ويفعل ما يشاء. قال: ما في واحد من هؤلاء خير.

عمر ورجل طلب عملا

: وأراد عمر بن الخطاب أن يستعمل رجلا، فبدر الرجل يطلب منه العمل فقال عمر: والله لقد أردتك لذلك، ولكن من طلب هذا الأمر لم يعن عليه.
وطلب رجل من النبي صلى الله عليه وسلم أن يستعمله. فقال: «إنا لا نستعمل على عملنا من يريده» .

وطلب العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم إلى النبي ولاية. فقال: «يا عم، نفس تحييها خير من ولاية لا تحييها» .
وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه لخالد بن الوليد: فرّ من الشرف يتبعك الشرف؛ واحرص على الموت توهب لك الحياة.
وتقول النصارى: لا يختار للجنثقة «1» إلا زاهدا فيها غير طالب لها.

توليه ابن هبيرة لإياس

: وقال إياس بن معاوية: أرسل إليّ ابن هبيرة فأتيته، فساكنني فسكتت، فلما أطلت قال: هيه. قلت: سل عما بدا لك. قال: أتقرأ القرآن؟ قلت: نعم. قال: أتفرض الفرائض؟ قلت: نعم. قال: أتعرف من أيام العرب شيئا؟ قلت: نعم. قال: أتعرف من أيام العجم شيئا؟ قلت: أنا بما أعرف. قال: إني أريد أن أستعين بك على عملي.

قلت: إن فيّ خلا «2» ثلاثا لا أصلح معها للعمل. قال: ما هي؟ قلت: أنا دميم كما ترى، وأنا حديد، وأنا عي «3». قال: أما دمامتك فإني لا أريد أن أحاسن الناس

(21/1)

بك. وأما العمي فإني أراك تعرب عن نفسك، وأما الحدة فإن السوط يقومك. [قم قد وليتك] قال:
فولاني وأعطاني مائة درهم، فهي أول مال تمولته.

وقال الأصمعي: ولي سليمان بن حبيب المخاربي قضاء دمشق لعبد الملك والوليد وسليمان وعمر بن
عبد العزيز ويزيد وهشام.

وأراد عمر بن عبد العزيز مكحولاً على القضاء فأبي عليه. قال له: وما يمنعك قال مكحول: قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يقضي بين الناس إلا ذو شرف في قومه، وأنا مولى».

توليه ابن الخطاب للمغيرة مكان ابن أبي وقاص على الكوفة

: ولما قدم رجال الكوفة على عمر بن الخطاب يشكون سعد بن أبي وقاص، قال: من يعذرني من أهل
الكوفة، وإن وليت عليهم التقيّ ضعفوه، وإن وليت عليهم القويّ فجرّوه «1»؟ فقال له المغيرة: يا
أمير المؤمنين، إن التقيّ الضعيف له تقواه وعليك ضعفه، والقويّ الفاجر لك قوّته وعليه فجوره.
قال: صدقت، فأنت القويّ الفاجر فاخرج إليهم. فلم يزل عليهم أيام عمر وصدرًا من أيام عثمان
وأيام معاوية، حتى مات المغيرة «2».

حسن السياسة وإقامة المملكة

للحجاج يصف سيرته للوليد

: كتب الوليد ن عبد الملك إلى الحجاج بن يوسف يأمره أن يكتب إليه بسيرته، فكتب إليه: إني
أيقظت رأيي وأتمت هواي، فأدّيت السيّد المطاع في قومه، ووليت الجرب «3» الحازم في أمره،
وقلّدت الخراج الموقر لأمانته، وقسمت لكل خصم من

(22/1)

نفسى قسما أعطيه حظًا من لطيف عنايتي ونظري؛ وصرفت السيف إلى التّطف «1» المسيء،
والثواب إلى المحسن البريء؛ فخاف المرّيب صولة العقاب، وتمسك المحسن بحظه من الثواب.

لأردشير يوصي ابنه

: وقال أردشير لابنه: يا بني، إنّ الملك والعدل أخوان لا غنى بأحدهما عن صاحبه فالملك أسّ
والعدل حارس، وما لم يكن أسّ فمهدوم، وما لم يكن له حارس فضائع.
يا بنيّ اجعل حديثك مع أهل المراتب، وعطيتك لأهل الجهاد، وبشرك لأهل الدين، وسرك لمن عناه

ما عنك من ذوي العقول «2» .

للحكماء في واجب السلطان

: وقالت الحكماء: مما يجب على السلطان العدل في ظاهر أفعاله لإقامة أمر سلطانه، وفي باطن ضميره لإقامة أمر دينه؛ فإذا فسدت السياسة ذهب السلطان. ومدار السياسة كلها على العدل والإنصاف، لا يقوم سلطان لأهل الكفر والإيمان إلا بهما ولا يدور إلا عليهما، مع ترتيب الأمور مراتبها وإنزالها منازلها. وينبغي لمن كان سلطانا أن يقيم على نفسه حجة الرعية. ومن كان رعية أن يقيم على نفسه حجة السلطان.
وليكن حكمة على غيره يمثل حكمه على نفسه؛ فإنما يعرف حقوق الأشياء من عرف مبلغ حدودها ومواقع أقدارها. ولا يكون أحد سلطانا حتى يكون قبل ذلك رعية.
وقال عبد الملك بن مروان لبنيه: كلكم يترشح لهذا الأمر، ولا يصلح له منكم إلا من كان له سيف مسلول، ومال مبدول، وعدل تطمئن إليه القلوب.

لبعض الملوك يصف سياسته

: ووصف بعض الملوك سياسته فقال: لم أهزل في وعد ولا وعيد، ولا أمر ولا نهي

(23/1)

ولا عاقبت للغضب. واستكفيت «1»، وأثبت «2» على الغناء لا للهوى. وأودعت القلوب هيبة لم يشبها مقت «3»، وودًا لم تشبهه جرأة. وعممت بالقوت، ومنعت الفضول.

لأعرابي في وصف أمير

: وذكر أعرابي أميراً فقال: كان إذا ولى لم يطابق بين جفونه، وأرسل العيون على عيونه «4»؛ فهو غائب عنهم شاهد معهم؛ فالحسن راج والمسيء خائف.
وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا يصلح لهذا الأمر إلا اللين في غير ضعف، القوي في غير عنف.

بين الوليد بن عبد الملك وأبيه في السياسة

: وقال الوليد بن عبد الملك لأبيه: يا أبت، ما السياسة؟ قال: هيبة الخاصة مع صدق مودتها واقتياد قلوب العامة بالإنصاف لها، واحتمال هفوات الصنائع «5» .

لأرسطو طاليس يوصي الإسكندر

: وكتب أرسطو طاليس إلى الإسكندر: أملك الرعية بالإحسان إليها تظفر بالحبّة منها، فإنّ طلبك ذلك منها بإحسانك أديم بقاء منه باعتسافك «6». واعلم أنك إنما تملك الأبدان فاجمع لها القلوب بالحبّة؛ واعلم أن الرعية إذا قدرت أن تقول قدرت أن تفعل؛ فاجهد ألا تقول تسلم من أن تفعل.
وقال أردشير لأصحابه: إني إنما أملك الأجساد لا النيات، وأحكم بالعدل لا بالرضى، وأفحص عن الأعمال لا عن السرائر.

(24/1)

وكان عمرو بن العاص يقول في معاوية: اتقوا آدم «1» قريش وابن كرمهما، من يضحك في الغضب، ولا ينام إلا على الرضى، ويتناول ما فوقه من تحته «2» .

لمعاوية في سياسته

: وقال معاوية: إني لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني، ولو أنّ بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت. فقليل له: وكيف ذلك؟
قال: كنت إذا مدوها أرخيتها، وإذا أرخوها مددتها.

لعمرو بن العاص في معاوية وسياسته

: وقال عمرو بن العاص: رأيت معاوية في بعض أيامنا بصقّين خرج في عدّة لم أره خرج في مثلها، فوقف في قلب عسكره فجعل يلحظ ميمنته فيرى الخلل، فيبدر إليه من يسده. ثم يفعل ذلك بميسرته، فتغنيه اللحظة عن الإشارة. فدخله زهو مما رأى، فقال: يا بن العاص، كيف ترى هؤلاء وما هم عليه؟ فقلت: والله يا أمير المؤمنين لقد رأيت من يسوس الناس بالدين والدنيا فما رأيت أحدا أوتي له من طاعة رعيته ما أوتي لك من هؤلاء. فقال: أفتدري متى يفسد هذا وفي كم ينتقض جميعه؟
قلت: لا.

قال: في يوم واحد. قال: فأكثر التعجب. قال: أي والله وفي بعض يوم. قلت:
وكيف ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: إذا كذبوا في الوعد والوعيد، وأعطوا على الهوى لا على الغناء:
فسد جميع ما ترى.

لابن عباس يوصي الحسن

: وكتب عبد الله بن عباس إلى الحسن بن علي إذ ولاه الناس أمرهم بعد علي رضي الله عنه: أن ستمّر للحرب «3»، وجاهد عدوك، واشتر من الظنّين «4» دينه بما لا يثلم «5»

(25/1)

دينك، وولّ أهل البيوتات تستصلح به عشائهم.

للحكماء في السياسة

: وقالت الحكماء: أسوس الناس لرعيته من قاد أبدانها بقلوبها، وقلوبها بخواطرها. وخواطرها بأسبابها من الرغبة والرغبة.

لأبرويز يوصي ابنه شيرويه

: وقال أبرويز لابنه شيرويه: لا توسّع على جنك سعة يستغنون بما عنك ولا تضيقّ عليهم ضيقا يضحون به منك؛ ولكن أعطهم عطاء قصدا؛ وامنعهم منعا جميلا، وابسط لهم في الرجاء، ولا تبسط لهم في العطاء.

بين المنصور وقواده

: ونحو هذا قول المنصور لبعض قواده. صدق الذي قال: أجمع كلبك يتبعك، وسمّنه يأكلك. فقال له أبو العباس الطوسي: يا أمير المؤمنين، أما تخشى إن أجمته أن يلوّح له غيرك برغيف فيتبعه ويدعك.

لأبرويز ينصح ابنه شيرويه

: وكتب أبرويز إلى ابنه شيرويه من الحبس: اعلم أنّ كلمة منك تسفك دماء وأخرى تحقن دماء، وأنّ سخطك سيف مسلول على من سخطت عليه، وأن رضاك بركة مستفيضة على من رضيت عنه، وأنّ نفاذ أمرك مع ظهور كلامك. فاحترس في غضبك من قولك أن يخطيء. ومن لونك أن يتغيّر، ومن جسّدك أن يخفّ؛ فإن الملوك تعاقب حزما وتعفو حلما. واعلم أنك تجلّ عن الغضب، وأن ملكك يصغر عن رضاك، فقدّر لسخطك من العقاب كما تقدّر لرضاك من الثواب «1» .

(26/1)

من خطبة لسعيد ابن سويد

: وخطب سعيد بن سويد بمحص، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس إنّ للإسلام حائطا

منيعا، وبابا وثيقا. فحائط الإسلام الحق وبابه العدل، ولا يزال الإسلام منيعا ما اشتدّ السلطان، وليست شدة السلطان قتلا بالسيف ولا ضربا بالسوط ولكن قضاء بالحق وأخذ بالعدل.

لابن الحكم في الحاقده على السلطان

: وقال عبد الله بن الحكم إنه قد يضطغن على السلطان رجلا: رجل أحسن في محسنين فأثبوا وحرّم، ورجل أساء في مسيئين فعوقب وعفي عنهم؛ فينبغي للسلطان أن يحترس منهما.

لأبرويز يوصي ابنه شيرويه

: وفي التاج: كتب أبرويز لابنه شيرويه بوصيه: ليكن من تختاره لولايتك امرءا كان في ضعة فرفعته، أو ذا شرف كان مهملا فاصطنعته. ولا تجعله امرءا أصبته بقعوبة فاتضع لها، ولا امرءا اطاعك بعد ما أذلتته. ولا أحدا ممن يقع بقلبك أن إزالة سلطانك أحب إليه من ثبوتها؛ وإياك أن تستعمله ضربا غمرا «1» كثيرا اعجابه بنفسه، قليلا تجربته في غيره. ولا كبيرا مدبرا قد أخذ الدهر من عقله كما أخذت السنّ من جسمه.

بسط المعدلة وردّ المظالم

إنصاف المأمون أمة من ابنه

: الشيباني قال: حدّثنا محمد بن زكريا عن عباس بن الفضل الهاشمي عن قحطبة بن حميد قال: إني لواقف على رأس المأمون يوما وقد جلس للمظالم، فكان آخر من

(27/1)

تقدم إليه - وقد همّ بالقيام - امرأة عليها هيئة السفر، وعليها ثياب رثة، فوقف بين يديه فقالت السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فنظر المأمون إلى يحيى ابن أكنم، فقال لها يحيى: وعليك السلام يا أمة الله، تكلمي في حاجتك. فقالت:

يا خير منتصف يهدى له الرشد ... ويا إماما به قد أشرق البلد

تشكو إليك عميد القوم أرملة ... عدّي عليها فلم يترك لها سبد «1»

وابترّ مّي ضياعي بعد منعتها ... ظلما وفرّق مني الأهل والولد «2»

فأطرق المأمون حيناً، ثم رفع رأسه إليها وهو يقول:

في دون ما قلت زال الصبر والجلد ... عني وأقرح مّي القلب والكبد «3»

هذا أذان صلاة العصر فانصر في ... وأحضري الخضم في اليوم الذي أعد

والمجلس السبب إن يقض الجلوس لنا ... ن نصفك منه وإلا المجلس الأحد
قال: فلما كان يوم الأحد جلس، فكان أول من تقدم إليه تلك المرأة، فقالت:
السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. فقال: وعليك السلام، أين الخصم؟
فقالت: الواقف على رأسك يا أمير المؤمنين. وأومأت إلى العباس ابنه. فقال: يا أحمد بن أبي خالد،
خذ بيده فأجلسه معها مجلس الخصوم. فجعل كلامها يعلو كلام العباس، فقال لها أحمد بن أبي خالد:
يا أمة الله، إنك بين يدي أمير المؤمنين، وإنك تكلمين الأمير، فاحفضي من صوتك. فقال المأمون:
دعها يا أحمد، فإن الحق أنطقها وأخرسه. ثم قضى لها برد ضيعتها إليها، وظلم العباس بظلمه لها،
وأمر بالكتاب لها إلى العامل الذي بلدها أن يوغر لها ضيعتها «4» ويحسن معاونتها، وأمر لها بنفقة.

الحكم على هشام في خصومة بينه وبين إبراهيم بن محمد

: العتيبي قال: إني لقاعد عند قاضي هشام بن عبد الملك إذ أقبل إبراهيم بن محمد ابن

(28/1)

طلحة وصاحب حرس هشام، حتى قعدا بين يديه، فقال: إن أمير المؤمنين جرّاني «1» في خصومة
بينه وبين إبراهيم. فقال القاضي: شاهديك على الجراية. قال أتراني قلت على أمير المؤمنين ما لم يقل،
وليس بيني وبينه إلا هذه السترة؟ قال: بلى، ولكنه لا يثبت الحق لك ولا عليك إلا بينة. قال: فقام
الحرسيّ فدخل إلى هشام فأخبره، فلم نلبث أن قعقت الأبواب «2» وخرج الحرسيّ فقال: هذا أمير
المؤمنين. وخرج هشام، فلما نظر إليه القاضي قام، فأشار إليه وبسط له مصلى، فقعد عليه وإبراهيم
بين يديه، وكنا حيث نسمع بعض كلامهم ويخفي عنّا بعضه. قال: فتكلما وأحضرا البيّنة.
فقضى القاضي على هشام. فتكلم إبراهيم بكلمة فيها بعض الخرق «3»، فقال: الحمد لله الذي
أبان للناس ظلمك. فقال له هشام: لقد هممت أن أضربك ضربة ينتثر منها لحمك عن عظمك.
قال: أما والله لئن فعلت لتفعلنه بشيخ كبير السن قريب القرابة واجب الحق. فقال هشام: استرها
عليّ! قال: لا ستر الله عليّ إذا ذنبي يوم القيامة إن سترتها. قال: فأني معطيك عليها مائة ألف. قال
إبراهيم: فسترتها عليه حياته ثمنا لما أخذت منه، وأذعتها بعد مماته تزيينا له.

الحجاج وسليك ابن سلكة

: قال: وورد على الحجاج بن يوسف سليك بن سلكة «4» فقال: أصلح الله الأمير، أرعني سمعك
«5»، واغضض عني بصرك، واكفف عني غريك «6»؛ فإن سمعت خطأ أو زلال دونك والعقوبة.

قال: قل. فقال: عصي عاص من عرض العشيرة؛ فخلق على اسمي «7» وهدم منزلي، وحرمت عطائي. قال: هيهات! أو ما سمعت قول الشاعر:

(29/1)

جانيك من يجني عليك وقد ... تعدي الصّحاح مبارك الجرب
ولربّ مأخوذ بذنب عشيره ... ونجا المقارف صاحب الدّنب
قال: أصلح الله الأمير، إني سمعت الله عز وجل قال غير هذا. قال: وما ذاك؟
قال: قال الله تعالى: يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ قَالَ
مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعِنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ
«1». فقال الحجاج: عليّ بيزيد بن أبي مسلم. فمثل بين يديه، فقال: افكك لهذا عن اسمه،
واصكك له بعطائه، وابن له منزله، ومر مناديا ينادي: صدق الله وكذب الشاعر.
وقال معاوية: إني لأستحي أن أظلم من لا يجد عليّ ناصرا إلا الله.

لعمر بن عبد العزيز يوصي عاملا

: وكتب إلى عمر بن عبد العزيز بعض عماله يستأذنه في تحصين مدينته. فكتب إليه:
حصّنها بالعدل ونقّ طرفها من الظلم.

للمهدي يوصي ابن أبي الجهم

: وقال المهدي للربيع بن أبي الجهم - وهو والي أرض فارس: يا ربيع، آثر الحق، والزم القصد، وابسط
العدل، وارفق بالرعية، واعلم أن أعدل الناس من أنصف من نفسه «2»، وأجورهم من ظلم الناس
لغيره.

بين ابن عامر وابن أصبغ

: وقال ابن أبي الزناد: عن هشام بن عروة قال: استعمل ابن عامر عمرو بن أصبغ على الأهواز،
فلما عزله قال له: ما جئت به؟ قال له ما معي إلا مائة درهم وأثواب.

(30/1)

قال: كيف ذلك؟ قال: أرسلتني إلى بلد أهلهم رجلاً: رجل مسلم له ما لي وعليه ما عليّ، ورجل له ذمة الله ورسوله، فو الله ما دريت أين أضع يدي. قال: فأعطاه عشرين ألفاً. وقال جعفر بن يحيى: الخراج عمود الملك، وما استغزر بمثل العدل، ولا استنزر بمثل الظلم «1». وقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الظلم ظلمات يوم القيامة».

صلاح الرعية بصلاح الإمام

قال الحكماء: الناس تبع لإمامهم في الخير والشر. وقال أبو حازم الأعرج: الإمام سوق، فما نفق عنده جلب إليه.

عمر بن الخطاب وتاج كسرى وسواريه

: ولما أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بتاج كسرى وسواريه. قال: إن الذي أدى هذا لأمين. قال له رجل: يا أمير المؤمنين، أنت أمين الله، يؤدّون إليك ما أدّيت إلى الله تعالى، فإن رتعت رتعوا «2». ومن أمثالهم في هذا قولهم: إذا صلحت العين صلحت سواقيها. الأصمعي قال: يقال: صنفان إذا صلحا صلح الناس: الأمراء والفقهاء.

بين مروان ووكيله

: اطلع مروان بن الحكم على ضيعة له بالغوطة، فأنكر منها شيئاً، فقال لوكيله: ويحك! إني لأظنك تخونني. قال: أتظن ذلك ولا تستيقنه. قال: وتفعله؟ قال: نعم والله، إني لأخونك، وإنك لتخون أمير المؤمنين، وإن أمير المؤمنين ليخون الله؛ فلعن الله شر الثلاثة.

(31/1)

قولهم في الملك وجلسائه ووزرائه

للحكماء في الملك والوزراء

: قالت الحكماء: لا ينفع الملك إلا بوزرائه وأعوانه ولا ينفع الوزراء والأعوان إلا بالمودة والنصيحة، ولا تنفع المودة والنصيحة إلا مع الرأي والعفاف. ثم على الملوك بعد ألا يتركوا محسناً ولا مسيئاً ما دون جزاء؛ فإنهم إذا تركوا ذلك، تهاونوا بالحسن، واجترأوا بالمسيء، وفسد الأمر، وبطل العمل.

للأحنف في فساد البطانة

: وقال الأحنف بن قيس: من فسدت بطانته «1» كان كمن غصّ بالماء، ومن غصّ بالماء فلا مساغ له، ومن خانته ثقافته فقد أتى من مأمته «2».

وقال العباس بن الأحنف:

قلبي إلى ما ضرّني داعي ... يكثر أحزاني وأوجاعي
كيف احتزاسي من عدوّي إذا ... كان عدوّي بين أضلاعي
وقال آخر:

كنت من كربتي أفرّ إليهم ... فهم كربتي فأين الفرار

لعدي بن زيد

: وأول من سبق إلى هذا المعنى عديّ بن زيد في قوله للنعمان بن المنذر:

لو بغير الماء حلقي شرق ... كنت كالغصّان بالماء اعتصاري «3»
وقال آخر:

إلى الماء يسعى من يغصّ بريقه ... فقل أين يسعى من يغصّ بماء

(32/1)

لابن العاص في العدل

: وقال عمرو بن العاص: لا سلطان إلا برجال، ولا رجال إلا بمال، ولا مال إلا بعمارة، ولا عمارة إلا
بعدل.

وقالوا: إنما السلطان بأصحابه كالبحر بأمواجه.

قالوا: ليس شيء أضر بالسلطان من صاحب يحسن القول ولا يحسن الفعل ولا خير في القول إلا مع
الفعل، ولا في المال إلا مع الجود، ولا في الصدق إلا مع الوفاء، ولا في الفقه إلا مع الورع، ولا في
الصدقة إلا مع حسن النية، ولا في الحياة إلا مع الصحة.

قالوا: إن السلطان إذا كان صالحا ووزراؤه وزراء سوء امتنع خيره من الناس ولم يستطع أحد أن ينتفع
منه بمنفعة. وشبهوا ذلك بالماء الصافي يكون فيه التماسح، فلا يستطيع أحد أن يدخله وإن كان
محتاجا إليه.

صفة الإمام العادل

كتاب الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز في وصف الإمام العادل

: كتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لما ولي الخلافة إلى الحسن بن أبي الحسن البصري أن يكتب
إليه بصفة الإمام العادل فكتب إليه الحسن رحمه الله:

اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قوام كلِّ مائل «1»، وقصد كل جائر، وصلاح كل فاسد، وقوة كل ضعيف، ونصفة كل مظلوم، ومفرج كل ملهوف «2». والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالراعي الشفيق على إبله الرفيق بها، الذي يرتاد لها أطيب المرعى، ويدودها عن مراتع الهلكة، ويحميها من السباع، ويكنّها من أذى الحرِّ والقرّ «3». والإمام العادل يا أمير المؤمنين، كالأب الحاني على

(33/1)

ولده، يسعى لهم صغارا، ويعلمهم كبارا، يكتسب لهم في حياته، ويدخر لهم بعد مماته. والإمام العادل يا أمير المؤمنين، كالأمم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها، حملته كرها ووضعته كرها، وربّته طفلا، تسهر بسهره، وتسكن بسكونه، ترضعه تارة وتفطمه أخرى، وتفرح بعافيته وتغتم بشكايته. والإمام العادل يا أمير المؤمنين، وصيّ البيتامي، وخازن المساكين، يربيّ صغيرهم، ويمون كبيرهم. والإمام العادل يا أمير المؤمنين، كالقلب بين الجوارح: تصلح الجوارح بصلاحه وتفسد بفساده. والإمام العادل يا أمير المؤمنين، هو القائم بين الله وبين عباده، يسمع كلام الله ويسمعهم، وينظر إلى الله ويربهم، وينقاد إلى الله ويقودهم. فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله عز وجل كعبد ائتمنه سيّده واستحفظه ماله وعياله، فبدّد المال، وشردّ العيال، فأفقر أهله وفرق ماله.

واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش فكيف إذا أتاها من يليها؟ وأن الله أنزل القصاص حياة لعباده، فكيف إذا قتلهم من يقتصّ لهم؟ واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده، وقلة أشياعك عنده وأنصارك عليه؛ فتزوّد له ولما بعده من الفرع الأكبر.

واعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلا غير منزلك الذي أنت فيه، يطول فيه ثواؤك، ويفارقك أحباؤك، يسلمونك في قعره فريدا وحيدا. فتزوّد له ما يصحبك يوم يفرّ المرء من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبته

وَتَنبِيهِ

«1» .

واذكر يا أمير المؤمنين إذا بُعِثَ ما في القُبُورِ، وَحُصِّلَ ما في الصُّدُورِ
«2» فالأسرار ظاهرة، والكتاب لا يُغادرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا
«3» .

فالآن يا أمير المؤمنين، وأنت في مهل، قبل حلول الأجل، وانقطاع الأمل، لا تحكم يا أمير المؤمنين في عباد الله بحكم الجاهلين، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين ولا

(34/1)

تسلط المستكبرين على المستضعفين، فإنهم لا يرقبون في مؤمن إلا «1» ولا ذمة، فتبوء بأوزارك وأوزار مع أوزارك، وتحمل أثقالك وأثقالا مع أثقالك. ولا يعزتك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك، ويأكلون الطيبات في دنياهم بإذهاب طيباتك في آخرتك. ولا تنظرن إلى قدرتك اليوم، ولكن انظر إلى قدرتك غدا وأنت مأسور في حبال الموت، وموقوف بين يدي الله تعالى في مجمع من الملائكة والنبين والمرسلين، وقد عنت الوجوه للحي القيوم «2» .

إني يا أمير المؤمنين، وإن لم أبلغ بعظتي ما بلغه أولو النهى من قبلي، فلم آلك «3» شفقة ونصحا، فأنزل كتابي إليك كمدأوي حبيبه يسقيه الأدوية الكريهة لما يرجو له في ذلك من العافية والصحة. والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

هبة الإمام في تواضعه

لابن السماك

: قال ابن السماء لعيسى بن موسى: تواضعك في شرفك أكبر من شرفك! وقال عبد الملك بن مروان: أفضل الرجال من تواضع عن رفعة، وزهد عن قدرة، وأنصف عن قوة.

النجاشي وقد ولد له ولد

: ذكر عن النجاشي أمير الحبشة أنه أصبح يوما جالسا على الأرض والتاج على رأسه، فأعظم ذلك أساقفته؛ فقال لهم: إني وجدت فيما أنزل الله تعالى على المسيح عليه السلام، يقول له: إذا أنعمت على عبيدي نعمة فتواضع إليّ أتممتها عليه، وإني ولد لي الليلة غلام، فتواضعت لذلك شكرا لله تعالى.

(35/1)

لبعض الشعراء في التواضع

: وقال ابن قتيبة: لم يقل بيت أبدع من قول الشاعر لبعض خلفاء بني أمية:

يفضي حياء ويفضي من مهابته ... فلا يكلم إلا حين يتسم «1»
وأحسن منه عندي قول الآخر:

فتى زاده عزّ المهابة ذلّة ... فكلّ عزيز عنده متواضع
وقال أبو العتاهية:

يا من تشرف بالدنيا وزينتها ... ليس التشرف رفع الطين بالطين «2»
إذا أردت شريف الناس كلهم ... فانظر إلى ملك في زي مسكين
ذاك الذي عظمت والله نعمته ... وذاك يصلح للدنيا وللدين
وقال الحسن بن هانيء في هيبة السلطان مع محبة الرعية:
إمام عليه هيبة ومحبة ... ألا بأبي ذاك الحبيب الحبيب
وقال آخر في الهيبة وإن لم تكن في طريق السلطان:

بنفسي من لو مرّ برد بنانه ... على كبدي كانت شفاء أنامله
ومن هابني في كلّ شيء وهبته ... فلا هو يعطيني ولا أنا سائله
ولابن هرمة في المنصور:

له لحظات عن حفافي سريره ... إذا كرها فيها عقاب ونائل «3»
كريم له وجهان وجه لدى الرضى ... أسيل ووجه في الكريهة باسل «4»
فأم الذي آمنت آمنة الردي ... وأم الذي أو عدت بالثكل تاكل
وليس بمعطي العفو من غير قدرة ... ويعفو إذا ما مكنته المقاتل
وقال آخر في الهيبة:

أهاشم يا فتى دين ودنيا ... ومن هو في اللباب من اللباب «5»

(36/1)

أهابك أن أبوح بذات نفسي ... وتركى للعتاب من العتاب
وقال أشجع بن عمرو في هيبة السلطان:

منعت مهابتك النفوس حديثها ... بالشّيء تكرهه وإن لم تعلم
ومن الولاة مفحّم لا يتقى ... والسيف تقطر شفرتاه من الدّم
وقال أيضا لهرون الرشيد:

وعلى عدوك يا بن عم محمد ... رصدان: ضوء الصبح والإضلام
فإذا تبّته رعته، وإذا غفا ... سلّت عليه سيوفك الأحلام «1»
وقال الحسن بن هانيء في الهيبة فأفرط:
ملك تصوّر في القلوب مثاله ... فكأنّه لم يخل منه مكان
ما تنطوي عنه القلوب بفجرة ... إلّا يكلمه بها اللحظان «2»
حتى الذي في الرّحم لم يك صورة ... لفؤاده من خوفه خفقان
فمجاز هذا البيت في إفراطه أن الرجل إذا خاف شيئاً أو أحبّه بسمعه وبصره وشعره وبشره
ولحمه ودمه وجميع أعضائه، فالنّطف التي في الأصلاب داخلة في هذه الجملة.
قال الشاعر:

ألا ترثي لمكتنب ... يحبك لحمه ودمه
وقال المكفوف في آل محمد:
أحبكم حباً على الله أجره ... تضمّنه الأحشاء واللحم والدم
ومثل هذا قول الحسن بن هانيء:
وأخفت أهل الشرك حتى إنّه ... لتخافك النّطف التي لم تخلق

(37/1)

فإذا خافه أهل الشرك خافته النّطف التي في أصلابهم، على المجاز الذي ذكرناه.
ومجاز آخر: أنّ النّطف التي أخذ الله ميثاقها يجوز أن يضاف إليها ما هي لا بد فاعلة من قبل أن
تفعله، كما جاء في الأثر: إن الله عز وجل عرض على آدم ذريته فقال: هؤلاء أهل الجنة ويعمل أهل
الجنة يعملون، وهؤلاء أهل النار ويعمل أهل النار يعملون.

شعر للمؤلف في الهيبة

: وها أنا أقول في الهيبة:

يا من يجرد من بصيرته ... تحت الحوادث صارم العزم
رعت العدوّ فما مثلت له ... إلا تفرّع منك في الحلم
أضحى لك التدبير مطّرداً ... مثل أطراد الفعل للإسم
رفع الحسود إليك ناظره ... فراك مطّلعاً مع التّجم

للأخطل في معاوية

: أبو حاتم سهل بن محمد قال: أنشدني العتبي للأخطل في معاوية:

تسمو العيون إلى إمام عادل ... معطى المهابة نافع ضرار

وترى عليه إذا العيون لحنه ... سيما الحليم وهيبة الجبار

حسن السيرة والرفق بالرعية

مما جاء في الكتاب والسنة في معنى هذا العنوان

: قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم فيما أوصاه به من الرفق بالرعية: وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظًا

الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ

«1» .

(38/1)

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «من أعطي حظّه من الرفق فقد أعطي حظّه من الخير كله، ومن حرم حظّه من الرفق فقد حرم حظّه من الخير كله» .

مشورة سالم وابن كعب على عمر بن عبد العزيز حين ولي الخلافة

: ولما استخلف عمر بن عبد العزيز أرسل إلى سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب .

فقال لهما: أشيرا عليّ. فقال له سالم: اجعل الناس أبا وأخا وابنا، فبرّ أباك، واحفظ أخاك، وارحم ابنك. وقال محمد بن كعب: أحبب للناس ما تحب لنفسك واکره لهم ما تكره لنفسك، واعلم أنك أول خليفة يموت.

بين عمر بن عبد العزيز وابنه في الرفق

: وقال عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز لأبيه عمر: يا أبت، مالك لا تنفذ في الأمور، فو الله لا أبالي في الحق لو غلت بي وبك القدور. قال له عمر: لا تعجل يا بني، فإن الله تعالى ذم الخمر في القرآن مرتين وحرّمها في الثالثة، وأنا أخاف أن أحمل الناس على الحق جملة فيدفعوه وتكون فتنة.

من عمر إلى ابن أرتاة في الرفق

: وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرتاة: أما بعد، فإن أمكنتك القدرة على المخلوق فاذكر قدرة الخالق عليك، واعلم أن مالك عند الله مثل ما للرعية عندك.

مما وصى المنصور به ابنه

: وقال المنصور لولده عبد الله المهدي: لا تبرم «1» أمرا حتى تفكر فيه؛ فإن فكرة العاقل مرآته تريه حسناته وسيئاته؛ واعلم أن الخليفة لا يصلحه إلا التقوى، والسلطان لا تصلحه إلا الطاعة، والرعية لا يصلحها إلا العدل وأولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة، وأنقص الناس عقلا من ظلم من هو دونه.

(39/1)

وصية خالد القسري لبلال

: وقال خالد بن عبد الله القسري لبلال بن أبي بردة: لا يحملنك فضل المقدر على شدة السطوة، ولا تطلب من رعيتك إلا ما تبدله لها؛ ف إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون «1» .

وقال أبو عبد الله كاتب المهدي: ما أحوج ذا القدرة والسلطان إلى قرين «2» يحجزه، وحياء يكفه، وعقل يعقله «3» ، وإلى تجربة طويلة، وعين حفيظة، وأعراق تسري إليه، وأخلاق تسهل الأمور عليه؛ وإلى جليس شفيق، وصاحب رقيق، وإلى عين تبصر العواقب، وقلب يخاف الغير. ومن لم يعرف لؤم الكبر لم يسلم من فلتات اللسان، ولم يتعاضم ذنبا وإن عظم، ولا ثناء وإن سمح «4» .
وكتب أردشير إلى رعيتيه: من أردشير المؤيد ملك الملوك ووارث العظماء، إلى الفقهاء الذين هم حملة الدين، والأساورة الذين هم حفظة البيضة «5» ، والكتّاب الذين هم زينة المملكة، وذوي الحرث الذين هم عماد البلاد: السلام عليكم، فإننا بمحمد الله إليكم سالمون؛ فقد وضعنا عن رعيتنا بفضل رأفتنا بما إتواها الموضوعة عليها «6» ، ونحن مع ذلك كاتبون إليكم بوصية فاحفظوها: لا تستشعروا الحقد فيدهمكم العدو، ولا تحتكروا فيشملمكم القحط؛ وتزوجوا في الأقارب فإنه أمس للرحم وأثبت للنسب، ولا تعدّوا هذه الدنيا شيئا؛ فإنها لا تبقى على أحد، ولا ترفضوها فإن الآخرة لا تدرك إلا بها.

وصية مروان ابن الحكم لعبد العزيز ابنه حين ولاة مصر

: ولما انصرف مروان بن الحكم من مصر إلى الشام استعمل عبد العزيز ابنه على

(40/1)

مصر، وقال له حين ودّعه: أرسل حكيمًا ولا توصه. أي بني، انظر إلى عمّالك، فإن كان لهم عندك حقّ غدوة فلا تؤخرهم إلى عشيّة، وإن كان لهم عشيّة فلا تؤخرهم إلى غدوة، وأعطهم حقوقهم عند محلها تستوجب بذلك الطاعة منهم. وإياك أن يظهر لرعيّتك منك كذب، فإنهم إن ظهر لهم منك كذب لم يصدّقوك في الحق. واستشر جلساءك وأهل العلم؛ فإن لم يستبن لك فإكتب إليّ يأتك رأيي فيه إن شاء الله تعالى.

وإن كان بك غضب على أحد من رعيّتك فلا تؤاخذ به عند سورة الغضب «1»، واحبس عنه عقوبتك حتى يسكن غضبك ثم يكون منك ما يكون وأنت ساكن الغضب منطفيء الجمره، فإن أول من جعل السجن كان حليما ذا أناة «2». ثم انظر إلى ذوي الحسب والدين والمروءة فليكونوا أصحابك وجلساءك؛ ثم ارفع منازلهم منك على غيرهم، على غير استرسال ولا انقباض، أقول هذا وأستخلف الله عليك.

من معاوية إلى زياد في رجل فر إليه

: قال أبو بكر بن أبي شيبة عن عبد الله بن مجالد عن الشعبي، قال: قال زياد: ما غلبني أمير المؤمنين معاوية في شيء من السياسة إلا مرة واحدة، استعملت رجلا فكسر خراجه، فخشي أن أعاقبه ففرّ إليه واستجار به فأمنه؛ فكتبت إليه: إن هذا أدب سوءاً من قبلي. فكتب إليّ: إنه لا ينبغي أن نسوس الناس سياسة واحدة، لا نلن جميعا فتمرح الناس في المعصية، ولا نستبد جميعا فنحمل الناس على المهالك. ولكن تكون أنت للشدة والغلظة وأكون أنا للرفقة والرحمة.

ما يأخذ به السلطان من الحزم والعزم

قالت الحكماء: أحزم الملوك من قهر جدّه هزله: وغلب رأيه هواه، وجعل له الفكر صاحبا يحسن له العواقب، وأعرب عن ضميره فعله، ولم يحدّعه رضاه عن سخطه ولا غضبه عن كيد.

(41/1)

وصية عبد الملك لولي عهده الوليد

: وقال عبد الملك بن مروان لابنه الوليد وكان ولي عهده: يا بني، اعلم أنه ليس بين السلطان وبين أن يملك الرعية أو تملكه إلا حرفان: حزم وتوان.

لبعضهم في اليسير من الزلل

: وقالوا: ينبغي للعاقل ألا يستصغر شيئا من الخطأ والزلل، فإنه متى ما استصغر الصغير يوشك أن

يقع في الكبير؛ فقد رأينا الملك يؤتى من العدو المحتقر، ورأينا الصحة تؤتى من الدواء اليسير، ورأينا الأنهار تتدفق من الجداول الصغار.

في الدم يكون من الرعية

: وقالوا: لا يكون الدم من الرعية لراعيها إلا لأحد ثلاثة: كريم قصر به عن قدره فاحتمل لذلك ضغنا، أو لئيم بلغ به ما لا يستحق فأورثه ذلك بطرا «1»، أو رجل منع حظّه من الإنصاف فشكا تفريطا.

من كلام للهند في الملوك

: وفي كتاب الهند: خير الملوك من أشبه النسر حوله الجيف لا من أشبه الجيف حولها النسر. وقيل لملك سلب ملكه: ما الذي سلبك ملكك؟ قال: دفع شغل اليوم إلى غد، والتماس عدّة بتضييع عدد، واستكفاء كلّ مخدوع عن عقله. والمخدوع عن عقله من بلغ قدرا لا يستحقه، وأثيب ثوبا لا يستوجهه.

لابن أبي طالب في الفرص

: وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: انتهزوا هذه الفرص فإنها تمرّ مرّ السحاب، ولا تطلبوا أثرا بعد عين.

(42/1)

شي عن عمر ولعائشة فيه

: وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه أحزم الخلفاء، وكانت عائشة رضي الله عنها إذا ذكر عمر تقول: كان والله أحوزيا «1» نسيج وحده، قد أعدّ للأمور أقرانها «2». وقال المغيرة بن شعبة: ما رأيت أحدا هو أحزم من عمر: كان والله له فضل يمنع أن يخدع، وعقل يمنعه أن يخدع. وقال عمر: لست بحبّ والحبّ لا يخدعني «3».

عمر وعامل البحرين

: ومرو عمر ببنيان يبنى، بآجرٍ وجصّ، فقال: لمن هذا؟ قيل: لعاملك على البحرين. فقال: أبت الدراهم إلا أن تخرج أعناقها «4»، فأرسل إليه فشاطره ماله.

عمرو ابن أبي وقاص

: وكان سعد بن وقاص يقال له المستجاب، لقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اتقوا دعوة سعد». فلما شاطره عمر ماله، قال له سعد: لقد هممت. قال له عمر: بأن تدعو عليّ. قال: نعم. قال إذا لا تجدي بدعاء ربي شقيا.

ابن أبي وقاص وشاعر هجاء

: وهجا رجل من الشعراء سعد بن أبي وقاص يوم القادسية، فقال:
ألم تر أنّ الله أظهر دينه ... وسعد بباب القادسيّة معصم «5»
فأبنا وقد آمت نساء كثيرة ... ونسوة سعد ليس فيهنّ أيمّ «6»
فقال سعد: اللهم اكفني يده ولسانه. فقطعت يده وبكم لسانه.

(43/1)

عمرو أبو شعري وأبو هريرة والحارث

: ولما عزل عمر أبا موسى الأشعريّ عن البصرة وشاطره ماله وعزل أبا هريرة عن البحرين وشاطره ماله، وعزل الحارث بن كعب بن وهب وشاطره ماله، دعا أبا موسى فقال له: ما جاريتان بلغني أهما عندك، إحداهما تدعى عقيلة والأخرى من بنات الملوك؟ قال: أما عقيلة فجارية بيني وبين الناس، وأما التي هي من بنات الملوك فإني أردت بها غلاء الفداء. قال: فما جفنتان تعملان عندك؟ قال: رزقي شاة في كل يوم، فيعمل نصفها غدوة ونصفها عشية. قال: فما مكيلان بلغني أهما عندك؟ قال: أما أحدهما فأوئي أهلي به وديني، وأما الآخر فيتعامل الناس به. قال:
ادفع لنا عقيلة، والله إنك لمؤمن لا تغلّ أو فاجر مبلّ «1» ؛ ارجع إلى عملك عاقصا بقرنك مكتسعا بذنبك «2» ؛ والله إن بلغني عنك أمر لم أعدك.

ثم دعا أبا هريرة فقال له: هل علمت من حين أني استعملتك على البحرين وأنت بلا نعلين، ثم بلغني أنك ابتعت أفراسا بألف دينار وستمائة دينار؟ قال: كانت لنا أفراس تنأجت. وعطايا تلاحقت. قال: قد حسبت لك رزقك ومؤونتك وهذا فضل فأدّه. قال: ليس لك ذلك. قال: بلى والله وأوجع ظهرك! ثم قام إليه بالدرة فضربه حتى أدماه، ثم قال: إيت بها. قال: احتسبتها عند الله. قال: ذلك لو أخذتها من حلال وأديتها طائعا، أجنث من أقصى حجر بالبحرين يجي «3» الناس لك لا الله ولا للمسلمين؟ ما رجعت بك أميمة إلا لرعية الحمر. وأميمة أم أبي هريرة.
وفي حديث أبي هريرة قال: لما عزلني عمر عن البحرين قال لي: يا عدوّ الله وعدوّ كتابه، سرقت مال

الله؟ قال: فقلت: ما أنا عدو الله ولا عدو كتابه، ولكني عدو من عاداهما، وما سرقت مال الله. قال: فمن أين اجتمعت لك عشر آلاف؟ قلت:

(44/1)

خيل تناجت، وعطايا تلاحقت، وسهام تنابعت. قال: فقبضها مني، فلما صليت الصبح استغفرت لأمر المؤمنين. فقال لي بعد ذلك: ألا تعمل؟ قلت لا. قال: قد عمل من هو خير منك يوسف صلوات الله عليه. قلت: يوسف نبي وأنا ابن أميمة، أخشى أن يشتتم عرضي، ويضرب ظهري، وينزع مالي.

قال: ثم دعا عمر الحارث بن وهب، فقال: ما قلاص وأعبد بعثها بمائتي دينار؟ قال: خرجت بنفقة معي فتجرت فيها. فقال: أما والله ما بعثناكم لتتجروا في أموال المسلمين، أذها. فقال: أما والله لا عملت عملا بعدها! قال: انتظر حتى أستعملك!

بين عمر بن الخطاب وابن العاص

: وكتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص. وكان عامله على مصر: من عبد الله عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص، سلام عليك، أما بعد. فإنه بلغني أنه فشت لك فاشية «1» من خيل وإبل وغنم وبقر وعبيد، وعهدي بك قبل ذلك أن لا مال لك. فكتب إلي من أين أصل هذا المال ولا تكتمه.

فكتب إليه: من عمرو بن العاص إلى عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد: فإنه أتاني كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه ما فشا لي، وأنه يعرفني قبل ذلك لا مال لي. وإني أعلم أمير المؤمنين أبي بأرض السعر فيه رخيص، وأني أعالج من الحرفة والزراعة ما يعالج أهله، وفي رزق أمير المؤمنين سعة. والله لو رأيت خيانتك حلالا ما خنتك؛ فأقصر أيها الرجل، فإن لنا أحسابا هي خير من العمل لك، إن رجعنا إليها عشنا بها. ولعمري إن عندك من لا يذم معيشتته ولا تدم له [وذكرت أن عندك من المهاجرين الأولين من هو خير مني] «2» فأتى كان ذلك ولم يفتح قفلك ولم نشركك في عملك؟

(45/1)

فكتب إليه عمر: أما بعد، فإني والله ما أنا من أساطيرك التي تسطر ونسقك الكلام في غير مرجع، وما يغني عنك أن تزكي نفسك. وقد بعثت إليك محمد بن مسلمة فشاطره مالك؛ فإنكم أيها الزهط الأمراء جلستم على عيران المال، لم يعوزكم عذر، تجمعون لأبنائكم، وتمهدون لأنفسكم. أما إنكم تجمعون العار وتورثون النار. والسلام.

فلما قدم عليه محمد بن مسلمة صنع له عمرو طعاما كثيرا. فأبى محمد بن مسلمة أن يأكل منه شيئا. فقال له عمرو: أتحرمون طعامنا؟ فقال: لو قدمت إلي طعام الضيف أكلته، ولكنك قدمت إلي طعاما هو مقدمة شر. والله لا أشرب عندك ماء. فاكتب لي كل شيء هو لك ولا تكتمه. فشاطره ماله بأجمعه، حتى بقيت نعلاه، فأخذ إحداها وترك الأخرى! فغضب عمرو بن العاص فقال: يا محمد بن مسلمة، قبح الله زمانا عمرو بن العاص لعمر بن الخطاب فيه عامل. والله إني لأعرف الخطاب يحمل فوق رأسه حزمة من الخطب وعلى ابنه مثلها، وما منهما إلا في نمرة «1» لا تبلغ رسغيه؛ والله ما كان العاص بن وائل يرضى أن يلبس الديداج مزورا «2» بالذهب. قال له محمد: اسكت، والله إن عمر لخير منك، وأما أبوك وأبوه ففي النار، والله لولا الزمان الذي سبقك به لألقيت مقتعد شاة يسرك غزرها «3» ويسوءك بكؤها «4». فقال عمرو: هي عندك بأمانة الله. فلم يخبر بها عمر.

وأبو سفيان في مال وأدهم

: ومن حديث زيد بن أسلم عن أبيه قال: بعث معاوية إلى عمر بن الخطاب وهو على الشام بمال وأدهم، وكتب إلى أبيه أبي سفيان أن يدفع ذلك إلى عمر - يعني بالأدهم القيد - وكتب إلى عمر يقول: إني وجدت في حصون الروم جماعة من أسارى

(46/1)

المسلمين مقبدين بقيود حديد - أنفذت منها هذا ليراه أمير المؤمنين - وكانت العرب قبل ذلك تقيد بالقيود. قال جرير: ... أو لجدل الأدهم «1». فخرج الرسول حتى قدم على أبي سفيان بالمال والأدهم. قال: فذهب أبو سفيان بالأدهم والكتاب إلى عمر واحتبس المال لنفسه. فلما قرأ عمر الكتاب، قال: فأين المال يا أبا سفيان؟ قال: كان علينا دين ومعونة، ولنا في بيت المال حق، فإذا أخرجت لنا شيئا قاصصتنا به. فقال عمر: اطرحوه في

الأدهم حتى يأتي بالمال. قال:

فأرسل أبو سفيان من أتاه بالمال. فأمر عمر بإطلاقه من الأدهم. قال: فلما قدم الرسول على معاوية قال له: رأيت أمير المؤمنين أعجب بالأدهم؟ قال: نعم، وطرح فيه أباك. قال: ولم؟ قال: جاءه بالأدهم وحبس المال؛ قال: إي والله، والخطاب لو كان لطرحة فيه!

عمر وأبو سفيان في مال حاول إخفاءه

: زار أبو سفيان معاوية بالشام، فلما رجع من عنده دخل على عمر فقال: أجزنا أبا سفيان. قال: ما أصبنا شيئاً فنجزك به. فأخذ عمر خاتمة فبعث به إلى هند، وقال للرسول: قال لها: يقول لك أبو سفيان: انظري إلى الخرجين اللذين جئت بهما فأحضرهما. فما لبث عمر أن أتى بخرجين فيهما عشرة آلاف درهم، فطرحهما عمر في بيت المال. فلما ولي عثمان ردهما عليه. فقال أبو سفيان: ما كنت لأخذ مالا عابه عليّ عمر.

عمر وعتبة في مال وجده معه

: ولما ولي عمر بن الخطاب عتبة بن أبي سفيان الطائف وصدقاتها ثم عزله، تلقاه في بعض الطريق، فوجد معه ثلاثين ألفاً، فقال: أنى لك هذا؟ قال: والله ما هو لك

(47/1)

ولا للمسلمين، ولكنه مال خرجت به لضبعة أشتريها. فقال عمر: عاملنا وجدنا معه مالا، ما سبيله إلا بيت المال. ورفعته؛ فلما ولي عثمان قال لعتبة: هل لك في هذا المال، فإني لم أر لأخذ ابن الخطاب فيه وجهاً؟ قال: والله إن بنا إليه حاجة، ولكن لا تردّ علي من قبلك فيردّ عليك من بعدك.

عمر وأبو سفيان في رجل دعا بدعاء الجاهلية

: القحذمي «1» قال: ضرب عمر رجلاً بالدرّة، فنادى: يا قصي! فقال أبو سفيان: يا بن أخي، لو قبل اليوم تنادي قصياً لأتتك منها الغطاريف «2». فقال له عمر: اسكت لا أبالك. قال أبو سفيان: ها، ووضع سبّابته على فيه.

كتاب يزيد إلى مروان يأمره بالبيعة

: خليفة بن خياط قال: كتب يزيد بن الوليد المعروف بالناقص - وإنما قيل له الناقص لفرط كماله - إلى مروان بن محمد - وبلغه عنه تلكم في بيعته - : أما بعد، فإني أراك تقدّم رجلاً وتؤخر أخرى. فإذا أتاك كتابي هذا فاعتمد على أيهما شئت والسلام. فأنته بيعته.

أبو غسان وأهل مرو حين منعوا المال

: ولما منع أهل مرو أبا غسان الماء وزوجته «3» إلى الصحارى، كتب إليهم أبو غسان:
إلى بني الأستاه من أهل مرو؛ ليمسني الماء أو لتصبّحنكم الخيل. فما أمسى حتى أتاه الماء. فقال:
الصدق ينيء عنك لا الوعيد.

كتاب ابن طاهر إلى الحسن التغلبي

: وكتب عبد الله بن طاهر الخراساني إلى الحسن بن عمر التغلبي: أما بعد، فقد بلغني ما كان من قطع
الفسقة الطريق ما بلغ، فلا الطريق تحمي، ولا اللصوص

(48/1)

تكفي، ولا الرعية ترضي، وتطمع بعد هذا في الزيادة! إنك لمفسح الأمل. وإيم الله لتكفيني من قبلك
أو لأوجهن إليك رجالا لا تعرف مرة من جهم ولا عدي من رهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

كتاب الحجاج إلى قتيبة في أمر وكيع

: وكتب الحجاج بن يوسف إلى قتيبة بن مسلم واليه بخراسان: أما بعد، فإن وكيع ابن حسان كان
بالبصرة منه ما كان، ثم صار لصا بسجستان، ثم صار إلى خراسان، فإذا أتاك كتابي هذا: فاهدم
بنائه، واحلل لواءه. وكان على شرطة قتيبة فعزله.
وولي الضبي عم مسعود بن الخطاب.

كتاب الحجاج إلى قوم يفسدون في الأرض

: وبلغ الحجاج أن قوما من الأعراب يفسدون الطريق، فكتب إليهم: أما بعد، فإنكم قد استخفتمكم
الفتنة، فلا عن حق تقاتلون. ولا عن منكر تنهون، وإني أهم أن ترد عليكم مني خيل تنسف الطارف
والتالد «1»، وتدع النساء أيامي والأبناء يتامى والديار خرابا! فلما أتاهم كتابه كفوا عن الطريق.
النعرض للسلطان والردّ عليه

قالت الحكماء: من تعرض للسلطان أرادته، ومن تطامن «2» له تخطاه. وشبهوه في ذلك بالريح
العاصفة التي لا تضر بما لان لها من الشجر ومال معها من الحشيش. وما استهدف لها من الدوح
العظام قصفته. قال الشاعر:

إنّ الرياح إذا ما أعصفت قصفت ... عيدان نبع ولا يعبان بالرّم «3»

وقال حبيب بن أوس، وهو أحسن ما قيل في السلطان:

(49/1)

هو السَّيْلُ إن واجهته انقذت طوعه ... وتقتاده من جانبه فيتبع
وقال آخر:

هو السَّيْفُ إن لا ينته لان متنه ... وحداه إن خاشنته خشنان

بين معاوية وأبي الجهم

: وقال معاوية لأبي الجهم العدوي: أنا أكبر أم أنت؟ فقال: لقد أكلت في عرس أمك يا أمير
المؤمنين. قال: عند أي أزواجها؟ قال: عند حفص بن المغيرة. قال: يا أبا الجهم، إياك والسلطان، فإنه
يغضب غضب الصبي ويأخذ أخذ الأسد.

وأبو الجهم هو القاتل في معاوية:

ونغضبه لنخبر حالته ... فنخبر منهما كرما ولينا

ثميل على جوانبه كأننا ... ثميل إذا ثميل على أبنينا

معاوية وعقبة الأسدي

: وقدم عقبة الأسدي على معاوية ودفع إليه رقعة فيها هذه الأبيات:

معاوي إننا بشر فأسجح ... فلسنا بالجبال ولا الحديد «1»

أكلتم أرضنا فجردتموها ... فهل من قائم أو من حصيد

أتطمع بالخلود إذا هلكننا ... وليس لنا ولا لك من خلود

فهنا أمة هلكت ضياعا ... يزيد أميرها وأبو يزيد

فدعا به معاوية فقال: ما جرأك علي؟ قال: نصحتك إذا غشوك؛ وصدقتك إذ كذبوك. فقال: ما

أظنك إلا صادقاً، وقضى حوائجه.

ومن حديث زياد عن مالك بن أنس قال: خطب أبو جعفر المنصور، فحمد الله وأنشئ عليه ثم قال:

أيها الناس، اتقوا الله. فقال إليه رجل من عرض الناس فقال:

(50/1)

أذكرك الله الذي ذكرتنا به يا أمير المؤمنين. فأجابه أبو جعفر بلا فكرة ولا روية:
سمعا وطاعة لمن ذكر بالله، وأعوذ بالله أن اذكر به وأنساه فتأخذني العزة بالإثم ل قد ضللت إذا وما
أنا من المهتدين

«1». وأما أنت، فو الله ما الله أردت بها، ولكن ليقال: قال فعوقب فصبر! وأهون بها لو كانت،
وأنا أحذرکم أيها الناس أختها؛ فإن الموعدة علينا نزلت، ومنا أخذت. ثم رجع إلى موضعه من
الخطبة.

الرشيد ومعارض عليه في خطبته

: وقام رجل إلى هارون الرشيد وهو يخطب بمكة، فقال: كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون
«2» فأمر به فضرب مائة سوط، فكان يئن الليل كله ويقول:
الموت! الموت. فأخبر هارون أنه رجل صالح، فأرسل إليه فاستحلّه، فأحلّه.

الوليد ومعارض عليه في خطبته

: المدائني قال: جلس الوليد بن عبد الملك على المنبر يوم الجمعة حتى اصفرت الشمس، فقام إليه
رجل فقال: يا أمير المؤمنين، إن الوقت لا ينتظرک، وإنّ الرب لا يعذرک. قال: صدقت، ومن قال
مثل مقاتلتك فلا ينبغي له أن يقوم مثل مقامك.
من ها هنا من أقرب الحرس يقوم إليه فيضرب عنقه؟

مخاطر بين معاوية وزیاد

: الرياشي عن الأصمعي قال: خاطر رجل رجلا أن يقوم إلى معاوية إذا سجد فيضع يده على كفله
ويقول: سبحان الله يا أمير المؤمنين! ما أشبه عجيزتك بعجيزة أمك هند! ففعل ذلك. فلما انفتل
معاوية عن صلاته قال:
يا بن أخي، إن أبا سفيان كان إلى ذلك منها أميل؛ فخذ ما جعلوا لك. فأخذه.

(51/1)

ثم خاطر أيضا أن يقوم إلى زياد وهو في الخطبة فيقول له: أيها الأمير، من أبوك؟ ففعل. فقال له زياد:
هذا يخبرك - وأشار إلى صاحب الشرطة - فقدّمه فضرب عنقه. فلما بلغ ذلك معاوية قال: ما قتله
غيري، ولو أدبته على الأولى ما عاد إلى الثانية.
وخاطر رجل أن يقوم إلى عمرو بن العاص وهو في الخطبة فيقول: أيها الأمير، أمك؟ ففعل. فقال له:

النابعة بنت عبد الله، أصابها رماح العرب فبيعت فبعكاظ، فاشتراها عبد الله بن جدعان للعاص بن وائل، فولدت فأنجبت، فإن كانوا جعلوا لك شيئا فخذ.

بين معاوية وخرم

: دخل خرم الناعم على معاوية بن أبي سفيان: فنظر معاوية إلى ساقه فقال: أيّ ساقين! لو أنهما على جارية! فقال له خرم: في مثل عجيزتك يا أمير المؤمنين! قال: واحدة بأخرى والباديء أظلم.

تحلم السلطان على أهل الدين والفضل إذا اجترءوا عليه

أبو جعفر مع مالك وابن طاوس

: زياد عن مالك بن أنس قال: بعث أبو جعفر المنصور إلي وإلى ابن طاوس؛ فأتيناها فدخلنا عليه، فإذا هو جالس على فرش قد نصّدت، وبين يديه أنطاع قد بسطت، وجلالوزة «1» بأيديهم السيوف يضربون الأعناق، فأومأ إلينا أن اجلسا، فجلسنا. فأطرق عنا طويلا، ثم رفع رأسه والتفت إلى ابن طاوس فقال له: حدّثني عن أبيك. قال: نعم، سمعت ابي يقول: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «إن أشد الناس عذابا

(52/1)

يوم القيامة رجل أشركه الله في حكمه فأدخل عليه الجور في عدله». فأمسك ساعة؛ قال مالك: فضممت ثيابي من ثيابه مخافة أن يملأني من دمه. ثم التفت إليه أبو جعفر فقال: عظمي يا بن طاوس قال: نعم يا أمير المؤمنين، [إن] الله تعالي يقول أَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ. إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ. الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ. وَثَمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ. وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ. الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ. فَأَكْتَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ. فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ. إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ

«1» قال مالك:

فضممت ثيابي من ثيابه مخافة أن يملأني من دمه. فأمسك ساعة حتى اسود ما بيننا وبينه، ثم قال: يا بن طاوس ناولني هذه الدواة. فأمسك عنه. ثم قال: ناولني هذه الدواة. فأمسك عنه؛ فقال: ما يمنعك أن تناولنيها؟ قال: أخشى أن تكتب بما معصية الله فأكون شريكك فيها. فلما سمع ذلك قال: قوما عني. قال ابن طاوس: ذلك ما كنا نبغي منذ اليوم.

قال مالك: فما زلت أعرف لابن طاوس فضله.

أبو هريرة ومروان حين أبطأ بالجمعة

: أبو بكر بن أبي شيبه قال: قام أبو هريرة إلى مروان بن الحكم وقد أبطأ بالجمعة فقال له: أتظل عند ابنة فلان تروحك بالمراوح وتسقيك الماء البارد، وأبناء المهاجرين والأنصار يصهرون من الحر؟ لقد هممت أن أفعل وأفعل، ثم قال: اسمعوا من أميركم.

بين أبي جعفر وابن أبي ذئب

: فرج بن سلام عن أبي حاتم عن الأصمعي قال: حدثني رجل من أهل المدينة كان ينزل بشق بني زريق، قال: سمعت محمد بن إبراهيم يحدث قال: سمعت أبا جعفر بالمدينة وهو ينظر فيما بين رجل من قريش وأهل بيت من المهاجرين بالمدينة ليسوا من

(53/1)

قريش؛ فقالوا لأبي جعفر: اجعل بيننا وبينه ابن أبي ذئب. فقال أبو جعفر لابن أبي ذئب: ما تقول في بني فلان؟ قال: أشرار من أهل بيت أشرار. قالوا: أسأله يا أمير المؤمنين عن الحسن بن زيد. وكان عامله على المدينة. قال: ما تقول في الحسن بن زيد؟ قال: يأخذ بالإحنة «1» ويقضي بالهوى. فقال الحسن: يا أمير المؤمنين، والله لو سألته عن نفسك لرمأك بداهية أو وصفك بشر، قال: ما تقول في؟ قال: أعفني.

قال: لا بد أن تقول. قال: لا تعدل في الرعية، ولا تقسم بالسوية. قال: فتغير وجه أبي جعفر. فقال إبراهيم بن يحيى بن محمد بن علي صاحب الموصل: طهرني بدمه يا أمير المؤمنين. قال: اقعد يا بني، فليس في دم رجل يشهد أن لا إله إلا الله طهور.

قال: ثم تدارك ابن أبي ذئب الكلام فقال: يا أمير المؤمنين، دعنا مما نحن فيه؛ بلغني أنّ لك ابنا صالحا بالعراق، يعني المهدي قال: أما إنك قلت ذلك، إنه الصّوام القوّام البعيد ما بين الطرفين «2» قال: ثم قام ابن أبي ذئب فخرج، فقال أبو جعفر: أما والله ما هو بمستوثق العقل، ولقد قال بذات نفسه. قال الاصمعي: ابن أبي ذئب، من بني عامر بن لؤي، من أنفسهم.

المأمون والحارث بن مسكين

: قال: ودخل الحارث بن مسكين على المأمون فسأله عن مسألة فقال: أقول فيها كما قال مالك بن أنس لأبيك هارون الرشيد، وذكر قوله فلم يعجب المأمون. فقال: لقد تيسرت فيها وتيسر مالك. قال

الحارث بن مسكين: فالسامع يا أمير المؤمنين من التيسين أتيس؛ فتغير وجه المأمون. وقام الحارث بن مسكين فخرج وتندّم على ما كان من قوله، فلم يستقرّ في منزله حتى أتاه رسول المأمون، فأيقن بالشر ولبس ثياب أكفانه؛ ثم أقبل حتى دخل عليه، فقربه المأمون من نفسه، ثم أقبل عليه بوجهه فقال له: يا هذا، إن الله قد أمر من هو خير منك بإلانة القول لمن هو شرّ مني، فقال

(54/1)

لنبيه موسى صلى الله عليه وسلم إذ أرسله إلى فرعون: فقولاً له قولاً لئنا لعلّه يتذكّر أو يخشى
«1» قال: يا أمير المؤمنين، أبوء «2» بالذنب، وأستغفر الرب. قال: عفا الله عنك، انصرف إذا شئت.

المنصور وأبو سفيان الثوري

: وأرسل أبو جعفر إلى سفيان الثوري، فلما دخل عليه قال: عطني ابا عبد الله.
قال: وما عملت فيما علمت فأعظك فيما جهلت؟ فما وجد له المنصور جواباً.

أبو النضر وعامل للخليفة

: ودخل أبو النضر سالم مولي عمر بن عبد الله على عامل للخليفة، فقال له أبا النضر، إننا تأتينا كتب من عند الخليفة فيها وفيها، ولا نجد بداً من إنفاذها، فما ترى؟ قال له أبو النضر؛ قد أتاك كتاب من الله تعالى قبل كتاب الخليفة؛ فأيهما اتبعت كنت من أهله.

ونظير هذا القول ما رواه الأعمش عن الشعبي. أنّ زيادا كتب إلى الحكم بن عمرو الغفاري، وكان على الصائفة «3»: إن أمير المؤمنين معاوية كتب إليّ يأمرني أن أصطفي له الصفراء والبيضاء، فلا تقسم بين الناس ذهباً ولا فضة [واقسم ما سوى ذلك] فكتب إليه: «إني وجدت كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين. والله لو أن السموات والأرض كانتا رتقا «4» على عبد فاتقى الله لجعل له منها مخرجا» ثم نادى في الناس فقسّم فيهم ما اجتمع له من الفيء.

ابن هبيرة والحسن البصري والشعبي

: ومثله قول الحسن حين أرسل إليه ابن هبيرة وإلى الشعبي فقال له: ما ترى أبا سعيد في كتب تأتينا من عند يزيد بن عبد الملك فيها بعض ما فيها، فإن أنفذها

(55/1)

وافقت سخط الله، وإن لم أنفذها خشيت على دمي؟ فقال له الحسن: هذا عندك، الشعبي فقيه الحجاز. فسأله فرقق له الشعبي وقال له: قارب وسدد، فإنما أنت عبد مأمور، ثم التفت ابن هبيرة إلى الحسن وقال: ما تقول يا أبا سعيد؟ فقال الحسن: يا ابن هبيرة، خف الله في يزيد ولا تخف يزيد في الله. يا ابن هبيرة، إن الله مانعك من يزيد وإن يزيد لا يمنعك من الله. يا ابن هبيرة، لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، فانظر ما كتب إليك فيه يزيد فاعرضه على كتاب الله تعالى، فما وافق كتاب الله تعالى فأنفذه، وما خالف كتاب الله فلا تنفذه؛ فإن الله أولى بك من يزيد، وكتاب الله أولى بك من كتابه. فضرب ابن هبيرة بيده على كتف الحسن وقال: هذا الشيخ صدقني ورب الكعبة. وأمر للحسن بأربعة آلاف، وللشعبي بألفين؛ فقال الشعبي: رفقنا فرقق لنا. فأما الحسن فأرسل إلى المساكين، فلما اجتمعوا فرققها، وأما الشعبي فإنه قبلها وشكر عليها.

معاوية والأحنف في استخلاف يزيد

: ونظير هذا: قول الأحنف بن قيس لمعاوية حين شاوره في استخلاف يزيد. فسكت عنه، فقال: مالك لا تقول؟ فقال: إن صدقناك أسخطناك، وإن كذبتناك أسخطنا الله، فسخط أمير المؤمنين أهون علينا من سخط الله! فقال له: صدقت.

كتاب أبي الدرداء إلى معاوية

: وكتب أبو الدرداء إلى معاوية: أما بعد. فإنه من يلتمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس.

كتاب عائشة إلى معاوية

: وكتبت عائشة رضي الله عنها إلى معاوية: أما بعد فإنه من يعمل بمساخط الله يصير حامده من الناس ذامًا له. والسلام.

(56/1)

هشام وناصر نصحه بأربع

: أبو الحسن المدائني قال: خرج الزهري يوما من عند هشام بأربع، قيل له: وما هن؟ قال: دخل رجل على هشام فقال: يا أمير المؤمنين، احفظ عني أربع كلمات فيهن صلاح ملكك واستقامة رعيتك.

فقال: هاتهن. فقال: لا تعدنّ عدة لا تثق من نفسك بإجرازها. قال: هذه واحدة فهات الثانية. قال لا يغرّنك المرتقى وإن كان سهلا إذا كان المنحدر وعرا. قال: هات الثالثة. قال: واعلم أن للأعمال جزاء فاتق العواقب. قال: هات الرابعة. قال: واعلم أن الأمور بغتات فكن على حذر. قعد معاوية بالكوفة يبايع الناس على البراءة من علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين، نطيع أحياءكم ولا نتبرأ من موتاكم! فالتفت إلى المغيرة فقال له: هذا رجل فاستوص به خيرا.

عبد الملك والحارث في ابن الزبير

: وقال عبد الملك بن مروان للحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة: ما كان يقول الكذاب في كذا وكذا؟ - يعني ابن الزبير -؛ فقال: ما كان كذابا. فقال له يحيى بن الحكم: من أمك يا حار؟ قال: هي التي تعلم. قال له عبد الملك: اسكت فهي أنجب من أمك.

الوليد ابن عبد الملك والزهري

: دخل الزهري على الوليد بن عبد الملك، فقال له: ما حديث يحدثنا به أهل الشام؟ قال: وما هو يا أمير المؤمنين؟ قال يحدثوننا أن الله إذا استرعى عبدا رعية كتب له الحسنات ولم يكتب له السيئات. قال: باطل يا أمير المؤمنين، أنبيّ خليفة أكرم على الله أم خليفة غير نبي؟ قال بل نبيّ خليفة. قال: فإن الله يقول لنبيه داود: يا داودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ هُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ

(57/1)

بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ

«1» فهذا وعيد يا أمير المؤمنين لنبيّ خليفة؛ فما ظنك بخليفة غير نبيّ؟ قال: إن الناس ليغروننا عن ديننا.

بين ابن يسار وعبد الملك

: الأصمعي عن إسحاق بن يحيى عن عطاء بن يسار قال: قلت للوليد بن عبد الملك: قال عمر بن الخطاب: «وددت أني خرجت من هذا الأمر كفافا» «2» لا علي ولا لي». فقال: كذبت. فقلت: أو كذبت! فما أفلت منه إلا بجريرة الذنن «3».

المشورة

قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ماندم من استشار، ولا شقي من استخار» .

من كلام الله تعالى

: وقد أمر الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام بمشاورة من هو دونه في الرأي، فقال: وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ؛ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ
«4» .

عثمان وثقيف لما همت بالارتداد

: ولما همت ثقيف بالارتداد بعد موت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استشاروا عثمان بن أبي العاصي، وكان مطاعا فيهم؛ فقال لهم لا تكونوا آخر العرب إسلاما وأولهم ارتدادا؛ فنفعهم الله برأيه.

لبعض الحكماء فيما ينفع ويضر

: وسئل بعض الحكماء: أيّ الأمور أشدّ تأييدا للفتى وأيها أشدّ إضرارا به؟ فقال: أشدها تأييدا له ثلاثة أشياء: مشاورة العلماء، وتجربة الأمور، وحسن الثبّت.

(58/1)

وأشدها إضرارا به ثلاثة أشياء: الاستبداد، والتهاون، والعجلة.

بين حكيم وحكيم

: وأشار حكيم على حكيم برأي فقبله منه. فقال له: لقد قلت بما يقول به الناصح الشفيق الذي يخلط حلو كلامه بمرّه، وسهله بوعره، ويحرك الإشفاق منه ما هو ساكن من غيره، وقد وعيت النصح وقبلته؛ إذ كان مصدره من عند من لا يشكّ في مودّته وصفاء غيبه ونصح جيبه. وما زلت بحمد الله إلى الخير طريقا واضحا، ومنارا بيّنا.

للراسبي في الرأي الفطير

: وكان عبد الله بن وهب الراسبي يقول: إياكم والرأي الفطير. «1» وكان يستعيز بالله من الرأي الدبري «2» الحمير.

لعلي في رأي الشيخ

: وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: رأي الشيخ أحسن من مشهد الغلام.
لابن هبيرة يوصي ابنه

: وأوصى ابن هبيرة ولده فقال: لا تكن أول مشير، وإياك والهوى والرأي الفطير.
ولا تشيرنّ على مستبد [ولا على وغد ولا على مسكون ولا على لجوج، وخف الله في موافقة هوى
المستشير] «3»، فإن التماس موافقته لؤم، والاستماع منه خيانة.

(59/1)

لعامر بن الظرب

: وكان عامر بن الظرب حكيم العرب يقول: دعوا الرأي يغبّ حتى يختمر، وإياكم والرأي الفطير.
يريد الأناة في الرأي والتثبت فيه.
ومن أمثالهم في هذا قولهم: لا رأي لمن لا يطاع.

للمهلب في الرأي

: وكان المهلب يقول: إن من البليّة أن يكون الرأي بيد من يملكه دون من يبصره.

لعبسي في الحزم

: العتبي قال: قيل لرجل من عبس: ما أكثر صوابكم؟ قال: نحن ألف رجل وفينا حازم واحد، فنحن
نشاوره، فكأّتنا ألف حازم.
قال الشاعر:

الرأي كالليل مسودّ جوانبه ... والليل لا ينجلي إلاّ بإصباح
فاضم مصابيح آراء الرجال إلى ... مصباح رأيك تزود ضوء مصباح

عبد الله بن عبد الأعلى بعد سخط الخليفة عليه

: العتبي قال: أخبرني من رأى عبد الله بن عبد الأعلى وهو أول داخل على الخليفة وآخر خارج من
عنده. قال: ثم رأيتُه وإنه ليتقي كما يتقي البعير الأجر، فقال لي:
يا أخا العراق، اتّهمنا القوم في سريرتنا، ولم يقبلوا منا علانيتنا، ومن ورائهم وورائنا حكم عدل.

لسبيع في أهل الإمامة

: ومن أحسن ما قيل فيمن أشير عليه فلم يقبل، قول سبيع لأهل الإمامة بعد إيقاع

(60/1)

خالد بهم: يا بني حنيفة، بعدا لكم كما بعدت عاد وثمود. «1» أما والله لقد أنبأتكم بالأمر قبل وقوعه، كأني أسمع جرسه وأبصر غيبه، ولكنكم أبيتم النصيحة فاجتنتيم الندامة. وإني لما رأيتمكم تنهون التصيح وتسفّهون الحليم، استشعرت منكم اليأس وخفت عليكم البلاء. والله ما منعكم الله التوبة ولا أخذكم على غرة، «2» ولقد أمهلكم حتى ملّ الواعظ ووهن الموعوظ، وكنتم كأنما يعني بما أنتم فيه غيركم، فأصبحتم وفي أيديكم من تكذيبي التصديق، ومن نصيحتي الندامة؛ وأصبح في يدي من هلاككم البكاء، ومن ذلكم الجزع. وأصبح ما فات غير مردود، وما بقي غير مأمون.
وقال القطامي في هذا المعنى:

ومعصية الشفيق عليك ممّا ... يزيدك مرّة منه استماعا
وخير الأمر ما استقبلت منه ... وليس بأن تتبّعه أتباعا
كذلك وما رأيت الناس إلا ... إلى ما جرّ غاويهم سراعا
تراهم يغمزون من استرّكوا ... ويجتنبون من صدق المصاعا «3»
وكان يقال: لا تستشر معلما ولا حائكا ولا راعي غنم ولا كثير القعود مع النساء.
وأنشد في المعلمين:

وكيف يرحى العقل والرأي عند من ... يروح إلى أنثى ويغدو إلى طفل
وكان يقال: لا تشاور صاحب حاجة يريد قضاءها.
وكان يقال: لا رأي لحاقن ولا حازق: وهو الذي ضغطه الحف. ولا الحاقب وهو الذي يجد ررّا في بطنه.

وينشد في الرأي بعد فوته:
وعاجز الرأي مضياغ لفرصته ... حتى إذا فات أمر عاتب القدرا

(61/1)

شعر للمؤلف

: ومن قولنا في هذا المعنى:
فلئن سمعت نصيحتي وعصيتيها ... ما كنت أول ناصح معصي
وقال حبيب في بني تغلب عند إيقاع مالك بن طوق بهم:
لم يألکم مالک صفحا ومغفرة ... لو كان ينفخ قين الحيّ في فحم «1»

حفظ الأسرار

قالت الحكماء: صدرك أوسع لسرك من صدر غيرك.
وقالوا: سرّك من دمك. يعنون أنه ربما كان في إفشائه سفك دمك.
وكتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف:
ولا تفش سرّك إلّا إليك ... فإنّ لكلّ نصيح نصيحا
وإني رأيت غواة الرجا ... ل لا يتركون أديما صحيحا «2»
وقالت الحكماء: ما كنت كاتمته من عدوك فلا تطلع عليه صديقك.
وقال عمرو بن العاص: ما استودعت رجلا سرّاً فأفشاه فلمته؛ لأنني كنت أضيق صدرا منه حين
استودعته إياه حين أفشاه.
وقال الشاعر:

إذا ضاق صدر المرء عن سرّ نفسه ... فصدر الذي يستودع السرّ أضيق

لبعض الأعراب

: قيل لأعرابي: كيف كتمانك للسر؟ قال: أجحد المخبر وأحلف للمستخبر.

(62/1)

وقيل لآخر: كيف كتمانك للسر؟ قال: ما قلبي له إلا قبر.
وقال المأمون: الملوك تحتمل كل شيء إلا ثلاثة أشياء: القدح في الملوك، وإفشاء السر، والتعرّض
للحرّم.
وقال الوليد بن عتبة لأبيه: إن أمير المؤمنين أسرّ إليّ حديثا، أفلا أحدثك به؟
قال لا، يا بني، إنه من كتم سره كان الخيار له، [ومن أفشاه كان الخيار عليه «1»] فلا تكن مملوكا
بعد أن كنت مالكا.

ملك من ملوك العجم استشار وزيريه

: وفي التاجر أنّ بعض ملوك العجم استشار وزيريه، فقال أحد هما: لا ينبغي للملك أن يستشير منّا
أحدا إلا خاليا به؛ فإنه أموت للسر، وأحزم للرأي، وأجدر بالسلامة، وأعفى لبعضنا من غائلة بعض؛
«2» فإن إفشاء السرّ إلى رجل واحد أوثق من إفشائه إلى اثنين، وإفشاءه إلى ثلاثة كإفشائه إلى
جماعة؛ لأن الواحد رهن بما أفشي إليه، والثاني مطلق عنه ذلك الرهن. والثالث علاوة فيه. فإذا كان

السر عند واحد كان أخرى أن لا يظهره رغبة ورهبة، وإن كان عند اثنين دخلت على الملك الشبهة، واتسعت على الرجلين المعارض. فإن عاقبهما عاقب اثنين بذنب واحد، وإن اتهمهما اتهم بريئنا بخيانة مجرم، وإن عفا عنهما كان العفو عن أحدهما ولا ذنب له، وعن الآخر ولا حجة معه.

لعمر بن ابي ربيعة في السر

: ومن أحسن ما قالت الشعراء في السر قول عمر بن أبي ربيعة:

فقلت وأرخت جانب الستر: إنما ... معي فتحدّث غير ذي رقية أهلي

فقلت لها: ما بي لهم من ترقب ... ولكنّ سرّي ليس يحمله مثلي

(63/1)

وقال أبو محجن الثقفي:

لا تسألني الناس عن مالي وكثرتة ... وسألني الناس عن بأسني وعن خلقي

قد أطعن الطعنة التجلاء عن عرض ... وأكنم السرّ فيه ضربة العنق «1»

وقال الحطينة يهجو:

أغربالا إذا استودعت سرا ... وكانونا على المتحدّثينا

الإذن

بين زياد وحاجبه

: قال زياد لحاجبه عجلان: كيف تأذن للناس؟ قال: على البيوتات، ثم على الأسنان، ثم على

الآداب. قال: فمن تؤخّر؟ قال: من لا يعبأ الله بهم. قال: ومن هم؟ قال: الذين يلبسون كسوة

الشتاء في الصيف وكسوة الصيف في الشتاء.

لسعيد بن عتبة في بعده عن الآذن

: وكان سعيد بن عتبة بن حصين إذا حضر باب أحد من السلاطين جلس جانبا؛ فقبل له: إنك

لتتباعد من الآذن جهدك؛ قال: لأن أدعى من بعيد خير من أن أقصى من قريب. ثم قال «2»:

وإنّ مسيري في البلاد ومنزلي ... هو المنزل الأقصى إذا لم أقرب

ولست وإن أدنيت يوما ببائع ... خلاقني ولا ديني ابتغاء التّجّب

وقد عدّه قوم تجارة رابح ... ويمعني من ذاك ديني ومنصبي

وقال آخر:

رأيت أناسا يسرعون تبادرا ... إذا فتح البواب بابك إصبعا
ونحن جلوس ساكنون رزانة ... وحلما إلى أن يفتح الباب أجمعا «3»

(64/1)

بين معاوية وابن الأشعث في الدخول على الملوك

: ووقف الأحنف بن قيس ومحمد بن الأشعث بباب معاوية، فأذن للأحنف، ثم أذن لابن الأشعث، فأسرع في مشيته حتى تقدم الأحنف ودخل قبله. فلما رآه معاوية غمّه ذلك وأحنقه، فالتفت إليه فقال: والله إني ما أذنت له قبلك وأنا أريد أن تدخل قبله، وإنا كما نلي أموركم نلي ادابكم، ولا يزيد متزيّد في خطوه إلا لنقص يجده من نفسه.

وقال همام الرقاشي «1» :

أبلغ أبا مسمع عني مغلغلة ... وفي العتاب حياة بين أقوام
قدّمت قبلي رجالا ما يكون لهم ... في الحقّ أن يلجوا الأبواب قدّامى
لو عدّ قبر وقبر كنت أقربهم ... قربي وأبعدهم من منزل الدّام
حتى جعلت إذا ما حاجة عرضت ... بباب قصرك أدلوها بأقوام «2»

لمعاوية في آذنه

: قيل لمعاوية: إن آذذك يقدم معارفه في الإذن على وجوه الناس. قال: وما عليه؟
إنّ المعرفة لتتفع في الكلب العقور والجمل الصّئول «3» ؛ فكيف في رجل حسيب ذي كرم ودين؟

للحكماء في الوصول إلى المراد

: وقالت الحكماء: لا يواظب أحد على باب السلطان فيلقي عن نفسه الأنفة ويحتمل الأذى ويكظم الغيظ إلا وصل إلى حاجته.
وقالت الحكماء: لا يواظب أحد على باب السلطان فيلقي عن نفسه الأنفة ويحتمل الأذى ويكظم الغيظ إلا وصل إلى حاجته.
وقالوا: من أدمن قرع الباب يوشك أن يفتح له.

(65/1)

وقال الشاعر «1» :

كم من فتى قصّرت في الرزق خطوته ... أصبته بسهام الرزق قد فلجا
إنّ الأمور إذا انسدت مسالكها ... فالصبر يفتق منها كلّ ما ارتبجا «2»
لا تيأسنّ وإن طالّت مطالبة ... إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا
أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته ... ومدمن القرع للأبواب أن يلجا «3»

بين رجل وروح

: ونظر رجل إلى روح بن حاتم واقفا في الشمس عند باب المنصور؛ فقال له: لقد طال وقوفك في الشمس. فقال: ذلك ليطول جلوسي في الظل.

بين رجل والحسن بن عبد الحميد

: ونظر آخر إلى الحسن بن عبد الحميد يزاحم الناس على باب محمد بن سليمان، فقال: أملك يرضى بهذا! فقال:

أهين لمن نفسي لأكرمها بهم ... ولا يكرم النفس الذي لا يهينها

من كلام للهند

: وفي كتاب للهند: إن السلطان لا يقرب الناس لقرب آبائهم ولا يبعدهم لبعدهم، ولكن ينظر ما عند كل رجل منهم، فيقرب البعيد لنفعه، ويبعد القريب لضرّه. وشبهوا ذلك بالجرذ الذي هو في البيت مجاور، فمن أجل ضرّه نفي، والبازي الذي هو وحشيّ، فمن أجل نفعه اقتني.

بين النبي صلّى الله عليه وسلّم ومستأذن

: استأذن رجل على النبي صلّى الله عليه وسلّم وهو في بيت فقال: أألج؟ فقال النبي صلّى الله عليه وسلّم لخادمه:

«اخرج إلى هذا فعلمه الاستئذان وقل له يقول: السلام عليكم، أأدخل؟»

(66/1)

وقال النبي صلّى الله عليه وسلّم: «الاستئذان ثلاث، فإن أذن لك وإلا فارجع» .
وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه. الأولى إذن، والثانية مؤامرة، والثالثة عزيمة، إما أن يأذنوا وإما أن يرجع.

الحجاب

زياد وحاجبه

: قال زياد لحاجبه: يا عجلان، إني وليتك حجابتي وعزلتك عن أربع: هذا المنادي إلى الله في الصلاة والفلاح، لا تحجبه عني فلا سلطان لك عليه، وطارق الليل لا تحجبه، فشر ما جاء به، ولو كان خيرا، ما جاء به تلك الساعة؛ ورسول الثغر «1» فإنه إن أبطأ ساعة أفسد عمل سنة، فأدخله عليّ وإن كنت في الحافي، وصاحب الطعام، فإن الطعام إذا أعيد تسخينه فسد.

ووقف أبو سفيان بباب عثمان بن عفان وقد اشتغل ببعض مصالح المسلمين فحجبه؛ فقال له رجل وأراد أن يغريه: يا أبا سفيان ما كنت أرى أن تقف بباب مضريّ فيحجبك، فقال أبو سفيان: لا عدمت من قومي من أقف ببابه فيحجبنني.

أبو الدرداء بباب معاوية

: استأذن أبو الدرداء على معاوية فحجبه؛ فقال: من يغش أبواب الملوك يقم ويقعد، ومن يجد بابا مغلقا يجد إلى جانبه بابا مفتوحا، إن دعا أجيب وإن سأل أعطي.

قال محمود الوراق:

شاد الملوك قصورهم فتحصنوا ... من كلّ طالب حاجة أو راغب
غالوا بأبواب الحديد لعزّها ... وتنوّقوا في قبح وجه الحاجب «2»

(67/1)

فإذا تلطف للدخول عليهم ... راج تلقوه بوعد كاذب
فاطلب إلى ملك الملوك ولا تكن ... بادي الضراعة طالبا من طالب

بين سعيد بن مسلم وأبي هفان في الحجاب

: سعيد بن مسلم، قال: كنت واليا بيارمينية، فغبر «1» أبو هفان أياما بباي. فلما وصل إليّ مثل قائما بين السماطين وقال: والله إني لأعرف أقواما لو علموا أن سفّ التراب يقيم من أود «2» أصلاهم لجعلوه مسكة لأرماقهم إيثارا للتنزه عن عيش رقيق الحواشي. أما والله إني لبعيد الوثبة، بطيء العطفة. إنه والله لا يثني عنك إلا ما يصرفك عني، ولأن أكون مقلا مقربا أحبّ إليّ من أن أكون مكثرا مبعدا؛ والله ما نسأل عملا لا نضبطه، ولا مالا إلا ونحن أكثر منه؛ وهذا الأمر الذي قد صار إليك وفي يديك قد كان في يدي غيرك، فأمسوا والله حديثا، إن خيرا فخير إن شرا فشر.

فتحجب إلى عباد الله بحسن البشر ولين الجانب وتسهيل الحجاب، فإن حبَّ عباد الله موصول بحب الله، وبغضهم موصول ببغضه، لأنهم شهداء الله على خلقه، ورقبائه على من اعوجَّ عن سبيله.

بين أبي مسهر وابن عبد كان

: أبو مسهر قال: أتيت أبا جعفر محمد بن عبد الله بن عبد كان فحجبتني، فكتبت إليه:

إني أتيتك للتسليم أمس فلم ... تأذن عليك لي الأستار والحجب

وقد علمت بأني لم أرد ولا ... والله ما رد إلا العلم والأدب

فأجابني ابن عبد كان، فقال:

لو كنت كافات بالحسنى لقلت كما ... قال ابن أوس وفيما قاله أدب «3»

«ليس الحجاب بمقص عنك لي أملا ... إن السماء ترجي حين تحتجب»

(68/1)

ابن منصور ورجل من خاصته حجب عنه

: وقف بباب محمد بن منصور رجل من خاصته فحجب عنه؛ فكتب إليه:

على أي باب أطلب الإذن بعد ما ... حجبت عن الباب الذي أنا حاجبه

وقف أبو العتاهية إلى باب بعض الهاشميين فطلب الإذن، فقبل له: تكون لك عودة، فقال:

لئن عدت بعد اليوم إني لظالم ... سأصرف وجهي حيث تبغي المكارم

متى يظفر الغادي إليك بحاجة ... ونصفك محجوب ونصفك نائم؟

ونظير هذا المعنى للعتابي حيث يقول:

قد أتيناك للسلام مرارا ... غير من منّا بذاك المزار

فإذا أنت في استتارك باللي ... ل على مثل حالنا بالنهار

أبو دلف ورجل حجب عنه

: وقف رجل بباب أبي دلف، فقام به حيناً لا يصل إليه، فتلطف في رقعة وأوصلها إليه، وكتب فيها:

إذا كان الكريم له حجاب ... فما فضل الكريم على اللئيم؟

فأجابه:

إذا كان الكريم قليل مال ... ولم يعذر تعلل بالحجاب

وأبواب الملوك محجبات ... فلا تستعظم حجاب باي

وقال حبيب الطائي في الحجاب:

سأترك هذا الباب ما دام إذنه ... على ما أرى، حتى يلين قليلا
فما خاب من لم يأتته متعمدا ... ولا فاز من قد نال منه وصولا
ولا جعلت أرزاقنا بيد أمريء ... حمى بابه من أن ينال دخولا
إذا لم نجد للإذن عندك موضعا ... وجدنا إلى ترك المحيء سبيلا

(69/1)

وأنشده أبو بكر العطار:

ما لك قد حلت عن وفائك واستبدلت يا عمرو شيمة كدره
لستم ترجون للحساب ولا ... يوم تكون السماء منفطره «1»
قد كان وجهي لديك معرفة ... فاليوم أضحي بابا من النكره
وقال غيره:

أنتيك للتسليم؛ لا أني امرؤ ... أردت بإتيانك أسباب نائك
فألقيت بوابا ببابك مغرما ... بهدم الذي وطدته من فضائلك «2»
وقد قال قوم: حاجب المرء عامل ... على عرضه؛ فاحذر خيانة عاملك
وقال الحسن بن هانيء:

أيها الراكب المغدّ إلى الفض ... ل ترفق فدون فضل حجاب «3»
ونعم هبك قد وصلت إلى الفض ... ل فهل في يديك إلا التراب!
وقال آخر - وهو محمود البغدادي:

حجابك من مهابته عسير ... وخيرك في اليدين غدا يسيرا
خرجت كما دخلت إليك إلا ... ترابا صار في خفي كثيرا
وقال العتاي:

حجابك ليس يشبهه حجاب ... وخيرك دون مطلبه السحاب
ونومك نوم من ورد المنايا ... فليس له إلى الدنيا إياب
وقال غيره:

أنا بالباب واقف منذ أصبح ... ت على السّرج ممسكا بعناني
ويعين البواب كلّ الذي بي ... ويراني كأنه لا يراني

(70/1)

وقال غيره:

إذا ما أتيناها في حاجة ... رفعنا الرقاع له بالقصب

له حاجب دونه حاجب ... وحاجب حاجبه محتجب «1»

بين أبي بشير وبعض كتاب العسكر

: قال أبو بشير «2»: حجبني بعض كتاب العسكر، فكتبت إليه: إن من لم يرفعه الإذن لم يضعه

الحجاب، وأنا أرفعك عن هذه المنزلة، وأرغب بك عن هذه الخليفة.

وكل من قام في منزلك، عظم قدره أو صغر. وحاول حجاب الخليفة، أمكنه:

فتأمل هذه الحال وانظر إليها بعين الفهم ترها في أقبح صورة وأدنى منزلة.

لابن عبد ربه:

وقد قلت في ذلك:

إذا كنت تأتي المرء تعظم حقّه ... ويجهل منك الحقّ فالهجر أوسع

وفي الناس أبدال وفي الهجر راحة ... وفي الناس عمّن لا يواتيك مقنع

وإنّ امرءا يرضى الهوان لنفسه ... حرّيّ بجذع الأنف والأنف أشنع «3»

وقال آخر:

يا أبا موسى وأنت فتى ... ماجد حلو ضرائبه «4»

كن على منهاج معرفة ... إنّ وجه المرء حاجبه

فيه تبدو محاسنه ... وبه تبدو معايه

(71/1)

وأنشد حسين الجمل، ويكر إلى باب سليمان بن وهب فحجبه الحاجب وأدخل ابن سعوة وحمدويه:

ولعمري لئن حجينا عن الشّي ... خ فلا عن وجه هناك وجيه

لا ولا عن طعامه التافه التز... ر الذي حوله لطام بنيه «1»
بل حجينا به عن الحسف والمس - خ وذاك التبريق والتمويه
فجزى الله حاجبا لك فظا... كل خير عنا إذا يجزيه
إن ذبحي ندالة قد تأتي... من صباحي بقبح تلك الوجوه
وقال أحمد بن محمد البغدادي في الحسن بن وهب الكاتب:
ومستتب عن الحسن بن وهب... وعمّا فيه من كرم وخير «2»
أتاني كي أخبره بعلمي... فقلت له سقطت على خبير
هو الرجل المهذب غير أيّ... أراه كثير إرخاء السّور
وأكثر ما يغنيه فتاه... حسين حين يخلو بالسّرور
«ولولا الريح أسمع أهل حجر... صليل البيض تفرع بالذكور» «3»
ومن قولنا في هذا المعنى:

ما بال بابك محروسا بيّواب... يحميه من طارق يأتي ومنتاب «4»
لا يحتجب وجهك الممقوت عن أحد... فالملت يحجبه من غير حجاب «5»
فاعزل عن الباب من قد ظلّ يحجبه... فإنّ وجهك طّسم على الباب «6»
وقف حبيب الطائي بباب مالك بن طوق فحجب عنه؛ فكتب إليه يقول:
قل لابن طوق رحي سعد إذا خبطت... نوائب الدهر أعلاها وأسفلها «7»

(72/1)

أصبحت حاتمها جودا، وأحنفها... حلما، وكيسها علما، ودغفلها «1»
مالي أرى القبة البيضاء مقفلة... دوبي وقد طال ما استفتحت مقفلها
أظنّها جنة الفردوس معرضة... وليس لي عمل زاك فأدخلها

باب الوفاء والغدر

بين مروان وعبد الحميد الكاتب

: قال مروان بن محمد لعبد الحميد الكاتب حين أيقن بزوال ملكه: قد احتجت إلى أن تصير مع
عدّوي وتظهر الغدر بي؛ فإن إعجابهم بأدبك وحاجتهم إلى كتابتك تدعوهم إلى حسن الظنّ بك، فإن
استطعت أن تنفعي في حياتي، وإلا لم تعجز عن حفظ حرمتي بعد مماتي. فقال عبد الحميد: إن الذي

أمرت به أنفع الأشياء لك وأقبحها لي، وما عندي غير الصبر معك حتى يفتح الله عليك أو أقتل معك. وأنشأ يقول:

أسرّ وفاء ثم أظهر غدرة ... فمن لي بعذر يوسع الناس ظاهره

عبد الملك بعد قتله ابن سعيد

: أبو الحسن المدائني قال: لما قتل عبد الملك بن مروان عمرو بن سعيد بعد ما صالحه وكتب له أمانا وأشهد شهودا. قال عبد الملك بن مروان لرجل كان يستشيريه ويصدر عن رأيه إذا ضاق به الأمر: ما رأيك في الذي كان مني؟ قال: أمر قد فات دركه «2»! قال: لتقولن! قال حزم لو قتلته وحييت. قال: أو لست بحيّ؟ فقال: ليس بحيّ من أوقف نفسه موقفا لا يوثق له بعهد ولا بعقد. قال عبد الملك: كلام لو سبق سماعه فعلي لأمسكت.

(73/1)

أبو جعفر وابن هبيرة

: المدائني قال: لما كتب أبو جعفر أمان ابن هبيرة واختلف فيه الشهود أربعين يوما «1» ركب في رجال معه حتى دخل على المنصور، فقال: إن دولتكم هذه جديدة، فأذيقوا الناس حلاوتها وجنبوهم مرارتها، لتسرع محبتكم إلى قلوبهم ويعذب ذكركم على ألسنتهم، وما زلت منتظرا لهذه الدعوة. فأمر أبو جعفر برفع الستر بينه وبينه، فنظر إلى وجهه وباسطه بالقول حتى اطمأن قلبه. فلما خرج قال أبو جعفر لأصحابه:

عجبا من كل من يأمرني بقتل مثل هذا! ثم قتله بعد ذلك غدرا.

أبو جعفر وسلم في قتل أبي مسلم

: وقال أبو جعفر لسلم بن قتيبة: ما ترى في قتل أبي مسلم؟ قال: لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، قال: حسبك الله أبا أمية.

قال أبو عمرو بن العلاء: كانت بنو سعد بن تميم أغدر العرب، وكانوا يسمون الغدر في الجاهلية كيسان، فقال فيهم الشاعر:

إذا كنت في سعد وخالك منهم ... غريبا، فلا يغرك خالك من سعد

إذا ما دعوا كيسان كانت كهولهم ... إلى الغدر أدنى من شباهم المرء

الولاية والعزل

قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ستحرصون على الإمارة ثم تكون حسرة وندامة؛ فنعمت المرزعة ويئست الفاطمة» .

لابن شعبة في حب الولاية وكرهيتها

: وقال المغيرة بن شعبة: أحب الإمارة لثلاث وأهجرها لثلاث: أحبها لرفع

(74/1)

الأولياء، ووضع الأعداء واستر خاص الأشياء. وأكرهها لروعة البريد، وموت العزل «1»، وشماتة العدو.

بين ابن شبرمة وأبيه في موكب طارق

: وقال ولد ابن شبرمة القاضي: كنت جالسا مع أبي قبل أن يلي القضاء. فمرّ به طارق بن أبي زياد في موكب نبيل، وهو والي البصرة، فلما رآه أبي تنفس الصعداء وقال: أراها وإن كانت تحب كأنها ... سحائب صيف عن قريب تقشع «2»
ثم قال: اللهم لي ديني وهم دنياهم: فلما ابتلى بالقضاء قلت له: يا أبت، أتذكر يوم طارق؟ قال: يا بني، إنهم يجدون خلفا من أبيك، وإن أباك لا يجد خلفا منهم: إن أباك حط في أهوائهم، وأكل من حلوائهم!

لابن الحسن في رجل غيرته الولاية

: قيل لعبد الله بن الحسن: إن فلانا غيرته الولاية. قال: من ولي ولاية يراها أكبر منه تغير لها، ومن ولي ولاية يرى نفسه أكبر منها لم يتغير لها.

بين عمر والمغيرة حين عزله

: ولما عزل عمر بن الخطاب المغيرة بن شعبة عن كتابة أبي موسى، قال له: أعن عجز أم خيانة يا أمير المؤمنين؟ قال: لا عن واحدة منهما، ولكني أكره أن أحمل فضل عقلك على العامة.

دعوة ابن عمر على زياد

: وكتب زياد إلى معاوية: قد أخذت العراق بيمينني وبقيت شمالي فارغة - يعرض له

(75/1)

بالحجاز- فبلغ ذلك عبد الله بن عمر، فرفع يده إلى السماء وقال: اللهم أكفنا شمال زياد: فخرجت في شماله قرحة فقتلته.

بين ابن الخطاب وأبي هريرة

: ولقي عمر بن الخطاب أبا هريرة، فقال له: ألا تعمل؟ قال: لا أريد العمل.
قال: قد طلب العمل من هو خير منك يوسف عليه الصلاة والسلام، قال: اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ
«1» .

خالد القسري وتوليته بلالا

: المدائني قال: كان بلال بن أبي بردة ملازما لباب خالد بن عبد الله القسري، فكان لا يركب خالد إلا رآه في موكبه، فبرم به «2»، فقال الرجل من الشرط: إيت ذلك الرجل صاحب العمامة السوداء فقل له: يقول لك الأمير: مالزومك باي وموكبي؟ لا أوليك ولاية أبدا. فأثاه الرسول فأبلغه. فقال له بلال: هل أنت مبلغ عني الأمير كما بلغتني عنه؟ قال: نعم. قال: قل له: والله لئن وليتني لا عزلتني. فأبلغه ذلك. فقال خالد: ماله قاتله الله! إنه ليعمد من نفسه بكفاية. فدعاه فوَّلاه.

بين عمر وطالب عمل

: وأراد عمر بن الخطاب أن يستعمل رجلا، فبادر الرجل فطلب منه العمل، فقال له عمر: والله لقد كنت أردتك لذلك، ولكن من طلب هذا الأمر لم يعن عليه.
بين النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْعَبَّاس
: وطلب العباس عم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من النبي ولاية، فقال له: «يا عم، نفس تحييها، خير من ولاية لا تحييها» .

(76/1)

بين النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرَجُلٍ طَلَبَ عَمَلًا
: وطلب رجل من أصحاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عملا، فقال له: «إنا لا نستعين على عملنا بمن يريد» .

وتقول النصارى: لا نختار للجنثقة إلا زاهدا فيها غير طالب لها.

لزياد في أغبط الناس عيشا

: وقال زياد لأصحابه: من أعبط الناس عيشاً؟ قالوا: الأمير وأصحابه! قال: كلا، إنّ لأعواد المنبر لهيبة، ولقرع لجام البريد لفرعة؛ ولكن أعبط الناس عيشاً رجل له دار يجري عليه كراؤها «1»، وزوجة قد وافقته في كفاف من عيشه، لا يعرفنا ولا نعرفه؛ فإن عرفنا وعرفناه أفسدنا عليه آخرته ودنياه.

بين معاوية والمغيرة حين كبر

: وكتب المغيرة بن شعبة إلى معاوية حين كبر وخاف أن يستبدل به: أما بعد، فقد كبرت سني، ورقّ عظمي، واقترب أجلي، وسقّهي سفهاء قريش، فرأي أمير المؤمنين في عمله موفق.

فكتب إليه معاوية: أمّا ما ذكرت من كبر سنك، فأنت أكلت شبابك؛ وأما ما ذكرت من اقتراب أجلك، فإني لو أستطيع دفع المنية لدفعتها عن آل أبي سفيان؛ وأما ما ذكرت من سفهاء قريش، فحلماؤها أحلوك ذلك المحل؛ وأما ما ذكرت من العمل، ف «ضحّ رويدا يدرك الهيجا حمل» «2» وهذا مثل، وقع وقع تفسيره في كتاب الأمثال.

فلما انتهى الكتاب إلى المغيرة كتب إليه يستأذنه في القدوم عليه، فأذن له فخرج

(77/1)

وخرجنا معه، فلما دخل عليه قال له: يا مغيرة، كبرت سنك ورقّ عظمك ولم يبق منك شيء، ولا أراي إلا مستبدلاً بك. قال المحدث عنه: فانصرف إلينا ونحن نرى الكآبة في وجهه، فأخبرنا بما كان من أمره. قلنا له: فما تريد أن تصنع؟ قال:

ستعلمون ذلك. فأتى معاوية فقال له: يا أمير المؤمنين، إنّ الأنفس ليغدى عليها ويراح، ولست في زمن أبي بكر ولا عمر، فلو نصبت لنا علماً من بعدك نصير إليه! فإني قد كنت دعوت أهل العراق إلى بيعة يزيد. فقال: يا أبا محمد، انصرف إلى عملك ورم هذا الأمر لابن أخيك. فأقبلنا نركض على النّجب «1»، فالتفت فقال:

والله لقد وضعت رجله في ركاب طويل ألقى عليه أمة محمد صلّى الله عليه وسلّم.

باب من أحكام القضاة

قال عمر بن عبد العزيز: إذا كان في القاضي خمس خصال فقد كمل: علم بما كان قبله، ونزاهة عن الطمع، وحلم عن الخصم، واقتداء بالأئمة، ومشاورة أهل العلم والرأي.

وقال عمر بن عبد العزيز: إذا أتاك الخصم وقد فقئت عينه، فلا تحكم له حتى يأتي خصمه؛ فلعله قد فقئت عيناه جميعا.

كتاب عمر بن الخطاب إلى معاوية في القضاء

: وكتب عمر بن الخطاب إلى معاوية في القضاء كتابا يقول فيه: إذا تقدّم إليك الخصمان فعليك بالبيّنة العادلة أو اليمين القاطعة، وإدناء الضعيف حتى يشتدّ قلبه وينبسط لسانه؛ وتعاهد الغريب! فإنك إن لم تتعاهده سقط حقه ورجع إلى أهله؛ وإنما صيغ حقه، من لم يرفق به: وآس بين الناس في لحظك وطرفك، وعليك بالصلح بين الناس ما لم يتبين لك فصل القضاء.

(78/1)

العتي قال: تنازع إبراهيم بن المهديّ هو وبختيشوع الطيب بين أيدي أحمد بن أبي دواد القاضي في مجلس الحكم في عقار بناحية السّواد؛ فزرى عليه ابن المهدي وأغلظ له بين أيدي أحمد بن أبي دواد، فأحفظه ذلك «1»، فقال: يا إبراهيم، إذا نازعت أحدا في مجلس الحكم فلا أعلمن أنك رفعت عليه صوتا، ولا أشرت إليه بيد، وليكن قصدك أمّا، وطريقك نهجا، ويرحك ساكنة؛ ووفّ مجالس الحكومة حقوقها مع التوقير والتعظيم والتوجيه إلى الواجب؛ فإن ذلك أشبه بك، وأشكل لمذهبك في محتدك «2» وعظم خطرك؛ ولا تعجل؛ فربّ عجلة تهب ريثا. والله يعصمك من الزلل، وخطل القول والعمل «3»، ويتم نعمته عليك كما أمّتها على أبويك من قبل، إن ربك حكيم عليم. قال إبراهيم: أصلحك الله، أمرت بسداد، وحضضت على رشاد. ولست بعائد إلى ما يثلم مروءتي عندك «4»، ويسقطني من عينك، ويخرجني عن مقادر الواجب إلى الاعتذار؛ فهذا أنذار معتذر إليك من هذه البادرة اعتذار مقرّ بذنبه، باخع «5» بجرمه وتلك عادة عندنا منك، وحسبنا الله ونعم الوكيل. وقد وهبت حقي من هذا العقار لبختيشوع! فليت ذلك يقوم بأرش «6» الجناية؛ ولن يتلف مال أفاد موعظة، وبالله التوفيق.

كتاب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري في القضاء

: وكتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري، رواها ابن عيينة: أما بعد فإنّ القضاء فريضة محكمة، وسنة متّبعة؛ فافهم إذا أدلى إليك الخصم؛ فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له، آس بين الناس في مجلسك ووجهك؛ حتى لا يطمع شريف في حيفك «7» ولا يخاف ضعيف من جورك. البينة على من ادّعى واليمين على من أنكر

والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا أحلّ حراما أو حرّم حلالا. ولا يمنعك قضاء قضيت به بالأمس ثم راجعت فيه نفسك وهديت فيه لرشدك أن ترجع عنه؛ فإن الحق قديم والرجوع إليه خير من التماذي على الباطل. الفهم الفهم فيما يتلجج في صدرك مما لم يبلغك به كتاب الله ولا سنة نبيه صلى الله عليه وسلم. واعرف الأمثال والأشياء، وقس الأمور عند ذلك ثم اعمد إلى أحبتها عند الله ورسوله وأشبهها بالحق؛ واجعل للمدعي أمدا ينتهي إليه، فإن أحضر بيّنته أخذت له بحقه وإلا وجهت عليه القضاء؛ فإن ذلك أجلى للعمى وأبلغ في العذر. والمسلمون عدول «1» بعضهم على بعض، إلا مجلودا في حدّ، أو مجرّبا عليه شهادة زور، أو ظنينا في ولاء أو قرابة أو نسب؛ فإن الله تولى منكم السرائر، ودرأ «2» عنكم بالبينات والأيمان؛ ثم إياك والتأذي بالناس والتنكر للخصوم في مواطن الحقوق التي يوجب الله بها الأجر ويحسن بها الذخر، فإنه من تخلص نبتة فيما بينه وبين الله ولو على نفسه يكفيه الله ما بينه وبين الناس، ومن تزين للناس بما يعلم الله خلافه منه هتك الله ستره.

وله أيضا يوصيه

: وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري: أما بعد؛ فإنّ للناس نفرة عن سلطانتهم؛ فاحذر أن تدركني وإياك عمياء مجهولة، وضغائن محمولة، وأهواء متبعة، ودنيا مؤثرة. أقم الحدود واجلس للمظالم ولو ساعة من النهار وأخف الفسّاق واجعلهم يدا ورجلا رجلا، وإذا كانت بين القبائل نائرة «3» فنادوا يا لفلان! فإنما تلك نجوى من الشيطان، فاضربهم بالسيف حتى يفيئوا «4» إلى أمر الله وتكون دعواتهم إلى الله والإسلام واستمد النعمة بالشكر، والطاعة بالتألف، والمقدرة بالعفو والنصرة بالتواضع والمحبة للناس. وبلغني أن ضبّة نادى: يا لضبّة. والله ما علمت أن ضبّة ساق الله بها خيرا قط ولا صرف بها شرا. فإذا جاءك كتابي

هذا فأهكهم عقوبة حتى يفرقوا إن لم يفقهوا، وألصق بغيلان بن خرشة من بينهم: وعد مرضى المسلمين، واشهد جنائزهم، وياشر أمورهم، وافتح بابك لهم؛ فإنما أنت رجل منهم غير أن الله جعلك أثقلهم حملا وقد بلغ أمير المؤمنين أنه فشيت لك ولأهل بيتك هيئة في لباسك

ومطعمك ومركبك ليس للمسلمين مثلها؛ فإياك يا عبد الله أن تكون كالبهيمة: همها في السمن والسمن حنتها. واعلم أن العامل إذا زاغ زاغت رعيته، وأشقى الناس من يشقى به الناس. والسلام.

ابن الخطاب وابن العاص والغزو في البحر

: أراد عمر بن الخطاب أن يغزو قوما في البحر، فكتب إليه عمرو بن العاص وهو عامله على مصر: يا أمير المؤمنين، إن البحر خلق عظيم، يركبه خلق صغير، دود على عود. فقال عمر: لا يسألني الله عن أحد أحمله فيه.

للشعبي قال: كنت جالسا عند شريح إذ دخلت عليه امرأة تشتكي زوجها وهو غائب وتبكي بكاء شديدا، فقلت: أصلحك الله، ما أراها إلا مظلومة. قال: وما علمك؟ قلت: لبكائها. قال: لا تفعل؛ فإن إخوة يوسف جاءوا أباهم عشاء يبكون، وهم له ظالمون.

الحسن ورجل رد إياس شهادته

: وكان الحسن بن أبي الحسن، لا يرى أن يرد شهادة رجل مسلم إلا أن يجرحه المشهود عليه؛ فأقبل إليه رجل فقال: يا أبا سعيد، إن إياسا ردّ شهادتي. فقام معه الحسن إليه فقال: يا أبا وائلة، لم رددت شهادة هذا المسلم وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا فهو المسلم: له مالنا وعليه ما علينا؟ فقال: يا أبا سعيد، إن الله يقول: **مَنْ تَرَضُّوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ** «1» وهذا لا يرضى.

(81/1)

من عدل شريح القاضي

: ودخل الأشعث بن قيس على شريح القاضي في مجلس الحكومة، فقال: مرحبا وأهلا بشيخنا وسيدنا، وأجلسه معه. فبينما هو جالس عنده إذ دخل رجل يتظلم من الأشعث. فقال له شريح: قم فاجلس مجلس الخصم وكلم صاحبك. قال بل أكلمه من مجلسي. فقال له: لتقومن أو لآمرن من يقيمك. فقال له الأشعث: لشدّ ما ارتفعت؟ قال: فهل رأيت ذلك ضرك؟ قال: لا. قال: فأراك تعرف نعمة الله على غيرك وتجهلها على نفسك.

إياس ورده لشهادة ابن أبي سود

وأقبل وكيع بن أبي سود صاحب خراسان ليشهد عند إياس بشهادة، فقال:

مرحبا وأهلا بأبي مطرف وأجلسه معه، ثم قال له ما جاء بك؟ قال لأشهد لفلان.
فقال: مالك وللشهادة! إنما يشهد الموالي والتجار والسوقة. قال صدقت، وانصرف من عنده فقيل
له: خدعك، إنه لا يقبل شهادتك. قال: لو علمت ذلك لعلوته بالقضيب.

عدي بن أرطاة وشريح

: دخل عدي بن أرطاة على شريح فقال: أين أنت أصلحك الله؟ قال: بينك وبين الجدار. قال: إني
رجل من أهل الشام. قال: نائي الحلّ سحيق الدار. قال: قد تزوجت عندكم. قال: بالرفاء والبنين.
قال: وولد لي غلام. قال: ليهنك الفارس.
قال: وأوردت أن أرحلها. قال: الرجل أحقّ بأهله. قال: وشرطت لها دارها، قال:
الشرط أملك. قال: فاحكم الآن بيننا. قال: قد فعلت. قال: علي من قضيت؟ قال:
علي ابن أملك. قال: بشهادة من؟ قال: بشهادة ابن أخت خالتك؛ يريد إقراره علي نفسه.

(82/1)

شريح ورجل يخاصم في سنور

: سفيان الثوري قال: جاء رجل يخاصم إلى شريح في سنور، قال: بينتك. قال:
ما أجد بينة في سنور ولدت عندنا. قال شريح: فاذهبوا بها إلى أمها فأرسلوها، فإن استقرت
واستمرت ودرت فهي سنورك، وإن هي اقشعرت وازبأرت «1» فليست بسنورك.
سفيان الثوري قال: جاء رجل إلى شريح فقال: ما تقول في شاة تأكل الدبّي «2»؟
فقال: لبن طيب وعلف مجّان.

لشريح وقد سنل حكما

: وقيل لشريح: أيهما أطيب الجوز ينق أو اللّازينق؟ قال: لست أحكم على غائب.

الشعبي في الفصل بين رجل وامرأته

: ودخل رجل على الشعبي في مجلس القضاء ومعه امرأة، وهي من أجمل النساء فاخصما إليه؛
فأدلت المرأة بحجتها وقربت بينتها. فقال للزوج: هل عندك من مدفع؟ فأنشأ يقول:
فتن الشعبيّ لما ... رفع الطرف إليها
فتنته بدلال ... وبخطي حاجبيها
قال للجلواز قريّما ... وأحضر شاهديها «3»

فقضى جورا على الخصم ... ولم يقض عليها

قال الشعبي: فدخلت على عبد الملك بن مروان، فلما نظر إليّ تبسم وقال:

فتن الشّعبيّ لما ... رفع الطرف إليها

(83/1)

ثم قال: ما فعلت بقائل هذه الأبيات؟ قلت: أوجعته ضربا يا أمير المؤمنين؛ بما انتهك من حرمتي في مجلس الحكومة وبما افتري به عليّ! قال: أحسنت.
تم الجزء الثاني من كتاب اللؤلؤة في السلطان. ولله المنة يتلوه إن شاء الله تعالى «كتاب الفريدة في الحروب» وهو الجزء الثالث من قسمة خمسة وعشرين من قسمة للمؤلف والحمد لله أولا وآخرا. وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

(84/1)

كتاب الفريدة في الحروب ومدار أمرها

فرش كتاب الحروب

قال أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه

: قد مضى قولنا في السلطان وتعظيمه وما على الرعية من لزوم طاعته وإدامة نصيحته، وما على السلطان من العدل في رعيته والرفق بأهل مملكته. ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في الحروب ومدار أمرها، وقود الجيوش وتديبيرها، وما على المدبّر لها من أعمال الخدمة، وانتهاز الفرصة، والتماس الغرة، وإذكاء العيون، وإفشاء الطلائع، واجتناب المضايق، والتحفظ في البيات. هذا بعد معرفة أحكامها، وإحكام معرفته، وطول تجربته لها، ولمقاساة الحروب ومعاناة الجيوش، وعلمه أن لا درع كالصبر، ولا حصن كاليقين. ثم نذكر كرم الإقدام ومحمود عاقبته، ولؤم الفرار ومذموم مغبته، والله المعين.

صفة الحروب

الحرب: رحي، ثفالها «1» الصبر؛ وقطبها المكر، ومدارها الاجتهاد، وثقالها الأناة «2»، وزمامها الحذر. ولكل شيء من هذه ثمرة: فثمرة المكر الظفر، وثمره الصبر التأييد، وثمره الاجتهاد التوفيق، وثمره الأناة اليمن، وثمره الحذر السلامة؛ ولكل

(85/1)

مقام مقال، ولكل زمان رجال والحرب بين الناس سجال «1»، والرأي فيها أبلغ من القتال. قال عمر بن الخطاب لعمر بن معد يكرب: صف لنا الحرب. قال: مرّة المذاق، إذا كشفت عن ساق؛ من صبر فيها عرف، ومن نكل عنها تلف، ثم أنشأ يقول:

الحرب أول ما تكون فتية ... تسهي بزيتها لكل جهول
حتى إذا حميت وشبّ ضرامها ... عادت عجوزا غير ذات خليل «2»
شمطاء جزّت رأسها وتكرّرت ... مكروهة للشّم والتقبيل «3»
وقيل لعنترة الفوارس: صف لنا الحرب. فقال: أَوْها شكوى، وأوسطها نجوى، وآخرها بلوى.
وقال الكميت:

والناس في الحرب شتى وهي مقبلة ... ويستون إذا ما أدبر القبل
كلّ بأسميها طبّ مولية ... والعالمون بذئ غدويها قتل «4»
وقال نصر بن سيار صاحب خراسان يصف الحرب ومبتدأ أمرها:
أرى خلل الرماد وميض نار ... ويوشك أن يكون له ضرام
فإنّ التار بالعودين تدكي ... وإنّ الحرب أولها الكلام
من حكمة لسليمان

: وفي حكمة سليمان بن داود عليهما السلام: الشر حلو أوله، مرّ آخره.

للعرب

: والعرب تقول: الحرب غشوم؛ لأنها تنال غير الجاني.

(86/1)

وقال حبيب «1» :

والحرب تركب رأسها في مشهد ... عدل السّفية به بألف حلِيم
في ساعة لو أنّ لقمانا بما ... وهو الحكيم لكان غير حكيم
وقال أكتّم بن صيفي حكيم العرب: لا حلم لمن لا سفية له.

ونحو هذا هول الأحنف بن قيس: ما قل سفهاء قوم قط إلا ذلوا.

وقال: لأن يطيعني سفهاء قومي أحب إلي من أن يطيعني حلماؤهم.

وقال: أكرموا سفهاءكم فإنهم يكفونكم النار والعار.

للنابغة الجعدي ودعوة النبي صلى الله عليه وسلم

: وقال النابغة الجعدي:

ولا خير في حلم إذا لم تكن له ... بوادر تحمي صفوه أن يكذرا

وأنشده هذا الشعر للنبي صلى الله عليه وسلم، فلما انتهى إلى هذا البيت. قال له النبي صلى الله عليه

وسلم: لا يفضض الله فاك. فعاش ثلاثين ومائة سنة لم تسقط له ثنية.

وقال النابغة الذبياني يصف الحرب:

تبدو كواكبه والشمس طالعة ... لا التور نور ولا الإظلام إظلام

يريد بقوله: «تبدو كواكبه والشمس طالعة، شدة الهول والكرب، كما تقول العامة: أريته النجوم وسط

النهار. قال الفرزدق:

أريك نجوم الليل والشمس حية

وقال طرفة بن العبد:

وتريك النجم يجري بالظهر

(87/1)

وإليه ذهب جرير في قوله:

والشمس طالعة ليست بكاسفة ... تبكي عليك نجوم الليل والقمر

يقول: إن الشمس طالعة وليست بكاسفة نجوم الليل، لشدة الغم والكرب الذي فيه الناس.

لابن عبد ربه

: ومن قولنا في صفة الحرب:

ومغرب السماء إذا تجلّى ... يغادر أرضه كالأرجوان

كأن نهاره ظلماء ليل ... كواكبه من السمر اللدان «1»

سموت له سمّو النقع فيه ... بكلّ مدلق سلب السنان «2»

وكل مشطّب المتنين صاف ... كلون الملح منصلت يمان «3»

وفي صفة المعتزك:

ومعتزك تَهَزَّ به المنايا ... ذكور الهند في أيدي ذكور «4»
لوامع يبصر الأعمى سناها ... ويعمى دونها طرف البصير
وخافقة الذوائب قد أنافت ... على حمراء ذات شبا طير «5»
يجوم حولها عقبان موت ... تخطف القلوب من الصدور
ييوم راح في سريال ليل ... فما عرف الأصيل من البكور
وعين الشمس ترنو في قتام ... رنو البكر من بين الستور «6»
فكم قصرت من عمر طويل ... به، وأطلت من عمر قصير

(88/1)

العمل في الحروب

قيل لأكثم بن صيفي: صف لنا العمل في الحرب. قال أقلوا الخلاف على أمراتكم، فلا جماعة لمن اختلف عليه. واعلموا أن كثرة الصياح من الفشل؛ فتنبتوا؛ فإن أحزم الفريقين الركين. ورب عجلة تعقب ريثا. وادرعوا الليل فإنه أخفى للويل، وتحفظوا من البيات.
وقال شبيب الحروري: الليل يكفيك الجبان ونصف الشجاع. وكان إذا أمسى يقول لأصحابه: أتاكم المدد.

وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها يوم الجمل، وسمعت منازعة أصحابها وكثرة صياحهم: المنازعة في الحرب خور «1»، والصياح فيها فشل، وما برأيي خرجت مع هؤلاء.
وقال عتبة بن ربيعة لأصحابه يوم بدر لما رأى عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم: أما ترونهم خرسا لا يتكلمون، يتلمظون تلمظ الحيات «2».

لابن أبي طالب في العواقب

: وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: من أكثر النظر في العواقب لم يشجع.
وقال النعمان بن مقرن لأصحابه عند لقاء العدو: إني هازء لكم الراية، فليصلح كل رجل منكم من شأنه وليشد على نفسه وفرسه؛ ثم إني هازء لكم الثانية. فلينظر كل رجل منكم موقع سهمه وموضع عدوه ومكان فرصته؛ ثم إني هازء لكم الثالثة وحامل، فاحملوا على اسم الله.

(89/1)

لعمرب بن الخطاب في ابن مقرن

: وللنعمان بن مقرن هذا؛ يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذ تكاملت [الخيل] وتطلع الصحابة إلى التقدم عليها: لأقلدّن أعتنّها رجلا يكون غدا لأول أسنة يلقاها، فقلدها النعمان بن مقرن.

لعلّي في الفرصه

: وقال علي رضي الله عنه: انتهزوا الفرصة فإنها تمرّ مرّ السحاب، ولا تطلبوا أثرا بعد عين.
وقال بعض الحكماء: انتهز الفرصة فإنها خلسة: وثب عند رأس الأمر ولا تثب عند ذنبه؛ وإياك والعجز فإنه أدلّ مركب، والشفيع المهين فإنه أضعف وسيلة.

لابن مسلم في ابن أبي سود

وخرجت خارجة بخراسان على قتيبة بن مسلم فأهمه ذلك، فقبل له: ما يهّمك منهم؟ وجه إليهم وكيع بن أبي سود فإنه يكفيهم. فقال: لا، إن وكيعا رجل به كبر يحتقر أعداءه، ومن كان هكذا قلت مبالاته بأعدائه فلم يحتس منهم. فيجد عدوّه غرّة منه «1» .

لبعض الملوك في الحزم

: وسئل بعض الملوك عن وثائق الحزم في القتال فقال: محاتلة العدو «2» عدن الريف وإعدادا العيون «3» على الرصد، وإعطاء المبلّغين على الصدق، ومعاينة المتوصّلين بالكذب، وألا تخرج هاربا إلى قتال؛ ولا تضيق أمانا على مستأمن، ولا تشدهنك «4» الغنيمة عن المخاذرة.

(90/1)

للعجم في أشد الأمور تدريبا

: وفي بعض كتب العجم: إن حكيما سئل عن أشد الأمور تدريبا للجنود وشحذا لها. فقال: تعود القتال، وكثرة الظفر، وأن يكون لها موادّ من ورائها.

بين معاوية وعمرو بن العاص

: وقال عمرو بن العاص لمعاوية: والله ما أدري يا أمير المؤمنين أشجاع أنت أم جبان؟ فقال معاوية: شجاع إذا ما أمكنتني فرصة... وإن لم تكن لي فرصة فجبان
وقال الأحنف بن قيس: إن رأيت الشر يتركك إن تركته، فاتركه.
قال هدبة العذري:

ولا أتمنى الشرّ والشرّ تاركي ... ولكن متى أحمل على الشرّ أركب «1»
ولست بمفراح إذا الدهر سرّني ... ولا جازع من صرفه المتقلب

الصبر والإقدام في الحرب

جمع الله تبارك وتعالى تدبير الحرب في آيتين من كتابه فقال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ
«2» .

للعرب في الشجاعة

: وتقول العرب: الشجاعة وقاية والجن مقتلة. واعتبر من ذلك أن من يقتل مدبرا أكثر ممن يقتل مقبلا.

(91/1)

لأبي بكر يوصي خالدا

: ولذلك قال أبو بكر رضي الله تعالى عنه لخالد بن الوليد: احرص على الموت توهب لك الحياة.

للعرب

: والعرب تقول: الشجاع موقى والجبان ملقى.
وقال أعرابي: الله مخلف ما أتلف الناس. والدهر متلف ما جمعوا، وكم من منية علّتها طلب الحياة،
وحياة سببها التعرّض للموت.

خالد في الصبر

: وكان خالد بن الوليد يسير في صفوف يذمر «1» الناس ويقول: يا أهل الإسلام:
إن الصبر عز، وإن الفشل عجز، وإن مع الصبر النصر.
وكتب أنو شروان إلى مرزبته: عليكم بأهل السخاء والشجاعة؛ فإنهم أهل حسن الظنّ بالله.
وقالت الحكماء: استقبال الموت خير من استدباره.
وقال حسان بن ثابت:

ولسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ... ولكن على أعقابنا تقطر الدّما «2»
وقال العلوي في هذا المعنى:

محرمة أكفال خيلي على القنا ... ودامية لباتها ونحوها
حرام على أرماحنا طعن مدبر ... وتندقّ منها في الصدور صدورها «3»

(92/1)

وكانوا يتمادحون بالموت قعصا «1» ويتهاجمون بالموت على الفراش، ويقولون فيه:
مات فلان حتف أنفه. وأول من قال ذلك النبي عليه الصلاة والسلام.

عبد الله بن الزبير في مقتل أخيه مصعب

: وخطب عبد الله بن الزبير الناس لما بلغه قتل مصعب أخيه، فقال: إن يقتل فقد قتل أبوه وأخوه
وعمه، إنا والله لا نموت حتفا ولكن قعصا بأطراف الرماح وموتا تحت ظلال السيوف؛ وإن يقتل
مصعب فإن في آل الزبير خلفا منه. وقال السموأل بن عادبَاء:
وما مات منّا سيّد حتف أنفه ... ولا طلّ منّا حيث كان قتيل «2»
تسيل على حدّ الطّبات نفوسنا ... وليس على غير السيّوف تسيل «3»
وقال آخر:

وإنا لتستحلي المنايا نفوسنا ... ونترك أخرى مرّها فنذوقها
وقال الشنفرى:

فلا تدفونى، إنّ دفني محرم ... عليكم ولكن خامري أمّ عامر
إذا حملت رأسي وفي الرأس أكثرى ... وغودر عند الملتقى ثمّ سائري
هنا لك لا أبغي حياة تسرّني ... سجيس الليالي مبسلا بالجزائر «4»
قوله «خامري أمّ عامر»: هي الضبع. يعني: إذا قتلتهموني فلا تدفونى ولكن ألقوني إلى التي يقال لها:
خامري أمّ عامر، وهي الضبع. وهذا اللفظ بعيد من المعنى.

(93/1)

علي بن أبي طالب

: وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام- وقيل له: أتقتل أهل الشام بالغداة وتظهر
بالعشيّ في ازار ورداء؟ فقال: أبالموت تحوّفوني؟ فو الله ما أبالي أسقطت على الموت أم سقط عليّ.

وقال لابنه الحسن عليهما السلام: لا تدعون أحدا إلى المبارزة، وإن دعيت إليها فأجب، فإن الداعي إليها باغ والباغي مصروع.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: بقية السيف أئمة عددا، وأطيب ولدا. يريد أن السيف إذا أسرع في أهل بيت كثر عددهم ونما ولداهم. ونما يستدل به على صدق قوله: ما عمل السيف في آل الزبير وآل أبي طالب وما أكثر من عددهم. وقال أبو دلف العجلي:

سيفي بليلي قبسي ... وفي نهاري أنسي «1»

إني فتى عودني ... مهري ركوب الغلس

يحمدني سيفني كما ... يحمد كزي فرسي

وقال محمد بن عبد الله بن طاهر صاحب خراسان:

لست لريحان ولا راح ... ولا على الجار بنفاح «2»

فإن أردت الآن لي موقفا ... فبين أسياف وأرماح

ترى فتى تحت ظلال القنا ... يقبض أرواحا بأرواح

وقال أشهب بن رميلة:

أسود شرى لاقت أسود خفية ... تلاقوا على جرد بماء الأسود «3»

(94/1)

للمهلب في أعجب ما رأى في حرب الأزارقة

: وقيل للمهلب بن أبي صفرة: ما أعجب ما رأيت في حرب الأزارقة؟ قال: فتى كان يخرج إلينا منهم في كل غداة فيقف فيقول:

وسائلة بالغيب عتي ولو درت ... مقارعتي الأبطال طال نحييها

إذا ما التقينا كنت أول فارس ... يجود بنفس أثقلتها ذنوبها

ثم يحمل فلا يقوم له شيء إلا أقعده، فإذا كان من الغد عاد لمثل ذلك.

بين هشام وأخيه مسلمة في الذعر

: وقال هشام بن عبد الملك لأخيه مسلمة: يا أبا سعد، هل دخلك ذعر قط لحرب أو عدو؟ قال:

ما سلمت في ذلك من ذعر ينبه على حيلة، ولم يغشني ذعر قط سلبني رأيي. قال هشام: صدقت

هذه والله البسالة.

وقيل لعنترة: كم كنتم يوم الفروق «1»؟ قال: كنا مائة لم نكثر فنتكل، ولم نقل فنذل.

ما كان يتمثل به ابن المهلب

: وكان يزيد بن المهلب يتمثل كثيرا في الحرب بقول حصين بن الحمام:

تأخرت أستقي الحياة فلم أجد ... لنفسي حياة مثل أن أتقدما

وقالت الخنساء:

نحين النّفوس وبذل النفو ... س يوم الكريهة أبقى لها

وقيل لعبد بن الحصين، وكان من أشد أهل البصر: في أيّ عدّة كنت تريد أن تلقى عدوك؟ قال: في

أجل مستأخر.

وكان مما يتمثل به معاوية رضي الله تعالى عنه يوم صفين:

(95/1)

أبت لي شيمتي وأبي بلائي ... وأخذني الحمد بالثمن الرّيح

وإقدامي على المكروه نفسي ... وضري هامة البطل المشيح

وقولي كلما جشأت وجاشت ... مكانك تحمدي أو تستريجي «1»

لأدفع عن مآثر صالحات ... وأحمي بعد عن عرض صحيح

ونظير هذا قول قطري بن الفجاءة:

[اقول لها وقد طارت شعاعا] «2» ... من الأبطال ويحك لا تراعي

فإنك لو سألت حياة يوم ... سوى الأجل الذي لك لم تطاعي

لابن أبي طالب في صفين

: وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يخرج كل يوم بصفين حتى يقف بين الصّفين ويقول:

أيّ يومي من الموت أقرّ ... يوم لا يقدر أو يوم قدر

يوم لا يقدر لا أرهبه ... ومن المقدور لا ينجي الحذر

ومثله قول جرير:

قل للجبان إذا تأخر سرجه ... هل أنت من شرك المنية ناج «3»

وهذا البيت في شعره الذي أوله:

هاج الفراق لقلبك المهتاج

ومدح فيه الحجاج، فلما أنشده:

قل للجبان إذا تأخر سرجه

(96/1)

قال له: جرأت عليّ الناس يا بن اللّخناء! قال: والله ما ألقيت لها بالاً أيها الأمير إلا وقتي هذا.

عاصم بن الحدثان والفرزدق

: وكان عاصم بن الحدثان عالماً ذكياً، وكان رأس الخوارج بالبصرة، وربما جاء الرسول منهم من الجزيرة

يسأله عن الأمر يختصمون فيه، فمرّ به الفرزدق، فقال لابنه: أنشد أبا فراس، فأنشده:

وهم إذا كسروا الجفون أكارم ... صبر وحين تحلّل الأزرار «1»

يغشون حومات المنون وإثما ... في الله عند نفوسهم لصغار

يمشون بالخطي لا يثنيتهم ... والقوم إن ركبوا الرماح تجار «2»

فقال له الفرزدق: ويحك! اكنم هذا لا يسمعه النساجون فيخرجوا علينا بحفوفهم «3» فقال أبوه:

هو شاعر المؤمنين وأنت شاعر الكافرين.

ونظير هذا مما يشجع الجبان قول عنتره الفوارس:

بكرت تخوفني الحتوف كأنني ... أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل «4»

فأجبتها: إنّ المنية منهل ... لا بدّ أن أسقي بكأس المنهل

فاقني حياءك لا أبا لك واعلمي ... أيّ امرؤ سأموت إن لم أقتل «5»

ومن أحسن ما قالوه في الصبر، قول نهمشل بن حريّ بن ضمرة النهشليّ:

ويوم كأنّ المصطلين بحره ... وإن لم تكن نار وقوف على جمر «6»

صبرنا له حتى يبوخ، وإنما ... تفرّج أيام الكريهة بالصبر «7»

(97/1)

وأحسن من هذا عندي قول حبيب:

فأثبت في مستنقع الموت رجله ... وقال لها من تحت إخمصك الحشر

تردّي ثياب الموت حمرا فما أتى ... لها الليل إلا وهي من سندس خضر
وأحسن من هذا قوله:

يستعذبون مناياهم كأنهم ... لا يخرجون من الدنيا إذا قتلوا
وقوله في المعنى:

قوم إذا لبسوا الحديد حسبتهم ... لم يحسبوا أنّ المنية تخلق
انظر بحيث ترى السيوف لوامعا ... أبدا وفوق رءوسهم تتألق
وقال الجحّاف بن حكيم:

شهدن مع النبيّ مسوّمات ... حيننا وهي دامية الحوامي «1»
ووقعة راهط شهدت وحلّت ... سنايكهنّ بالبلد الحرام
تعرّض للطعان إذا التقينا ... حدودا لا تعرّض للطام
أخذه من قولهم: ضربة بسيف في عزّ، خير من لكمة في ذلّ.
ومن أحسن ما وصفت به رجال الحرب قول الشاعر «2»:

رويدا بني شيبان بعض وعيدكم ... تلاقوا غدا خيلي على سفوان «3»
تلاقوا رجالا لا تحيد عن الوغى ... إذا الخيل جالت في فنا الميدان
إذا استنجدوا لم يسألوا من دعاهم ... لأية أرض أو لأيّ مكان
ونظير هذا قول الآخر:

قوم إذا نزل الغريب بدارهم ... تركوه ربّ صواهل وقيان «4»

(98/1)

وإذا دعوتهم ليوم كريمة ... سدّوا شعاع الشمس بالفرسان
لا يكتون الأرض عند سؤالهم ... لتطلبّ العلات بالعيان «1»
بل يسفرون وجوههم فترى لها ... عند السؤال كأحسن الألوان
ومن أحسن المحدثين تشبيها في الحرب، مسلم بن الوليد الأنصاري في قوله ليزيد بن مزيد:
تلقي المنية في أمثال عدتها ... كالسيل يقذف جلمودا بجمود
تجود بالنفس إذ صنّ الجواد بها ... والجود بالنفس أقصى غاية الجود
وقوله أيضا:

موف على مهج في يوم ذي رهج ... كأنه أجل، يسعى إلى أمل «2»
ينال بالرفق ما تعيا الرجال به ... كالموت مستعجلا يأتي على مهل
وقال أبو العتاهية:

كأنك عند الكرّ في الحرب إنما ... تفرّ عن السلم الذي من ورائكا
كأنّ المنايا ليس تجري لدى الوغى ... إذا التقت الأبطال إلا برأيكا
فما آفة الآجال غيرك في الوغى ... وما آفة الأموال غير حبايكا «3»
وقال زيد الخيل:

وقد علمت سلامة أنّ سيفي ... كربه كلما دعيت نزال
أحادثه بصقل كلّ يوم ... وأعجمه بهامات الرجال
وقال أبو محلم السعديّ:

تقول وصكّت وجهها بيمينها ... أبعلي هذا بالرحى المتقاعس «4»

(99/1)

فقلت لها لا تعجلي وتبيني ... بلائي إذا التقت عليّ الفوارس

ألست أردّ القرن يركب رده ... وفيه سنان ذو غرارين نائس «1»

إذا هاب أقوام تفحّمت غمرة ... يهاب حميّه الألدّ المداعس «2»

لعمر أبيك الخير إنّ لخدام ... لضيّفي وإنّ ركبت لفارس

وقال آخر يمدح المهلب بالصبر:

وإذا جددت فكلّ شيء نافع ... وإذا حددت فكلّ شيء ضائر «3»

وإذا أتاك مهلبّي في الوغى ... في كفه سيف فنعم الناصر

ومن قولنا في القائد أبي العباس في الحرب:

نفسى فداؤك والأبطال واقفة ... والموت يقسم في أرواحها التّقما

شاركت صرف المنايا في نفوسهم ... حتى تحكّمت فيها مثل ما احتكما

لو تستطيع العلا جاءتك خاضعة ... حتى تقبل منك الكفّ والقدما

ومن قولنا في وصف الحرب:

سيوف يقيل الموت تحت طباطها ... لها في الكلى طعم وبين الكلي شرب «4»

إذا اصطقت الرايات حمرا متونها ... ذوائبها تهبو فيهبو لها القلب
ولم تنطق الأبطال إلا بفعلها ... فألسنها عجم وأفعالها عرب
إذا ما التقوا في مأزق وتعانقوا ... فلقياهم طعن وتعنيقهم ضرب
ومن قولنا في رجال الحرب وأنّ الوغى قد أخذت منهم ومن أجسامهم فهي مثل السيوف في رقبتها
وصلابتها:
سيف تقلد مثله ... عطف القضيت على القضيب

(100/1)

هذا تجرّ به الرّقا ... ب وذا تجرّ به الخطوب
ومن قولنا أيضا:
تراه في الوغى سيفا صقيلا ... يقلّب صفحتي سيف صقيلا
ومن قولنا أيضا:
سيف عليه نجاد سيف مثله ... في حدّه للمفسدين صلاح
ومن قولنا أيضا في الحرب وذكر القائد:
مقبلك تحت أظلال العوالي ... وبيتك فوق سهوات الجياد
تبخرت في قميص من دلاص ... وترفل في رداء من نجاد «1»
كأنك للحروب رضيع ثدي ... غذتك بكلّ داهية نآد «2»
فكم هذا التمني للمنايا ... وكم هذا التجلّد للجلاذ
لئن عرف الجهاد بكلّ عام ... فإنك طول دهرك في جهاد
وإنك حين أبت بكلّ سعد ... كمثل الرّوح آب إلى الفؤاد
رأينا السّيف مرتديا بسيف ... وعابنا الجواد على الجواد
وقد وصفنا الحرب بتشبيهه عجيب لم يتقدّم عليه، ومعنى بديع لا نظير له، فمن ذلك قولنا:
وجيش كظهر اليمّ تنفحه الصّبا ... يعبّ عابا من قنا وقنابل «3»
فتنزل أولاه وليس بنازل ... وترحل أخراه وليس براحل
ومعترك ضنك تعاطت كماته ... كئوس دماء من كلي ومفاصل
يديرونها راحا من الرّوح بينهم ... بيض رقاق أو بسمر ذوابل «4»

(101/1)

وتسمعهم أمّ المنية وسطها ... غناء صليل البيض تحت المناصل «1»
ومن قولنا في هذا المعنى:

سيف من الحتف تردى به ... يوم الوغى سيف من الخزم

مواصلًا أعداءه عن قلى ... لا صلة القرى ولا الرحم «2»

وصل يحنّ الإلف من بغضه ... شوقًا إلى المهجران والصرم

حتى إذا نادهم سيفه ... بكلّ كأس مرّة الطعم

تري حمياها بما ماتهم ... تغور بين الجلد والعظم «3»

على أهازيج ظبا بينها ... ما شئت من حذف ومن خرم «4»

طاعوا له من بعد عصيائهم ... وطاعة الأعداء عن رغم

وكم أعدوا واستعدوا له ... هيهات ليس الخضم كالقضم «5»

ومن قولنا في شبهه:

كم ألحم السيف في أبناء ملحمة ... ما منهم فوق متن الأرض ديار «6»

وأورد النار من أرواح مارقة ... كادت تميز من غيظ لها النار «7»

كأنما صال في ثنبي مفاضته ... مستأسد حنق الأحشاء هدار «8»

لما رأى الفتنة العمياء قد رحبت ... منها على الناس آفاق وأقطار

وأطبقت ظلم من فوقها ظلم ... ما يستضاء بها نور ولا نار

قاد الجياد إلى الأعداء سارية ... قباً طواها كطيّ العصب إضمار «9»

(102/1)

ملمومة تتبارى في ملممة ... كأنها لاعتدال الخلق أفهار «1»

تزورّ عند احتماس الطعن أعينها ... وهنّ من فرجات التقع نظار «2»

تفوت بالنار أقواما وتدركه ... من آخرين إذ لم يدرك النار

فانساب ناصر دين الله يقدمهم ... وحوله من جنود الله أنصار

كتائب تتبارى حول رايته ... وجحفل كسواد الليل جرّار
قوم لهم في مكرّ اللّيل غمغمة ... تحت العجاج وإقبال وإدبار «3»
يستقبلون كراديسا مكردسة ... كما تدافع بالتّيّار تيّار «4»
من كلّ أروع لا يرعى لهاجسة ... كأنّه مخدر في الخيل هصار «5»
في قسطل من عجاج الحرب مدّ له ... بين السماء وبين الأرض أستار
فكم بساحتهم من شلو مطّرح ... كأنه فوق ظهر الأرض إجار «6»
كأنّما رأسه أفلاق حنظلة ... وساعدها إلى الزّندين جمار «7»
وكم على النّهر أوصالا مفرّقة ... تقسمتها المنايا فهي أشطار
قد فلّقت بصفيح الهند هامهم ... فهنّ بين حوامي الخيل أعشار
ومن قولنا في الحروب:
وحومة عادرت فرسانها ... في مبرك للحرب جمعاع «9»
مستلحم بالموت مستشعر ... مفرّق للشّمل جمّاع

(103/1)

وبلدة صحصحت منها الرّبا ... لفيلق كالسّيل دفاع «1»
كأنّما باضتّ نعام الفلا ... منهم بهام فوق أدرع
تراهم عند احتماس الوغى ... كأنّهم جنّ بأجراع «2»
بكلّ ماثور على متنه ... مثل مدبّ التّمّل في القاع
يرتدّ طرف العين من حدّه ... عن كوكب للموت لمّاع
ومن قولنا في الحروب:
وربّ ملتقّة العوالي ... يلتمع الموت في ذراها «3»
إذا توطّت حزون أرض ... طحطحت الشّم من رباها «4»
يقودها منه ليث غاب ... إذا رأى فرصة قضاها
تمضي بآرائه سيوف ... يستبق الموت في طبها «5»
بيض تحلّ القلوب سودا ... إذا انتضى عزمه انتضاها «6»
تتبعه الطّير في الأعادي ... تجني كلا العشب من كلاها «7»

أقدم إذا كاع كلّ ليث ... عن حومة الموت إذا رآها «8»
فأقحم الخيل في غمار ... تفغر بالموت هواتها «9»
عنت له أوجه المنايا ... فعافها القوم واشتهاها

(104/1)

فرسان العرب في الجاهلية والإسلام

ابن مكرم وقول حسان فيه

: كان فارس العرب في الجاهلية ربيعة بن مكرم. من بني فراس بن غنم بن مالك ابن كنانة، وكان يعقر على قبره في الجاهلية. ولم يعقر على قبر أحد غيره. وقال حسان بن ثابت وقد مرّ على قبره:
نفرت قلوصي من حجارة حرّة ... بنيت على طلق اليدين وهوب
لا تنفري يا ناق منه فإنّه ... شرب خمر مسعر لحروب
لولا السّفار وطول قفر مهمه ... لتركها تجبو على عرقوب «1»

فراس بن غنم وكلمة لعلّي فيهم

: وكان بنو فراس بن غنم بن كنانة أنجد العرب. كان الرجل منهم يعدل عشرة من غيرهم. وفيهم يقول عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه لأهل الكوفة: من فاز بكم فقد فاز بالسهم الأخيب، أبدلكم الله بي من هو شرّ لكم، وأبدلني بكم من هو خير منكم. وددت والله أنّ لي بجمعكم - وأنتم مائة ألف - ثلاثمائة من بني فراس بن غنم.

ومن فرسان العرب في الجاهلية عنبرة الفوارس، وعتيبة بن الحارث بن شهاب؛ وأبو براء عامر بن مالك ملاعب الأسنة، وزيد الخيل، وبسطام بن قيس، والأحيمر السعدي، وعامر بن الطّفل، وعمرو بن عبد ودّ، وعمرو بن معد يكرب.
وفي الإسلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، والزبير، وطلحة، ورجال الأنصار: عبد الله بن خازم السلمي، وعباد بن الحصين، وعمير بن الحباب، وقطريّ بن الفجاءة، والحريش بن هلال السعدي، وشبيب الحروريّ.

(105/1)

للعرب في بعض فرسانهم

: وقالوا: ما استحيًا شجاع قطّ أن يفرّ من عبد الله بن خازم وقطريّ بن الفجاءة، صاحب الأزارقة.
وقالوا: ذهب حاتم بالسخاء، والأحنف بالحلم، وخريم بالنعمة، وعمير بن الحباب بالشدة.

ابن خازم مع ابن زياد في جرد

: وبيننا عبد الله بن خازم عند عبيد الله بن زياد إذ دخل عليه بجرذ أبيض، فعجب منه عبيد الله،
وقال: هل رأيت يا أبا صالح أعجب من هذا؟ ونظر إليه، فإذا عبد الله قد تضاءل حتى صار كأنه
فرخ، واصفرّ كأنه جرادة ذكر فقال عبيد الله:
أبو صالح يعصى الرحمن، ويتهاون بالسلطان، ويقبض على الثعبان، ويمشي إلى الليث، ويلقى الرماح
بنحره، وقد اعتراه من جرد ما ترون، أشهد أن الله على كل شيء قدير.
وكان شبيب الحروريّ: يصيح في جنبات الجيش فلا يلوي أحد على أحد. وفيه يقول الشاعر:
إنّ صاح يوماً حسبت الصّخر منحدرًا ... والريح عاصفة والموج يلتطم
ولما قتل أمر الحجاج بشق صدره. فإذا له فؤاد مثل فؤاد الجمل. فكانوا إذا ضربوا به الأرض ينزرو
كما تنزرو المئانة المنفوخة «1» .

لابن عباس في الأنصار

: ورجال الأنصار أشجع الناس؛ قال عبد الله بن عباس: ما استلّت السيوف، ولا زحفت الزحوف،
ولا أقيمت الصفوف، حتى أسلم ابنا قبيلة: يعني الأوس والخزرج، وهما الأنصار من بني عمرو بن
عامر من الأزد.

(106/1)

أبو براء لما أسن

: العتيبي: لما أسنّ أبو براء عامر بن مالك وضعّفه بنو أخيه وخرّفوه. ولم يكن له ولد يحميه، أنشأ
يقول:

دفعتمكم عني وما دفع راحة ... بشيء إذا لم تستعن بالأنامل
يضعّفني حلمي وكثرة جهلكم ... عليّ وأبيّ لا أصول بجاهل «1»

لعلي في همدان

: وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه، إذ رأى همدان وغناءها في الحرب يوم صفين:

ناديت همدان والأبواب مغلقة ... ومثل همدان سقى فتحة الباب «2»
كاهندواي لم تغفل مضاربه ... وجه جميل وقلب غير وجاب «3»
وقال ابن بَرّاقة الحمداني:
كذبتم وبيت الله لا تأخذونها ... مراغمة ما دام للسيف قائم «4»
متى تجمع القلب الذكي وصارما ... وأنفا حمياً تجتنبك المظالم
وكنت إذا قوم غزوني غزوتهم ... فهل أنا في ذا يا همدان ظالم
وقال تابط شرا:
قليل التشكي للمهم يصيبه ... كثير النوى شت الهوى والمسالك
بيت بمومة ويضحى بغيرها ... جحيشا ويعروري طور المهالك «5»
إذا حاص عينيه كرى النوم لم يزل ... له كاليء من قلب شيحان فاتك «6»

(107/1)

ويجعل عينيه ريئة قلبه ... إلى سلّة من حدّ أخلق باتك «1»
إذا هزه في عظم قرن تهلّت ... نواجذ أفواه المنايا الصّواحك
وقال أبو سعيد المخزومي - وكان شجاعاً:
وما يريد بنو الأغبار من رجل ... بالجمر مكتحل بالنبل مشتمل «2»
لا يشرب الماء إلا من قليب دم ... ولا يبيت له جار على وجل «3»
ونظير هذا قول بشّار العقيلي:
فتى لا يبيت على دمنة ... ولا يشرب الماء إلا بدم «4»

بين ابن الزبير والأشتر

: وقال عبد الله بن الزبير: التقيت بالأشتر النخعي يوم الجمل، فما ضربته ضربة حتى ضربني خمسا أو ستا، ثم أخذ برجلي فألقاني في الخندق، وقال: والله لولا قرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما اجتمع منك عضو إلى آخر.

جائزة عائشة لمن بشرها بنجاة ابن الزبير

: وقال أبو بكر بن أبي شيبة: أعطت عائشة الذي بشرها بحياة ابن الزبير إذ التقى مع الأشتر عشرة آلاف.

: وذكر متمم بن نويرة أخاه مالكا وجلده، فقال: كان يخرج في الليلة الصنبر «5» ، عليه الشملة
الفلوت، بين المزدتين على الجمل الثقال «6» ، ومعتقل الرمح الخطي.
قالوا: وأبيك إن هذا هو الجلد.

(108/1)

من عمر إلى ابن مقرن في الصائفة

: وكتب عمر بن الخطاب إلى النعمان بن مقرن وهو على الصائفة: أن استعين في حربك بعمر بن
معد يكرب، وطليحة الأزري، ولا تولهما من الأمر شيئا؛ فإن كل صانع أعلم بصناعته.
وقال عمرو بن معد يكرب يصف صبره وجلده في الحرب:
أعاذل عدتي بزّي ورعحي ... وكلّ مقلّص سلس القياد «1»
أعاذل إنما أفنى شبابي ... إجابتي الصريخ إلى المنادي «2»
مع الأبطال حتى سلّ جسمي ... وأقر عاتقي حمل النجاد
ويبقى بعد حلم القوم حلمي ... ويفنى قبل زاد القوم زادي
ومن عجب عجبت له حديث ... بديع ليس من بدع السداد
تمنى أن يلاقيني أيّ ... وددت وأينما متي ودادي
تمنّاني وسابغتي قميصي ... كأنّ قنبرها حدق الجراد «3»
وسيف لابن ذي كنعان عندي ... تخيّر نصله من عهد عاد
فلو لاقيتني للقيت ليثا ... هصورا ذا ظبا وشبا حداد «4»
ولا ستيفنت أنّ الموت حقّ ... وصرّح شحم قلبك عن سواد
أريد حياته ويريد قتلي ... عذيرك من خليلك من مراد
ومن قوله في قيس بن مكشوح المرادي:
تمنّاني على فرس ... عليه جالس أسده
عليّ مفاضة كالتهي ... أخلص ماءه جدده «5»
فلو لاقيتني للقي ... ت ليثا فوقه لبده

(109/1)

سبنتي ضيغما هصرا ... صلخدا ناشزا كتده «1»
يسامي القرن إن فرن ... تيممه فيعتضده «2»
فيأخذه فيرديه ... فيخفضه فيقتصده»
فيدمغه فيحطمه ... فيخصمه فيزدرده

المكيدة في الحرب

قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الحرب خدعة.
وقال المهلب لبنيه: عليكم بالمكيدة في الحرب فإنها أبلغ من النجدة.
وكان المهلب يقول: أناة في عواقبها فوت، خير من عجلة في عواقبها درك «4» .
وقال مسلمة بن عبد الملك: ما أخذت أمرا قط بحزم فلمت نفسي فيه وإن كانت العاقبة عليّ، ولا
أخذت أمرا قطّ وضيّعت الحزم فيه إلا لمت نفسي عليه وإن كانت لي العاقبة.
وسئل بعض أهل التمرس بالحرب: أيّ المكاييد فيها أحزم؟ قال: إذكاء العيون «5»، وإفشاء الغلبة،
واستطلاع الأخبار؛ وإظهار السرور، وإماتة الفرق «6»، والاحتراس من البطانة «7» من غير
إقصاء لمن يستنصح، ولا استناد لمن يستغشّ، وإشغال الناس عما هم فيه من الحرب بغيره.
وفي كتاب للهند: الحازم يحذر عدوّه على كل حال: يحذر المواثبة إن قرب، والغارة إن بعد، والكمين
إن انكشف، والاستطراد إن ولى.

بين المأمون والفضل بن سهل في رأي فات الأمين

: قال المأمون للفضل بن سهل: قد كان لأخي رأي لو عمل به لظفر. فقال له

(110/1)

الفضل: ما هو يا أمير المؤمنين؟ قال لو كتب إلى أهل خراسان وطبرستان والري ودياوند أنه قد
وهب لهم الخراج لسنة، لم نخل نحن من إحدى خصلتين: إما رددنا فعله ولم نلتفت إليه فعصانا أهل
هذه البلدان وفسدت نيّاتهم فانقطعوا عن معاونتنا.
وإما قبلناه وأمضيّناه فلا نجد ما نعطي منه من معنا، وتفرّق جنودنا ووهى أمرنا.
فقال الفضل: الحمد لله الذي ستر هذا الرأي عنه وعن أصحابه.
وكتب الحجاج إلى المهلب يستعجله في حرب الأزارقة، فكتب إليه: إن من البلية أن يكون الرأي بيد

من يملكه دون من يبصره.

لبعض أهل التمرس

: وكان بعض أهل التمرس يقول لأصحابه: شاوروا في حربكم الشجعان من أولي العزم، والجنباء من أولى الحزم؛ فإن الجبان لا يألو «1» برأيه ما يقي مهجكم، والشجاع لا يعدو ما يشد نصرتكم؛ ثم خلصوا من بين الرأيين نتيجة تحمل عنكم معرة الجبان «2»، وهو الشجعان، فتكون أنفذ من السهم الزالج «3»، والحسام الواج «4» .

بين الاسكندر ومؤديه في مدينة فتحها

: وكان الإسكندر لا يدخل مدينة إلا هدمها وقتل أهلها، حتى مرّ بمدينة كان مؤدبه فيها؛ فخرج إليه، فألففه الإسكندر وأعظمه. فقال له: أصلح الله الملك، إن أحقّ من زين لك أمرك، وأعانك على كل ما هويت لأنا، وإن أهل هذه المدينة قد طمعوا فيك لمكاني منك، فأحب أن تشقّني فيهم، وألا تخالفني في كل ما سألتك لهم. فأعطاه من العهود والمواثيق على ذلك ما لا يقدر على الرجوع عنه. فلما توثق منه قال: فإن حاجتي إليك أن تدمها وتقتل أهلها. قال: ليس إلى ذلك سبيل، ولا بد من مخالفتك. فقال له: ارحل عنا.

(111/1)

سعيد بن العاص وحصن فتحه

: قيل: صالح سعيد بن العاص حصنا من حصون فارس على ألا يقتل منهم رجلا واحدا، فقتلهم كلهم إلا رجلا واحدا.

عمرو بن العاص وعلم قيسارية

: ابن الكلبي قال: لما فتح عمرو بن العاص قيسارية سار حتى نزل غزّة، فبعث إليه علجها «1»: أن ابعث إليّ رجلا من أصحابك أكلمه. ففكر عمرو وقال: ما لهذا أحد غيري. قال: فخرج حتى دخل على العلج فكلمه فسمع كلاما لم يسمع قطّ مثله. فقال العلج: حدّثني: هل في أصحابك أحد مثلك؟ قال لا تسأل عن هذا، إني هيّن عليهم إذ بعثوا بي إليك وعرضوني لما عرضوني له، ولا يدرون ما تصنع بي. قال: فأمر له بجائزة وكسوة، وبعث إلى البواب: إذا مر بك فاضرب عنقه وخذ ما معه. فخرج من عنده فمرّ برجل من نصاري غسان فعرفه؛ فقال: يا عمرو قد أحسنت الدخول فأحسن

الخروج. ففطن عمرو لما أراده، فرجع. فقال له الملك: ما ردك إلينا؟ قال: نظرت فيما أعطيتني فلم أجد ذلك يسع بني عمي، فأردت أن آتيك بعشرة منهم تعطيهم هذه العطية، فيكون معروفك عند عشرة خيرا من أن يكون عند واحد. فقال: صدقت. أعجل بهم. وبعث إلى البواب أن خلّ سبيله. فخرج عمرو وهو يلتفت، حتى إذا أمن قال: لا عدت لمثلها أبدا. فلما صالحه عمرو ودخل عليه العليّ قال له: أنت هو؟ قال: نعم، على ما كان من غدرك.

عمر والهزمنان

: وقال: ولما أتى بالهزمنان أسيرا إلى عمر بن الخطاب قيل له: يا أمير المؤمنين، هذا زعيم العجم وصاحب رستم «2» فقال له عمر: أعرض عليك الإسلام نصحا لك في

(112/1)

عاجلك وآجلك. قال: يا أمير المؤمنين، إنما أعتقد ما أنا عليه ولا أرغب في الإسلام. فدعا له عمر بالسيف. فلما همّ بقتله قال: يا أمير المؤمنين، شربة من ماء أفضل من قتلي على ظمأ. فأمر له بشربة من ماء. فلما أخذها قال: أنا آمن حتى أشربها؟ قال: نعم. فرمى بها وقال: الوفاء يا أمير المؤمنين نور أبلج. قال: صدقت، لك التوقف عنك والنظر في أمرك؛ ارفعا عنه السيف. فلما رفع عنه. قال: الآن يا أمير المؤمنين أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، وما جاء به حق من عنده. قال عمر: أسلمت خير إسلام، فما أحرّك؟ قال كرهت أن تظن أني أسلمت جزعا من السيف وإيثارا لدينه بالرهبة. فقال عمر: إن لأهل فارس عقولا بما استحقوا ما كانوا فيه من الملك. ثم أمر به أن يبرّ ويكرم، فكان عمر يشاوره في توجيه العساكر والجيوش لأهل فارس.

معن ونفر من الأسرى

: وهذا نظير فعل الأسير الذي أتى به معن بن زائدة في جملة الأسرى. فأمر بقتلهم، فقال له: أتقتل الأسرى عطاشا يا معن فأمر بهم فسقوا، فلما شربوا قال: أتقتل أضيافك يا معن؟ فحلى سبيلهم.

ملك من ملوك العجم

: وذكروا: أن ملكا من ملوك العجم كان معروفا ببعده الغور «1» ويقظة الفطنة وحسن السياسة، وكان إذا أراد محاربة ملك من الملوك وجه إليه من يبحث عن أخباره وأخبار رعيته قبل أن يظهر محاربتة، فيكشف عن ثلاث خصال من حاله؛ فكان يقول لعيونه: انظروا، هل ترد على الملك أخبار

رعيته على حقائقها أم يحدعه عنها المنهي ذلك إليه؟ وانظروا إلى الغنى في أي صنف هو من رعيته،
أفيمن اشتدّ أنفه وقلّ شرهه، أم فيمن قلّ أنفه واشتدّ شرهه؟ وانظروا في أي صنف من رعيته

(113/1)

القوام بأمره؟ أفيمن نظر ليومه وغده، أم من شغله يومه عن غده؟ فإن قيل له: لا يحدع عن أخباره؛
والغنى فيمن قلّ شرهه واشتدّ أنفه، والقوام بأمره من نظر ليومه وغده، قال: اشتغلوا عنه بغيره. وإن
قيل له ضدّ ذلك قال: نار كانه تنتظر موقدا، وأضعان زملة «1» تنتظر مخرجا، اقصدوا له، فلا حين
أحين من سلامة مع تضييع، ولا عدوّ أعدى من أمن أدّى إلى اغترار.

وقية ملك الهياطلة بيزدجرد

: كانت ملوك العجم قبل ملوك الطوائف تنزل بلخ، ثم نزلت بابل، ثم نزل أردشير ابن بابك فارس،
فصارت دار مملكتهم، وصار بخراسان ملوك الهياطلة وهم الذين قتلوا فيروز بن يزدجرد بن بهرام ملك
فارس، وكان غزاهم؛ فكاده ملك الهياطلة بأن عمد إلى رجل من عرفه بالمكايدة وحسن الإدارة،
فأظهر السخط عليه وأوقع به على أعين الناس توقيعا قبيحا ونكّل به تنكيلا شديدا. ثم أرسله وقد
وأطاه «2» على أمر أبطنه معه وظاهره عليه فخرج حتى أتى فيروز في طريقه، فأظهر النزوع «3»
إليه والاستنصار به من عظيم ما ناله. فلما رأى فيروز ما به من التوقيع والنكاية فيه، وثق به واستنار
إليه. فقال: أنا أدلك أيها الملك على غرة القوم وعورتهم وأعلمك مكان غفلتهم. فسلك به سبيل
مهلكة معطشة؛ ثم خرج إليه ملك الهياطلة فأسرّه وأكثر أصحابه، فسألهم أن يمنوا عليه وعلى من
معه، وأعطاهم موثقا لا يغزوهم أبدا، ونصب لهم حجرا جعله حدا بينه وبينهم، وحلف لهم ألا يجاوزه
هو ولا جنوده، وأشهد الله عليه وعلى من حضر من قرابته وأساورته؛ فمّنوا عليه وأطلقوه ومن معه.
فلما عاد إلى مملكته أخذته الأنفة مما أصابه، فعاد إلى غزوهم ناكثا لعهدده غادرا بدمته، إلا أنه تلتطف
في ذلك بحيلة ظنّها مجزئة في إيمانه، فجعل الحجر الذي نصبه لهم على فيل في مقدّمة عسكره، وتأوّل
في ذلك أنه لا يجاوزه فلما صار إليهم ناشدوه

(114/1)

الله وذكروه الأيمان به، وما جعل على نفسه من عهده وذمته، فأبى إلا لجا «1» ونكثا. فواقعوه فظفروا به فقتلوه وقتلوا حماته واستباحوا عسكره.

للنبي صلى الله عليه وسلم

: أسامة بن زيد الليثي قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم «إذا غزا أخذ طريقا وهو يريد أخرى، ويقول: الحرب خدعة» .

مالك الخثعمي وتسميته بالثعلب

: زياد عن مالك بن أنس قال: كان مالك بن عبد الله الخثعمي، وهو على الصائفة. يقوم في الناس كلما أراد أن يرحل؛ فيحمد الله تعالى ويثني عليه ثم يقول. إني دارب «2» بالعادة إن شاء الله تعالى درب كذا. فتتفرق الجواسيس عنه بذلك؛ فإذا أصبح الناس سلك بهم طريقا أخرى. فكانت تسميه الروم: الثعلب.

وصايا أمراء الجيوش

كتب عمر بن عبد العزيز إلى الجراح: إنه بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا بعث جيشا أو سرية قال: اغزوا بسم الله، وفي سبيل الله، تقاتلون من كفر بالله، لا تغلّوا ولا تغدروا ولا تمثّلوا ولا تقتلوا امرأة ولا وليدا. فإذا بعثت جيشا أو سرية فمرهم بذلك. وكان عمر بن الخطاب يقول عند عقد الألوية: بسم الله وبالله وعلى عون الله. امضوا بتأييد الله. وما النصر إلا من عند الله ولزوم الحق والصبر. فقاتلوا في سبيل الله من كفر بالله، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين. ولا تجبنوا عند اللقاء، ولا تمثّلوا عند القدرة، ولا تسرفوا عند الظهور، ولا تقتلوا هرما ولا امرأة ولا وليدا،

(115/1)

وتوقّوا قتلهم إذا التقى الزحفان، وعند شنّ الغارات.

أبو بكر يوصي يزيد بن أبي سفيان

: ولما وجّه أبو بكر رضي الله عنه يزيد بن أبي سفيان إلى الشام شيّعه راجلا. فقال له يزيد: إما أن تركب وإما أن أنزل. فقال: ما أنت بنازل وما أنا براكب. إني أحتسب خطاي «1» هذه في سبيل الله. ثم قال: إنك ستجد قوما حبسوا أنفسهم لله، فذرهم وما حبسوا أنفسهم له- يعني الرهبان- وستجد قوما فحسوا «2» عن أوساط رؤسهم الشعر، فاضرب ما فحسوا عنه بالسيف. ثم قال له:

إني موصيك بعشر: لا تغدر، ولا تمثّل، ولا تقتل هرما ولا امرأة ولا وليدا، ولا تقرن شاة ولا بعيرا إلا ما أكلتم، ولا تحرقن نخلا، ولا تحزبن عامرا، ولا تغلّ ولا تبخس.

أبو بكر يوصي خالد بن الوليد

: وقال أبو بكر رضي الله عنه لخالد بن الوليد، حين وجهه لقتال أهل الردّة: سر على بركة الله، فإذا دخلت أرض العدو فكن بعيدا من الحملة، فإني لا آمن عليك الجولة، واستظهر بالزاد، وسر بالأدلاء، ولا تقاتل بمجروح، فإنّ بعضه ليس منه؛ واحترس من البيات، فإنّ في العرب غرة «3»؛ وأقلل من الكلام، فإنما لك ما وعي عنك؛ واقبل من الناس علانيتهم، وكلهم إلى الله في سرائرهم، وأستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه.

من خالد إلى مرزبة فارس

: كتب خالد بن الوليد إلى مرزبة فارس مع ابن نفيلة الغساني: الحمد لله الذي فضّ حزمتمكم «4»، وفرّق جمعكم، وأوهن بأسكم، وسلب ملككم، وأذلّ عزكم؛ فإذا أتاكم كتابي هذا فابعثوا إليّ بالرهن، واعتقدوا منا الذمة، وأجيبوا إلى الجزية، وإلا

(116/1)

والله الذي لا إله إلا هو، لأسيرن إليكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة، ويرغبون في الآخرة كما ترغبون في الدنيا.

من عمر إلى أبي وقاص

: كتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنهما - ومن معه من الأجناد: أما بعد؛ فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال؛ فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو، وأقوى المكيدة في الحرب، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشدّ احتراسا من المعاصي منكم من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة؛ لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عدتنا كعدّتهم، فإذا استويننا «1» في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة، وإلا ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا. واعلموا أن عليكم في مسيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون، فاستحيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله؛ ولا تقولوا إن عدونا شر منا فلن يسلم علينا وإن أسأنا؛ فربّ قوم سلط عليهم شر منهم، كما سلط على بني إسرائيل لما عملوا بمساخط الله كفّار الجوس فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً

«2». . وأسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم. أسأل الله ذلك لنا ولكم. وترفق بالمسلمين في مسيرهم، ولا تجشمهم مسيرا يتعبهم، ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم، حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينقص قوتهم، فإنهم سائرون إلى عدو مقيم حامي الأنفس والكراع «3». . وأقم بمن معك في كل جمعة يوما وليلة، حتى تكون لهم راحة يجمون «4» فيها أنفسهم، ويرمّون «5» أسلحتهم وأمتعتهم. ونحّ منازلهم عن قرى أهل

(117/1)

الصلح والذمة، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تنق بدينه. ولا يرزأ أحدا من أهلها شيئا: فإن لهم حرمة وذمة ابتليت بالوفاء بها كما ابتلوا بالصبر عليها، فما صبروا لكم فتولّوهم خيرا، ولا تستبصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح. وإذا وطئت أدنى أرض العدو فأذك العيون بينك وبينهم، ولا يخف عليك أمرهم وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه، فإنّ الكذوب لا ينفعك خبره وإن صدقك في بعضه، والغاشّ عين عليك وليس عينا لك. وليكن منك عند دنوّك من أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم. فتقطع السرايا أمدادهم ومرافقهم، وتتبع الطلائع عوراتهم. وانتق للطلائع أهل الرأي والبأس من أصحابك، وتخيّر لهم سوابق الخيل، فإن لقوا عدواً كان أول ما تلقاهم القوة من أصحابك، وتخيّر لهم سوابق الخيل؛ فإن لقوا عدوً كان أول ما تلقاهم القوة من رأيك. واجعل أمر السرايا إلى أهل الجهاد والصبر على الجلال، ولا تخص بها أحداً بهوى، فيضيع من رأيك وأمرك أكثر مما حابيت «1» به أهل خاصتك. ولا تبعث طليعة ولا سرية في وجه تتخوّف فيه غلبة أو ضيعة ونكاية «2»؛ فإذا عاينت العدو فاضمم إليك أقاصيك وطلائعك وسراياك، واجمع إليك مكيدتك وقوتك، ثم لا تعاجلهم المناجزة، ما لم يستكرهك قتال، حتى تبصر عورة عدوك ومقاتله، وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها، فتصنع بعدوك كصنعه بك، ثم أذك أحراسك على عسكريك، وتحفظ من البيات «3» جهديك. ولا تؤت بأسير له عهد إلا ضربت عنقه، لترهب بذلك عدو الله وعدوك. والله ولي أمرك ومن معك، وولي النصر لكم على عدوكم، والله المستعان.

عبد الملك يوصي أميره إلى أرض الروم

: وأوصى عبد الملك بن مروان أميراً سيره إلى أرض الروم فقال: أنت تاجر الله لعباده، فكن كالمضارب الكيّس «4» الذي إن وجد ربحاً تجر وإلا تحفظ برأس المال.

(118/1)

ولا تطلب الغنيمة حتى تحرز السلامة. وكن من احتيالك على عدوك أشدّ حذرا من احتيال عدوك عليك.

زياد يوصي قواده

: وكان زياد يقول لقواده: تجنّبوا اثنين لا تقاتلوا فيهما العدو: الشتاء، وبطون الأودية.

بين الوليد وعباد في زياد

: وأغزى الوليد بن عبد الملك جيشا في الشتاء، فغنموا وسلموا. فقال لعباد: يا أبا حرب، أين رأي زياد من رأينا؟ فقال: يا أمير المؤمنين، قد أخطأت، وليس كل عورة تصاب.

معاوية وقد أراد استعمال ابن خالد ثم الغامدي

: العتيبي قال: جاشت الروم وغزت المسلمين برا وبحرا، فاستعمل معاوية على الصائفة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، فلما كتب له عهده قال: ما أنت صانع بعهدي؟ قال: أتخذه إماما لا أعصيه. قال: أردد عليّ عهدي. ثم بعث إلى سفيان بن عوف الغامدي فكتب له عهده، ثم قال له: ما أنت صانع بعهدي؟ قال: أتخذه إماما أمام الحزم، فإن خالفه خالفته. فقال معاوية: هذا الذي لا يكفكف من عجلة، ولا يدفع في ظهره من خور «1»، ولا يضرب على الأمور ضرب الجمل الثفال «2».

دريد وابن عوف النصري

: وقال دريد بن الصمة لمالك بن عوف النصري، قائد هوازن، يوم حنين: يا مالك، إنك قد أصبحت رئيس قومك، وإنّ هذا يوم له ما بعده من الأيام، مالي أسمع رغاء البعير، ونهيق الحمير، وبكاء الصغير، ويعار الشاء؟ قال: سقت مع الناس

(119/1)

أبناءهم ونساءهم وأموالهم. قال: ولم؟ قال: أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم. فأنقض به»

، وقال: راعي ضأن الله! وهل يردّ المنهزم شيء؟

إنّما إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك، فضحت في أهلك ومالك؛

ويحك! إنك لم تصنع بتقديم البيضة بيضة هوازن «2» إلى نخور الخيل شيئا، ارفعهم إلى متمتع بلادهم وعليا قومهم، ثم الق الصّبَاء «3» على متون الخيل؛ فإن كانت لك لحق بك من وراءك، وإن كانت عليك كنت قد أحرزت أهلك ومالك. قال: لا والله لا أفعل ذلك؛ إنك قد كبرت وذهل عقلك.

قال دريد: هذا يوم أشهده ولم يفتني. ثم أنشأ يقول:

يا ليتني فيها جذع ... أحبّ فيها وأضع «4»

أقود وطفاء الرّمع ... كأثما شاة صدع «5»

لقتيبة ينصح أصحابه

: وكان لقتيبة بن مسلم يقول لأصحابه: إذا غزوتهم، فأطيلوا الأظفار، وقصّروا الشعور، واحظوا الناس شزرا «6»، وكلموهم رمزا، واطعنوهم وخزا «7».

لأبي مسلم ينصح قواده

: وكان أبو مسلم يقول لقواده: أشعروا قلوبكم الجرأة فإنها من أسباب الظفر، وأكثروا ذكر الضغائن فإنها تبعث على الإقدام، والزموا الطاعة فإنها حصن المحارب.

(120/1)

وكان سعيد بن زيد يقول لبنيه: قصّروا الأعتة، واشحذوا الأسنة، تأكلوا القريب، ويرهبكم البعيد.

المنصور وعيسى ابن موسى

: وقال عيسى بن موسى: لما وجهني المنصور إلى المدينة لخاربة عبد الله بن الحسن، جعل يوصيني ويكثر، فقلت: يا أمير المؤمنين، إلى متى توصيني؟

إني أنا ذاك الحسام الهندي ... أكلت جفني وفريت غمدي «1»

فكلّ ما تطلب عندي عندي

الحمامة عن العشيرة ومنع المستجير

لجعيل يصف لعبد الملك قومه

: قال عبد الملك بن مروان لجعيل بن علقمة الثعلبي: ما مبلغ عزكم؟ قال: لم يطمع فينا ولم يؤمن منا. قال: فما مبلغ حفظكم؟ قال: يدفع الرجل منا عن استجار به غير قومه كدفاعه عن نفسه. قال عبد الملك: متلك من يصف قومه.

لابن مطاع

: وقال عبد الملك بن مروان لابن مطاع العنزي: أخبرني عن مالك بن مسمع قال له: لو غضب مالك لغضب معه مائة ألف سيف لا يسألونه في أي شيء غضب. قال عبد الملك: هذا والله السؤدد.

قال: ولم يل قط مالك بن مسمع ولا أسماء بن خارجة شيئا للسلطان.

للعرب في الدفاع عن الجار

: وكانت العرب تمتدح بالذّب «2» عن الجار، فيقولون: فلان منيع الجار حامي

(121/1)

الذمار «1». نعم، حتى كان فيهم من يحمي الجراد إذا نزل في جواره، فسَمِّي مجير الجراد. وقال مروان بن أبي حفصة يمدح معن بن زائدة ويصف مفاخر بني شيبان ومنعهم لمن استجار بهم: هم القوم إن قالوا أصابوا وإن دعوا ... أجابوا، وإن أعطوا أطابوا وأجزلوا هم يمنعون الجار حتى كأنما ... لجارهم بين السماكين منزل «2» وقال آخر:

هم يمنعون الجار حتى كأنه ... كئيب زور بين خافيتي نسر «3»

معاوية وهانيء في مال اختانه ابن شهاب

: وذكر أن معاوية ولى كثير بن شهاب المذحجي خراسان، فاختان مالا كثيرا. ثم هرب فاستتر عند هانيء بن عروة المرادي. فبلغ ذلك معاوية فهدر دم هانيء. فخرج هانيء إلى معاوية، فكان في جواره. ثم حضر مجلسه وهو لا يعرفه. فلما نهض الناس ثبت مكانه، فسأله معاوية عن أمره، فقال: أنا هانيء بن عروة، فقال: إن هذا اليوم ليس باليوم الذي يقول فيه أبوك: أرجل جمتي وأجر ذيلي ... وتحمل شكّي أفق كمي «4» وأمشي في سراة بني غطيف ... إذا ما ساءني أمر أبيت «5» قال: أنا والله يا أمير المؤمنين اليوم أعزّ مني ذلك اليوم. قال: بم ذلك؟ قال: بالإسلام. قال: أين كثير بن شهاب؟ قال: عندي وعندك يا أمير المؤمنين. قال: انظر إلى ما اختانه فخذ منه بعضا وسوّغه بعضا، وقد أمّناه ووهبناه لك.

(122/1)

مقتل محمد ابن أبي بكر

: الشيباني قال: لما نزل محمد بن أبي بكر مصر وصير إليه معاوية معاوية بن حديج الكندي. تفرق عن محمد من كان معه، فتغيّب فدلّ عليه، فأخذه فضرب عنقه وبعث برأسه إلى معاوية. فكان أول رأس طيف به في الإسلام. وكان محمد بن جعفر بن أبي طالب معه، فاستجار بأخواله من خثعم فغيّبوه؛ وكان سيّد خثعم يومئذ رجلا في ظهره بنخ «1» من كسر أصابه، فكان إذا مشى ظنّ الجاهل أنه يتبختر في مشيته، فذكر لمعاوية أنه عنده، فقال له: أسلم إلينا هذا الرجل. فقال: ابن أختنا لجأ إلينا لتحقن دمه، فدعه عنك يا أمير المؤمنين. قال: والله لا أدعه حتى تأتيني به. قال: لا والله لا أتيك به. قال: كذبت، والله لتأتينيّ به، إنك ما علمت لأوره «2». قال: أجل، إني لأوره حين أقاتلك على ابن عمك لتحقن دمه، وأقدم ابن عمي دونه تسفك دمه. فسكت عنه معاوية وخلقى بينه وبينه.

المهدي ومعن في رجل أهدر دمه

: الشيباني قال: قال سعيد بن سلم: أهدر المهدي دم رجل من أهل الكوفة فأقام الرجل حيناً متوارياً، ثم إنه ظهر بمدينة السلام، فكان ظاهراً كغائب، خائفاً مترقباً. فبينما هو يمشي في بعض نواحيها إذ بصر به رجل من أهل الكوفة فعرفه فأهوى إلى مجامع ثوبه وقال هذا بغية أمير المؤمنين. فأمكن الرجل من قياده ونظر إلى الموت أمامه. فبينما هو على تلك الحالة إذ سمع وقع الحوافر من وراء ظهره، فالتفت فإذا معن بن زائدة، فقال: يا أبا الوليد، أجزني أجزاك الله. فوقف وقال للرجل الذي تعلق به: ما شأنك؟ قال: بغية أمير المؤمنين الذي أهدر دمه وأعطى لمن دلّ عليه مائة ألف. فقال: يا غلام، انزل عن دابتك واحمل أخانا. فصاح الرجل: يا معشر الناس، يحال بيني وبين من طلبه أمير المؤمنين. قال له معن: اذهب فأخبره أنه عندي. فانطلق إلى باب أمير المؤمنين فأخبر الحاجب، فدخل إلى المهدي فأخبره، فأمر بحبس

(123/1)

الرجل ووجه إلى معن من يحضر به، فأنته رسل أمير المؤمنين وقد لبس ثيابه وقرّبت إليه دابته، فدعا أهل بيته ومواليه فقال: لا يخلصنّ «1» إلى هذا الرجل وفيكم عين تطرف. ثم ركب ودخل حتى سلم على المهدي، فلم يردّ عليه، فقال: يا معن، أتعير عليّ؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين. قال: ونعم أيضاً!

واشتدّ غضبه. فقال معن: يا أمير المؤمنين، قتلت في طاعتكم باليمن في يوم واحد خمسة عشر ألفاً، ولي أيام كثيرة قد تقدّم فيها بلائي وحسن غنائي، فما رأيتموني أهلاً أن تهبوا لي رجلاً واحداً استجار بي؟ فأطرق المهدي طويلاً ثم رفع رأسه وقد سرّى عنه «2»، فقال: قد أجرنا من أجرت. قال معن: فإن رأى أمير المؤمنين أن يصله - فيكون قد أحياه وأغناه - فعل.
قال: قد أمرنا له بخمسة آلاف. قال: يا أمير المؤمنين، إنّ صلوات الخلفاء على قدر جنایات الرعية وإن ذنب الرجل عظيم؛ فأجزل له الصلة. قال: قد أمرنا له بمائة ألف. قال: فتعجلها يا أمير المؤمنين بأفضل الدعاء. ثم انصرف ولحقه المال؛ فدعا الرجل فقال له: خذ صلتك والحق بأهلك، وإياك ومخالفة خلفاء الله تعالى.

الجبن والفرار

لعمرو بن معديكرب في الفزعات

: قال عمرو بن معديكرب: الفزعات ثلاث: فمن كانت فزعته في رجله فذلك الذي لا تقله رجلاه، ومن كانت فزعته في رأسه فذلك الذي يفرّ عن أبيه، ومن كانت فزعته في قلبه فذلك الذي يقاتل. وقال الأحنف: أسرع الناس إلى الفتنة، أقلهم حياءً من الفرار.
وقالت عائشة أم المؤمنين: إنّ لله خلقاً قلوبهم كقلوب الطير، كلما خفقت الريح خفقت معها؛ فأفّ للجبناء! وقال الشاعر:

(124/1)

يفرّ جبان القوم عن أمّ نفسه ... ويحمي شجاع القوم من لا يناسبه
ويرزق معروف الجواد عدوّه ... ويحرم معروف البخيل أقرابه «1»
وقال خالد بن الوليد عند موته: لقد لقيت كذا وكذا زحفاً، وما في جسمي موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة أو رمية؛ ثم هأنذا أموت حتف نفسي كما يموت العير «2»؛ فلا نامت أعين الجبناء.

للفرار السلمي في الفرار

: ومن أشعار الفرّارين الذين حسّنوا فيها الفرار على قبحة حتى حسن، قول الفرّار السلمي «3»:
وكتيبة لبستها بكتيبة ... حتى إذا التبست أملت بها يدي «4»
وتركتهم تقص الرماح ظهورهم ... من بين مقتول وآخر مسند «5»
هل ينفعني أن تقول نساؤهم ... وقتلت دون رجالها: لا تبعد

للحارث بن هشام في الفرار

: وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى: ما اعتذر أحد من الفرّارين بأحسن مما اعتذر به الحارث بن هشام حيث يقول:

الله يعلم ما تركت قتالهم ... حتى رموا مهري بأشقر مزبد
وعلمت أنّي إن أقاتل واحدا ... أقتل ولا يضرر عدوي مشهدي
فصدفت عنهم والأحبة فيهم ... طمعا لهم بعقاب يوم مرصد «6»
وهذا الذي سمعه صاحب رتبيل فقال: يا معشر العرب، حسنتم كلّ شيء فحسن حتى الفرار.

(125/1)

وبعد هذا يأتي قول حسان في ذلك.

وأسلم الحارث يوم فتح مكة وحسن إسلامه، وخرج في زمن عمر إلى الشام من مكة بأهله وماله، فاتبعه أهل مكة يبكون، فرق وبكى وقال: أما لو كنا نستبدل دارا بدارنا، أو جارا بجارنا، ما رأينا بكم بدلا؛ ولكنها الثقلة إلى الله فلم يزل هناك مجاهدا حتى مات.
وقال آخر:

قامت تشجعي هند وقد علمت ... أنّ الشجاعة مقرون بها العطب
لا والذي منع الأبصار رؤيته ... ما يشتهي الموت عندي من له أدب
للحرب قوم أضلّ الله سعيهم ... إذا دعتهم إلى نيرانها وثبوا
ولست منهم ولا أهوى فعالمهم ... لا القتل يعجبني منها ولا السلب
وقال محمود الوراق:

أيها الفارس المشيخ المغير ... إنّ قلبي من السلاح يطير «1»
ليس لي قوّة على رهج الحّي ... ل إذا ثور الغبار مثير «2»
واستدارت رحى الحروب بقوم ... فقتيل وهارب وأسير «3»
حيث لا ينطق الجبان من الدّعر ... ويعلو الصّياح والتكبير
أنا في مثل ذا وهذا بليد ... ولييب في غيره نحرير «4»
وقال أيمن بن خريم:

إنّ للفتنة ميطا بيّنا ... فرويد الميظ منها يعتدل «5»

فإذا كان عطاء فأتمم ... وإذا كان قتال فاعتزل
إنما يوقدها جهالها ... حطب النار فدعها تشتعل

(126/1)

لصاحب كليلة ودمنة

: ومما يحتج به الفارّون: ما قاله صاحب كليلة ودمنة: إن الحازم يكره القتال ما وجد بدا منه؛ لأن النفقة «1» فيه من النفس، والنفقة في غيره من المال. أخذ هذا المعنى حبيب فنظمه في شعره حيث يقول:
كم بين قوم إنما نفقاتهم ... مال وقوم ينفقون نفوسا
ومن الفرّارين عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث؛ فرّ من الأزارقة وكان في عشرة آلاف، وكان قد بعث إليه المهلب: يا بن أخي، خندق على نفسك وعلى أصحابك، فإني عالم بأمر الخوارج، ولا تغتوّر. فبعث إليه: أنا أعلم بهم منك، وهم أهون عليّ من ضرطة الجمل فبيته قطريّ صاحب الأزارقة فقتل من أصحابه خمسمائة، وفرّ لا يلوي على أحد. فقال فيه الشاعر:
تركت ولداننا تدمى نخورهم ... وجئت منهزما يا ضرطة الجمل
ومن الفرّارين أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد؛ فرّ يوم مرداء هجر من أبي فديك، فسار من البحرين إلى البصرة في ثلاثة أيام، فجلس يوما بالبصرة فقال:
سرت على فرسي «المهرجان» من البحرين إلى البصرة في ثلاثة أيام. فقال له بعض جلسائه: أصلح الله الأمير، فلو ركبت «التبروز» لسرت إليها في يوم واحد. فلما دخل عليه أهل البصرة لم يروا كيف يكلمونه، ولا ما يلقونه من القول، أيهنتونه أم يعزّونه؛ حتى دخل عليه عبد الله بن الأهمم فاستشرف «2» الناس له، وقالوا: ما عسى أن يقال للمنهزم؟ فسلم ثم قال: مرحبا بالصابر المخذول، الذي خذله قومه. الحمد لله الذي نظر لنا عليك ولم ينظر لك علينا فقد تعرّضت للشهادة جهديك، ولكن علم الله حاجة أهل الإسلام إليك، فأبقاك لهم بخذلان من معك لك. فقال أمية بن عبد الله: ما وجدت أحدا أخبرني عن نفسي غيرك. وفيه يقول الشاعر:

(127/1)

إذا صوّت العصفور طار فؤاده ... وليث حديد النَّاب عند الثَّرائد «1»

الحجاج وخيل لأمية

: أتى الحجاج بدواب من دواب أمية قد وسم على أفخاذها: «عدّة» فأمر الحجاج أن يكتب تحت ذلك: «للفرار» .

وقال أبو دلامة: كنت مع مروان»

أيام الضحاك الحوروي، فخرج فارس منهم فدعا إلى البراز، فخرج إليه رجل، فقتله، ثم ثان، ثم ثالث. فانقبض الناس عنه، وجعل يدنو ويهدر كالفحل المغتلم «3»، فقال مروان: من يخرج إليه وله عشرة آلاف؟

قال: فلما سمعت عشرة آلاف هانت عليّ الدنيا وسخوت بنفسي في سبيل عشرة آلاف وبرزت إليه. فإذا عليه فرو قد بلّه المطر فارمعلّ «4»، ثم أصابته الشمس فاقفعلّ «5»، وله عينان تتقدان كأثما جمرتان؛ فلما رأني فهم الذي أخرجني، فأقبل نحوي وهو يرتجز ويقول:
وخارج أخرج حَبّ الطّمع ... فرّ من الموت وفي الموت وقع
من كان ينوي أهله فلا رجع

فلما رأينته فنّعت رأسي ووليت هاربا ومروان يقول: من هذا الفاضح؟ لا يفوتكم! فدخلت في غمار الناس.

لأعرابي في الغزو

: وقيل لأعرابي: ألا تغزو العدو؟ قال: وكيف يكونون لي عدوًا وما أعرفهم ولا يعرفونني؟

(128/1)

وقيل للآخر: ألا تغزو العدو؟ قال: والله إني لأبغض الموت على فراشي، فكيف أخبّ «1» إليه ركضا!

لحسان يعبر الحارث بن هشام

: ومما قيل في الفزاريين الجبناء من الشعر قول حسان بن ثابت يعبر الحارث بن هشام بفراره يوم بدر، وقد تقدم ذكر ذلك:

إن كنت كاذبة الذي حدّثني ... فنجوت منجى الحارث بن هشام
ترك الأحبة لم يقاتل دونهم ... ونجا برأس طمرة ولجام «2»

ملأت به الفرجين فامتدّت به ... وثوى أحبته بشرّ مقام

وقال بعض العراقيين في رجل أكل جبان:

إذا صوّت العصفور طار فؤاده ... وليث حديد الناب عند الثرائد

وقال فيه:

ضعيف القلب رعديد ... عظيم الخلق والمنظر «3»

رأى في النوم عصفورا ... فوارى نفسه أشهر

وقال آخر:

لو جرت خيل نكوصا ... لجرت خيل ذفاهه «4»

هي لا خيل رجاء ... لا ولا خيل مخافه

وقال آخر:

خرجنا نريد مغارا لنا ... وفينا زياد أبو صعصعه

فستة رهط به خمسة ... وخمسة رهط به أربعة

(129/1)

ولم يقل أحد في وصف الجبن والفرار مثل قول الطرمّاح في بني تميم:

تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا ... ولو سلكت سبل المكارم ضلّت

ولو أنّ برغوئا على ظهر قملة ... رأته تميم يوم زحف لولّت

ولو جمعت يوما تميم جموعها ... على ذرّة معقولة لا شمّلت «1»

وليس يعاب الشجاع والبهمة البطل بالفرّة الواحدة تكون منه خاصة لا عامة؛ كما قال زفر بن

الحارث وفرّ يوم مرج راهط عن أبيه وأخيه فقال:

أيزهّب يوم واحد إن أسأته ... بصالح أيامي وحسن بلائيا «2»

ولم تر مني زلّة قبل هذه ... فراري وتركّي صاحبي ورائيا

وفرّ عمرو بن معديكرب من عباس بن مرداس وأسر أخته ربحانة: وفيها يقول عمرو:

أمن ربحانة الدّاعي السّميع ... يؤرّقني وأصحابي هجوع

وفرّ عن بني عبس وفيهم زهير بن جذيمة العبسي وولده شأس بن زهير وقيس بن زهير! فقال فيهم:

أجاعلة أمّ الثوير خزاية ... عليّ فراري إذ لقيت بني عبس «3»

لقيت أبا شأس وشأسا ومالكا ... وقيسا فجاشت من لقائهم نفسي «4»
لقونا فضمّوا جانبينا بصادق ... من الطعن مثل النار في الحطب اليبس
ولما دخلنا تحت فيء رماحهم ... خبطت بكفي أطلب الأرض باللمس «5»
وليس يعاب المرء من جن يومه ... إذا عرفت منه الشجاعة بالأمس
وقال أيضا:

(130/1)

ولقد أجمع رجليّ بها ... حذر الموت وإني لفرور
ولقد أعطفها كارهة ... حين للنفس من الموت هرير «1»
كلّ ما ذلك مني خلق ... وبكلّ أنا في الرّوع جدير
وابن صبح سادرا يودعني ... ماله في الناس ما عثت مجير «2»
وقال الحارث لامرأته، وذلك أنّها نظرت إليه وهو يحمدّ حربة يوم فتح مكة فقالت له: ما تصنع بهذه؟
قال: أعددتها لمحمد وأصحابه. فقالت: ما أرى يقوم لمحمد وأصحابه شيء. قال: والله إني لأرجو أن
أخدمك بعضهم! ثم أنشأ يقول:

إن يقبلوا اليوم فما بي علّه ... هذا سلاح كامل وألّه «3»
وذو غرارين سريع السّله
فلما لقيهم خالد يوم الخندمة «4» انخزم الرجل، فلامته امرأته، فقال:
إنك لو شاهدت يوم الخندمة ... إذ فرّ صفوان وفرّ عكرمه
وأبو يزيد قائم كالموتمه ... ولحقتنا بالسيوف المسلمه «5»
يفلقن كلّ ساعد وجمجمه ... ضربا فلا تسمع إلّا غمغمه «6»
لهم نحيب خلفنا وهمهمه ... لم تنطقي في اللوم أدنى كلمه «7»

بين ابن زياد وابن زرعة

: وكان أسلم بن زرعة وجهه عبيد الله بن زياد لحرب أبي بلال الخارجي في ألفين، وأبو بلال في أربعين
رجلا: فشدّوا عليه شدّة رجل واحد فانخزم هو وأصحابه، فلما

(131/1)

دخل على ابن زياد عتفه في ذلك وقال: ويلك! أتمضي في ألفين وتنهزم عن أربعين؟
فخرج عنه وهو يقول: لأن يذمني ابن زياد حيا خيرا من أن يمدحني وأنا ميت - وفي رواية أخرى: أن
يشتمني الأمير وأنا حي أحب إلي من أن يدعو لي وأنا ميت. فقال شاعر الخوارج:
أألفا مؤمن فيما زعمتم ... ويهزمهم بأسك أربعونا
كذبتهم، ليس ذلكم كذاكم ... ولكن الخوارج مؤمنونا
هم الفئة القليلة قد علمتم ... على الفئة الكثيرة ينصرونا
ومثل ذلك قول عبد الله بن مطيع بن الأسود العدوي، وكان فر يوم الحرة من جيش مسلم بن عقبة،
فلما كان أيام حصار الحجاج بمكة لعبد الله بن الزبير جعل يقاتل أهل الشام ويقول:
أنا الذي فررت يوم الحرة ... والشيخ لا يفر إلا مره
فاليوم أجزى فرة بكره ... لا بأس بالكرة بعد الفره
فلم يزل يقاتل حتى قتل.
وأحسن ما قيل في الفرار كله ما قاله قيس بن الخطيم:
إذا ما فررنا كان أسوا فرارنا ... صدود الحدود وازورار المناكب
أجالدهم يوم الحديقة حاسرا ... كأن يدي بالسيف مخراق لآعب «1»
وفر عتيبة بن الحارث بن هشام يوم ثبرة عن ابنه حزره وقال:
يا حسرتي لقد لقيت حسره ... يا لتميم غشيتني عبره
نعم الفتى غادرته بثبره ... نجيت نفسي وتركت حزره
هل يترك الحرّ الكريم بكره «2»

(132/1)

وفر أبو خراش الهذلي من فائد وأصحابه، وورصدوه بعرفات فقال:
وفوني وقالوا يا خويلد لا ترع ... فقلت وأنكرت الوجوه هم هم
وقلت وقد جاوزت أصحاب فائد ... أعجزت أولى الخيل أم أنا أحلم
فلولا ادراك الشر قامت حليلتي ... تخير من خطابها وهي أيم «1»
ولولا ادراك الشر أتلقت مهجتي ... وكان خراش يوم ذلك ييتم

وفّر خبيب بن عوف يوم مرداء هجر من أبي فديك، فقال:
بذلت لهم يا قوم حولي وقوتي ... ونصحي وما ضمت يداي من التبر
فلما تنهى الأمر بي من عدوكم ... إلى مهجتي ولّيت أعداءكم ظهري
وطرت ولم أحفل ملامة عاجز ... يقيم لأطراف الردينية السمر
فلو كان لي روحان عرّضت واحدا ... لكلّ ردينيّ وأبيض ذي أثر «2»
رجع بنا القول إلى الفرّارين والجنّاء وما قيل فيهم.

للفرزدي في خالد ابن أسيد

: فرّ خالد بن عبد الله بن أسيد عن مصعب بن الزبير يوم الجفرة بالبصرة، فقال فيه الفرزدق:
وكلّ بني السّوداء قد فرّ فرّة ... فلم يبق إلاّ فرّة في است خالد
فضحتم أمير المؤمنين وأنتم ... تمرّون سودانا غلاظ السّواعد
وقيل لرجل جبان في بعض الوقائع: تقدّم. فأنشأ يقول:
وقالوا تقدّم، قلت لست بفاعل ... أخاف على فخّارتي أن تحطّما
فلو كان لي رأسان أتلفت واحدا ... ولكنّه رأس إذا راح أعقما
فلو كان مبتاعا لدى السوق مثله ... فعلت ولم أحفل بأن أتقدّما
فأوتم أولادا وأرمل نسوة ... فكيف على هذا ترون التقدّما

(133/1)

بين هند وابن زنباع

: وقالت هند بنت النعمان بن بشير لزوجها روح بن زنباع: كيف سودك قومك وأنت جبان غيور؟
قال: أما الجبن، فإن لي نفسا واحدة فأنا أحوطها، وأما الغيرة فما أحق بها من كانت له امرأة حمقاء
مثلك، مخافة أن تأتيه بولد من غيره فترمي به في حجره.
وقال كعب بن زهير:

بخلا علينا وجبنا من عدوكم ... لبئست الخلتان البخل والجبن

فضائل الخيل

قال النبي صلّى الله عليه وسلّم في صفة الخيل: «أعرافها أذفاؤها «1»، وأذناها مذاّبها «2» والخيل
معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة» .

وقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عليكم بإناث الخيل فإن بطونها كنز؛ وظهورها حرز، وأصحابها معانون عليها» .

وسأل رجل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: إني أريد أن أشتري فرسا أعدّه في سبيل الله. فقال له: اشتره أدهم أو كميثا أقرح أرثم، أو محجلا مطلق اليمين «3»، فإنها ميامين الخيل. وقيل لبعض الحكماء: أي الأموال أشرف؟ قال: فرس تتبعها فرس في بطنها فرس.

(134/1)

صفة جياذ الخيل

للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

: كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستحب من الخيل الشقر.
وقال: «لو جمعت خيل العرب في صعيد واحد ما سبقها إلا أشقر» .
وسأله رجل: أي المال خير؟ قال: سكة مأبورة، ومهرة مأمورة «1» .
وكان عليه الصلاة والسلام يكره الشكّال «2» في الخيل.

لبعضهم

: وقالوا: إنما سميت خيلا لاختيائها.

ووصف أعرابي فرسا فقال: إذا تركته نعس، وإذا حرّكته طار.
وأرسل مسلم بن عمرو لابن عم له بالشام يشتري له خيلا، فقال له: لا علم لي بالخييل. فقال:
ألست صاحب قنص؟ قال: بلى. قال: فانظر، كل شيء تستحسنه في الكلب فاطلبه في الفرس.
فأتي بخيل لم يكن في العرب مثلها.
وقال بعض الضبّيين في وصف فرس:

متقاذف عبل الشوى شنج التّسا ... سباق أنديّة الجياذ عميثل «3»
وإذا تعلّل بالسّيّاط جياذاها ... أعطاك نائله ولم يتعلّل

بين المهدي وابن دراج في أفضل الخيل

: سأل المهدي مطر بن دراج عن أي الخيل أفضل؟ قال: الذي إذا استقبلته قلت نافر، وإذا استدبرته قلت زاخر «4»، وإذا استعرضته قلت زافر «5». قال: فأبي هذه

(135/1)

أفضل؟ قال: الذي طرفه إمامه، وسوطه عنانه.

وقال آخر: الذي إذا مشى ردى «1»، وإذا عدا دحا «2»، وإذا استقبل ألقى، وإذا استدبر جثي «3»، وإذا استعرض استوى.

بين معاوية وصعصعة

: وسأل معاوية بن أبي سفيان صعصعة بن صوحان: أي الخليل أفضل؟ قال: الطويل الثالث، القصير الثالث، العريض الثالث، الصافي الثالث. قال: فسر لنا. قال: أما الطويل الثالث، فالأذن والعنق والحزام؛ وأما القصير الثالث، فالصّلب والعسيب والقضيب؛ وأما العريض الثالث، فالجبهة والمنخر والورك؛ وأما الصافي الثالث، فالأديم والعين والحافر.

بين عمر بن الخطاب وعمرو بن معديكرب في عراب الخيل

: وقال عمر بن الخطاب لعمرو بن معديكرب: كيف معرفتك بعراب الخيل؟ قال: معرفة الإنسان بنفسه وأهله وولده. فأمر بأفراس فعرضت عليه، فقال: قدّموا إليها الماء في التّراس «4»، فما شرب ولم يكتف «5» فهو من العراب، وما ثنى سنبيه «6» فليس منها. قلت: إنما الحفوظ أن عمر شك في العتاق والهجن، فدعا سلمان بن ربيعة الباهلي فأخبره، فدعا سلمان بطست من ماء فوضع بالأرض، ثم قدّم إليه الخيل فرسا فرسا، فما ثنى سنبيه وشرب هجنه، وما شرب ولم يثن عرّبه.

(136/1)

وقال حسان بن ثابت يصف طول عنق الفرس:

بكلّ كميت جوزه نصف خلقه ... أقبّ طوال مشرف في الحوارك «1»
وقال زهير:

وملجنا ما إن ينال قذاله ... ولا قدماه الأرض إلا أنامله «2»

وقال آخر:

له ساقا ظليم خا ... صب فوجيء بالرّعب «3»

حديد الطّرف والمنك ... ب والعرقوب والقلب

وقال آخر «4» :

هریت قصیر عذار اللجام ... أسيل طويل عذار الرسن «5»
لم يرد بقوله «قصير عذار اللجام» قصر خذّه، وإنما أراد طويل شق الفم؛ وأراد بطول عذار الرسن،
طول الحدّ.

وقال آخر:

بكلّ هریت نقّي الأديم ... طويل الحزام قصير اللب «6»

لأبي عبيدة في عتاقه الفرس

: وقال أبو عبيدة: يستدلّ على عتاقة الفرس جحافله وأرنبته، وسعة منخرية، وعري نواهقه «7» ،
ودقّة حقهويه وما ظهر من أعالي أذنيه، ورقة سالفته وأديمه، ولين

(137/1)

شعره. وأبين من ذلك كله لين شكير «1» ناصيته وعرفه.

وكانوا يقولون: إذا اشتد نفسه، ورحب منتفّسه، وطال عنقه، واشتد حقوه، وانخرت شدقه، وعظمت
فخذاه، وانشبت «2» أنساؤه، وعظمت فصوصه، وصلبت حوافره ووقحت: ألحق بجياد الخيل.
قيل لرجل من بني أسد: أتعرف الفرس الكريم من المقرف «3»؟ قال نعم: أما الكريم فالجواد الجيد،
الذي نخر نحر العير «4»، وأنف تأنيف السّير، الذي إذا عدا اسلّهب «5»، وإذا قيّد اجلعب
«6»، وإذا انتصب اتلأب «7» .

وأما المقرف فإنه الدّلول الحجة، الضخم الأرنبة، الغليظ الرقبة، الكثير الجلبة، الذي إذا أرسلته قال
أمسكني، وإذا أمسكته قال أرسلني.

وكان محمد بن السائب الكلبي يحدث أنّ الصّافنات «8» الجياد المعروضة على سليمان ابن داود
عليهما السلام كانت ألف فرس ورثها عن أبيه، فلما عرضت عليه أهنته عن صلاة العصر حتى توارث
الشمس بالحجاب، فعرقها إلا أفراسا لم تعرض عليه، فوفد أقوام من الأزد، وكانوا أصهاره، فلما
فرغوا من حوائجهم، قالوا: يا نبيّ الله، إنّ أرضنا شاسعة فرودنا زادا يبلّغنا. فأعطاهم فرسا من تلك
الخيال، وقال: إذا نزلتم منزلا فاحملوا عليه غلاما واحتطبوا؛ فإنكم لا تورون ناركم حتى يأتيكم
بطعامكم. فساروا بالفرس، فكانوا لا ينزلون منزلا إلا ركبته أحدهم للقنص فلا يفلته شيء وقعت عينه
من ظبي أو بقر أو حمار، إلى أن قدموا إلى بلادهم فقالوا:

«ما فرسنا إلا زاد الراكب، فسموه زاد الراكب، فأصل فحول العرب من نتاجه.

(138/1)

ويقال إن «أعوج» كان منها، وكان فحلا لهلال بن عامر أنتجته أمه ببعض بيوت الحي، فنظروا إلى طرف يضع جحفلته على كاذتها - على الفخذ مما يلي الحياء - فقالوا: أدركوا ذلك الفرس لا ينزو على فرسكم، لعظم، «أعوج» وطول قوائمه فقاموا إليه فوجدوا المهبر، فسموه أعوج. وأخبرنا فرج بن سلام عن أبي حاتم عن الأصمعي قال: أغير على أهل النصار «1» وأعوج موثق بثمامة، «2» فجال صاحبه في متنه ثم زجره فاقتلع الثمامة، فخرجت تحف في متنه كالخدروف «3» وراءه، فعدا بياض يومه وأمسى يتعشى من جميم قباء «4» .

وقال الشاعر في وصف فرس:

وأحمر كالديباج أما سماؤه ... فريًا، وأما أرضه فمحول

قوله: سماؤه: أعلاه. وأرضه: أسفله، يريد قوائمه.

وللطائي نظير هذا حيث يقول:

مبتلّ متن وصهوتين إلى ... حوافر صلبة له ملس

فهو لدى الرّوع والجلائب ذو ... أعلى مندّى وأسفل ييس

أو أدهم فيه كمتة أمم ... كأنه قطعة من الغلس «5»

صهصلق في الصّهيل، تحسبه ... أشرح حلقومه على جرس

وقال حبيب أيضا يصف فرسا أهدها إليه الحسن بن وهب الكاتب.

ما مقرب يختال في أشطانه ... ملآن من صلف به وتلهوق «6»

بجوافز حفر وصلب صلّب ... وأشاعر شعر وحلق أحلق «7»

(139/1)

وبشعلة تبدو كأنّ حلولها ... في صهوتيه بدوّ شيب المفرق

ذو أولق تحت العجاج وإمّا ... من صحّة إفراط ذاك الأولق «1»

تغرى العيون به ويفلق شاعر ... في نعتة عفوا وليس بمفلق

بمصعد من نعتة ومصوّب ... ومجمّع من حسنه ومفروق

قد سالت الأوضح سيل قرارة ... فيه فمفترق عليه وملتقي «2»
صافي الأديم كأمّا ألبسته ... من سندس ثوبا ومن إستبرق
مسودّ شطر مثل ما اسودّ الدّجى ... مبيضّ شطر كالبيضاض المهرق «3»
فكأن فارسه يصرف إذ بدا ... في متنه ابنا للصبّاح الأبلق
إمليسة إمليدة لو علقت ... في سهوته العين لم تتعلق «4»
يرقى وما هو بالسليم ويغتدي ... دون السلاح سلاح أروع مملق «5»
لبعض الشعراء في أبي دلف

: وقال أبو سويد: شهد أبو دلف وقعة البدّ «6» وتحتة فرس أدهم وعليه نضح الدم، فاستوقفه رجل
من الشعراء وأنشد:

كم ذا تجرّعه المنون ويسلم ... لو يستطيع شكا إليك الأدهم
في كلّ منبت شعرة من جلده ... ثمق ينمّقه الحسام المخدم «7»
وكأمّا عقد التّجوم بطرفه ... وكأنه بعري المجرة ملجم «8»
وكأنه بين البوارق لقوة ... شقراء كاسرة طوت ما تطعم «9»
ما تدرك الأرواح أدنى سيره ... لا بل يفوت الرّيح فهو مقدّم

(140/1)

رجعته أطراف الأسنة أشقرا ... واللون أدهم حين ضرّجه الدّم
قال: فأمر له بعشرة آلاف.

لابن عبد ربه في وصف الفرس

: ومن قولنا في وصف الفرس:

ومقرّبة يشقرّ في التّقع كمتها ... ويخضّر حينما كلّما بلّها الرّشّح «1»
تطير بلا ريش إلى كلّ صيحة ... وتسبح في البرّ الذي ما به سبح
وقال عدّي بن الرّقاع:

يخرجن من فرجات التّقع دامية ... كأنّ آذانها أطراف أقلام

وطلب البحزري الشاعر من سعيد بن حميد بن عبد الحميد الكاتب فرسا ووصف له أنواعا من الخيل
في شعره فقال:

لأكلفن العيس أبعدهمة ... يجري إليها خائف أو مرتحي
وإلى سراة بني حميد إنهم ... أمسوا كواكب أشرقت في مذبح
والبيت لولا أن فيه فضيلة ... تعلق البيوت بفضلها لم يحجج
فأعن على غزو العدو بمنطو ... أحشاؤه طي الرداء المدرج
إما بأشقر ساطع أغشى الوغى ... منه بمثل الكوكب المتأجج
متسربل شية طلت أعطافه ... بدم فما تلقاه غير مضرج «2»
أو أدهم صافي الأديم كأنه ... تحت الكمي مظهر بيرندج «3»
ضرم يهيج السوط من شؤبويه ... هيج الجنائب من حريق العرفج «4»
خفت مواقع وطنه فلو انه ... يجري برملة عاج لم يرهج «5»

(141/1)

أو أشهب يقق يضيء وراءه ... متن كمتن اللجة المترجج «1»
تخفى الحجول ولو بلغن لبانه ... في أبيض متألق كالدملج «2»
أوفي بعرف أسود متفرد ... فيما يليه وحافر فيروزجي
أو أبلق ملأ العيون إذا بدا ... من كل لون معجب بنموذج
جدلان تحسده الجياد إذا مشى ... عنقا بأحسن حلة لم تنسج «3»
وعريض أعلى المتن لو عليته ... بالزئبق المنهال لم يتدحرج
خاضت قوائمه الوثيق بناؤها ... أمواج تخنيت بهن مدرج «4»
ولأنت أبعده في السماحة همة ... من أن تضن بملجم أو مسرج

لامريء القيس

: وأول من شبّه الخيل بالظباء والسرحان والنعامة، وتبعه الشعراء وحدوا حدوه وعلى مثاله - امرؤ
القيس بن حجر:

له أيطلا ظي وساقا نعامة ... وإرخاء سرحان وتقريب تنفل «5»
كأن على المتنين منه إذا انتحي ... مداك عروس أو صلاية حنظل «6»
مكرّ مفرّ مقبل مدبر معا ... كجلمود صخر حطه السيل من عل

درب كخزروف الوليد أمره ... تتابع كفيه بخيط موصل «7»
كميت يزل اللبد عن حال متنه ... كما زلت الصقواء بالمتنزل «8»

(142/1)

فأخذت الشعراء هذا التشبيه من امرئ القيس فخذوا عليه، فقال طفيل الخيل:
إني وإن قال مالي لا يفارقني ... مثل النعام في أوصالها طول
تقريبها المرطى والجوز معتدل ... كأنه سبد بالماء مغسول «1»
أو ساهم الوجه لم تقطع أباجله ... يسان وهو ليوم الرّوع مبذول «2»
بين عبد الملك بن مروان وأصحابه

: وقال عبد الملك بن مروان لأصحابه: أي المناديل أفضل؟ فقال بعضهم: مناديل مصر التي كأنها
غرقى «3» البيض. وقال بعضهم: مناديل اليمن التي كأنها أنوار الربيع.
فقال: ما صنعتم شيئا، أفضل المناديل مناديل عبدة بن الطيب حيث يقول:
لما نزلنا ضربنا ظلّ أخبية ... وفار باللحم للقوم المراجيل
وردا وأشقر لم ينهته طابخه ... ما قارب النضج منها فهو مأكول «4»
وقد وثبنا على عوج مسومة ... أعرافهنّ لأيدينا مناديل «5»

سوابق الخيل

قال الأصمعي: ما سبق في الرهان فرس أهضم قط. وأنشد لأبي التجم:
منتفج الجوف عريض كلكله «6»

لأبي النجم في فرس هشام

: قال: وكان هشام بن عبد الملك رجلا مسبقا لا يكاد يسبق، فسبقت له فرس أنثى وصلت أختها،
ففرح لذلك فرحا شديدا، وقال: عليّ بالشعراء. قال أبو النجم:

(143/1)

فدعينا فليل لنا: قولوا في هذا الفرس وأختها. فسأل أصحاب النشيد النظرة حتى يقولوا. فقلت له:
هل لك في رجل ينقدك إذا استنسوك «1»؟ قال: هات. فقلت من ساعتى:

أشاع للغراء فينا ذكرها ... قوائم عوج أطعن أمرها
وما نسينا بالطريق مهرها ... حين نقيس قدره وقدرها
وصبره إذا عدا وصبرها ... والماء يعلو نحره ونحرها
ملمومة شدّ المليك أسرها ... أسفلها وبطنها وظهرها «2»
قد كاد هاديتها يكون شطرها ... لا تأخذ الحلبة إلا سورها «3»
قال أبو النجم: فأمر لي بجائزة وانصرفت.

بين الرشيد والأصمعي في فرس سابق

: أبو القاسم جعفر بن أحمد بن محمد، وأبو الحسن علي بن جعفر البصري، قالوا:
حدثنا أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي: أن هارون الرشيد ركب في سنة خمس وثمانين ومائة
إلى الميدان لشهود الحلبة. قال الأصمعي: فدخلت الميدان لشهودها فيمن شهد من خواص أمير
المؤمنين؛ والحلبة يومئذ أفراس للرشيد ولولديه الأمين والمأمون، ولسليمان بن أبي جعفر المنصور
ولعيسى بن أبي جعفر فجاء فرس أدهم يقال له الريذ هرون الرشيد سابقا؛ فابتهج لذلك ابتهاجا
علم ذلك في وجهه، وقال عليّ بالأصمعي. فنوديت له من كل جانب، فأقبلت سريعا حتى مثلت بين
يديه، فقال: يا أصمعي، خذ بناصية الريذ ثم صفه من قونسه إلى سنيكه؛ فإنه يقال إن فيه عشرين
اسما من أسماء الطير. قلت: نعم يا أمير المؤمنين؛ وأنشدك شعرا جامعا لها من قول أبي حزره. قال:
فأنشدنا لله أبوك. قال: فأنشدته:

وأقبّ كالسرحان تمّ له ... ما بين هامته إلى التسر
الأقب: اللاحق المخطف البطن، وذلك يكون من خلقة وربما حدث من هزال أو

(144/1)

بعد قود؛ والأنثى قبّاء، والجمع قبّ، والمصدر القيب. والسرحان: الذئب، شبهه في ضموره وعدوه
به، وجمعه سراحين: وقد قالوا: سراح. والهامة: أعلى الرأس، وهي أم الدماغ، وهي من أسماء الطير.
والنسر: هو ما ارتفع من بطن الحافر من أعلاه كأنه التوى والحصى، وهو من أسماء الطير، وجمعه
نسور.

رحبت نعامته ووفّر فرخه ... وتمكن الصردان في النحر
رحبت: اتسعت. ونعامته: جلدة رأسه التي تغطي الدماغ، وهي من أسماء الطير.

وقوله «ووقر فرخه» الفرخ: هو الدماغ، وهو من أسماء الطيور، ووقر أي تمم؛ يقال: وقرت الشيء ووفرت، بالتخفيف، موفور. والصدردان: عرقان في أصل اللسان، ويقال إنهما عرقان أخضران مكتنفان باطن اللسان، منهما الرقيق ونفس الرئة؛ وهما من أسماء الطير. وفي الظهر صرد أيضا، وهو بياض يكون في موضع السرج من أثر الدبّر؛ يقال: فرس صرد إذا كان ذلك به. والنحر: موضع القلادة من الصدر، وهو البرك.

وأناف بالعصفور من سعف ... هام أشم موثق الجذر

أناف: أشرف. والعصفور: أصل منبت الناصية. والعصفور أيضا: عظم ناتيء في كل جبين. والعصفور: من الغرر أيضا، وهي التي سالت ودقت ولم تجاوز إلى العينين ولم تستدر كالقرحة؛ وهو من أسماء الطير. والسعف، يقال: فرس بين السعف، وهو الذي سالت ناصيته. وهام: أي سائل منتشر. وأشم: مرتفع؛ والشّم في الأنف:

ارتفاع قصبته. ويروى: هاد أشم. يريد عنقا مرتفعا، وجمعه هواد. وقوله: موثق، أي شديد قوي.

والجذر: الأصل من كل شيء. قال الأصمعي وغيره: هو بالفتح.

وقال أبو عمرو بن العلاء: هو بالكسر.

وازدان بالديكين صلصله ... ونبت دجاجته عن الصدر

ازدان: افتعل، من قولك زان يزين، وكان الأصل: ازتان، فقلبت التاء دالا لقرب مخرجها من مخرج الزاي، وكذلك ازداد، من زاد يزيد. والديكان: واحد هما ديك، وهو العظم الناتيء خلف الأذن، وهو الذي يقال له الحششاء والحششاء.

والصلصل: بياض في طرف الناصية: ويقال: هو أصل الناصية: والدجاجة: اللحم

(145/1)

الذي على زوره بين يديه؛ والديك والصلصل والدجاجة: من أسماء الطير.

والناهضان أمرّ جلزهما ... فكأتما عثما على كسر

الناهضان: واحدهما ناهض، وهو لحم المنكين؛ ويقال: هو اللحم الذي يلي العضدين من أعلاهما؛ والجمع نواهض؛ ويقال في الجمع: أنهض، على غير قياس.

والناهض: فرخ القطا، وهو من أسماء الطير. وقوله: أمرّ جلزهما: أي فتل وأحكم؛ يقال أمررت الحبل فهو ممرّ، أي فتلته؛ والجلز: الشدّ. وقوله:

فكأثما عثما على كسر

أي كأثما كسرا ثم جبرا؛ يقال: عثمت يده. والعثم: الجبر على عقدة وعوج؛ وعثمان: فعلان منه. مسحنفر الجنين ملتئم ... ما بين شيمته إلى العرّ مسحنفر الجنين: أي منتفخهما. ملتئم: أي معتدل. وشيمته: نحره والشيمة أيضا: من قولك: فرس أشيم: بين الشيمة، وهي بياض فيه؛ ويقال: أن تكون شامة أو شام في جسده. والعرّ في الطير الذي يسمى الرخمة، وهي عضلة الساق. وصفت سماناه وحافره ... وأديمه ومنابت الشعر السّماني: طائر، وهو موضع من الفرس لا أحفظه، إلا أن يكون أراد السّمامة، وهي دائرة تكون في سالفة الفرس، وهو عنقه. والسّمامة من الطير أيضا. والأديم: الجلد.

وسما الغراب لموقعيه معا ... فأين بينهما على قدر سما الغراب: أي ارتفع. والغراب: رأس الورك. ويقال للصّلوين: الغرابان، وهما مكتنفا عجب الذنب. ويقال: هما أعالي الوركين. والموقعان منه: في أعالي الخاصرتين. فأين: أي فرّق بينهما. على قدر، أي على استواء واعتدال. واكتنّ دون قبيحه خطّافه ... ونأت سمّامته عن الصّقر اكنّ، أي استتر. والقبيح: ملتقى الساقين، ويقال إنه مركّب الذراعين في العضدين. والخطّاف: من أسماء الطير، وهو حيث أدركت عقب الفارس إذا حرّك

(146/1)

رجليه، ويقال لهذين الموضعين من الفرس: المركلان. ونأت. أي بعدت، والسّمامة: دائرة تكون في عنق الفرس، وقد ذكرناها، وهي من أسماء الطير. والصقر: أحسبها دائرة في الرأس، وما وقفت عليها، وهي من أسماء الطير. وتقدّمت عنه القطة له ... فنأت بموقعها عن الحرّ القطة: مقعد الرّدف، وهي من أسماء الطير؛ والحرّ: من الطير، يقال: إنه ذكر الحمام. وهي من الفرس: سواد يكون في ظاهر أذنبه. وسما على نقويه دون حدّاته ... خربان بينهما مدى الشبر

التَّقْوَان: واحد هما نقو، والجمع أنقاء. وهو عظم ذو مخ، وإنما عنى ها هنا عظام الوركين؛ لأن الحرب هو الذي تراه مثل المدهن في ورك الفرس. وهو من الطير: ذكر الحبارى. والحدأة: من الطير: وأصله الهمز ولكنه خَفَف، وهي سألفة الفرس، وجمعها حداء، على وزن فعال، كما تقول: عطاءة وعطاء؛ ويقال: عطاءية.

وإذا فتحت الفاء قلت حدأة، وهو الفأس ذات الرأسين، وجمعها حدأ، مثل نواة ونوى، وقطاة وقطا. يدع الرّضيم إذا جرى فلقا ... بتوائم كمواسم سمر

الرّضيم: الحجارة. والفلق: المكسورة فلقا. بتوائم: جمع توأم، وقد قالوا: توأم، على وزن فعال، جمع توأم؛ وهي على غير قياس. يقول: هي مثنى مثنى، يعني حوافره. والمواسم: جمع ميسم الحديد، أي إنما كمواسم الحديد في صلابتها. وقوله سمر: أي لون الحافر، وهو أصلب الحوافر.

رَكَبَن فِي مَحْضِ الشَّوَى سَبَط ... كَفَتِ الْوُثُوبُ مَشَدَّدَ الْأَسْرِ

الشوى ها هنا: القوائم، والواحدة شواة؛ ويقال: فرس محض الشوى، إذا كانت قوائمه معصوبة. سبط: سهل. كفت الوثوب. أي مجتمع، من قولك: كفت الشيء، إذا جمعته وتمّمته. مشدّد الأسر: أي الخلق.

قال الأصمعي: فأمر لي بألف درهم.

(147/1)

لأبي العتاهية في المشمر فرس الرشيد

: وسبق يوما فرس للرشيد، يسمى المشمر. وكان أجراه مع أفراس للفضل وجعفر ابني يحيى بن خالد البرمكي. فقال أبو العتاهية:

جاء المشمر والأفراس يقدمها ... هونا على سرعة منها وما انتهرا «1»
وخلف الريح حسرى وهي تتبعه ... ومرّ يختطف الأبصار والنظرا

لأبي النجم في الحلبة

: وقال أبو النجم في شعر الفرس، وهو أجود شعر يصف الحلبة:
ثمّ سمعنا برهان نأمله ... قيد له من كلّ أفق جحفله
فقلت للسّائس قده أعجله ... واغد لنا في الرّهان نرسله «2»
نعلو به الحزن ولا نسهله ... إذا علا الأخشب صاح جندله «3»

ترّمّ النَّوْحُ يبكي مثكله ... كأنّ في الصّوت الذي يفصله
زقار دفّ يتغنى جلجله ... حتى وزدنا المصر يطوى قبله «4»
طيّ التّجار العصب إذ تنخله ... وقد رأينا فعلهم فنفعله «5»
نطويه والطيّ الرقيق يجده ... نضمّر الشّحم ولسنا نخرله
حتى إذا الليل تولى أتجله ... واتّبع الأيدي منه أرجله «6»
قمنا على هول شديد وجله ... نمدّ جبلا فوق خطّ نعدله «7»
نقول قدّم ذا وهذا أدخله ... وقام مشقوق القميص يعجله
فوق الحماسيّ قليلا يفضله ... أدرك عقلا والرّهان عمله «8»

(148/1)

حتى إذا أدرك خيلا مرسله ... ثار عجاج مستطير قسطله «1»
تنفّس منه الخيل ما لا تغزله ... مرّاً يغطّيها ومرّاً تنعله
مرّ القطا انصبّ عليه أجده ... وهو رخيّ الببال سام وهله «2»
قدّمه مثلا لمن يمثله ... تطيره الجنّ وحيناً ترجمه
تسبح أخراه ويطفوا أوله ... ترى الغلام ساجيا ما يركله «3»
يعطيه ما شاء وليس يسأله ... كأنّه من زيد يسربله
في كرسف التّداف لولا بلله ... تخال مسكا عله معلله «4»
ثمّ تناولنا الغلام تنزله ... عن مفرع الكتفين حلو عطله «5»
منتفج الجوف عريض كلكله ... فوافت الخيل ونحن نشكله «6»
والجنّ عكّاف به تقبّله

وقال آخر في فرس أبي الأعرور السلمي:

مرّ كلمع البرق سام ناظره ... تسبح أولاه ويطفوا آخره

فما يمسنّ الأرض منه حافره

قول هذا أشبه من قول أبي النجم: لأنه يقول:

تسبح أخراه ويطفوا أوله

وقال الأصمعي: إذا كان الفرس كما قال أبو النجم فحمار الكسّاح «7» أسرع منه.

لأن اضطراب مؤخره قبيح.

وقال الأصمعي: كان أبو النجم وصّافا للخيل إلا أنه غلط في هذا البيت، وقد غلط رؤية أيضا في
الفرس فقال يصف قوائمه:
يهوين شتى ويقعن وفقا «8»

(149/1)

ولما أنشده مسلم بن قتيبة، قال له: أخطأت في هذا يا أبا الجحاف، جعلته مقيدا.

قال: قربي من ذنب البعير.

وأنشد الأصمعي:

قد أطرق الحيّ على سابح ... أسطع مثل الصّدع الأجرد

لما أتيت الحيّ في متنه ... كأنّ عرجونا بمثنى يدي «1»

أقبل يختال على شأوه ... يضرب في الأقرب والأبعد

كأنه سكران أو عابس ... أو ابن ربّ حدث المولد

وقال غيره:

أما إذا استقبلته فكأنه ... جذع سما فوق التّخيل مشدّب

وإذا اعترضت له استوت أقطاره ... وكأنه، مستدبرا، متصوّب

وقال ابن المعتز:

وقد يحضر الهيجاء في شنج النّسا ... تكامل في أسنانه فهو قارح «2»

له عنق يغتال طول عنانه ... وصدر إذا أعطيته الجري سابح

إذا مال عن أعطافه قلت شارب ... عناه بتصريف المدامة طافح

وقال أيضا:

ولقد وطئت الغيث يحملني ... طرف كلون الصّبح حين وقد

يمشي ويعرض في العنان كما ... صدف المعشّق بالدلال وصد «3»

طارت به رجل مرصّعة ... رجامة لخصى الطريق ويد «4»

فكأنه موج يسيل إذا ... أطلقته وإذا حبست جمد

(150/1)

الحلبة والرهان

والحلبة: مجمع الخيل، ويقال: مجتمع الخيل، ويقال: مجتمع الناس للرهان؛ وهو من قولك: حلب بنو فلان على بني فلان وأحلبوا: إذا اجتمعوا. ويقال منه: حلب الحالب اللبن في القدح: أي جمعه فيه. والمقوس: الحبل الذي يمدّ في صدور الخيل عند الإرسال للسياق. والمنصبية: الخيل حين تنصب للإرسال.

وأصل الرهان من الرهن، لأن الرجل يراهن صاحبه في المسابقة، يضع هذا رهنا وهذا رهنا، فأيهما سبق فرسه أخذ رهنه ورهن صاحبه. والرهان، مصدر راهنته مراهنته ورهاننا، كما تقول: قاتلته مقاتلة وقتالنا. وهذا كان من أمر الجاهلية، وهو القمار المنهبيّ عنه. فإن كان الرهن من أحد هما بشيء مسمّى على أنه إن سبق لم يكن له شيء، وإن سبقه صاحبه أخذ الرهن، فهذا حلال؛ لأن الرهن إنما هو من أحدهما دون الآخر؛ وكذلك إن جعل كل واحد منهما رهنا وأدخلا بينهما محلاً، وهو فرس ثالث يكون مع الأولين، ويسمى أيضا الدّخيل ولا يجعل لصاحب الثالث شيء، ثم يرسلون الأفراس الثلاثة، فإن سبق أحد الأولين أخذ رهنه ورهن صاحبه فكان له طيبا، وإن سبق الدخيل أخذ الرهنيين جميعا، وإن سبق هو لم يكن عليه شيء. ولا يكون الدخيل إلا رائعا جوادا، لا يأمنان أن يسبقهما؛ وإلا فهذا قمار، لأنهما كأتهما لم يدخلا بينهما محلاً.

قال الأصمعي: السابق من الخيل: الأول، والمصلّي: الثاني الذي يتلوه. قال: وإنما قيل له مصلّ، لأنه يكون عند صلوي السابق، وهما جانبا ذنبه عن يمينه وشماله؛ ثم الثالث والرابع لا اسم لواحد منهما إلى العاشر، فإنه يسمّى سكيّتا.

قال أبو عبيدة: لم نسمع في سوابق الخيل ممن يوثق بعلمه اسما لشيء منها إلا الثاني والعاشر؛ فإن الثاني اسمه المصلّي، والعاشر السّكيت؛ وما سوى ذينك يقال له الثالث والرابع، وكذلك إلى التاسع، ثم السّكيت ويقال السّكيت، بالتشديد والتخفيف، فما جاء بعد ذلك لم يعتدّ به. والفسكل - بالكسر - الذي يجيء آخر

(151/1)

الخيل، والعامّة تسميه الفسكل - بالضم.

وقال أبو عبيدة: القاشور، الذي يجيء في الحلبة آخر الخيل، وهو الفسكل، وإنما قيل للسّكيت؛

سكيت لأنه آخر العدد الذي يقف العادّ عليه. والسكت: الوقوف، هكذا كانوا يقولون، فأما اليوم فقد غيّرُوا.

وكان من شأنهم أن يمسحوا على وجه السابق. قال جرير:
إذا شئتم أن تمسحوا وجه سابق ... جواد، فمدّوا في الرّهان عنانها
ومن قولنا في هذا المعنى:

وإذا جواد الخيل ما طلبها المدى ... وتقطّعت في شأوها المبهور «1»
خلّوا عناني في الرّهان ومسّحوا ... مئى بغرة أبلق مشهور «2»

وصف السلاح

درع عليّ

: كانت درع عليّ صدرا لا ظهر لها، فقليل له في ذلك؛ فقال: إذا استمكن عدوّي من ظهري فلا يبق.

ورؤي الجراح بن عبد الله قد ظاهر بين درعين، فقليل له في ذلك؛ فقال: لست أقي بدني وإنما أقي صبري «3» .

واشترى زيد بن حاتم أدراعا وقال: إني لست أشترى أدراعا وإنما أشترى أعمارا.
وقال حبيب بن المهلب لبنيه: لا يقعدنّ أحدكم في السوق، فإن كنتم لا بدّ فاعلين، فإلى زراد، أو سراج، أو وراق.

(152/1)

بين عمر بن الخطاب وعمرو بن معد يكرب في الصمصامة

: العتيبي قال: بعث عمر بن الخطاب إلى عمرو بن معد يكرب أن يبعث إليه بسيفه المعروف بالصمصامة، فبعث به إليه، فلما ضرب به وجهه دون ما كان يبلغه عنه، فكتب إليه في ذلك، فردّ عليه: إنما بعثت إلى أمير المؤمنين بالسيف، ولم أبعث بالساعد الذي يضرب به.
وسأله عمر بن الخطاب يوما عن السلاح، فقال: يسأل أمير المؤمنين عما بدا له.
قال: ما تقول في الترس؟ قال: هو الجنّ الدائر، وعليه تدور الدوائر. قال: فما تقول في الرمح؟ قال: أخوك وربما خانك فانقصف. قال: فالتبّل؟ قال: منايا تخطي وتصيب. قال: فما تقول في الدرّع؟ قال: مثقلة للراجل، متعبة للفارس، وإنما لحصن حصين. قال: فما تقول في السيف؟ قال: هناك لا أمّ

لك يا أمير المؤمنين، فضربه عمر بالدرة وقال: بل لا أم لك. قال: الحمى أضرعتني لك «1» .

لابن يامين في الصمصامة

: الهيثم بن عدي قال: وصف سيف عمرو بن معد يكرب الذي يقال له الصمصامة لموسى الهادي، فدعا به فوضع بين يديه مجرداً، ثم قال لحاجبه: إيذن للشعراء. فلما دخلوا أمرهم أن يقولوا فيه، فبدرهم ابن يامين «2» فقال:

حاز صمصامة الزبيدي عمرو ... من جميع الأنام موسى الأمين
سيف عمرو وكان فيما سمعنا ... خير ما أغمدت عليه الجفون
أخضر المتن بين حدّيه نور ... من فرند تمتدّ فيه العيون
أوقدت فوقه الصواعق نارا ... ثم ساطت به الدّعاف القيون «3»
فإذا ما سللته بحر الشم ... س ضياء فلم تكد تستبين

(153/1)

فكأنّ الفرند والرّونق الجا ... ري في صفحته ماء معين
وكان المنون نيطت إليه ... فهو من كل جانبيه منون «1»
نعم مخراق ذي الحفيظة في الهي ... جاء يسطو به ونعم القرين
ما يبالي من انتضاه لحرب ... أشمال سطت به أم يمين
فأمر له ببدره وخرجوا.

الزبير بن العوام وسيف

: وضرب الزبير بن العوام يوم الخندق عثمان بن عبد الله بن المغيرة فقطه إلى القربوس؛ فقالوا: ما أجود سيفك! فغضب - يريد أن العمل ليده لا لسيفه - وقال:
متى تلقني يعدو ببزي مقلّص ... كميبت بهيم أو أغرّ محجل «2»
تلاق امرء إن تلقه فسيفه ... تعلّمك الأيام ما كنت تجهل
وقال أبو الشّيص:

ختلته المنون بعد اختيال ... بين صقّين من قنّا ونصّال «3»
في رداء من الصفيح صقيل ... وقميص من الحديد مزال «4»

لأبي الأغر يوصي ابنه

: وبلغ أبا الأغر التميمي أن أصحابه بالبادية قد وقع بينهم شر، فوجه إليهم ابنه الأغر وقال: يا بني،
كن يدا لأصحابك على من قاتلهم، وإياك والسيف فإنه ظلّ الموت، واتق الرّمح فإنه رشاء المنية
«5»، ولا تقرب السهام فإنها رسل لا تؤامر مرسلها. قال: فماذا أقاتل؟ قال: بما قال الشاعر:
جلاميد يملأن الأكف كأنها ... رعوس رجال حلقت بالمواسم

(154/1)

وذكر أعرابي قوما تحاربوا فقال: أقبلت الفحول، تمشي مشي الوعول، فلما تصافحوا بالسيوف،
فغرت «1» المنايا أفواهاها.
وقال آخر يذكر قوما أسروا: استنزلوهم عن الجياد بليئة الخرصان «2»، ونزعوهم نزع الدلاء
بالأشطان «3» .
وقال أعرابي في آخرين ابتغوا قوما أغاروا عليهم، فقال: احتتوا كل جمالية عيرانة «4»، كيما يخصفون
أخفاف المطي بحوافر الخيل، حتى أدركوهم بعد ثالثة، فجعلوا المران أرشية المنايا فاستقوا بها أرواحهم.
ومن أحسن ما قيل في السيف قول حبيب:
ونبهن مثل السيف لو لم تسله ... يدان لسلته ظباه من الغمد
وقال في صفة الرماح:
مثقفات سلبن الروم زرقتها ... والعرب ألوانها والعاشق القضا «5»
ومن الإفراط القبيح قول النابغة في وصف السيف:
يقدّ السلوقي المضاعف نسجه ... ويوقد في الصّقاح نار الحباحب «6»
فذكر أنه يقدّ الدرع المضاعف نسجه، والفارس، والفرس، ويقع بها في الأرض فيقده النار من
الحجارة.
وأقبح منه في الإفراط قول الآخر:
تظل تحفر عنه إن ضربت به ... بعد الذراعين والقيدين والهادي «7»

(155/1)

وقد جمع العلويّ وصف الخيل والسلاح كله فأحسن وجود حيث يقول:
بحسي من مالي من الخيل أعيط ... سليم الشطّي عاري التواهيق أمعط «1»
وأبيض من ماء الحديد مهتد ... وأسمر عسّال الكعوب عنطنط «2»
وبيضاء كالضحاح زغف مفاضة ... يكفّتها عيّ نجاد مخطّط «3»
ومعطوفة الأطراف كبداء سمحة ... منفجة الأعضاد صفراء شوحط «4»
فيا ليت مالي غير ما قد جمعته ... على لجة تيارها يتغطط «5»
ويا ليتني أمسي على الدهر ليلة ... وليس على نفسي أمير مسلّط
لابن عبد ربه

: ومن قولنا في وصف الرمح والسيف:

بكلّ ردينيّ كأنّ سنانه ... شهاب بدا في ظلمة الليل ساطع
تفاصرت الآجال في طول متنه ... وعادت به الآمال وهي فجائع
وساءت ظنون الحرب في حسن ظنّه ... فهنّ ظبات للقلوب قوارع «6»
وذي شطب تقضي المنايا بحكمه ... وليس لما تقضي المنية دافع
فرند إذا ما اعتنّ للعين راكد ... وبرق إذا ما اهتر بالكفّ لامع
يسلّل أرواح الكماة انسلاله ... ويرتاع منه الموت والموت رائع
إذا ما التقت أمثاله في وقية ... هنالك ظنّ النفس بالنفس واقع
ومن قولنا في وصف السيّف:

(156/1)

بكلّ ماثور على متنه ... مثل مدب التمل بالقاع
يرتدّ طرف العين من حدّه ... عن كوكب للموت لمّاع
وقال إسحاق بن خلف البهراني في صفة السيّف:
ألقي بجانب خصره ... أمضي من الأجل المتاح
وكأنا ذرّ الهبا ... عليه أنفاس الرّياح «1»
ومن جيد صفات السيّف قول الغنوي:
حسام غداة الرّوع ماض كأنّه ... من الله في قبض النفوس رسول

كأنّ على إفرنده موج لجة ... تقاصر في ضحضاحه وتطول

كأنّ جيوش الدّرّ كسّرن فوقه ... قرون جراد بينهن ذحول «2»

النزع بالقوس

إبراهيم الشيباني قال: كان رجل من أهل الكوفة قد بلغه عن رجل من أهل لسلطان أنه يعرض له ضيعة بواسطة في مغرم لزمه للخليفة؛ فحمل وكيلا له على بغل وأترع «3» له خرجا بدنانير، وقال له: اذهب إلى واسط فاشتر لي هذه الضيعة المعروضة، فإن كفاك ما في هذا الحرج وإلا فاكتب إلى أمّك بالمال. فخرج، فلما أصحر عن البيوت، لحق به أعرابي راكب على حمار معه قوس وكنانة؛ فقال له: إلى أين تتوجه؟ فقال: إلى واسط. قال: فهل لك في الصّحبة؟ قال: نعم. فسارا حتى فوّزا، فعنت لهما ظباء، فقال له الأعرابي: أيّ هذه الظباء أحبّ إليك: المتقدم منها أم المتأخر فأزّكّيه «4» لك؟ قال له: المتقدم. فرماه فخرمه بالسهم، فاشتويا وأكلا، فاغبتبط الرجل بصحبة الأعرابي، ثم عنّ له زفة قطا، فقال: أيها تريد فأصرعها لك؟

(157/1)

فأشار إلى واحدة منها فرماها فأقصدها، ثم اشتويا وأكلا، فلما انقضى طعامهما فوّق له الأعرابي سهما ثم قال له: أين تريد أن أصيبك؟ فقال له: اتق الله واحفظ زمام الصحبة. قال: لا بد منه! قال له: اتق الله ربك واستبقني، ودونك البغل والخرج فإنه مترع مالا. قال: فاخلع ثيابك. فانسلك من ثيابه ثوبا ثوبا حتى بقي مجرّدا. قال له:

اخلع أمواقك «1». وكان لابسا خفين طائفين، فقال له: اتق الله فيّ ودع لي الخفين أتبلّغ بهما من الحرّ، فإن الرّمضاء تحرق قدمي. قال: لا بدّ منه. قال فدونك الخف فاخلعه. فلما تناول الخفّ، ذكر الرجل خنجرا كان معه في الخفّ، فاستخرجه ثم ضرب به صدره فشقه إلى عانته، وقال له: الاستقصاء فرقة. فذهبت مثلا. وكان هذا الأعرابي من رماة الحدق «2».

بين لص ورام

: وحدث العتبي عن بعض أشياخه قال: كنت عند المهاجر بن عبد الله والي اليمامة، فأتي بأعرابي كان معروفا بالسرق فقال له: أخبرني عن بعض عجائبك. قال: عجائب كثيرة، ومن أعجبها أنه كان لي بغير لا يسبق، وكانت لي خيل لا تلحق، فكنت أخرج فلا أرجع خائبا، فخرجت يوما فاحترشت «3» ضبّا، فعلقته على قنبي، ثم مررت ببناء ليس فيه إلا عجوز ليس معها غيرها، فقلت: يجب أن

يكون لهذه رائحة من غنم وإبل. فلما أمسيت إذا بإبل مائة، وإذا شيخ عظيم البطن، شن الكفين «4»، ومعه عبد أسود، فلما رأني رحب بي، ثم قام إلى ناقة فاحتلبها، وناولني العلبه. فشربت ما يشرب الرجل، فتناول الباقي فضرب به جبهته، ثم احتلب تسع أبنق فشرب ألبانن، ثم نحر حوارا «5» فطبخه، فأكلت شيئا، وأكل الجميع حتى ألقى عظامه بيضا، وجثا على كومة من البطحاء وتوسدها ثم غط غطيظ البكر. فقلت:

(158/1)

هذه والله الغنيمة، ثم قمت إلى فحل إبله فخطمته «1»: ثم قرنته ببعيري وصحت به، فاتبعني الفحل واتبعته الأبل إربابا به في قطار «2»، فصارت خلفي كأنها جبل ممدود؛ فمضيت أبادر ثنية بيني وبينها مسيرة ليلة للمسرع، ولم أزل أضرب بعيري، مرة بيدي، ومرة برجلي، حتى طلع الفجر؛ فأبصرت الثنية، وإذا عليها سواد، فلما دنوت منه إذا الشيخ قاعد وقوسه في حجره! فقال: أضيفنا؟ قلت: نعم! قال: أتسخو نفسك عن هذه الإبل؟ قلت: لا. فأخرج سهما كأنه لسان كلب، ثم قال: انظره بين أذني الضب المعلق في القتب. ثم رماه فصدع عظمه عن دماغه، فقال لي: ما تقول؟ قلت: أنا على رأيي الأول. قال: انظر هذا السهم الثاني في فقرة ظهره الوسطى، ثم رمى به فكأنما قدّره بيده ثم وضعه بأصبعه، ثم قال: رأيك؟ فقلت: إني أحب أن أستثبت. قال: انظر هذا السهم الثالث في عكوة ذنبه، والرابع والله في بطنك. ثم رماه فلم يخطيء العكوة؛ قلت: أنزل آمننا؟ قال: نعم. فدفعت إليه خطام فحله وقلت: هذه إبلك لم تذهب منها وبرة. وأنا أنظر متى يرميني بسهم يقصد به قلبي؛ فلما تباعدت قال: أقبل! فأقبلت والله فرقا من شره لا طمعا في خيره. فقال: ما أحسبك تجشمت الليلة ما تجشمت إلا من حاجة! قلت نعم. قال: فاقرن من هذه الإبل بعيرين وامض لطيتك. قال: قلت: أما والله لا أمضي حتى أخبرك عن نفسك؛ فلا والله ما رأيت أعرابيا قط أشدّ ضرسا، ولا أعدى رجلا، ولا أرمى يدا، ولا أكرم عفوا، ولا أسخى نفسا، منك. فصرف وجهه عني حياء وقال: خذ الإبل برمتها مباركا لك فيها.

للنبي صلى الله عليه وسلم في الرمي

: وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «اركبوا وارموا؛ وأن ترموا أحب إليّ من أن تركبوا» .

وقال: «كل هو المؤمن باطل إلا في ثلاث: تأديبه فرسه ورميه عن كبد قوسه، وملاعبته امرأته؛ فإنه حق. إن الله ليدخل الجنة بالسهم الواحد عامله المحتسب،

(159/1)

والقويّ به في سبيل الله، أي والرامي به في سبيل الله». .
وروي عن عقبه بن عامر قال: سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول وهو قائم على المنبر:
وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ
«1». ألا إنّ القوة الرمي. ألا إنّ القوة الرمي.
ألا إنّ القوة الرمي.

وكان أرمى أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم سعد بن أبي وقاص؛ لأن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم دعا له فقال: اللهم سدّد رميته، وأجب دعوته. فكان لا يردّ له دعاء، ولا يخيب له سهم. النبي صلّى الله عليه وسلّم ورماة من أسلم
: وذكر أسامة بن زيد: أنّ شيوخا من أسلم حدّثوه، أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم جاءهم وهم يرمون ببطحان، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: ارموا يا بني إسماعيل، فقد كان أبوكم راميا، وأنا مع ابن الأدرع. فتعدّى القوم فقالوا: يا رسول الله، من كنت معه فقد نضل «2». قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: ارموا وأنا معكم كلكم. فانتضلوا ذلك اليوم ثم رجعوا بالسواء؛ ليس لأحد على أحد منهم فضل.

لعمر بن الخطاب

: وقال عمر: ائتروا وارتدوا، وانتعلوا واحتفوا، وارموا الأغراض، والقوا الركب، وانزوا على الخيل نزوا «3»، وعليكم بالمعدية - أو قال: بالعربية - ودعوا التنعم وزيّ العجم.
وقال أيضا: لن تخور قواكم ما نزوتم ونزعتم. يعني نزوتم على ظهور الخيل ونزعتم بالقسي.

(160/1)

لرجل من البادية يذمر قومه

: وجنى قوم من أهل اليمامة «1» جناية، فأرسل السلطان إليهم جندا من محاربة بن زياد. فقام رجل من أهل البادية يذمر أصحابه فقال: يا معشر العرب، ويا بني الحصنات، قاتلوا عن أحسابكم وأنسابكم؛ فو الله لئن ظهر هؤلاء عليكم لا يدعون بما لبنة حمراء ولا نخلة خضراء إلا وضعوها

بالأرض، ولا عزراكم من نشاب معهم في جعاب كأنها أيور القبلة ينزعون في قسي كأنها الغبط «2»، تنط «3» إحداهن أطيط الزرنوق «4»، يمعت «5» أحدهم فيها حتى يتفرق شعر إبطيه، ثم يرسل نشابة كأنها رشاء منقطع، فما بين أحدكم وبين أن تنفضخ عينه أو ينصدع قلبه منزلة. فخلع قلوبهم فطاروا رعبا.

مشاورة المهدي لأهل بيته في حرب خراسان

هذا ما تراجع فيه المهدي ووزرائه، وما دار بينهم من تدبير الرأي في حرب خراسان، أيام تحاملت عليهم العمال وأعنفت، فحملتهم الدالة وما تقدم لهم من المكانة على أن نكثوا بيعتهم، ونقضوا موثقتهم، وطرودوا العمال، والتووا بما عليهم من الخراج. وحمل المهدي ما يجب من مصلحتهم ويكره من عنتهم على أن أقال عثرتهم «6»، واغتفر زلتهم، واحتمل دالتهم؛ تطولا بالفضل، واتساعا بالعفو، وأخذا بالحجة، ورفقا بالسياسة؛ ولذلك لم يزل مذممه الله أعباء الخلافة، وقلده أمور

(161/1)

الرعية، رفيقا بمدار سلطانه، بصيرا بأهل زمانه، باسطا للمعدلة في رعيته؛ تسكن إلى كنفه، وتأنس بعفوه، وتثق بحلمه؛ فإذا وقعت الأقضية اللازمة، والحقوق الواجبة، فليس عنده هوادة ولا إغضاء ولا مداينة «1»؛ أثرة للحق، وقياما بالعدل، وأخذا بالحزم. فدعا أهل خراسان الاغترار بحلمه، والثقة بعفوه، أن كسروا الخراج، وطرودوا العمال، وسألوا ما ليس لهم من الحق؛ ثم خلطوا احتجاجا باعتذار، وخصومة بإقرار، وتنصلا باعتلال. فلما انتهى ذلك إلى المهدي، خرج إلى مجلس خلّائه، وبعث إلى نفر من حتمته ووزرائه، فأعلمهم الحال، واستنصهم للرعية؛ ثم أمر الموالي بالابتداء؛ وقال للعباس بن محمد: أي عم، تعقب قولنا، وكن حكما بيننا.

وارسل إلى ولديه موسى وهارون فأحضرهما الأمر، وشاركهما في الرأي. وأمر محمد ابن الليث بحفظ مراجعتهم وإثبات مقالاتهم في كتاب.

فقال سلام صاحب دار المظالم: أيها المهدي، إن في كل أمر غاية، ولكل قوم صناعة، استفرغت رأيهم، واستغرقت أشغالهم، واستنفدت أعمارهم، وذهبوا بها وذهبت بهم، وعرفوا بها وعرفت بهم؛ ولهذا الأمور التي جعلتنا فيها غاية وطلبت معونتنا عليها: أقوام من أبناء الحرب، وساسة الأمور، وقادة الجنود، وفرسان الهزاهز «2»، وإخوان التجارب، وأبطال الوقائع، الذين رشحتهم سجاهلها، وقيّأهم ظلالها، وعضتتهم شدائدتها، وقرمتهم نواجذها «3»؛ فلو عجمت ما قبلهم، وكشفت ما

عندهم، لوجدت نظائر تؤيد أمرك، وتجارب توافق نظرك، وأحاديث تقوي قلبك. فأما نحن معاصر
عمّا لك، وأصحاب دو اوينك، فحسن بنا وكثير ممّا أن نقوم بثقل ما حملتنا من عملك، واستودعتنا
من أمانتك، وشغلنا به من إمضاء عدلك وإنفاذ حكمك، وإظهار حقك.
فأجابه المهدي: إن في كل قوم حكمة، ولكل زمان سياسة، وفي كل حال تدبير يبطل الآخر الأوّل؛
ونحن أعلم بزماننا وتدبير سلطاننا.

(162/1)

قال: نعم أيها المهدي، أنت متسع الرأي، وثيق العقدة قوي المنة «1»، بليغ الفطنة، معصوم النية،
محضور الروية، مؤيد البديهة، موفق العزيمة، معان بالظفر، مهديّ إلى الخير؛ إن هممت ففي عزمك
مواقع الظنّ، وإن أجمعت صدع فعلك ملتبس الشك، فاعزم يهد الله إلى الصواب قلبك، وقل ينطق
الله بالحق لسانك، فإن جنودك جمّة، وخزائنك عامرة، ونفسك سخية، وأمرك نافذ.
فأجابه المهدي: إن المشاورة والمناظرة بابا رحمة ومفتاحا بركة، لا يهلك عليهما رأي، ولا يتفيل «2»
معهما حزم؛ فأشيروا برأيكم، وقولوا بما يحضركم؛ فإني من ورائكم، وتوفيق الله من وراء ذلك.
قال الربيع: أيها المهدي، إن تصاريف وجوه الرأي كثيرة، وإن الإشارة ببعض معاريف القول «3»
يسيرة؛ ولكنّ خراسان أرض بعيدة المسافة، متراخية الشقة، متفاوتة السبل، فإذا ارتأيت من محكم
التدبير، ومبرم التقدير، ولباب الصواب. رأيا قد أحكمه نظرك، وقلبه تدبيرك، فليس وراءه مذهب
لحجة طاعن، ولا دونه متعلق لخصومة عائب، ثم خبت «4» البرد به، وانطوت الرسل عليه. كان
بالحرى ألا يصل إليهم محكمه إلا وقد حدث منهم ما ينقضه؛ فما أيسر أن ترجع إليك الرسل وترد
عليك الكتب بحقائق أخبارهم، وشوارد آثارهم، ومصادر أمورهم؛ فتحدث رأيا غيره، وتبتدع تدبيرا
سواه، وقد انفرجت الحلق «5»، وتحللت العقد، واسترخى الحقاب «6»، وامتد الزمان. ثم لعلمنا
موقع الآخرة كمصدر الأولى. ولكن الرأي لك أيها المهدي وفقك الله، أن تصرف إجمالة النظر،
وتقليب الفكر فيما جمعنا له واستشرنا فيه من التدبير لحربهم والحيل في أمرهم، إلى الطلب لرجل
ذي دين

(163/1)

فاضل، وعقل كامل، وورع واسع، ليس موصوفاً بهوى في سواك، ولا متهماً في أثره عليك، ولا ظنيناً على دخلة مكروهة، ولا منسوباً إلى بدعة محدورة، فيقدح في ملكك، ويربّض الأمور لغيرك، ثم تسند إليه أمورهم، وتفوض إليه حريهم، وتأمره في عهدك ووصيتك إياه بلزوم أمرك ما لزمه الحزم، وخلاف نهيك إذا خالفه الرأي، عند استحالة الأمور واستدارة الأحوال التي ينقص أمر الغائب عنها، ويثبت رأي الشاهد لها، فإنه إذا فعل ذلك فوائب أمرهم من قريب، وسقط عنه ما يأتي من بعيد، تمت الحيلة، وقويت المكيدة، ونفذ العمل، وأحد النظر إن شاء الله.

قال الفضل بن العباس: أيها المهدي، إن وليّ الأمور، وسائس الحروب، ربما نحى جنوده، وفرّق أمواله، في غير ما ضيق أمر حزبه. ولا ضغطة حال اضطرتّه، فيقعّد عند الحاجة إليها ويعدّ التفرقة لها عديماً منها، فاقدًا لها، لا يتق بقوة، ولا يصول بعدّة، ولا يفزع إلى ثقة. فالرأي لك أيها المهدي وفقك الله، أن تعفي خزائنك من الإنفاق للأموال، وجنودك من مكابدة الأسفار، ومقارعة الأخطار وتغيير القتال.

ولا تسرع للقوم في الإجابة إلى ما يطلبون، والإعطاء لما يسألون، فيفسد عليك أدبهم، وتجريء من رعبتك غيرهم؛ ولكن اغزهم بالحيلة، وقاتلهم بالمكيدة، وصارعهم بالدين، وخاتلهم بالرفق «1»، وأبرق لهم بالقول، وأرعد نحوهم بالفعل، وابعث البعوث، وجند الجنود وكتبّ الكتاب، واعقد الأولوية، وانصب الرايات، وأظهر أنك موجّه إليهم الجيوش مع أحق «2» قوادك عليهم، وأسوتهم أثراً فيهم، ثم ادسس الرسل، وابثث الكتب، وضع بعضهم على طمع من وعدك، وبعضاً على خوف من وعيدك، وأوقد بذلك وأشباهه نيران التحاسد فيهم، واغرس أشجار التنافس بينهم، حتى تملأ القلوب من الوحشة، وتنطوي الصدور على البغضة، ويدخل كلاً من كلّ الحذر والهيبه؛ فإن مرام الظفر بالغيلة، والقتال بالحيلة، والمناسبة بالكتب، والمكيدة بالرسل، والمقارعة بالكلام اللطيف المدخل في القلوب، القوي الموقع من النفوس، المعقود بالحجج، الموصول بالحيل، المبني على اللين، الذي

(164/1)

يستميل القلوب، ويسترقّ العقول، ويسبي الآراء، ويستميل الأهواء، ويستدعي الموااة «1» - أنفذ من القتال بظبات السيوف وأسنة الرماح: كما أن الوالي الذي يستنزل طاعة رعيته بالحيل، ويفرّق كلمة عدوه بالمكيدة، أحكم عملاً وألطف نظراً وأحسن سياسة من الذي لا ينال ذلك إلا بالقتال،

والإتلاف للأموال، والتغريب والخطار.

وليعلم المهدي - وفقه الله - أنه إن وجه لقتالهم رجلا، لم يسر لقتالهم إلا بجنود كثيفة تخرج على حال شديدة، وتقدم على أسفار ضيقة، وأهوال متفرقة، وقواد غششة «2»، إن ائتمنهم استنفدوا ماله، وإن استنصحتهم كانوا عليه لا له.

قال المهدي: هذا رأي قد أسفر نوره، وبرق ضوءه، وتمثل صوابه للعيون، وتجدد حقه في القلوب، ولكن فوق كل ذي علم عليم.

ثم نظر إلى ابنه عليّ فقال: ما تقول؟

قال علي: أيها المهدي، إن أهل خراسان لم يخلعوا من طاعتك يدا، ولم ينصبوا من دونك أحدا يكدر في تغيير ملكك، ويربض «3» الأمور لفساد دولتك؛ ولو فعلوا لكان الخطب أيسر، والشأن أصغر، والحال أدل؛ لأن الله مع حقه الذي لا يخذله، وعند مواعده الذي لا يخلفه: ولكنهم قوم من رعيتك، وطائفة من شيعتك، الذين جعلك الله عليهم واليا، وجعل العدل بينك وبينهم حاكما، طلبوا حقا، وسألوا إنصافا؛ فإن أجبت إلى دعوتهم، ونفست عنهم قبل أن تتلاحم منهم حال، أو يحدث من عندهم فتق، أطعت أمر الرب، وأطفأت نائرة الحرب «4»، ووقرت خزائن المال، وطرحت تغريب «5» القتال؛ وحمل الناس محمل ذلك على طبيعة جودك وسجية حلمك، وإسجاح خليقتك «6»، ومعدلة نظرك؛ فأمنت أن تنسب إلى ضعفة، وأن يكون ذلك لهم فيما بقي دربة. وإن منعتهم ما طلبوا، ولم تجبهم إلى ما سألوا،

(165/1)

اعتدلت بك وبهم الحال، وساويتهم في ميدان الخطاب. فما أرب المهدي أن يعتمد إلى طائفة من رعيته: مقرين بمملكته، مدعين لطاعته، لا يخرجون أنفسهم عن قدرته، ولا يبرئونها من عبوديته، فيملكهم أنفسهم، ويخلع نفسه عنهم، ويقف على الجدل معهم، ثم يجازيهم السوء في جد المقارعة، ومضمار المخاطرة؟ أيريد المهدي - وفقه الله - الأموال؟ فلعمري لا ينالها ولا يظفر بها إلا بإنفاق أكثر مما يطلب منهم، وأضعاف ما يدعي قبلهم؛ ولو نالها فحملت إليه، أو وضعت بخرائطها بين يديه، ثم تجافى لهم عنها، وطال عليهم بها، لكان مما إليه ينسب وبه يعرف، من الجود الذي طبعه الله عليه، وجعل قرة عينه وهدية نفسه فيه. فإن قال المهدي: هذا رأي مستقيم سديد في أهل الخراج الذين شكوا ظلم عمالنا وتحامل ولاتنا، فأما الجنود الذين نقضوا موثيق العهود، وأنطقوا لسان الإرجاف

«1» ، وفتحوا باب المعصية، وكسروا قيد الفتنة؛ فقد ينبغي لهم أن يجعلهم نكالا لغيرهم؛ وعظة لسواهم. فيعلم المهدي أنه لو أتى بهم مغلولين في الحديد، مقرنين في الأصفاد، ثم اتسع لحقن دماثهم عفوه، ولإقالة عثرتهم صفحه، واستبقاهم لما هم فيه من حربته، أو لمن بإزائهم من عدوه، لما كان بدعا من رأيه، ولا مستنكرا من نظره. لقد علمت العرب أنه أعظم الخلفاء والملوك عفوا، وأشدّها وقعا، وأصدقها صولة، وأنه لا يتعاضمه عفوا، ولا يتكأده «2» صفح، وإن عظم الذنب وجلّ الخطب. فالرأي للمهدي- وفقه الله تعالى- أن يحل عقدة الغيظ بالرجاء لحسن ثواب الله في العفو عنهم، وأن يذكر أولى حالاتهم وضبيعة عيالاتهم، برّا بهم، وتوسّعا لهم، فإنهم إخوان دولته، وأركان دعوته، وأساس حقه، الذين بعزتهم يصول، وبحجتهم يقول. وإنما مثلهم فيما دخلوا فيه من مساخطه، ونعروضوا له من معاصيه، وانطوا فيه عن إجابته؛ ومثله في قلة ما غير ذلك من رأيه فيهم، أو نقل من حاله لهم، أو تغيير من نعمته بهم- كمثل رجلين أخوين متناصرين متوازيين، أصاب أحدهما خبل عارض «3» ، وهو حادث، فنهض

(166/1)

إلى أخيه بالأذى، وتحامل عليه بالمكروه؛ فلم يزدد أخوه إلا رقّة له، ولطفا به، واحتياالا لمداواة مرضه، ومراجعة حاله، عطفًا عليه، وبرّا به، ومرحمة له. فقال المهدي: أما عليّ فقد نوى اللّيان، وفضّ القلوب عن أهل خراسان، ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون. ثم قال: ما ترى يا أبا محمد؟ يعني موسى ابنه. فقال موسى: أيها المهدي، لا تسكن إلى حلاوة ما يجري من القول على ألسنتهم، وأنت ترى الدماء تسيل من خلل فعلهم. والحال من القوم تنادي بمضمره شرّ، وخفيّة حقد، قد جعلوا المعاذير عليها سترًا، واتخذوا العلل من دونها حجابًا، رجاء أن يدافعوا الأيام بالتأخير، والأمور بالتطويل، فيكسروا حيل المهدي فيهم، ويثنوا جنوده عنهم، حتى يتلاحم أمرهم، وتتلاحق مادّتهم، وتستفحل حربهم، وتستمرّ الأمور بهم؛ والمهديّ من قوتهم في حال غرة «1» ! ولباس أمانة، قد فتر «2» لها، وأنس بها، وسكن إليها. ولولا ما اجتمعت له قلوبهم، وبردت عليه جلودهم، من المناصبة بالقتال، والإضمار للقراع، عن داعية ضلال أو شيطان فساد، لرهبوا عواقب أحوال الولاية، وغبّ سكون الأمور. فليشدّد المهدي- وفقه الله- أزره لهم، ويكتب كتائبه نحوهم، وليضع الأمر على أشدّ ما يحضره فيهم، وليوقن أنه لا يعطيهم خطة يريد بها صلاحهم إلا كانت درية لفسادهم، وقوة على معصيتهم، وداعية

إلى عودتهم، وسببا لفساد من بحضرته من الجنود، ومن باباه من الوفود الذين إن أقرهم على تلك العادة، وأجراهم على ذلك الأدب لم يبرح في فتق حادث، وخلاف حاضر، لا يصلح عليه دين، ولا تسقيم به دنيا. وإن طلب تغييره بعد استحكام العادة، واستمرار الدربة، لم يصل إلى ذلك بالعقوبة المفرطة، والمثونة الشديدة. والرأي للمهدي - وفقه الله - ألا يقبل عثرهم، ولا يقبل معذرتهم، حتى تطأهم الجيوش، وتأخذهم السيوف.

ويستحز «3» بهم القتل، ويحدق بهم الموت، ويحيط بهم البلاء، ويطبق عليهم الذل.

(167/1)

فإن فعل المهديّ بهم ذلك كان مقطعة لكل عادة سوء فيهم، وهزيمة لكل بادرة شرّ منهم. واحتمال المهدي مؤونة غزوتهم هذه يضع عنه غزوات كثيرة، ونفقات عظيمة.

قال المهدي: قد قال القوم فاحكم يا أبا الفضل.

فقال العباس بن محمد: أيها المهدي، أما الموالي فأخذوا بفروع الرأي، وسلكوا جنبات الصواب، وتعدّوا أمورا قصر بنظرهم عنها أنه لم تأت تجاربهم عليها.

وأما الفضل فأشار بالأموال ألا تنفق، والجنود ألا تفرّق، وبأن لا يعطى القوم ما طلبوا، ولا يبذل لهم ما سألوا، وجاء بأمر بين ذلك، استصغارا لأمرهم واستهانة بحرهم، وإنما يهيج جسيمات الأمور صغارها.

وأما عليّ فأشار باللين وإفراط الرفق. وإذا جرّد الوالي لمن غمط «1» أمره وسفه حقّه، اللين بجنا، والخير محضا، لم يخلطهما بشدة تعطف القلوب على لينه، ولا بشر يحيشهم «2» إلى خيره؛ فقد ملكهم الخلع لعذرهم «3» ووسّع لهم الفرجة لثني أعناقهم، فإن أجابوا دعوته، وقبلوا لينه من غير ما خوف اضطهرهم، ولا شدة حال أخرجتهم، لم يزل ذلك يهيج عزة في نفوسهم، ونزوة في رءوسهم، يستدعون بها البلاء إلى أنفسهم؛ ويصرفون بما رأي المهدي فيهم. وإن لم يقبلوا دعوته، ويسرعوا لإجابته باللين المحض والخير الصّراح، فذلك ما عليه الظنّ بهم، والرأي فيهم، وما قد يشبه أن يكون من مثلهم؛ لأن الله تعالى خلق الجنة وجعل فيها من النعيم المقيم والملك الكبير ما لا يخطر على قلب بشر، ولا تدركه الفكر، ولا تعلمه نفس؛ ثم دعا الناس إليها ورغبهم فيها؛ فلولا أنه خلق نارا جعلها لهم رحمة يسوقهم بها إلى الجنة، لما أجابوا ولا قبلوا.

وأما موسى فأشار بأن يعصبوا بشدة لا لين فيها، وأن يرموا بشرّ لا خير معه.

(168/1)

وإذا أضمر الوالي لمن فارق طاعته وخالف جماعته، الخوف مفردا والشر مجردا، ليس معهما طمع يكسرهم، ولا لين يثنيهم، امتدت الأمور بهم، وانقطعت الحال منهم إلى أحد أمرين: إما أن تدخلهم الحمية من الشدة، والأنفة من الذلّة، والامتعاض «1» من القهر، فيدعوهم ذلك إلى التمادي في الخلاف، والاستبسال في القتال، والاستسلام للموت؛ وإما أن ينقادوا بالكراهة، ويدعنوا بالقهر، على بغضة لازمة، وعداوة باقية، تورث النفاق، وتعقب الشقاق، فإذا أمكنتهم فرصة، أو ثابت لهم قدرة، أو قويت لهم حال، عاد أمرهم إلى أصعب وأغلظ وأشدّ مما كان.

وقال: في قول الفضل أيها المهدي، أكفى دليل، وأوضح برهان، وأبين خبر بان. قد اجتمع رأيه، وحزم نظره على الإرشاد ببعثة الجيوش، إليهم، وتوجيه البعوث نحوهم، مع إعطائهم ما سألوا من الحق، وإجابتهم إلى ما سألوه من العدل.

قال المهدي: ذلك رأي.

قال هارون: خلطت الشدة أيها المهدي باللين، فصارت الشدة أمر فطام لما تكره، وعاد اللين أهدى قائد إلى ما تحب؛ ولكن أرى غير ذلك.

قال المهدي: لقد قلت قولاً بديعاً، وخالفت به أهل بيتك جميعاً، والمرء متهم بما قال، ووطنين بما ادّعى، حتى يأتي بينة عادلة، وحجة ظاهرة، فاخرج عما قلت.

قال هارون: أيها المهدي، إن الحرب خدعة، والأعاجم قوم مكررة، وربما اعتدلت الحال بهم، وانفتحت الأهواء منهم، فكان باطن ما يسرون على ظاهر ما يعلنون؛ وربما افترت الحالان، وخالف القلب اللسان، فانطوى القلب على محجوبة تبطن، واستسرّ بمدخولة لا تعلن؛ والطبيب الرفيق بطبه، البصير بأمره، العالم بمقدّم يده، وموضع ميسمه «2»، لا يتعجل بالدواء حتى يقع على معرفة الداء؛ فالرأي للمهدي - وفقه الله - أن يفتر «3» باطن أمرهم فرّ المستنة، ويمخض ظاهر حالهم

(169/1)

محض السقاء، بمتابعة الكتب، ومظاهرة الرسل، وموالاتة العيون، حتى تمتك حجب غيوبهم، وتكشف أغطية أمورهم؛ فإن انفرجت الحال له وأفضت الأمور به إلى تغيير حال أو داعية ضلال، اشتملت

الأهواء عليه، وانقاد الرجال إليه، وامتدت الأعناق نحوه، بدين يعتقدونه. وإثم يستحلونه، عصبهم بشدة «1». لا لين فيها، ورماهم بعقوبة لا عفو معها، وإن انفرجت الغيوب، واهتصرت الستور، ورفعت الحجب، والحال فيهم مريعة «2»، والأمر بهم معتدلة، عن أرزاق يطلبونها، وأعمال ينكرونها، وظلامات يدعونها، وحقوق يسألونها، بمائة سابقتهم، ودالة مناصحتهم.

فالرأي للمهدي- وفقه الله- أن يتسع لهم بما طلبوا، ويتجافى لهم عما كرهوا، ويشعب «3» من أمرهم ما صدعوا، ويرتق من فتقهم ما فتقوا؛ ويؤي عليهم من أحبوا، ويداوي بذلك مرض قلوبهم، وفساد أمورهم؛ فإنما المهدي وأمنه وسواد أهل مملكته بمنزلة الطبيب الرفيق، والوالد الشفيق، والراعي الحذب، الذي يحتال لمراض غنمه، وضوال رعيته، حتى يبرىء المريضة من داء علتها، ويرد الضالة إلى أنس جماعتها. ثم إن خراسان بخاصة لهم ذالة محمولة، ومائة مقبولة، ووسيلة معروفة، وحقوق واجبة؛ لأنهم أيدي دولته، وسيوف دعوته، وأنصار حقه، وأعاون عدله.

فليس من شأن المهدي الاضطغان عليهم، ولا المؤاخذة لهم، ولا التوعر بهم «4»، ولا المكافأة بإساءتهم؛ لأن مبادرة حسم الأمور ضعيفة قبل أن تقوى، ومحاولة قطع الأصول ضئيلة قبل أن تغلظ، أحرز في الرأي وأصح في التدبير، من التأخير لها والتهاون بها، حتى يلتئم قليلها بكثيرها، وتجتمع أطرافها إلى جمهورها.

قال المهدي: ما زال هارون يقع وقع الحيا، حتى خرج خروج القدر مما قال، وانسل انسلال السيف فيما ادعى، فدعوا ما قد سبق موسى فيه أنه هو الرأي، وثقى بعده هارون، ولكن من لأعنة الخيل، وسياسة الحرب، وقيادة الناس، إن أمعن بهم اللجاج، وأفرطت بهم الدالة؟ «5»

(170/1)

قال صالح: لسنا نبلغ أيها المهدي بدوام البحث وطول الفكر أدنى فراسة رأيك، وبعض لحظات نظرك؛ وليس ينفص عنك من بيوتات العرب ورجالات العجم، ذو دين فاضل ورأي كامل، وتدبير قوي، تقلده حريك، وتستودعه جندك، ممن يجتمل الأمانة العظيمة، ويضطلع بالأعباء الثقيلة. وأنت بحمد الله ميمون النقيبة، مبارك العزيمة، مخبور التجارب، محمود العواقب، معصوم العزم؛ فليس يقع اختيارك ولا يقف نظرك على أحد توليه أمرك وتسند إليه ثغرك إلا أراك الله ما تحب، وجمع لك منه ما تريد.

قال المهدي: إني لأرجو ذلك. لتقديم عادة الله فيه، وحسن معاونته عليه. ولكن أحب الموافقة على

الرأي، والاعتبار للمشاورة في الأمر المهم.

قال محمد بن الليث: أهل خراسان - أيها المهدي - قوم ذو وعزة ومنعة، وشياطين خدعة زرع الحمية فيهم نابتة، وملابس الأنفة عليهم ظاهرة، فالروية عنهم عازبة «1»، والعجلة فيهم حاضرة، تسبق سيولهم مطرهم، وسيوفهم عدلهم، لأنهم بين سفلة لا يعدو مبلغ عقولهم منظر عيونهم، وبين رؤساء لا يلجمون إلا بشدة ولا يفطمون إلا بالقهر؛ وإن ولى المهدي عليهم وضعالم تنقد له العظماء، وإن ولى أمرهم شريفا تحامل على الضعفاء. وإن آخر المهدي أمرهم ودافع حربهم حتى يصيب لنفسه من حشمة ومواليه، أو بني عمه أو بني أبيه، ناصحا يتفق عليه أمرهم، وثقة تجتمع له أملاؤهم «2»، بلا أنفة تلزمهم، ولا حمية تدخلهم، ولا عصبية تنفرهم، تنفست الأيام بهم، وتراخت الحال بأمرهم، فدخل بذلك من الفساد الكبير والضياع العظيم ما لا يتلافاه صاحب هذه الصفة وإن جد ولا يستصلحه وإن جهد، إلا بعد دهر طويل، وشر كبير. وليس المهدي - وفقه الله - فاطما عاداتهم ولا قارعا صفاتهم «3» بمثل أحد رجلين لا ثالث لهما، ولا عدل في ذلك بهما: أحدهما لسان ناطق موصول بسمعك،

(171/1)

ويد ممثلة لعينك، وصخرة لا ترزع، وبهمة لا ينثني «1»، وبازل لا يفزعه صوت الجلجل «2»، نقي العرض، نزيه النفس، جليل الخطر، قد اتضعت الدنيا عن قدره، وسما نحو الآخرة بهمتته، فجعل الغرض الأقصى لعينه نصبا، والغرض الأدنى لقدمه موطنًا، فليس يغفل عملا، ولا يتعدى أملا وهو رأس مواليك، وأنصح بني أبيك رجل قد غدي بلطيف كرامتك، ونبت في ظل دولتك ونشأ على قويم أدبك؛ فإن قلده أمرهم، وحملته ثقلهم، وأسندت إليه ثغرهم: كان قفلا فتحه أمرك، وبابا أغلقه نهيك، فجعل العدل عليه وعليهم أميرا، والإنصاف بينه وبينهم حاكما. وإذا حكم النصفة وسلك المعدلة فأعطاهم ما لهم وأخذ منهم ما عليهم، غرس لك في الذي بين صدورهم، وأسكن لك في السويداء داخل قلوبهم طاعة راسخة العروق، باسقة الفروع، متمثلة في حواشي عوامهم، متمكنة من قلوب خواصهم، فلا يبقى فيهم ريب إلا نفوه، ولا يلزمهم حق إلا أدوه، وهذا أحد هما.

والآخر عود من غيظتك، ونبعة «3» من أرومتك، فتى السن، كهل الحلم، راجح العقل، محمود الصرامة، مأمون الخلاف، يجرد فيهم سيفه، ويبسط عليهم خيره بقدر ما يستحقون، وعلى حسب ما يستوجبون، وهو فلان أيها المهدي، فسأله - أعزك الله - عليهم، ووجهه بالجوش إليهم، ولا تمنعك

صراعة سنّه «4» وحدائمه مولده؛ فإن الحلم والثقة مع الحدائمه خير من الشك والجهل مع الكهولة؛ وإنما أحداثكم أهل البيت فيما طبعكم الله عليه واختصكم به من مكارم الأخلاق، ومحمد الفعّال، ومحاسن الأمور، وصواب التدبير، وصرامة الأنفس، كفراخ عتاق الطير «5» الحكمة لأخذ الصيد بلا تدريب، والعارفة لوجوه النفع بلا تأديب؛ فالحلم والعلم والعزم والحزم

(172/1)

والجود والتؤدة والرفق ثابت في صدوركم، مزروع في قلوبكم، مستحکم لكم، متكامل عندكم، بطباع لازمة، وغرائز ثابتة.

قال معاوية بن عبد الله: أفتاء «1» أهل بيتك أيها المهدي في الحلم على ما ذكر، وأهل خراسان في حال عزّ على ما وصف. ولكن إن وليّ المهديّ عليهم رجلا ليس بقديم الذّكر في الجنود، ولا بنبيه الصوت في الحروب، ولا بطويل التجربة للأمور، ولا بمعروف السياسة للجيوش والهيبة في الأعداء، دخل من ذلك أمران عظيمان، وخطران مهولان: أحدهما أن الأعداء يغتمزونها منه، ويحتقرونها فيه، ويجترءون بها عليه في التّهوض به والمقارعة له والخلاف عليه، قبل الاختبار لأمره، والتكشّف لحاله، والعلم بطباعه. والأمر الآخر أن الجنود التي يقول، والجيوش التي يسوس، إذا لم يجتبروا منه البأس والنجدة، ولم يعرفوه بالصّوت والهيبة؛ انكسرت شجاعتهم، وماتت نجاتهم، واستأخرت طاعتهم إلى حين اختبارهم ووقوع معرفتهم. وربما وقع البوار قبل الاختبار. وباب المهدي - وفقه الله - رجل مهيب نبيه حيك صيّت «2»، له نسب زاك وصوت عال، قد قاد الجيوش، وساس الحروب، وتألّف أهل خراسان واجتمعوا عليه بالمقّة «3»، ووثقوا به كل الثّقّة، فلو ولّاه المهدي أمرهم لكفاه الله شرهم.

قال المهدي: جانبت قصد الرّميّة، وأبيت إلا عصبية، إذ رأيّ الحدث من أهل بيتنا كراي عشرة حلما من غيرنا، ولكن أين تركتم ولي العهد؟

قالوا: لم يمنعنا من ذكره إلا كونه شبيه جدّه، ونسيح وحده، ومن الدين وأهله بحيث يقصر القول عن أدنى فضله، ولكن وجدنا الله عز وجل قد حجب عن خلقه، وستر من دون عباده، علم ما تختلف به الأيام، ومعرفة ما تجري به المقادير، من حوادث الأمور ورب المنون، المخترمة لحوالي القرون ومواضي الملوك؛ فكرهنا

(173/1)

شسوعه «1» عن محلة الملك، ودار السلطان، ومقرّ الإمامة والولاية، وموضع المدائن والخزائن، ومستقرّ الجنود، وموضع الوجوه، ومجمع الأموال التي جعلها الله قطبا لمدار الملك، ومصيدة لقلوب الناس، ومثابة لإخوان الطمع، وثوار الفتن، ودواعي البدع، وفرسان الضلال، وأبناء المروق؛ وقلنا: إن وجه المهدي وليّ عهده فحدث في جيوشه وجنوده ما قد حدث بجنود الرسل من قبله، لم يستطع المهدي أن يعقبه بغيره، إلا أن ينهض إليهم بنفسه؛ وهذا خطر عظيم، وهول شديد؛ وإن تنفّست الأيام بمقامه، واستدامت الحال بأيامه، حتى يقع عرض لا يستغني فيه، أو يحدث أمر لا بد فيه منه، صار ما بعده مما هو أعظم هولا وأجل خطرا. له تبعاً وبه متصلا.

قال المهدي: الخطب أيسر مما تذهبون إليه؛ وعلى غير ما تصفون الأمر عليه، نحن أهل البيت. نجري من أسباب القضايا ومواقع الأمور على سابق من العلم، ومحتوم من الأمر، قد أنبأت به الكتب، وتتابع عليه الرسل، وقد تناهى ذلك بأجمعه إلينا، وتكامل بحذافيره «2» عندنا، فيه نديّر، وعلى الله نتوكل: إنه لا بدّ لوليّ عهدي - ووليّ عهدي عقبي بعدي - أن يقود إلى خراسان البعوث، ويتوجّه نحوها بالجنود.

أما الأول فإنه يقدّم إليهم رسله، ويعمل فيهم حيله، ثم يخرج نشطا إليهم، حنقا عليهم، يريد ألا يدع أحدا من إخوان الفتن، ودواعي البدع، وفرسان الضلال، إلا توطّاه بحرّ القتل، وألبسه قناع القهر، وطوّقه طوق الدّل. ولا أحدا من الذين عملوا في قصّ جناح الفتنة، وإخماد نار البدعة، ونصرة ولاية الحق، إلا أجرى عليهم ديم فضله، وجداول بذله، فإذا خرج مزمعا به مجمعا عليه؛ لم يسر إلا قليلا حتى يأتيه أن قد عملت حيله؛ وكدحت كتبه؛ ونفذت مكايده؛ فهدأت نافرة القلوب، ووقعت طائفة الأهواء «3»، واجتمع عليه المختلفون بالرضا؛ فيميل نظرا لهم ويرّا بهم وتعطفّا عليهم، إلى عدوّ قد أخاف سبيلهم، وقطع طريقهم، ومنع حجّاجهم بيت الله

(174/1)

الحرام، وسلب تجارهم رزق الله الحلال.

وأما الآخر فإنه يوجه إليهم من يعتقد له الحجة عليهم بإعطاء ما يطلبون، وبذل ما يسألون، فإذا سمحت الفرق بقراحتها له، وجنح أهل النواحي بأعناقهم نحوه، فأصغت إليه الأفتدة، واجتمعت له الكلمة، وقدمت عليه الوفود، قصد لأول ناحية بجعت «1» بطاعتها، وألقت بأزمته، فألبسها جناح

نعمته، وأزّلها ظلّ كرامته، وخصّها بعظيم حباه، ثم عمّ الجماعة بالمعدلة؛ وتعطف عليهم بالرحمة، فلا تبقى فيهم ناحية دانية، ولا فرقة قاصية، إلا دخلت عليها بركته، ووصلت إليها منفعته، فأغنى فقيرها، وجبر كسيرها، ورفع وضعها، وزاد رفيعها، ما خلا ناحيتين: ناحية يغلب عليهم الشقاء وتستميلهم الأهواء فتستخف بدعوته، وتبطيء عن إجابته، وتتناقل عن حقه، فتكون آخر من يبعث، وأبطأ من يوجّه، فيضطمر عليها موجد، «2» ويتبغى لها علة، لا يلبث أن يجدها بحقّ يلزمهم؛ وأمر يجب عليهم، فتستلحمهم الجيوش، وتأكلهم السيوف، ويستحرفيهم القتل، ويحيط بهم الأسر، ويفنيهم التتبع، حتى يخرب البلاد، ويؤتم الأولاد. وناحية لا يبسط لهم أمانا، ولا يقبل لهم عهدا، ولا يجعل لهم ذمة؛ لأنهم أول من فتح باب الفرقة، وتدرّع جلباب الفتنة، وريض «3» في شقّ العصا. ولكنه يقتل أعلامهم، ويأسر قوادهم، ويطلب هربهم في لجج البحار، وقلل الجبال، وخمر الأودية، ويطون الأرض، تقتيلا وتغليلا وتنكيلا؛ حتى يدع الديار خرابا، والتساء أيامي. وهذا أمر لا نعرف له في كتبنا وقتنا، ولا نصحّح منه غير ما قلنا تفسيرا.

وأما موسى ولي عهدي، فهذا أوان توجهه إلى خراسان، وحلوله بجرجان؛ وما قضى الله له من الشخوص «4» إليها والمقام فيها، خير للمسلمين مغبة، وله بإذن الله عاقبة، من المقام بحيث يغمر في لجج بحورنا ومدافع سيولنا ومجامع أمواجنا،

(175/1)

فيتصاغر عظيم فضله، ويتذأب «1» مشرق نوره، ويتقلل كثير ما هو كائن منه فمن يصحبه من الوزراء ومن يختار له من الناس؟ قال محمد بن الليث: أيها المهدي، إن وليّ عهدك أصبح لأمتك وأهل ملتك علما قد تثنت نحوه أعناقها، ومدّت سمته أبصارها، وقد كان لقرب داره منك، ومحلّ جواره لك، عطل الحال، غفل الأمر، واسع العذر، فأما إذا انفرد بنفسه، وخلا بنظره، وصار إلى تدبيره، فإن من شأن العامة وأمراء الأمة أن تتفقد مخارج رأيه، وتستنصت لمواقع آثاره، وتساءل عن حوادث أحواله، في برّه ومرحمته، وإقساطه ومعدلته، وتديبره وسياسته، ووزرائه وأصحابه، ثم يكون ما سيق إليهم أغلب الأشياء عليهم، وأملك الأمور بهم، وألزمها لقلوبهم، وأشدّها استمالة لرأيهم، وعطفا لأهوائهم. فلا يفتأ المهدي - وفقه الله - ناظرا له فيما يقوي عمده مملكته، ويسدّد أركان ولايته، ويستجمع رضا أمته، بأمر هو أزين لحاله، وأظهر لجماله، وأفضل مغبة لأمره، وأجلّ موقعا في قلوب رعيته، وأحمد حالا في نفوس أهل ملته. ولا

أوقع مع ذلك باستجماع الأهواء له؛ وأبلغ في استعطاف القلوب عليه، من مرحمة تظهر من فعله، ومعدلة تنتشر عن أثره، ومحبة للخير وأهله، وأن يختار المهديّ - وفقه الله - من خيار أهل كل بلدة، وفقهاء أهل كلّ مصر. أقواما تسكن العامة إليهم إذا ذكروا، وتأنس الرعية بهم إذا وصفوا، ثم تسهّل لهم عمارة سبل الإحسان؛ وفتح باب المعروف كما قد كان فتح له وسهّل عليه.

قال المهدي: صدقت ونصحت. ثم بعث في ابنه موسى؛ فقال: أي بني، إنك قد أصبحت لسمت عيون العامة نصبا «2»، ولمثنى أعطاف الرعية غاية، فحسنتك شاملة، وإساءتك نامية، وأمرك ظاهر. فعليك بتقوى الله وطاعته، فاحتمل سخط الناس فيهما، ولا تطلب رضاهم بخلافهما؛ فإن الله عزّ وجلّ كافيك من أسخطه عليك إيثارك رضاه؛ وليس بكافيك من يسخطه عليك إيثارك رضا من سواه.

ثم اعلم أن الله تعالى في كل زمان عترة من رسله، وبقايا من صفوة خلقه، وخبايا

(176/1)

لنصرة حقه، يجدد حبل الإسلام بدعواهم ويشيد أركان الدين بنصرتهم، ويتخذهم لأولياء دينه أنصارا، وعلى إقامة عدله أعوانا، يسدون الخلل، ويقيمون الميل، ويدفعون عن الأرض الفساد؛ وإن أهل خراسان أصبحوا أيدي دولتنا، وسيوف دعوتنا الذين نستدفع المكاره بطاعتهم، ونصرف نزول العظائم بمناصحتهم، وندافع ريب الزمان بعزائمهم، ونزاحم ركن الدهر ببصائرهم. فهم عماد الأرض إذا أرجفت كنفها «1»، وحتوف الأعداء إذا أبرزت صفحتها، وحصون الرعية إذا تضايقت الحال بها؛ قد مضت لهم وقائع صادقات؛ ومواطن صالحات، أحمدت نيران الفتن، وقصمت دواعي البدع، وأذلت رقاب الجبارين، ولم ينفكوا كذلك ما جروا مع ربح دولتنا، وأقاموا في ظلّ دعوتنا، واعتصموا بحبل طاعتنا التي أعزّ الله بها ذلتهم، ورفع بها ضعفتهم، وجعلهم بها أربابا في أقطار الأرضين، وملوكا على رقاب العالمين، بعد لباس الدّل، وقناع الخوف، وإطباق البلاء، ومحالفة الأسي، وجهد البأس والضر.

فظاهر عليهم لباس كرامتك، وأنزلم في حدائق نعمتك. ثم اعرف لهم حقّ طاعتهم، ووسيلة دلتهم، وماتة «2» سابقتهم، وحرمة مناصحتهم، بالإحسان إليهم، والتوسعة عليهم، والإثابة لحسنهم، والإقالة لمسيئتهم.

أي بني؛ ثم عليك العامة. فاستدع رضاها بالعدل عليها. واستجلب مودّتها بالإنصاف لها، وتحسّن

بذلك لربك، وتزين به في عين رعيتك، واجعل عمال القدر، وولاة الحجج، مقدّمة بين يدي عملك، ونصفة منك لرعيتك؛ وذلك أن تأمر قاضي كل بلد، وخيار أهل كل مصر، أن يختاروا لأنفسهم رجلا تولّيه أمرهم، وتجعل العدل حاكما بينه وبينهم، فإن أحسن حمدت، وإن أساء عذرت. هؤلاء عمال القدر؛ وولاة الحجج. فلا يضيعنّ عليك ما في ذلك - إذا انتشر في الآفاق وسبق إلى الأسماع - من انعقاد ألسنة المرجفين، وكبت قلوب الحاسدين، إطفاء نيران الحروب، وسلامة عواقب الأمور، ولا ينفكنّ في ظل كرامتك نازلا، وبعرا «3» حبلك متعلّقا،

(177/1)

رجلان: أحدهما كريمة من كرائم رجالات العرب، وأعلام بيوتات الشرف، له أدب فاضل، وحلم راجح، ودين صحيح. والآخر له دين غير مغموز، وموضع غير مدخول، بصير بتقليب الكلام، وتصريف الرأي، وأنحاء الأدب، ووضع الكتب، عالم بمجالات الحروب، وتصاريف الخطوب، يضع آدابا نافعة، وآثارا باقية، من تجميل محاسنك، وتحسين أمرك، وتحلية ذكرك. فتستشيريه في حربك، وتدخله في أمرك. فرجل أصبته كذلك فهو يأوى إلى محلّتي، ويرعى في خضرة جناني؛ ولا تدع أن تختار لك من فقهاء البلدان، وخيار الأمصار. أقواما يكونون جيرانك وسمارك، وأهل مشاورتك فيما تورد، وأصحاب مناظرتك فيما تصدر. فسر على بركة الله، أصحبك الله من عونه وتوفيقه دليلا يهدي إلى الصواب قلبك، وهاديا ينطق بالخير لسانك. وكتب في شهر ربيع الآخرة سنة سبعين ومائة ببغداد «1» .

باب في مداراة العدو

في كتاب للهند: أن العدو الشديد الذي لا تقوى له لا تردّ بأسه عنك بمثل الخشوع والخضوع له، كما أنّ الحشيش إنما يسلم من الريح العاصفة بليته وانثنائه معها. وقالوا: ازفن «2» للقرد في دولته. أخذه الشاعر فقال:

لا تعبدن صنما في فاقة نزلت ... وازفن بلا حرج للقرد في زمنه
وقال أحمد بن يوسف الكاتب: إذا لم تقدر أن تعضّ يد عدوك فقبلها.

(178/1)

وقال سابق البلوي:

وداهن إذا ما خفت يوما مسلطاً ... عليك، ولن يجتال من لا يداهن «1»
وقالت الحكماء: رأس العقل مغافصة «2» الفرصة عند إمكانها. والانصراف عما لا سبيل إليه.
وقال الشاعر:

بلاء ليس يشبهه بلاء ... عداوة غير ذي حسب ودين
بيحك منه عرضاً لم يصنه ... ويرتع منك في عرض مصون
التحفظ من العدو وإن أبدى لك المودة
قالت الحكماء: احذر الموتور ولا تطمئن إليه، وكن أشد ما تكون حذراً منه أطف ما يكون مداخلة
لك؛ فإنما السلامة من العدو بتباعدك منه، وانقباضك عنه.
وعند الأُنس إليه والثقة [به] تمكّنه من مقاتلك.
قالوا: لا تطمئن إلى العدو وإن أبدى لك المقاربة، وإن بسط لك وجهه وخفض «3» لك جناحه؛
فإنه يترصّب بك الدوائر، ويضمّر لك الغوائل ولا يرتجي صلاحاً إلا في فسادك، ولا رفعة إلا بسقوط
جاهلك.

للاخطل يحذر بني أمية

: كما قال الأخطل:

بني أمية إني ناصح لكم ... فلا يبيتّ فيكم آمنّا زفر «4»
وأخذوه عدوّاً إنّ شاهده ... وما تغيب من أخلاقه دعر «5»

(179/1)

إنّ الصّغينة تلقاها وإن قدمت ... كالعرّ يكمن حيناً ثم ينتشر «1»
وفي كتاب الهند: الحازم يحذر عدوّه على كل حال: يحذر المواثبة إن قرب والمعاودة إن بعد، والكمين
إن انكشف، والاستطراد إن ولى، والكرة إن فرّ.
وأوصى بعض الحكماء ملكاً فقال: لا يكوننّ العدو الذي كشف لك عن عداوته بأخوف عندك من
الظنين الذي يستتر لك بمخاتلته، فإنه ربما تخوّف الرجل السّم الذي هو أقتل الأشياء، وقتله الماء
الذي هو محبي الأشياء؛ وربما تخوّف أن تقتله الملوك التي تملكه، ثم تقتله العبيد التي يملكها.

ولم يقل أحد في العدو المندمل «2» على العداوة مثل قول الأخطل:
إنّ الضغينة تلقاها وإن قدمت ... كالعَرّ يكمن حيناً ثم ينتشر
وقد أشار الحسن بن هانيء إلى هذا المعنى فأجاده حيث يقول:
وابن عمّ لا يكاشفنا ... قد لبسناه على غمره «3»
كمن الشنآن فيه لنا ... ككمون النار في حجره «4»
وشبهوا العدو إذا كان هذا فعلة بالحية المطرقة. قال ابن أخت تأبط شراً:
مطرق يرشح موتا كما ... أطرق أفعى ينفث السم صلّ

بين معاوية وابن الزبير

: وقال عبد الله بن الزبير لمعاوية- ويقال معاوية قالها لعبد الله بن الزبير-: مالي أراك تطرق إطراق
الأفعوان في أصول الشجر.
وفي كتاب الهند: إذا أحدث لك العدو صداقة لعله أجهت إليك، فمع ذهاب

(180/1)

العلّة رجوع العداوة، كالماء تسخّنه فإذا أمسكت عنه عاد إلى أصله بارداً والشجرة المرّة لو طليتها
بالعسل لم تثمر إلا مرّاً.

وقال دريد:

وما تخفى الضغينة حيث كانت ... ولا النّظر المريض من الصحيح

وقال زهير:

وما يك في صديق أو عدوّ ... تخبرك العيون عن القلوب

وقيل لزياد: ما السرور؟ قال: من طال عمره حتى يرى في عدوه ما يسره.

باب من أخبار الأزارقة

كان أول من خرج من الخوارج بعد قتل عليّ رضي الله عنه، حوثة الأقطع؛ فإنه خرج إلى التّخيلة
واجتمع إليه جماعة من الخوارج، ومعاوية بالكوفة، وقد بايعه الحسن والحسين وقيس بن سعد بن
عبادة؛ ثم خرج الحسن يريد المدينة؛ فوجه إليه معاوية وقد تجاوز في طريقه، يسأله أن يكون المتوّي
لمحاربتهم. فقال الحسن عليه السلام: والله لقد كففت عنك لحقن دماء المسلمين، وما أحسب ذلك
يسعني؛ فكيف أن أقاتل قوما أنت أولى بالقتال منهم؟ فلما رجع الجواب إليه وجه إليهم جيشاً أكثره

من أهل الكوفة، ثم قال لأبي حوثة. تقدّم فأكفني أمر ابنك. فسار إليه أبوه، فدعاه إلى الرجوع، فأبي، فداوره فصمّم. فقال له: أي بني، أجيئك بابنك لعلك تراه فتحنّ إليه! فقال له: يا أبت، أنا والله إلى طعنة نافذة أتقلّب فيها على كعوب الرمح أشوق مني إلى ابني. فرجع إلى معاوية فأخبره، فقال: يا أبا حوثة، جار هذا جدا. فلما نظر حوثة إلى أهل الكوفة قال: يا أعداء الله! أنتم بالأمس تقاتلون معاوية لتهدّوا سلطانه. واليوم تقاتلون معه لتشدوا سلطانه؟ ثم جعل يشدّ عليهم ويقول: احمل على هذي الجموع حوثة... فعن قريب سنتال المغفرة

(181/1)

فحمل عليه رجل من طيء فقتله، فرأى أثر السجود قد لوح جبهته، فدم على قتله:

مرداس ومقتله

: وكان مرداس أبو بلال قد شهد صفين مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأنكر التحكيم، وشهد النهروان ونجا فيمن نجا. فلما خرج من حبس ابن زياد ورأى شدة الطلب للشراة «1»، عزم على الخروج، فقال لأصحابه: إنه والله ما يسعنا المقام مع هؤلاء الظالمين، تجري علينا أحكامهم، مجانبين للعدل مفارقين للفضل. والله إن الصبر على هذا لعظيم، وإن تجريد السيف وإخافة السبيل لشديد؛ ولكننا نتبذ «2» عنهم ولا نجرد سيفنا ولا نقاتل إلا من قاتلنا. فاجتمع إليه أصحابه زهاء ثلاثين رجلا، منهم: حريث بن حجل وكهمس بن طلق الصرمي، فأرادوا أن يولّوا أمرهم حريثا فأبي، فولوا أمرهم مرداسا، فلما مضى بأصحابه لقيهم عبد الله بن رباح الأنصاري، وكان له صديقا؛ فقال له: يا بن أخي، أين تريد؟ فقال: أريد أهرب بديني ودين أصحابي من أحكام هؤلاء الجورة. قال له: أعلم أحد بكم؟ قال: لا. قال: فارجع.

قال: أو تخاف عليّ مكروها؟ قال: نعم، وأن يؤتى بك. قال: فلا تخف. فإني لا أجرد سيفا ولا أخيف أحدا ولا أقاتل إلا من قاتلني.

ثم مضى حتى نزل آسك؛ فمرّ به مال يحمل إلى ابن زياد وقد بلغ أصحابه الأربعين، فحطّ ذلك المال فأخذ منه عطاءه وأعطيات أصحابه وترك ما بقي، وقال:

قولوا لصاحبكم إنما أخذنا أعطياتنا. فقال له أصحابه: لماذا تترك الباقي؟ قال: إنهم يقسمون هذا الفيء كما يقيمون الصلاة، فلا تقاتلوهم ما داموا على الصلاة.

فوجه إليهم ابن زياد أسلم بن زرعة الكلابي في ألفين، فلما وصل إليهم، قال له مرداس: اتق الله يا أسلم، فإننا لا نريد قتالا ولا نروع أحدا؛ وإنما هربنا من الظلم،

(182/1)

ولا نأخذ من الفيء إلا أعطياتنا، ولا نقاتل إلا من قاتلنا. قال: لا بد من ردكم إلى ابن زياد. قال: وإن أراد قتلنا؟ قال: وإن أراد قتلكم. قال: فتشرك في دماننا؟ قال: نعم. فشدوا عليه شدة رجل واحد فهزموه وقتلوا أصحابه. ثم وجه إليهم ابن زياد عبّادا، فقاتلهم يوم الجمعة حتى كان وقت الصلاة، فناداهم أبو بلال: يا قوم، هذا وقت الصلاة فوادعونا حتى نصلي [وتصلوا] «1». فوادعوه؛ فلما دخلوا في الصلاة شدوا عليهم فقتلوه، وهم بين راعع وساجد وقائم في الصلاة وقاعد. فقال عمران بن حطان يرثي أبا بلال:

يا عين بكّي لمرداس ومصرعه ... يا ربّ مرادس اجعلني كمرداس
أبقيتني هائما أبكي لمرزتي ... في منزل موحش من بعد إيناس «2»
أنكرت بعدك ما قد كنت أعرفه ... ما الناس بعدك يا مرداس بالناس
إما شربت بكأس دار أولها ... على القرون فذاقوا جرعة الكاس
فكلّ من لم يذقها شارب عجلا ... منها بأنفاس ورد بعد أنفاس
وليس في الفرق كلها وأهل البدع أشد بصائر من الخوارج، ولا أكثر اجتهادا، ولا أوطن «3» أنفسا
على الموت؛ منهم الذي طعن فأنفذه الرمح فجعل يسعى إلى قاتله ويقول: عجلت إليك رب لترضى.
ولما مالت الخوارج إلى أصبهان حاصرت بها عتاب بن ورقاء سبعة أشهر يقاتلهم في كل يوم وكان مع
عتاب بن ورقاء رجل يقال له: شريح. ويكنى أبا هريرة، فكان يخرج إليهم في يوم فيناديهم:
يا بن أبي الماحوز والأشرار ... كيف ترون يا كلاب النار «4»
شدّ أبي هريرة الهزار ... يعروكم بالليل والنهار
وهو من الرّحمن في جوار

(183/1)

فتعاطفهم ذلك. فكمن له عبيدة بن هلال فضربه، واحتمله أصحابه، فظننت الخوارج أنه قد قتل، فكانوا إذا توافقوا ينادونهم: ما فعل الهزار؟ فيقولون: ما به من بأس. حتى أبلّ «1» من علته، فخرج إليهم فقال: يا أعداء الله! أترون بي بأسا؟

فصاحوا: قد كنا نرى أنك لحقت بأملك الهاوية في النار الحامية.

فلما طال الحصار على عتاب، قال لأصحابه: ما تنتظرون؟ إنكم والله ما تؤتون من قلة؛ وإنكم فرسان عشائركم؛ ولقد حاربتموهم مرارا فانتصفتهم منهم؛ وما بقي من هذا الحصار إلا أن تفتني ذخائرهم فيموت أحدكم فيدفنه صاحبه، ثم يموت هو فلا يجد من يدفنه! فقاتلوا القوم وبكم قوة، من قبل أن يضعف أحدكم عن أن يمشي إلى قرنه.

فلما أصبح صلى بهم الصبح، ثم خرج إلى الخوارج وهم غارون، وقد نصب لواء لجارية يقال لها ياسمين، فقال: من أراد البقاء فليلحق بلواء ياسمين! ومن أراد الجهاد فليلحق بلوائي. قال: فخرج في ألفين وسبعمائة فارس، فلم تشعر بهم الخوارج حتى غشوهم. فقاتلوهم بجد لم تر الخوارج مثله، فقتلوا أميرهم الزبير بن عليّ، وانهمزت الخوارج، فلم يتبعهم عتاب بن ورقاء.

وخرج قريب بن مرة الأزدي وزخّاف الطائي، وكانا مجتهدين بالبصرة في أيام زياد فاعترضا الناس، فلقيا شيخا ناسكا من بني ضبيعة بن ربيعة بن نزار فقتلاه، وتنادى الناس، فخرج رجل من بني قطيعة من الأزدي بالسيف، فناداه الناس من بعض البيوت: الحرورية الحرورية! انج بنفسك. فنادوه: لسنا حرورية نحن الشرط. فوقف فقتلوه.

وبلغ أبا بلال خبرهما، وكان على دين الخوارج إلا أنه كان لا يرى اعتراض الناس، فقال: قريب، لا قرّبه الله من الخير، وزخّاف، لا عفا الله عنه، فلقد ركباها عشواء مظلمة «2».

(184/1)

ثم جعلوا لا يمرّان بقبيلة إلا قتلا من وجدا فيها، حتى مرّا ببني عليّ بن سود، من الأزدي، وكانوا رماة، وكان فيهم مائة يجيدون الرمي، فرموهم رميا شديدا، فصاحوا: يا بني عليّ، البقيا، لا رماء بيننا. فقال رجل منهم:

لا شيء للقوم سوى السهام ... مشحوذة في غلس الظلام

فهربت عنهم الخوارج؛ فاشتقوا مقبرة بني يشكو حتى خرجوا إلى مزينة، واستقبلهم الناس فقتلوا عن آخرهم.

زياد والخوارج

: ثم عاد الناس إلى زياد، فقال: ألا ينهى كل قوم سفهاءهم؟ فكانت القبائل إذا أحست بخارجي فيهم أوثقوه وأتوا به زيادا، منهم من يحبسه ومنهم من يقتله.

ولزياد أخرى في الخوارج: أنه أتى بامرأة منهم، فقتلها ثم عراها، فلم تخرج النساء إلا بعد زياد، وكنّ إذا أرغمن على الخروج قلن: لولا التعرية لسارعنا.

ومن مشاهير فرسان الخوارج: عمرو القنا، من بني سعد بن زيد مناة؛ وعبيدة بن هلال، من بني يشكر بن بكر بن وائل، وهو الذي طعن صاحب المهلب في فخذه؛ فشكها مع السرج؛ وهما اللذان يقول فيهما ابن المنجب السدوسي من فرسان المهلب، وكان قال له مولاه خلاج: وددت أنا فضضنا عسكرهم حتى أصير إلى مستقرهم فأستلب منه جاريتين، إحداهما لك والأخرى لي:

أخلاج إنك لن تعانق طفلة ... شرقا بما الجادي كالتمثال «1»

حتى تعانق في الكتبية معلما ... عمرو القنا وعبيدة بن هلال «2»

وترى المقعطر في الكتبية مقدا ... في عصبة قسطوا مع الضلال «3»

(185/1)

والمقعطر: من مشاهير فرسانهم، وقطري، أنجدهم قاطبة؛ وصالح بن مخراق، من بهمهم، وكذلك سعد الطلائع.

للمهلب في نفر من الخوارج

: ولما اختلف أمر الخوارج وانحاز قطري فيمن معه وبقي عبد ربه، قال المهلب لأصحابه: إن الله تعالى قد أراحكم من أقران أربعة: قطري بن الفجاءة، وصالح بن مخراق، وعبيدة بن هلال، وسعد الطلائع؛ وإنما بين أيديكم عبد ربه في خشار «1» من خشار الشيطان.

تعطش الخوارج إلى القتال

: وكانت الخوارج تقاتل على السوط يؤخذ منها والعلق الحسيس «2» أشد قتال، وسقط في بعض أيامهم رمح لرجل من مراد من الخوارج، فقاتلوا عليه حتى كثر الجراح والقتل، وذلك مع المغرب، والمرادي يرتجز:

الليل ليل فيه ويل ويل ... وسال بالقوم الشراة السيل

إن جاز للأعداء فينا قول

وتفرقت مقالة الخوارج على أربعة أضرب: فقال نافع بن الأزرق: باستعراض الناس والبراءة من عثمان وعليّ وطلحة والزبير، واستحلال الأمانة وقتل الأطفال.

وقال أبو بيهس هيصم بن جابر الضبّعيّ: إن أعداءنا كأعداء الرسول صلّى الله عليه وسلّم: يحلّ لنا المقام فيهم كما أقام رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأقام المسلمون بين المشركين. وأقول: إن مناكحتهم ومواريتهم تجوز، لأنهم منافقون يظهرون الإسلام وإن حكمهم عند الله حكم المشركين. وقال عبد الله بن إباح: لا نقول فيمن خالفنا إنه مشرك، لأن معهم التوحيد

(186/1)

والإقرار بالكتاب والرسول، وإنما هم كفّار للنعم، ومواريتهم ومناكحتهم والإقامة معهم: حلّ، ودعوة الإسلام تجمعهم.

وقالت الصّفرية بقول عبد الله بن إباح، ورأت القعود، حتى صار عامتهم قعدا، وإنما سمّوا صفرية لاصفرار وجوههم، وقيل: لأنهم أصحاب ابن الصّقار.

(187/1)

كتاب الزبرجدة في الأجواد والأصفاد

فرش كتاب الزبرجدة

قال الفقيه أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه، تغمده الله برحمته: قد مضى قولنا في الحروب وما يدخلها من النقص والكمال، وتقدّم الرجال، على منازلهم من الصبر والجلد، والعدّة والعدد. ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في الأجواد والأصفاد، إذ كان أشرف ملابس الدنيا وأزين حللها وأجلبها لحمد، وأدفعها لذمّ، وأسترها لعيب: كرم طبيعة يتحلى بها السمع السريّ، والأجواد السخي. ولو لم يكن في الكرم إلا أنه صفة من صفات الله تعالى، تسمّى بها، فهو الكريم عز وجل. ومن كان كريما من خلقه، فقد تسمّى باسمه، واحتذى على صفته. وقال النبي صلّى الله عليه وسلّم: «إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه». وفي الحديث المأثور: «الخلق عيال الله، فأحبّ الخلق إلى الله أنفعهم لعياله». وقال الحسن والحسين عليهما السلام لعبد الله بن جعفر: إنك قد أسرفت في بذل المال. قال: بأبي

وأمي أنتما، إنّ الله قد عودني أن يتفضّل عليّ، وعودته أن أتفضل على عباده، فأخاف أن أقطع العادة فيقطع عني.

وقال المأمون لمحمد بن عبّاد المهلبي: أنت متلاف «1» ! قال: منع الجود سوء ظنّ

(188/1)

بالمعبود. يقول الله عز وجل: وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ
«1» .

وقال النبي صلّى الله عليه وسلّم: «أنفق بالالا ولا تخش من ذي العرش إقلالا» .
مدح الكرم وذمّ البخل

قال النبي صلّى الله عليه وسلّم: «اصطناع المعروف يقي مصارع السوء» .
وقال عليه الصلاة والسلام: «إن الله يحب الجود ومكارم الأخلاق ويبغض سفاسفها «2» » .
وقال النبي صلّى الله عليه وسلّم لقوم من العرب: «من سيّدكم؟ قالوا الحمدّ بن قيس على بخل فيه.
فقال صلّى الله عليه وسلّم: وأي داء أدوا من البخل» .
وقال الله تعالى: وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ
«3» .

وقال أكثم بن صيفي حكيم العرب: ذلّوا أخلاقكم للمطالب، وقودوها إلى الخامد، وعلموها
المكارم، ولا تقيموا على خلق تدمونه من غيركم، وصلوا من رغب إليكم، وتحلّوا بالجود يكسبكم
الحبة، ولا تعتقدوا البخل فتتعجلوا الفقر.

أخذه الشاعر فقال:

أمن خوف فقر تعجلته ... وأخرت إنفاق ما تجمع
فصرت الفقير وأنت الغنيّ ... وما كنت تعدو الذي تصنع

سخي وبخيل

: وكتب رجل من البخلاء إلى رجل من الأسخياء يأمره بالإبقاء على نفسه ويخوّفه الفقر. فردّ عليه:
الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً

(189/1)

مِنْهُ وَفَضْلًا

«1» وإني أكره أن أترك أمرا قد وقع، لأمر لعله لا يقع.

من خطبة خالد القسري

: وكان خالد بن عبد الله القسري يقول على المنبر: أيها الناس، عليكم بالمعروف؛ فإن الله لا يعدم فاعله جوازيه؛ وما ضعفت الناس عن أدائه قوي الله على جزائه.
أخذه من قول الخطيئة:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه ... لا يذهب العرف بين الله والناس «2»
وأخذه الخطيئة من بعض الكتب القديمة: يقول الله تعالى فيما أنزله على داود عليه السلام: من يفعل الخير يجده عندي، لا يذهب العرف بيني وبين عبدي.

من خطبة لسعيد بن العاص

: وكان سعيد بن العاص يقول على المنبر: من رزقه الله رزقا حسنا فلينفق منه سرا وجهرا، حتى يكون أسعد الناس به؛ فإنما يترك ما يترك لأحد رجلين: إما لمصلح فلا يقل عليه شيء، وإما لمفسد فلا يبقى له شيء.

أخذخ الشاعر فقال:

أسعد بمالك في الحياة فإتما ... يبقى خلافاك مصلح أو مفسد
فإذا جمعت لمفسد لم يغنه ... وأخو الصلاح قليله يتزيد

قال أبو ذر: إن لك في مالك شريكين: الحدثنان «3» والوارث: فإن استطعت ألا تكون أبخس الشركاء حظاً فافعل.

وقال بزرجمهر الفارسي: إذا أقبلت عليك الدنيا فأنفق منها، فإنها لا تفي؛ وإذا أدبرت عنك فأنفق منها فإنها لا تبقى.

(190/1)

أخذخ الشاعر هذا المعنى فقال:

لا تبخلنّ بدنيا وهي مقبلة ... فليس ينقصها التبذير والسرف
وإن تولّت فأحرى أن تجود بها ... فالحمد منها إذا ما أدبرت خلف

لكسرى في الأسخياء

: وكان كسرى يقول: عليكم بأهل السخاء والشجاعة، فإنهم أهل حسن الظنّ بالله تعالى، ولو أنّ أهل البخل لم يدخل عليهم من ضرر بخلهم ومذمة الناس لهم وإطباق «1» القلوب على بغضهم، إلا سوء ظنهم برّبهم في الخلف، لكان عظيما وأخذ هذا المعنى محمود الورّاق فقال:
من ظنّ بالله خيرا جاد مبتدئا ... والبخل من سوء ظنّ المرء بالله

بين موسى والهادي وابن يزيد

: محمد بن يزيد بن عمرة بن عبد العزيز قال: خرجت مع موسى الهادي أمير المؤمنين من جرجان، فقال لي: إمّا أن تحملني وإما أن أحملك. ففهمت ما أراد، فأنشدته أبيات ابن صرمة الأنصاري.
أوصيكم بالله أول وهلة ... وأحسابكم، والبرّ بالله أول
وإن قومكم سادوا فلا تحسدوهم ... وإن كنتم أهل السيادة فاعدلوا
وإن أنتم أعوزتم فتعففوا ... وإن كان فضل المال فيكم فأفضلوا
فأمر لي بعشرين ألفا.
وقال عبد الله بن عباس: سادات الناس في الدنيا الأسخياء، وفي الآخرة الأتقياء.
قال أبو مسلم الخولاني: ما شيء أحسن من المعروف إلا ثوابه، وما كلّ من قدر على المعروف كانت له نيّة؛ فإذا اجتمعت القدرة والنية تمت السعادة. وأنشد:

(191/1)

إنّ المكارم كلّها حسن ... والبذل أحسن ذلك الحسن
كم عارف بي لست أعرفه ... ومخبّر عني ولم يرني
يأتيهم خبري وإن بعدت ... داري وبوعد عنهم وطني
إني لحرّ المال ممتهن ... ولحرّ عرضي غير ممتهن «1»
وقال خالد بن عبد الله القسري: من أصابه غبار مركبي فقد وجب عليّ شكره.
وقال عمرو بن العاص: والله لرجل ذكرني، ينام على شقّة ثمرة وعلى شقّة أخرى، يراني موضعا
لحاجته، لأوجب عليّ حقا إذا سألتها مني إذا قضيتها له.
وقال عبد العزيز بن مروان: إذا أمكنتني الرجل من نفسه حتى أضع معرفي عنده، فيده عندي أعظم
من يدي عنده. وأنشد لابن عباس رضي الله تعالى عنهما:

إذا طارقات همم ضاجعت الفتى ... وأعمل فكر الليل والليل عاكر «2»

وباكرني في حاجة لم يكن لها ... سواي ولا من نكبة الدهر ناصر

فرجت بمالي همّه عن خناقه ... وزاوله همّ الطّروق المساور

وكان له فضل عليّ بطنه ... بي الخير إنيّ للذي ظنّ شاكر

لأبي عقيل في مروان

: وقيل لأبي عقيل البليغ العراقي: كيف رأيت مروان بن الحكم عند طلب الحاجة إليه؟ قال: رأيت
رغبته في الإنعام فوق رغبته في الشكر، وحاجته إلى قضاء الحاجة أشدّ من حاجة صاحب الحاجة.
وقال زياد: كفى بالبخل عارا أن اسمه لم يقع في حمد قطّ، وكفى بالجود مجدا أن اسمه لم يقع في ذم قط.
وقال آخر:

(192/1)

ألا تراني وقد قطعني عدلا ... ماذا من الفضل بين البخل والجود

إلا يكن ورق يوما أراح به ... للخابطين فإني لئن العود

لا يعدم السائلون الخير أفعله ... إمّا نوالا وإما حسن مردود

قوله «إلا يكن ورق» يريد المال، وضربه مثلا. ويقال: أتى فلان فلانا يختبئ ما عنده. والاختبئ:

ضرب الشجر ليسقط الورق لتأكله السائبة، فجعل طالب الرزق مثل الخابئ.

قال أسماء بن خارجة: ما أحب أن أردّ أحدا في حاجة طلبها، لأنه لا يخلو أن يكون كريما فأصون له
عرضه، أو لئما فأصون عرضي منه.

وقال أرسطو طاليس: من انتجعك «1» من بلاده فقد ابتدأك بحسن الظن بك والثقة بما عندك.

الترغيب في حسن الثناء واصطناع المعروف

قال النبي صلّى الله عليه وسلّم: «إذا أردتم أن تعلموا ما للعبد عند ربّه فانظروا ما يتبعه من حسن
الثناء» .

من عمر إلى أبي موسى

: وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري: اعتبر منزلتك من الله بمنزلتك من
الناس، واعلم أنّ مالك عند الله مثل ما للناس عندك.

وقيل لبعض الحكماء: ما أفادك الدهر؟ قال: العلم به. قيل: فما أحد الأشياء؟

قال: أن تبقي للإنسان أهدوءة حسنة.

وقال بعض أهل التفسير في قول الله تعالى وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ
«2» إنه أراد حسن الشئاء من بعده.

(193/1)

وقال أكثم بن صيفي: إنما أنتم أخبار فطيبوا أخباركم.

أخذ هذا المعنى حبيب الطائي فقال:

وما ابن آدم إلا ذكر صالحة ... أو ذكر سيئة يسرى بها الكلم
أما سمعت بدهر باد، أمته ... جاءت بأخبارها من بعدها أمم «1»

وقال أبو بكر محمد بن دريد:

وإنما المرء حديث بعده ... فكن حديثنا حسنا لمن وعى

وقالوا: الأيام مزارع، فما زرعت فيها حصدته.

لابن عبد ربه

: ومن قولنا في هذا المعنى وغيره من مكارم الأخلاق:

يا من تجلد للزّما ... ن أما زمانك منك أجلد

سلط نحاك على هوا ... ك وعدّ يومك ليس من غد

إن الحياة مزارع ... فازرع بها ما شئت تحصد

والناس لا يبقى سوى ... آثارهم والعين تفقد

أو ما سمعت بمن مضى ... هذا يذمّ وذاك يحمد

المال إن أصلحته ... يصلح وإن أفسدت يفسد

وقال الأحنف بن قيس: ما ادّخرت الآباء للأبناء، ولا أبقت الموتى للأحياء، شيئا أفضل من اصطناع

المعروف عند ذوي الأحساب.

وقالوا: تريب المعروف أولى من اصطناعه؛ لأنّ اصطناعه نافلة، «2» وتريبه فريضة.

وقالوا: أحي معروفك بإماتة ذكره، وعظّمه بالتصغير له.

(194/1)

وقالت الحكماء: من تمام كرم المنعم التغافل عن حاجته، والاقرار بالفضيلة لشاكر نعمته.
وقالوا: للمعروف خصال ثلاث: تعجيله وتيسيره وستره، فمن أخلّ بواحدة منها فقد نجس «1»
المعروف حقه وسقط عنه الشكر.

وقيل لمعاوية: أي الناس أحب إليك؟ قال: من كانت له عندي يد صالحة. قيل:
فإن لم تكن له؟ قال: فمن كانت لي عنده يد صالحة.
وقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من عظمت نعمة الله عنده عظمت مؤونة الناس عليه، فإن لم يقم
بتلك المؤونة عرّض النعمة للزوال» .

عروة بن أديّة في صلبيه

: أبو اليقظان قال: أخذ عبيد الله بن زياد عروة بن أديّة أخا أبي بلال، وقطع يده ورجله، وصلبه على
باب داره؛ فقال لأهله وهو مصلوب: انظروا إلى هؤلاء الموكلين بي فأحسنوا إليهم، فإنهم أضيافكم.
ابن المبارك عن حميد عن الحسن قال: لأن أقضي حاجة لأخ لي، أحب إليّ من عبادة سنة.

بين السندي وكوفي ذي مروءة

: وقال إبراهيم بن السندي: قالت لرجل من أهل الكوفة، من وجوه أهلها، كان لا يجف لبدته «2»،
ولا يستريح قلبه، ولا تسكن حركته في طلب حوائج الرجال وإدخال المرافق على الضعفاء وكان رجلا
مفوّها؛ فقلت له: أخبرني عن الحالة التي خففت عنك التّصب «3» وهوّنت عليك التعب في القيام
بحوائج الناس، ما هي؟ قال قد والله

(195/1)

سمعت تغريد الطير بالأسحار، في فروع الأشجار، وسمعت خفق أوتار العيّدان، وترجيع أصوات
القيان، فما طربت من صوت قط، طربي من ثناء حسن بلسان حسن على رجل قد أحسن، ومن
شكر حرّ المنعم حرّ، ومن شفاعة محتسب لطالب شاكر. قال إبراهيم: فقلت له: لله أبوك! لقد
حشيت كرما.

لجعفر بن محمد

: إسماعيل بن مسرور عن جعفر بن محمد «1» قال: إن الله خلق خلقا خلقا من رحمته برحمته لرحمته، وهم
الذين يقضون الحوائج للناس، فمن استطاع منكم أن يكون منهم فليكن.

الجود مع الإقلال

قال الله تبارك وتعالى فيما حكاه عن الأنصار: وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ، وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

«

وقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أفضل العطية ما كان من معسر إلى معسر» .

وقال عليه الصلاة والسلام: «أفضل العطية جهد المقل» .

وقالت الحكماء: القليل من القليل أحمد من الكثير إلى الكثير.

أخذ هذا المعنى حبيب فنظمه في أبيات كتب بها إلى الحسن بن وهب الكاتب وأهدى إليه قلما:

قد بعثنا إليك أكرمك الله ب ... يء فكن له ذا قبول

لا تقسه إلى ندى كَفَكَ الغم ... ر ولا نيلك الكثير الجزيل «3»

واستجز قلة الهدية مَيَّ ... إنَّ جهد المقلَّ غير قليل

(196/1)

وقالوا: جهد المقلَّ أفضل من غني المكثّر.

وقال صريع الغواني:

ليس السّماح لمكثّر في قومه ... لكن لمقتر قومه المتحمّد

لأبي هريرة في جعفر بن أبي طالب

: وقال أبو هريرة: ما وددت أن أحدا ولدتني أمّه إلا أم جعفر بن أبي طالب؛ تبعته ذات يوم وأنا

جائع، فلما بلغ الباب النفث فرآني، فقال لي: ادخل، فدخلت؛ ففكّر حيناً فما وجد في بيته شيئاً إلا

نخياً «1» كان فيه سمن مرّة، فأنزله من رف لهم، فشقّه بين أيدينا، فجعلنا نلعق ما كان فيه من

السمن والزيت، وهو يقول:

ما كَلَّفَ اللهُ نفساً فوق طاقتها ... ولا تجود يد إلا بما تجد

وقيل لبعض الحكماء: من أجود الناس؟ قال: من جاد من قلة، وصان وجه السائل عن المدلّة.

وقال حماد عجرد:

أورق بخير تؤمّل للجزيل فما ... ترجى الثّمار إذا لم يورق العود

إنّ الكريم ليخفي عنك عسرته ... حتى تراه غنياً وهو مجهود

بثّ التّوال ولا تمنعك قلته ... فكلّ ما سدّ فقرا فهو محمود «2»

وللبخيل على أمواله علل ... زرق العيون عليها أوجه سود

وقال حاتم:

أضاحك ضيفي قبل إنزال رحله ... ويخصب عندي والخلّ جديب

وما الخصب للأضياف أن يكثر القرى ... ولكنّما وجه الكريم خصيب

(197/1)

وقال عبد الملك بن مروان: ما كنت أحب أنّ أحدا ولدني من العرب إلا عروة بن الورد لقوله:

أهزأ مني سمت وأن ترى ... بجسمي مسّ الجوع والجوع جامد

لأني امرؤ عافى إنائي شركة ... وأنت امرؤ عافى إنائك واحد

أقسّم جسمي في جسوم كثيرة ... وأحسو قراح الماء والماء بارد «1»

ومن أحسن ما قيل في الجود مع الإقلال قول صريع:

فلو لم يكن في كفّه غير روحه ... لجاد بها فليتنق الله سائله

ومن أفرط ما قيل في الجود قول بكر بن النطّاح:

أقول لمرتاد التّدّي عند مالك ... تمسّكّ بجدوى مالك وصلاته «2»

فتى جعل الدّنيا وقاء لعرضه ... فأسدى بها المعروف قبل عداته «3»

فلو خذلت أمواله جود كفّه ... لقاسم من يرجوه شطر حياته

وإن لم يجز في العمر قسم لمالك ... وجاز له أعطاه من حسناته

وجاد بها من غير كفر برّبّه ... وأشركه في صومه وصلاته

وقال آخر في هذا المعنى وأحسن:

ملأت يدي من الدنيا مرارا ... وما طمع العواذل في اقتصادي

ولا وجبت عليّ زكاة مال ... وهل تجب الزّكاة على الجواد

العطية قبل السّؤال

قال سعيد بن العاص: قبّح الله المعروف إن لم يكن ابتداء من غير مسألة، فالمعروف عوض من مسألة

الرجل إذا بذل وجهه، فقلبه خائف، وفرائضه ترعد، وجبينه يرشح؛ لا يدري أيرجع بنجح الطلب، أم

بسوء المنقلب، قد انتقع «4» لونه،

وذهب دم وجهه. اللهم فإن كانت الدنيا لها عندي حظّ فلا تجعل لي حظا في الآخرة.
وقال أكتثم بن صيفي: كل سؤال وإن قلّ أكثر من كل نوال وإن جلّ.
وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه لأصحابه: من كانت له إليّ منكم حاجة فليرفعها في كتاب،
لأصون وجوهكم عن المسألة.
حبيب قال:

عطاؤك لا يفنى ويستغرق المنى ... وتبقى وجوه الرّاغبين بمائها «1»
وقال حبيب أيضا:

ذلّ السّؤال شجا في الحلق معترض ... من دونه شرق من خلفه جرض «2»
ما ماء كفك إن جادت وإن بخلت ... من ماء وجهي إذا أفنيته عوض
إيّ بأيسر ما أدنيت منبسط ... كما بأكثر ما أقصيت منقبض
وقالوا: من بذل إليك وجهه فقد وفّك عن نعمتك.
وقالوا: أكمل الخصال ثلاث: وقار بلا مهابة، وسماح بلا طلب مكافأة، وحلم بغير ذلّ.
وقالوا: السخي من كان مسرورا ببذله، متبرعا بعطائه، لا يلتمس عرض دنيا فيحبط عمله، ولا طلب
مكافأة فيسقط شكره، ولا يكون مثله فيما أعطى مثل الصائد الذي يلقي الحب للطائر: لا يريد
نفعها ولكن نفع نفسه.

بين ابن أبي سبرة وأبي الأسود

: نظر المنذر بن أبي سبرة إلى أبي الأسود الدؤلي وعليه قميص مرقوع، فقال له: ما أصبرك على هذا
القميص؟ فقال له: ربّ مملوك لا يستطيع فراقه. فبعث إليه

بتخت من ثياب. فقال أبو الأسود:
كساني ولم أستكسه فحمدته ... أخ لك يعطيك الجزيل وناصر
وإنّ أحقّ الناس إن كنت شاكرا ... بشكرك من أعطاك والعرض وافر

بين معاوية وابن صوحان في الجود

: وسأل معاوية صعصعة بن صوحان: ما الجود؟ فقال: التبرع بالمال، والعطية قبل السؤال.

لابن عبد ربه

: ومن قولنا في هذا المعنى:

كريم على العلات جزل عطاؤه ... ينيب وإن لم يعتمد لنوال «1»
وما الجود من يعطي إذا ما سألته ... ولكن من يعطي بغير سؤال
وقال بشار العقيلي:

مالكي ينشق عن وجهه الجد ... ب كما انشقت الدجى عن ضياء
فنجوح السماء فيض يديه ... لقريب ونازح الدار ناء «2»
ليس يعطيك للرجاء وللخو ... ف ولكن يلدّ طعم العطاء
لا ولا أن يقال شيمته الجو ... د ولكن طبائع الآباء
وقال آخر:

إن بين السؤال والإعتذار ... خطّة صعبة على الأحرار
وقال حبيب:

لئن جحدتك ما أوليت من نعم ... إني لفي اللؤم أمضى منك في الكرم

(200/1)

أنسى ابتسامك والألوان كاسفة ... تبسم الصبح في داج من الظلم «1»
رددت رونق وجهي في صحيفته ... ردّ الصقال بهاء الصّارم الخدم «2»
وما أبالي وخير القول أصدقه ... حقنت لي ماء وجهي أم حقنت دمي!

استنجاح الحوائج

عادتهم في ذلك

: كانوا يستفتحون حوائجهم بركعتين يقولون فيهما: اللهم بك أستنجح، وباسمك أستفتح، وبمحمد
نبيك إليك أتوجه، اللهم ذلّ لي صعوبته، وسهّل لي حزونته، وارزقني من الخير أكثر مما أرجو، واصرف
عني من الشر أكثر مما أخاف.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «استعينوا على حوائجكم بالكتمان لها، فإن كل ذي نعمة محسود»

وقال خالد بن صفوان: لا تطلبوا الحوائج في غير حينها، ولا تطلبوها من غير أهلها، فإنَّ الحوائج تطلب بالرجاء، وتدرك بالقضاء.

وقال: مفتاح نجح الحاجة الصبر على طول المدة. ومغلاقها اعتراض الكسل دونها.
قال الشاعر:

إني رأيت وفي الأيام تجرية ... للصبر عاقبة محمودة الأثر
وقلَّ من جدَّ في أمر يحاوله ... واستصحب الصبر إلا فاز بالظفر
ومن أمثال العرب في هذا: من أدمن قرع الباب يوشك أن يفتح له.
أخذ الشاعر هذا المعنى فقال:
إن الأمور إذا انسدت مسالكها ... فالصبر يفتق منها كل ما ارتنجا «3»

(201/1)

لا تيأسنَّ وإن طالت مطالبة ... إذا تضايق أمر أن ترى فرجا
أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته ... ومدمن القرع للأبواب أن يلجا «1»
وقال خالد بن صفوان: فوت الحاجة خير من طلبها إلى غير أهلها، وأشدَّ من المصيبة سوء الخلف منها.
وقالوا: صاحب الحاجة مبهوت، وطلب الحوائج كلَّها تعزير «2» .
وقالت: الحكماء: لا تطلب حاجتك من كذاب؛ فإنه يقرِّبها بالقول ويبعدها بالفعل؛ ولا من أحق، يريد نفعك فيضرك؛ ولا من رجل له أكلة من جهة رجل، فإنه لا يؤثر حاجتك على أكلته.
وقال دعبل بن علي الخزاعي:
جنتك مسترفدا بلا سبب ... إليك إلا بحرمة الأدب «3»
فاقض ذمامي فإنني رجل ... غير ملح عليك في الطلب
وقال شبيب بن شيبه: إني لأعرف أمرا لا يتلاقى به اثنان إلا وجب النجح بينهما. قيل له: وما ذاك؟
قال: العقل؛ فإن العاقل لا يسأل ما لا يمكن، ولا يردِّ عما يمكن.
وقال الشاعر:
أتيتك لا أدلي بقربي ولا يد ... إليك سوى أيِّ بجودك واثق

فإن تولني عرفا أكن لك شاكرا ... وإن قلت لي عذرا أقل أنت صادق «4»
وقال الحسن بن هانيء:

فإن تولني منك الجميل فأهله ... وإلا فيأتي عاذر وشكور

(202/1)

وقال آخر:

لعمرك ما أخلقت وجهها بذلته ... إليك ولا عرضته للمعاير
فتى وفرت أيدي المكارم عرضه ... عليه وختت ماله غير وافر

بين ابن واسع وأمير

: ودخل محمد بن واسع على بعض الأمراء فقال: أتيتك في حاجة فإن شئت قضيتها وكنا كريمين،
وإن شئت لم تقضها وكنا لئيمين. أراد: إن قضيتها كنت أنت كريما بقضائها وكنت أنا كريما بسؤالك
إياها؛ لأني وضعت الطلبة في موضعها؛ فإن لم تقضها كنت أنت لئима بمنعك وكنت أنا لئима بسوء
اختياري لك.

وسرق حبيب هذا المعنى فقال:

عيّاش إنك للئيم وإنني ... مذ صرت موضع مطلبي للئيم

عبد الله بن طاهر وسوار القاضي

: ودخل سوار القاضي على عبد الله بن طاهر صاحب خراسان فقال: أصلح الله الأمير:

لنا حاجة والعذر فيها مقدّم ... خفيف معناها مضاعفة الأجر «1»

فإن تقضها فالحمد لله وحده ... وإن عاق مقدور ففي أوسع العذر «2»

قال له: ما حاجتك أبا عبد الله؟ قال: كتاب لي: إن رأى الأمير أكرمه الله - أن ينفذه في خاصته،
كتب إلى موسى بن عبد الملك في تعجيل أرزاقه. قال: أو غير ذلك أبا عبد الله؟ نعجلها لك من
مالك، وإذا وددت كنت محببًا بين أن تأخذ أو تردّ. فأنشد سوار يقول:

فبابك أيمن أبواهم ... ودارك مأهولة عامره

وكفك حين ترى المجتدي ... ن أندى من الليلة الماطره

(203/1)

وكلك آنس بالمعتفين ... من الأمّ بابنتها الزّائرة «1»

أبو حازم الأعرج وسلطان في حاجة

: ودخل أبو حازم الأعرج على بعض أهل السلطان فقال: أتيتك في حاجة رفعتها إلى الله قبلك، فإن يأذن الله في قضائها قضيتها وحمدناك، وإن لم يأذن في قضائها لم تقضها وعذرناك.
وفي بعض الحديث: «اطلبوا الحوائج عند حسان الوجوه» .
أخذه الطائي فنظمه في شعره فقال:

قد تأوّلت فيك قول رسول الله ... إذ قال مفصحا إفصاحا
إن طلبتم حوائجا عند قوم ... فتنقّوا لها الوجوه الصّباحا
فلعمري لقد تنقّيت وجهها ... ما به خاب من أراد النّجاحا

بين المنصور وطالب حاجة

: قال المنصور لرجل دخل عليه: سل حاجتك فإنك لست تقدر على هذا المقام في كل حين. قال:
بييقك الله يا أمير المؤمنين، ما أستقصر عمرك ولا أخاف بخلك، وإنّ عطاءك لشرف، وإن سؤالك
لزين، وما بامرئء بذل إليك وجهه نقص ولا شين «2». فوصله وأحسن إليه.

استنجاز المواعد

كلمات في معنى هذا العنوان

: من أمثالهم في هذا: أنجز حرّ ما وعد.
وقالوا: وعد الكريم نقد، ووعد اللئيم تسويق.
وقال الزّهرى: حقيق على من أورد بوعده أن يثمر بفعله.

(204/1)

وقال المغيرة: من آخر حاجة فقد ضمنها.

وقال الموبدان الفارسي: الوعد السحابة، والإنجاز المطر.

وقال غيره: المواعيد رءوس الحوائج والإنجاز أبدانها.

وقال عبد الله بن عمر: خلف الوعد ثلث النفاق، وصدق الوعد ثلث الإيمان، وما ظنّك بشيء جعله
الله مدحة في كتابه، وفخرا لأنبيائه، فقال تعالى: **وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ**

«1» .

جبار في عامر ابن الطفيل

: وذكر جبار بن سلمى عامر بن الطفيل فقال: كان والله إذا وعد الخير وفي، وإذا وعد الشر أخلف. وهو القائل:

ولا يرهب ابن العمّ ما عشت صولتي ... ويأمن مّي سطوة المتهدّد «2»
وإني وإن أوعدته أو وعدته ... ليكذب إيعادي ويصدق موعدي
وقال ابن أبي حازم:

إذا قلت في شيء «نعم» فأتمّه ... فإنّ «نعم» دين على الحرّ واجب
وإلا فقل «لا» تسترح وترح بها ... لئلا يقول الناس إنك كاذب
ولو لم يكن في خلف الوعد إلا قول الله عز وجل: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ
مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ
«3» لكفى.

وقال عمر بن الحارث: كانوا يفعلون ولا يقولون، ثم صاروا يقولون ويفعلون، ثم صاروا يقولون ولا يفعلون، ثم صاروا لا يقولون ولا يفعلون، فرغم أنهم ضنّوا بالكذب فضلا عن الصدق.

(205/1)

وفي هذا المعنى يقول الحسن بن هانيء:

قال لي ترضى بوعد كاذب؟ ... قلت إن لم يك شحم فنفش «1»
ومثله قول عباس بن الأحنف، ويقال إنّها لمسلم بن الوليد صريع الغواني:
ما ضرّ من شغل الفؤاد بيخله ... لو كان علّني بوعد كاذب «2»
صبرا عليك فما أرى لي حيلة ... إلا التمسك بالرجاء الخائب
سأموت من كمد وتبقى حاجتي ... فيما لديك وما لها من طالب

بين عبد الملك وابن أم الحكم

: قال عبد الرحمن بن أم الحكم لعبد الملك بن مروان في مواعيد وعدها إياه فمطله «3» بها: نحن إلى الفعل أحوج منا إلى القول، وأنت بالإنجاز أولى منك من المطل، واعلم أنك لا تستحق الشكر إلا بإنجازك الوعد واستتمامك المعروف.

بن عيسى بن موسى وابن معن

: القاسم بن معن المسعودي قال: قلت لعيسى بن موسى: أيها الأمير، ما انتفعت بك منذ عرفتك، ولا أوصلت لي خيرا منذ صحبتك. قال: ألم أكلم لك أمير المؤمنين في كذا وأسأله لك كذا؟ قال: قلت: بلى، فهل استنجزت ما وعدت، واستتممت ما بدأت؟ قال: حال من دون ذلك أمور قاطعة، وأحوال عاذرة. قلت: أيها الأمير، فما زدت على أن نبهت العجز من رقدته، وأثرت الحزن من ريبضته، إن الوعد إذا لم يشفعه إنجاز يحققه، كان كلفظ لا معنى له، وجسم لا روح فيه.

وقال عبد الصمد بن الفضل الرقاشي لخالد بن ديسم عامل الرّي:
أخالد إن الرّي قد أجمعت بنا ... وضاق علينا رحبها ومعاشها
وقد أطمعتنا منك يوما سحابة ... أضاعت لنا برقاً وأبطا رشاشها

(206/1)

فلا غيمها يصحو فيئس طامعا ... ولا ماؤها يأتي فتروى عطاشها

بين بشار وسلم

: وقال سعيد بن سلم: وعد أبي بشارا العقيلي حين مدحه بالقصيدة التي يقول فيها:

صدت بخدّ وجلت عن خدّ ... ثم انثنت كالتقس المرتدّ «1»

فكتب إليه بشار بالغد:

ما زال ما منّيتني من همّي ... الوعد فأرح من غمّي

إن لم ترد مدحي فراقب ذمّي

فقال له أبي: يا أبا معاذ، هلا استنجزت الحاجة بدون الوعيد! فإذا لم تفعل فترتب ثلاثا وثلاثا؛ فأبني والله ما رضيت بالوعد حتى سمعت الأبرش الكلبي يقول لهشام: يا أمير المؤمنين؛ لا تصنع إليّ معروفا حتى تعديني؛ فإنه لم يأتيني منك سيب «2» على غير وعد إلا هان عليّ قدره وقلّ مني شكره. فقال له هشام: لئن قلت ذلك لقد قاله سيد أهلك أبو مسلم الخولاني: «إن أوقع المعروف في القلوب، وأبرده على الأكباد معروف منتظر، بوعد لا يكدره المطل».

يجي بن خالد وقضاء الخوانج

: وكان يجي بن خالد بن برمك لا يقضي حاجة إلا بوعد، ويقول: من لم يبت على سرور الوعد لم يجد للصنيعة طعاما.

وقالوا: الخلف الأم من البخل لأنه من لم يفعل المعروف لزمه ذم اللؤم وحده، ومن وعد وأخلف لزمه ثلاث مذمات: ذم اللؤم، وذم الخلف، وذم الكذب.

وقال زياد الأعجم:

لله درك من فتى ... لو كنت تفعل ما تقول

(207/1)

لا خير في كذب الجوا ... د وحبذا صدق البخيل

استبسطاً حبيب الطائي الحسن بن وهب في عدة وعدها إياه، فكتب إليه أبياتا يستعجله بها؛ فبعث إليه بألف درهم وكتب إليه:

أعجلتنا فأتاك عاجل برنا ... قلاً ولو أخرته لم يقلل
فخذ القليل وكن كمن لم يسأل ... ونكون نحن كأننا لم نفعل

ابن دأب عند المهدي

: وقال عبد الملك بن مالك الخزاعي: دخلت على أمير المؤمنين المهدي وعنده ابن دأب وهو ينشد قول الشماخ:

وأشعث قد قدّ السفار قميصه ... يجرّ شواء بالعصا غير منضج «1»

دعوت إلى ما نابني فأجابني ... كريم من الفتبان غير منجّ

فتى يمريء الشيزى ويروي سنانه ... ويضرب في رأس الكميّ المدجج «3»

فتى ليس بالرّاضي بأدني معيشة ... ولا في بيوت الحيّ بالمتوجّ

فرفع المهديّ رأسه إليّ وقال: هذه صفتك أبا العباس. فقلت: بك نلتها يا أمير المؤمنين. قال:

فأنشدني. فأنشدته قول المسموعول:

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه ... فكلّ رداء يرتديه جميل

وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها ... فليس إلى حسن الثناء سبيل «4»

إذا المرء أعيته المروءة يافعا ... فمطلبها كهلا عليه ثقيل «5»

تعيرنا أنا قليل عدادنا ... فقلت لها إنّ الكرام قليل

وما ضرنا أنا قليل وجارنا ... عزيز وجار الأكتارين ذليل

ونحن أناس لا نرى القتل سبّة ... إذا ما رأته عامر وسلول «6»

(208/1)

يقترب حب الموت آجالنا لنا ... وتكرهه آجالهم فتطول
وما مات منّا سيّد حتف أنفه ... ولا طلّ منّا حيث كان قتيل «1»
تسيل على حدّ السيوف نفوسنا ... وليست على غير السيوف تسيل
وننكر إن شننا على الناس قولهم ... ولا ينكرون القول حين نقول
فحن كماء المزن ما في نصابنا ... كهام ولا فينا يعدّ بخيل «2»
وأسيافنا في كلّ شرق ومغرب ... بها من قراع الدارعين فلول «3»
فقال: أحسنت، اجلس، بهذا بلغتم، سل حاجتك. قلت: يا أمير المؤمنين، تكتب لي العطاء ثلاثين
رجلا من أهلي. قال: نعم، عليّ إذا وعدت، فقلت: يا أمير المؤمنين، إنك متمكّن من القدرة وليس
دونك حاجز عن الفعل؛ فما معنى العدة؟
فنظر إلى ابن دأب يريد منه كلاما في فضل الموعد، فقال ابن دأب:
حلاوة الفعل بوعده ينجز ... لا خير في العرف كنهب ينهز «4»
فضحك المهدي وقال:
الفعل أحسن ما يكون ... ن إذا تقدّمه ضمان

للمهلب يوصي بنيه

: وقال المهلب بن أبي صفرة لبنيه: يا بنيّ، إذا غدا عليك الرجل وراح مسلّما فكفى بذلك تقاضيا.
وقال الشاعر:
أروح بتسليمي عليك وأغتدي ... وحسبك بالتسليم ميّ تقاضيا
وقال آخر:

(209/1)

كفك مخبرا وجهي بشاني ... وحسبك أن أراك وأن تراي
وما ظنيّ بمن يعنيه أمري ... ويعلم حاجتي ويرى مكاني
وكتب العتايي إلى بعض أهل السلطان: أما بعد؛ فإن سحاب وعدك قد أبرقت، فليكن وبلها سالما

من علل المطل. والسلام.

وكتب الجاحظ إلى رجل وعده: أما بعد فإن شجرة وعدك قد أورقت فليكن ثمرها سالما من جوائح
المطل «1». والسلام.

عبد الله بن طاهر ودعبل

: وعد عبد الله بن طاهر دعبلا بسلام، فلما طال عليه تصدّى له يوما وقد ركب إلى باب الخاصة،
فلما رآه قال: أسأت الاقتضاء، وجهلت المأخذ، ولم تحسن النظر، ونحن أولى بالفضل؛ فلك الغلام
والدابة متى نزل إن شاء الله تعالى. فأخذ بعنانه دعبل وأنشده:
يا جواد اللسان من غير فعل ... ليت في راحتك جود اللسان
عين مهرا قد لطمت مرارا ... فاتق ذاك الجلال في مهرا
عرت عينا فدع لمهرا عينا ... لا تدعه يطوف في العميان
قال: فنزل له عن دابته، وأمر له بالسلام.

أبان وخلف ابن خليفة

: وسأل خلف بن خليفة أبان بن الوليد جارية، فوعده بها وأبطأت عليه، فكتب إليه:
أرى حاجتي عند الأمير كأنها ... تمّ زمانا عنده بمقام
وأحصر من إذكاره إن لقيته ... وصدق الحياء ملجم بلجام
أراها إذا كان النهار نسيئة ... وبالليل تقضى عند كلّ منام «2»

(210/1)

فياربّ أخرجها فإنك مخرج ... من الميت حيا مفصحا بكلام
فتعلم ما شكري إذا ما قضيتها ... وكيف صلاتي عندها وصيامي
وكتب أبو العتاهية إلى رجل وعده بعدة ومطله بها.
لا جعل الله لي إليك ولا ... عندك ما عشت حاجة أبدا
ما جئت في حاجة أسرّ بها ... إلا تناقلت ثمّ قلت غدا
وكتب دعبل إلى رجل وعده وعدا وأخلفه:
أحسبت أرض الله ضيقة ... عني فأرض الله لم تضق
وجعلتني فقعا بقرقرة ... فوطنتني وطنا على حنق «1»

فإذا سألتك حاجة أبدا ... فاضرب بها قفلا على غلق
وأعدّ لي غلّا وجامعة ... فاجمع يديّ بها إلى عنقي «2»
ما أطول الدّنيا وأوسعها ... وأدّليّ بمسالك الطّرق

لابن عبد ربه

: ومن قولنا في رجل كتب إليّ بعدة في صحيفة ومطلني بها:
صحيفة طابعها اللوم ... عنواها بالجهل مختوم
يهدي لها والخلف في طيّها ... والمطل والتسويف واللوم
من وجهه نحس ومن قربه ... رجس ومن عرفانه شوم
لا تهنّضم إن بتّ ضيفا له ... فخبزه في الجوف هاضوم «3»
تكلمه الأحاظ من رقّة ... فهو بلحظ العين مكلوم «4»
لا تأتدم شيئا على أكله ... فإنه بالجوع مأدوم «5»

(211/1)

وقلت فيه:

صحيفة كتبت ليت بها وعسى ... عنواها راحة الرّاجي إذا يئسا
وعد له هاجس في القلب قد برمت ... أحشاء صدري به من طول ماهجسا «1»
براعة غزّيّ منها وميض سني ... حتى مددت إليها الكفّ مقتبسا «2»
فصادفت حجرا لو كنت تضربه ... من لؤمه بعصا موسى لما انبجسا «3»
كأثما صيغ من بخل ومن كذب ... فكان ذاك له روحا وذا نفسا
وقلت فيه:

رجاء دون أقربه السّحاب ... ووعد مثل ما لمع السراب
وتسويف يكلّ الصّبر عنه ... ومطل ما يقوم له حساب «4»
وأيام خلت من كلّ خير ... ودنيا قد توزّعها الكلاب

لطيف الاستمناح

قالت الحكماء: لطيف الاستمناح سبب النجاح، والأنفس ربما انطلقت وانشرحت بلطيف السؤال،
وانقبضت وامتنعت بجفاء «5» السائل؛ كما قال الشاعر:

وجفوتني فقطعت عنك فوائدي ... كالدّر يقطع جفاء الحالب

وقال العتايي: إن طلبت حاجة إلى ذي سلطان فأجمل في الطلب إليه، وإياك والإلحاح عليه؛ فإنّ إلحاحك يكلم «6» عرضك ويريق ماء وجهك، فلا تأخذ منه عوضاً لما يأخذ منك؛ ولعلّ الإلحاح يجمع عليك إخلاق ماء الوجه، وحرمان النجاح؛ فإنه ربما ملّ المطلوب إليه حتى يستخف بالطالب.

(212/1)

وقال الحسن بن هانئ:

تأنّ مواعيد الكرام فرمًا ... حملت من الإلحاح سمحا على بخل

وقال آخر:

إن كنت طالب حاجة فتجمّل ... فيها بأحسن ما طلبت وأجمل

إنّ الكريم أخوا المروءة والنهي ... من ليس في حاجاته بمنقّل

بين مروان ابن أبي حفصة وابن يزيد

: وقال مروان بن أبي حفصة: لقيت يزيد بن يزيد وهو خارج من عند المهدي فأخذت بعنان دابّته وقلت له: إني قلت فيك ثلاثة أبيات أريد بكل بيت منها مائة ألف. قال: هات لله أبوك، فأنشأت أقول:

يا أكرم الناس من عجم ومن عرب ... بعد الخليفة يا ضرغامة العرب «1»

أفنيت مالك تعطيه وتنهيه ... يا آفة الفضة البيضاء والذهب

إنّ السنان وحدّ السيف لو نطقا ... لأخبرا عنك في الهيجاء بالعجب

عبد الملك ونفر من بني أمية

: المدائني قال: قدم قوم من بني أمية على عبد الملك بن مروان، فقالوا: يا أمير المؤمنين، نحن ممن نعرف، وحقنا ما لا ينكر، وجنناك من بعيد، ونمت «2» بقريب، ومهما تعطنا فنحن أهلهم.

الرشيد وعبد الملك بن صالح

: دخل عبد الملك بن صالح على الرشيد فقال: أسألك بالقرابة والخاصة أم بالخلافة والعامّة؟ قال: بل بالقرابة والخاصة. قال: يداك يا أمير المؤمنين أطلق من لساني بالمسألة، فأعطاه وأجزل له.

(213/1)

ودخل أبو الريان على عبد الملك بن مروان، وكان عنده أثيرا، فرآه خائرا «1»، فقال: يا أبا الريان، مالك خائرا؟ قال: أشكو إليك الشرف يا أمير المؤمنين! قال: كيف ذلك؟ قال: نسأل ما لا نقدر عليه ونعتذر فلا نعذر. قال عبد الملك: ما أحسن ما استمنحت واعترت «2» يا أبا الريان. أعطوه كذا وكذا.

الحجاج والشعبي

: العتابي قال: كتب الشعبي إلى الحجاج يسأله حاجة، فاعتلّ عليه «3»، فكتب إليه الشعبي: والله لا عذرتك وأنت والي العراقين وابن عظيم القرينين. ففرضي حاجته. وكان جدّ الحجاج لأمه عروة بن مسعود الثقفي.

معاوية وابن زرارة

: العتبي قال: قدم عبد العزيز بن زرارة الكلابي على أمير المؤمنين معاوية فقال: إني لم أزل أهرّ ذوائب الرّحال إليك، فلم أجد معولا إلا عليك، أمتطي الليل بعد النهار، وأسم «4» المجاهل بالآثار، يقودني إليك أمل، وتسوقني بلوى، واجتهد يعذر، وإذا بلغتك فقطني «5». فقال: احطط عن راحلتك.

يزيد بن المهلب وكريز

: ودخل كريز بن زفر بن الحارث على يزيد بن المهلب فقال: أصلح الله الأمير، أنت أعظم من أن يستعان بك ويستعان عليك، ولست تفعل من الخير شيئا إلا وهو يصغر عنك وأنت أكبر منه، ولا العجب أن تفعل، ولكن العجب ألا تفعل. قال: سل حاجتك. قال: حملت عن عشيرتي عشر ديات. قال: قد أمرت لك بها وشفعتها بمثلها.

(214/1)

حاتم الطائي وسائل حاجة

: العتبي عن أبيه قال: أتى رجل إلى حاتم الطائي فقال: إنهما وقعت بيني وبين قوم ديات، فاحتملتها في مالي وأملي، فعدمت مالي وكنت أملي، فإن تحملها عني فربّ همّ قد فرجته، وغمّ كفيته، ودين قضيته، وإن حال دون ذلك حائل لم أذمّ يومك، ولم أياس من غدك. فحملها عنه.

خالد القسري وسائل

: المدائني قال: سأل رجل خالدا القسري حاجة، فاعتلّ عليه، فقال له: لقد سألت الأمير من غير

حاجة. قال: وما دعائك إلى ذلك؟ قال: رأيتك تحب من لك عنده حسن بلاء؛ فأردت أن أتعلق منك بحبل مودة. فوصله وحباه وأدنى مكانه.

المنصور والهجري

: الأصمعي قال: دخل أبو بكر الهجريّ على المنصور، فقال: يا أمير المؤمنين نغض فمي «1»، وأنتم أهل البيت بركة، فلو أذنت لي فقبّلت رأسك لعل الله يشدّد لي منه! قال: اختر منها أو من الجائزة. فقال: يا أمير المؤمنين. أهون عليّ من ذهاب درهم من الجائزة ألاّ تبقى حاكة في فمي. فضحك المنصور وأمر له بجائزة.

أبو دلف وجار له

: وذكروا أن جارا لأبي دلف ببغداد لزمه كبير دين فادح، حتى احتاج إلى بيع داره، فساوموه بما، فسأهم ألفي دينار؛ فقالوا له: إنّ دارك تساوي خمسمائة. قال: وجواري من أبي دلف بألف وخمسمائة! فبلغ أبا دلف؛ فأمر بقضاء دينه وقال له: لا تبع دارك ولا تنتقل من جوارنا.

(215/1)

قيس بن سعد وامرأة

: ووقفت امرأة على قيس بن سعد بن عبادة فقالت: أشكو إليك قلة الجرذان. قال: ما أحسن هذه الكناية! املأوا لها بيتها خبزاً ولحماً وسمناً.

المنصور وأزهر السمان

: إبراهيم بن أحمد عن الشَّيباني قال: كان أبو جعفر المنصور أيام بني أمية إذا دخل البصرة دخل مستتراً، فكان يجلس في حلقة أزهر السمان المحدث، فلما أفضت الخلافة إليه قدم عليه أزهر، فرحّب به وقرّبه، وقال له: ما حاجتك يا أزهر؟ قال: داري منهدمة، وعليّ أربعة آلاف درهم، وأريد لو أن ابني محمداً بنى بعياله «1». فوصله باثني عشر ألفاً، وقال: قد قضينا حاجتك يا أزهر؛ فلا تأتنا طالبا. فأخذها وارتحل. فلما كان بعد سنة أتاه، فلما رآه أبو جعفر قال: ما جاء بك يا أزهر؟ قال: جئتك مسلماً. قال: إنه يقع في خلد أمير المؤمنين أنك جئت طالبا. قال: ما جئت إلا مسلماً. قال: قد أمرنا لك باثني عشر ألفاً، واذهب فلا تأتنا طالبا ولا مسلماً.

فأخذها ومضى؛ فلما كان بعد سنة أتاه، فقال: ما جاء بك يا أزهري؟ قال: أتيت عائدا، قال: إنه يقع في خلدي أنك جئت طالبا. قال: ما جئت إلا عائدا. قال: قد أمرنا لك باثني عشر ألفا، واذهب فلا تأتينا طالبا ولا مسلما ولا عائدا. فأخذها وانصرف؛ فلما مضت السنة أقبل، فقال له: ما جاء بك يا أزهري؟ قال: دعاء كنت أسمعك تدعو به يا أمير المؤمنين، جئت لأكتبه. فضحك أبو جعفر وقال: إنه دعاء غير مستجاب، وذلك أني قد دعوت الله به ألا أراك فلم يستجب لي، وقد أمرنا لك باثني عشر ألفا وتعال متى شئت، فقد أعتني فيك الحيلة.

ابن المهلب وأعرابي

: أقبل أعرابي إلى داود بن المهلب فقال له. إني مدحتك فاستمع. قال: على رسلك «2» ! ثم دخل بيته وتقلد سيفه وخرج، فقال: قل، فإن أحسنت حكمتك، وإن

(216/1)

أسأت قتلناك! فأنشأ يقول:

أمنت بداود وجود يمينه ... من الحدث المخشي والبؤس والفقر
فأصبحت لا أخشى بداود نبوة ... من الحدثنان إذ شددت به أزرِي
له حكم لقمان وصورة يوسف ... وحكم سليمان وعدل أبي بكر
فتى تفرق الأموال من جود كفه ... كما يفرق الشيطان من ليلة القدر «2»
فقال: قد حكمتك؛ فإن شئت على قدرك، وإن شئت على قدرِي. قال: بل على قدرِي. فأعطاه
خمسين ألفا، فقال له جلساؤه: هلا احتكمت على قدر الأمير؟ قال:
لم يك في ماله ما يفني بقدره! قال له داود: أنت في هذه أشعر منك في شعرك. وأمر له بمثل ما أعطاه.

الرشيد وإسحاق الموصلِي

: الأصمعي قال: كنت عند الرشيد إذ دخل عليه إسحاق بن إبراهيم الموصلِي فأنشده:
وأمره بالبخل قلت لها اقصري ... فليس إلى ما تأمرين سبيل
فعالي فعال المكثرين تجملا ... ومالي كما قد تعلمين قليل
فكيف أحاف الفقر أو أحرم الغنى ... ورأي أمير المؤمنين جميل
فقال له الرشيد: لله درّ أبيات تأتيها بها! ما أحسن أصولها وأبين فصولها، وأقلّ فضولها! يا غلام أعطه
عشرين ألفا. قال: والله لا أخذت منها درهما واحدا! قال:

ولم؟ قال: لأن كلامك والله يا أمير المؤمنين خير من شعري! قال: أعطوه أربعين ألفا. قال الأصمعي:
فعلمت والله أنه أصيد لدراهم الملوك مني.

(217/1)

معاوية وزيد ابن منية

: العتيبي عن أبيه قال: قدم زيد بن منية من البصرة على معاوية، وهو أخو يعلي بن منية صاحب
الجمال، جمل عائشة رضي الله عنها، ومتولي تلك الحروب، ورأس أهل البصرة؛ وكانت ابنة يعلي عند
عتبة بن أبي سفيان؛ فلما دخل على معاوية شكاه دينه، فقال: يا كعب، أعطه ثلاثين ألفا. فلما ولى
قال: وليوم الجمال ثلاثين ألفا أخرى، ثم قال له: الحق بصهرك - يعني عتبة - فقدم عليه مصر. فقال:
إني سرت إليك شهرين، أخوض فيهما المتالف «1»، ألبس أردية الليل مرة، وأخوض في لجج
السراب أخرى، موقرا «2» من حسن الظن بك، وهاربا من دهر قطم «3»، ومن دين لزم، بعد
غنى جدعنا به أنوف الحاسدين. فقال عتبة: إن الدهر أعاركم غنى، وخلطكم بنا ثم استرد ما أمكنه
أخذه، وقد أبقى لكم منا ما لا ضيعة معه، وأنا رافع يدي ويدك بيد الله، فأعطاه ستين ألفا كما أعطاه
معاوية.

ابن سويد وأبو ساسان

: إبراهيم الشيباني قال: قال عبد الله بن علي بن سويد بن منجوف: أعدم أبي إعدامه بالبصرة
وأنفض «4»، فخرج إلى خراسان فلم يصب بها طائلا. فبينما هو يشكو تعزّر الأشياء عليه، إذ عدا
غلامه على كسوته وبغلته فذهب بهما، فأتى أبا ساسان حضين ابن المنذر الرقاشي فشكا إليه حاله،
فقال له: والله يا بن أخي، ما عمك ممن يحمل محاملك، ولعلّي أن أحتال لك. فدعا بكسوة حسنة
فألبسني إياها، ثم قال: امض بنا. فأتى باب والى خراسان، فدخل وتركني بالباب، فلم ألبث أن خرج
الحاجب فقال: أي علي بن سويد؟ فدخلت إلى الوالي، فإذا حضين على فراش إلى جانبه، فسلمت
على الوالي فردّ عليّ، ثم أقبل عليه حضين فقال: أصلح الله الأمير، هذا علي

(218/1)

ابن سويد بن منجوف سيد فتيان بكر بن وائل وابن سيد كهولها، وأكثر الناس مالا حاضرا بالبصرة وفي كل موضع ملكت به بكر بن وائل مالا، وقد تجمل بي إلى الأمير في حاجة. قال: هي مقضية. قال: فإنه يسألك أن تمد يدك في ماله ومراكبه وسلاحه إلى ما أحببت. قال: لا والله لا أفعل ذلك به، نحن أولى بزيادته. قال: فقد أعفيناك من هذه إذ كرهتها، فهو يسألك أن تحمله حوائجك بالبصرة. قال: إن كانت حاجة فهو فيها ثقة، ولكن أسألك أن تكلمه في قبول معونة منا؛ فإننا نحب أي يرى على مثله من أئتنا. فأقبل عليّ فقال: يا أبا الحسن، عزمت عليك ألا تردّ على عمك شيئا أكرمك به. فسكت. قال: فدعا لي بمال ودواب وكسا ورقيق، فلما خرجت قلت: أبا ساسان، لقد أوقفني على خطة ما وقفت على مثلها قط. قال:

أذهب إليك يا بن أخي، فعمّك أعلم بالناس منك؛ إن الناس إن علموا لك غرارة «1» من مال حثوا «2» لك أخرى وإن يعلموك فقيرا تعدّوا عليك مع فقرك.

المهدي وأبو دلامة

: إبراهيم الشيباني قال: ولد لأبي دلامة ابنة ليلا، فأوقد السراج وجعل يخيظ خريطة من شقق، فلما أصبح طواها بين أصابعه وغدا بها إلى المهدي فاستأذن عليه، وكان لا يحجب عليه، فأنشده:
لو كان يقعد فوق الشمس من كرم ... قوم لليل اقعدهوا يا آل عبّاس
ثم ارتقوا من شعاع الشمس في درج ... إلى السماء فأنتم أكرم الناس
قال له المهدي: أحسنت والله أبا دلامة، فما الذي غدا بك إلينا؟ قال: ولدت لي جارية يا أمير المؤمنين. قال: فهل قلت فيها شعرا؟ قال: نعم قلت:
فما ولدتك مريم أم عيسى ... ولم يكفلك لقمان الحكيم
ولكن قد تضمك أم سوء ... إلى لبائها وأب لئيم «3»

(219/1)

قال فضحك المهدي وقال: فما تريد أن أعينك به في تربيتها أبا دلامة؟ قال: تملأ هذه يا أمير المؤمنين. وأشار إليه بالخريطة بين إصبعيه. فقال المهدي: وما عسى أن تحمل هذه؟ قال: من لم يقنع بالقليل لم يقنع بالكثير. فأمر أن تملأ مالا، فلما نشرت أخذت عليهم صحن الدار، فدخل فيها أربعة آلاف درهم.

وكان المهدي قد كسا أبا دلامة ساجا «1»، فأخذ به وهو سكران، فأتي به إلى المهدي؛ فأمر بتمزيق

الساج عليه وأن يحبس في بيت الدجاج؛ فلما كان في بعض الليل وصحا أبو دلامة من سكره ورأى نفسه بين الدجاج، صاح: يا صاحب البيت! فاستجاب له السجان، قال: مالك يا عدو الله؟ قال: ويلك! من أدخلني مع الدجاج؟

قال: أعمالك الحبيثة! أتى بك أمير المؤمنين وأنت سكران، فأمر بتمزيق ساجك وحبسك مع الدجاج. قال له: ويلك! أو تقدر على أن توقد لي سراجا وتجيئي بدواة وورق ولك سلمي «2» هذا. فأتاه بدواة وورق؛ فكتب أبو دلامة إلى المهدي:

أمن صهباء صافية المزاج ... كأنّ شعاعها هب السراج
تمشّ لها النفوس وتشتهيها ... إذا برزت تفرق في الزجاج
وقد طبخت بنار الله حتى ... لقد صارت من التطف النضاج «3»
أمير المؤمنين فدتك نفسي ... علام حبستني وخرقت ساجي
أقاد إلى السجون بغير ذنب ... كأنيّ بعض عمال الخراج
ولو معهم حبست هان وجدي ... ولكي حبست مع الدجاج
دجاجات يطيف بمنّ ديك ... ينادي بالصباح إذا يناجي
وقد كانت تحبّرتني ذنوبي ... بأيّ من عذابك غير ناجي
على أيّ وإن لاقيت شرّاً ... لخيرك بعد ذاك الشرّ راجي
ثم قال أوصلها إلى أمير المؤمنين. فأوصلها إليه السجان، فلما قرأها أمر بإطلاقه

(220/1)

وأدخله عليه، فقال له: أين بت الليلة أبا دلامة؟ قال: مع الدجاج يا أمير المؤمنين. قال: فما كنت تصنع؟ قال: كنت أفاقي معهن حتى أصبحت. فضحك المهدي وأمر له بصلة جزيلة، وخلع عليه كسوة شريفة.

بين أبي دلامة وعيسى بن موسى

: وكتب أبو دلامة إلى عيسى بن موسى وهو والي الكوفة رقعة فيها هذه الأبيات:
إذا جئت الأمير فقل سلام ... عليك ورحمة الله الرحيم
فأما بعد ذاك فلي غريم ... من الأنصار قبح من غريم
لزوم ما علمت لباب داري ... لزوم الكلب أصحاب الرقيم «1»

له مئة عليّ ونصف أخرى ... ونصف النصف في صدكّ قديم
دراهم ما انتفعت بها ولكن ... وصلت بها شيوخ بني تميم
أتوني بالعشيرة يسألوني ... ولم أك في العشيرة باللّيم
قال: فبعث إليه بمائة ألف درهم.

أبو دلف وأبو دلّامة

: ولقي أبو دلّامة أبو دلف في مصاد له وهو والي العراق، فأخذ بعنان فرسه وأنشده:
إني حلفت لئن رأيتك سالماً ... بقري العراق وأنت ذو وفر
لتصلين علي النبيّ محمّد ... ولتملأنّ دراهما حجري «2»
فقال: أمّا الصلاة على النبيّ فنعيم، صلّى الله عليه وسلّم. وأمّا الدراهم، فلمّا نرجع إن شاء الله تعالى.
قال: له: جعلت فداك. لا تفرق بينهما. فاستلفها له وصبّت في حجره حتى أثقلتته.

(221/1)

أبو دلّامة والمهدي

: ودخل أبو دلّامة على المهدي، فأنشده أبياتا أعجب بها، فقال له: سلني أبا دلّامة واحتكم وأفرط
ما شئت. فقال: كلب يا أمير المؤمنين أصطاد به. قال: قد أمرنا لك بكلب، وهاهنا بلغت همتك،
وإلى هاهنا انتهت أمنيتك؟ قال: لا تعجل عليّ يا أمير المؤمنين، فإنه بقي علي. قال: وما بقي عليك؟
قال: غلام يقود الكلب. قال:
وغلام يقود الكلب. قال: وخادم يطبخ الصّيد. قال: وخادم يطبخ الصيد. قال: ودار نسكنها. قال:
ودار تسكنها. قال: وجارية نأوي إليها. قال: وجارية نأوي إليها.
قال: قد بقي الآن المعاش. قال: قد أقطعناك ألفي جريب «1» عامرة وألفي جريب غامرة. قال: وما
الغامرة يا أمير المؤمنين؟ قال: التي لا تعمر. قال: أنا أقطع أمير المؤمنين خمسين ألفاً من فيافي بني
أسد. قال: قد جعلتها كلّها لك عامرة. قال: فيأذن لي أمير المؤمنين في تقبيل يده؟ قال: أما هذه
فدعها. قال: ما منعتني شيئاً أيسر عليّ أمّ ولدي فقدأ منه.

أبو دلّامة والمنصور

: ودخل أبو دلّامة على أبي جعفر المنصور يوماً وعليه قلنسوة طويلة، وكان قد أخذ أصحابه بلباسها
وأخذهم بلبس دراريع، عليها مكتوب بين كتفي الرجل:

فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

«2» وأمرهم بتعليق السيوف على أوساطهم.

فدخل عليه أبو دلامة في ذلك الزَّيِّ، فقال له: كيف أصبحت أبا دلامة؟ قال: بشرّ حال يا أمير المؤمنين. قال: كيف ذلك؟ وبيك. قال: وما ظنك يا أمير المؤمنين بمن أصبح وجهه في وسطه، وسيفه على استه، وقد نبذ كتاب الله وراء ظهره؟ قال: فضحك أبو جعفر وأمر بتغيير ذلك، وأمر لأبي دلامة بصلة.

(222/1)

هو والمنصور أيضا

: وأوصل أبو دلامة إلى العباس بن منصور رقعة فيها هذه الأبيات:
قف بالديار وأيّ الدهر لم تقف ... على منازل بين السهل والنجف
وما وقوفك في أطلال منزلة ... لولا الذي استحدثت في قلبك الكلف «1»
إن كنت أصبحت مشغوبا بجارية ... فلا وربك لا يشفيك من شغف
ولا يزيدك إلا العلّ من أسف ... فهل لقلبك من صبر على الأسف «2»
هذي مقالة شيخ من بني أسد ... يهدي السّلام إلى العباس في الصّحف
تخطّها من جوارى المصر كاتبة ... قد طالما ضربت في اللام والألف
وطالما اختلفت صيفا وشاتية ... إلى معلّمها باللّوح والكتف
حتى إذا ما استوى الثّديان وامتألت ... منها وخيفت على الإسراف والقرف «3»
صينت ثلاث سنين ما ترى أحدا ... كما تصان ببحر درّة الصّدف
بيننا الفتى يتمشّى نحو مسجده ... مبادرا لصلاة الصّبح بالصدف «4»
حانت له نظرة منها فأبصرها ... مطلّة بين سحفيها من الغرف
فخرّ في التّرب ما يدري غداتنذ ... آخرّ منكشفا أو غير منكشف
وجاءه القوم أفواجا بمائهم ... لينضحوا الرجل المغشى بالتّطف «5»
فوسوسوا بقران في مسامعه ... خوفا من الجنّ والإنسان لم يخف ...
... شيئا، ولكنه من حبّ جارية ... أمسى وأصبح من موت على شرف
قالوا لك الخير ما أبصرت قلت لهم ... جنّية أقصدتني من بني خلف

أبصرت جارية محجوبة لهم ... تطلعت من أعالي القصر ذي الشرف
فقلت: أيكم والله يأجره ... يعير قوته مني إلى ضعفي
فقام شيخ بهي من تجارهم ... قد طالما خدع الأقوام بالحلف

(223/1)

فابتاعها لي بألفي أحمر فغدا ... بها إلي فألقاها على كنتفي
فبتت ألتنها طورا وتلثمني ... طورا ونفعل بعض الشيء في اللحف
بتنا كذلك حتى جاء صاحبها ... يبغي الدنانير بالميزان ذي الكفف «1»
وذاك حق علي «زند» وكيف به ... والحق في طرف والعين في طرف «2»
وبين ذاك شهود لم أبال بهم ... أكنت معترفا أم غير معترف
فإن تصلني قضيت القوم حقهم ... وإن تقل لا فحق القوم في تلف
فلما قرأ العباس الأبيات أعجب بها واستظرفها وقضى عنه ثمن الجارية. واسم أبي دلامة زند.

جعفر بن يحيى وعبد الملك بن صالح

: إبراهيم بن المهدي قال: قال لي جعفر بن يحيى يوما: إني استأذنت أمير المؤمنين في الحجامة وأردت
أن أدخلوا وأقرّ من أشغال الناس وأترّوح، فهل أنت مساعدني قلت:
جعلني الله فداك، أنا أسعد الناس بمساعدتك وأنس بمخالاتك «3». قال: بكر إلي بكور الغراب.
قال فأتيت عند الفجر الثاني، فوجدت الشمعة بين يديه، وهو قاعد ينتظري للميعاد. قال فصيلنا ثم
أفضنا في الحديث حتى جاء وقت الحجامة فأتى بحجام فحجمنا في ساعة واحدة، ثم قدم إلينا طعام
فطعمنا، فلما غسلنا أيدينا خلع علينا ثياب المنادمة، وضمّخنا بالخلوق «4»، وظللنا بأسر يوم مرّ
بنا، ثم إنه ذكر حاجة فدعا الحاجب، فقال: إذا جاء عبد الملك القهرماني فأذن له. فنسي الحاجب.
وجاء عبد الملك بن صالح الهاشمي على جلالته وسنّه وقدره وأدبه، فأذن له الحاجب.
فما راعنا إلا طلعة عبد الملك. فتغير لذلك جعفر بن يحيى وتنغص عليه ما كان فيه.
فلما نظر عبد الملك إليه على تلك الحالة، دعا غلامه فدفع إليه سيفه وسواده وعمامته،

(224/1)

ثم جاء ووقف على باب المجلس، وقال: اصنعوا بي ما صنعتم بأنفسكم. قال: فجاء الغلام فطرح عليه ثياب المنادمة، ودعا بالطعام فطعم. ثم جاء بالشراب فشرب ثلاثاً، ثم قال: ليخفف عني فإنه شيء ما شربته قط. فتهلل وجه جعفر بن يحيى: جعلني الله فداك، قد نفضت عني فإنه شيء ما شربته قط. فتهلل وجه جعفر وفرح. وكان الرشيد قد عتب على عبد الملك بن صالح ووجد «1» عليه، فقال له جعفر بن يحيى: جعلني الله فداك، قد تفضلت وتطوّلت وأسعدت، فهل من حاجة تبلغها مقدرتي، أو تحيط بها نعمتي، فأقضيها لك مكافأة لما صنعت؟ قال: بلى، إن قلب أمير المؤمنين عاتب عليّ فسله الرضا عني. قال: قد رضي عنك أمير المؤمنين. ثم قال: عليّ أربعة آلاف دينار. قال: حاضرة، ولكن من مال أمير المؤمنين. أحبّ اليك. قال: وابني إبراهيم أحب أن أشدّ ظهره بصهر من أولاد أمير المؤمنين. قال: قد زوجة أمير المؤمنين عائشة. قال: وأحب أن تخفق الألوية على رأسه. قال: قد ولّاه أمير المؤمنين مصر. قال: وانصرف عبد الملك ونحن نعجب من إقدامه على قضاء الحوائج من غير استئذان أمير المؤمنين. فلما كان من الغد وقفنا على باب الرشيد ودخل جعفر، فلم نلبث أن دعي بأبي يوسف القاضي ومحمد بن الحسن وإبراهيم بن عبد الملك، فعقد النكاح وحملت البدر إلى منزل عبد الملك؛ وكتب سجلّ إبراهيم على مصر.. وخرج جعفر فأشار إلينا، فلما صار إلى منزله ونحن خلفه، نزل ونزلنا بنزوله؛ فالتفت إلينا، فقال: تعلقت قلوبكم بأول أمر عبد الملك فأحببتم معرفة آخره، وإني لما دخلت على أمير المؤمنين مثلت بين يديه وابتدأت القصة من أولها؛ فجعل يقول: أحسن والله، فما صنعت؟ فأخبرته بما سألت وبما أجبت به، فجعل يقول في ذلك: أحسنت! وخرج إبراهيم والبا على مصر.

ذو حاجة على باب ملك من الأكاسرة

: وقدم رجل على ملك من ملوك الأكاسرة، فمكث ببابه حيناً لا يصل إليه، فتلطف في رقعة أوصلها إليه، وفيها أربعة أسطر:

(225/1)

في السطر الأول: الصبر والأمل أقدماني عليك.
 والسطر الثاني: الفقر لا يكون معه صبر على المطالبة.
 والسطر الثالث: الانصراف بلا فائدة فتنة وشماتة للعدوّ.

والسطر الرابع: فإما نعم مثمرة، وإما لا مريحة.

فلما قرأها وقع تحت كل سطر منها بألف مثقال وأمر له بها.

يجي بن خالد وشاعر

: وقد دخل رجل من الشعراء على يجي بن خالد بن يرمك فأنشده:

سألت التدى هل أنت حرّ؟ فقال لا ... ولكتني عبد ليحيي بن خالد

فقلت شراء قال لا بل وراثه ... توارثني عن والد بعد والد

فأمر له بعشرة آلاف.

خالد القسري وأعرابي

: ودخل أعرابي على خالد بن عبد الله القسري فأنشده:

أخالد إني لم أزرك لخلّة ... سوى أنني عاف وأنت جواد «1»

أخالد بين الحمد والأجر حاجتي ... فأيهما تأتي فأنت عماد

فأمر له بخمسة آلاف درهم.

العباس القائد وابن عبد ربه

: ومن قولنا في هذا المعنى - ودخلت على أبي العباس القائد فأنشدته:

الله جرّد للتدى والباس ... سيفاً فقلّده أبا العباس

ملك إذا استقبلت غرّة وجهه ... قبض الرّجاء إليك روح الياس

(226/1)

وجه عليه من الحياء سكينه ... ومحبّة تجري من الأنفاس

وإذا أحبّ الله يوماً عبده ... ألقى عليه محبّة للناس

ثم سألته حاجة فيها بعض الغلظ، فتلكأ عليّ. فأخذت سحاية «1» من بين يديه فوقّعت فيها على

البديهة:

ما ضرّ عندك حاجتي ما ضرّها ... عذرا إذا أعطيت نفسك قدرها

انظر إلى عرض البلاد وطولها ... أو لست أكرم أهلها وأبرّها

حاشى لجودك أن يوغّر حاجتي ... ثقني بجودك سهّلت لي وعرها

لا يجتني حلو المحامد ماجد ... حتى يذوق من المطالب مرّها

فقضى الحاجة وسارع إليها.

المتوكل وعبد الله ابن يحيى

: وأبطأ عبد الله بن يحيى عن الديوان، فأرسل إليه المتوكل يتعرّف خبره، فكتب إليه:

عليل من مكانين ... من الإفلاس والدين

ففي هذين لي شغل ... وحسبي شغل هذين

فبعث إليه بألف دينار.

الفضل بن يحيى ومستمنح

: عبد الله بن منصور قال: كنت يوماً في مجلس الفضل بن يحيى، فأتاه الحاجب فقال: إن بالباب رجلاً

قد أكثر في طلب الإذن وزعم أن له يداً يمتّ بها فقال:

أدخله. فدخل رجل جميل الوجه رثّ الهيئة، فسلمّ فأحسن. فأوماً إليه بالجلوس فجلس؛ فلما علم أنه

قد انطلق وأمكته الكلام، قال له: ما حاجتك؟ قال له: قد

(227/1)

أعربت بها رثاثة هيئتي، وضعف طاقتي! قال: أجل، فما الذي تمتّ به؟ قال: ولادة تقرب من ولادتك، وجوار يدنو من جوارك، واسم مشتق من اسمك. قال: أمّا الجوار فقد يمكن أن يكون كما قلت، وقد يوافق الاسم الاسم، ولكن ما علمك بالولادة؟ قال: أعلمتني أمي أنها لما وضعتني قيل إنه ولد الليلة ليحيى بن خالد غلام وسمّي الفضل؛ فسّمّنتني فضيلاً، إعظاماً لا سمك أن تلحقني بك. فتبسم الفضل وقال: كم أتى عليك من السنين؟ قال: خمس وثلاثون. قال: صدقت، هذا المقدار الذي أتيت عليه، فما فعلت أمك؟ قال: توفيت رحمها الله، قال: فما منعك عن اللّحوق بنا فيما مضى؟ قال: لم أرض نفسي للقائك، لأنها كانت في عامية وحدائثة تقعدني عن لقاء الملوك. قال: يا غلام أعطه لكل عام مضى من سنه ألفاً، وأعطه من كسوتنا ومراكبنا ما يصلح له. فلم يخرج من الدار إلا وقد طاف به إخوانه وخاصة أهله.

من حبيب إلى ابن أبي دواد

: وكتب حبيب بن أوس الطائي إلى أحمد بن أبي دواد:

اعلم وأنت المرء غير معلّم ... وافهم جعلت فداك غير مفهّم

أنّ اصطناع العرف ما لم توله ... مستكملاً كالتّوب ما لم يعلم «1»

والشكر ما لم يستثر بصنيعة ... كالحطّ تقرؤه وليس بمعجم «2»
وتفنّني في القول إكثار وقد ... أسرجت في كرم الفعال فألجم
وقال دعبل بن علي الخزاعي في طاهر بن الحسين صاحب خراسان:
أيا ذا اليمنين والدّعوتين ... ومن عنده العرف والنائل
أترضى لمثلي أيّ مقيم ... ببابك مطّرح شامل
رضيت من الودّ والعائدات ... ومن كلّ ما أمل الآمل
بتسليمة بين خمس وست ... إذا ضمّك المجلس الحافل
وما كنت أَرْضَى بذا من سواك ... أيرضى بذا رجل عاقل

(228/1)

وإن ناب شغل ففي دون ما ... تدبّره شغل شاغل
عليك السلام فإني امرؤ ... إذا ضاق بي بلد راحل

بين زياد وضيبي

: الأصمعي قال: نظر زياد إلى رجل من ضبّة يأكل أكلا قبيحا، وهو أقبح الناس وجها، فقال: يا أخا
ضبّة، كم عيالكَ؟ قال: سبع بنات أنا أجمل منهن وجها، وهنّ آكل مني. فضحك زياد وقال: لله
درك! ما ألفت سؤالك! افرضوا له ولكل واحدة منهن مائة وخادما، وعجلوا له ولهنّ بأرزاقهن.
فخرج الضبي وهو يقول:

إذا كنت مرتاد السماحة والنّدى ... فناد زيادا أو أخا لزياد
يجبك امرؤ يعطي على الحمد ماله ... إذا ضنّ بالمعروف كلّ جواد
وما لي لا أني عليك وإنّما ... طريفي من معروفكم وتلاذي «1»
ووقف دعبل ببعض أمراء الرقّة، فلما مثل بين يديه قال: أصلح الله الأمير، إني لا أقول كما قال
صاحب معن:

بأيّ الخلتين عليك أثني ... فإني عند منصرفي مسؤل
أبالحسني وليس لها ضياء ... عليّ فمن يصدّق ما أقول
أم الأخرى ولست لها بأهل ... وأنت لكلّ مكرمة فعول
ولكني أقول:

ماذا أقول إذا أتيت معاشري ... صفرا يداي من الجواد المجزل
إن قلت أعطاني كذبت وإن أقل ... ضنَّ الأمير بماله لم يجمل
ولأنت أعلم بالمكارم والعللا ... من أن أقول فعلت ما لم تفعل
فاختر لنفسك ما أقول، فإنِّي ... لا بدَّ مخبرهم وإن لم أسأل
قال له: قاتلك الله! وأمر له بعشرة آلاف درهم.

بشر بن مروان وابن عبدل

: العتيبي قال: دخل ابن عبدل على عبد الملك بن مبشر بن مروان لما ولي الكوفة،

(229/1)

فقعد بين السماطين «1» ثم قال: أيها الأمير، إني رأيت رؤيا فأذن لي في قصصها. فقال:
قل. فقال:

أغفيت قبل الصبح نوم مسهّد ... في ساعة ما كنت قبل أناها
فرأيت أنك رعنتي بوليدة ... مفلوجة حسن عليّ قيامها
وببدره حملت إليّ وبغلة ... شهباء ناجية يصرّ لجامها «3»
قال له عبد الملك بن بشر بن مروان: كل شيء رأيت فهو عندي إلا البغلة، فإنها دهماء فارهة «4»
. قال: امرأتي طالق ثلاثا إن كنت رأيتها إلا دهماء، إلا أني غلظت.

علي الأرميني والبطين

: الشيباني عن البطين الشاعر قال: قدمت على علي بن يحيى الأرميني فكتبت إليه:

رأيت في التّوم أيّ راكب فرسا ... ولي وصيف وفي كفي دنانير
فقال قوم لهم حذق ومعرفة ... رأيت خيرا وللأحلام تعبير
رؤياك فسّر غدا عند الأمير تجد ... تعبير ذاك وفي الفأل التّباشير
فجئت مستبشرا مستشعرا فرحا ... وعند مثلك لي بالفعل تيسير
قال: فوقّ لي في أسفل كتابي: أضغاثُ أحلامٍ وما نحنُ بتأويلِ الأحلامِ بعالمينَ
«5» ثم أمر لي بكل شيء ذكرته في أبياتي ورأيته في منامي.

وقال بشار العقيلي:

حتى متى ليت شعري يا بن يقطين ... أنثني عليك بما لا منك توليني

أما علمت جزاك الله صالحة ... عني وزادك خيرا يا بن يقطين
أني أريدك للدنيا وزينتها ... ولا أريدك يوم الدين للدين

(230/1)

وقال آخر في مثل هذا المعنى:

يا بن العلاء ويا بن القرم مرداس ... إني لأطربك في أهلي وجلاسي «1»
أثني عليك ولي حال تكذّبي ... فيما أقول فأستحيي من الناس
حتى إذا قيل: ما أعطاك من صغد ... طأطأت من سوء حالي عندها راسي «2»

الأخذ من الأمراء

عثمان في جائزة السلطان

: حدّثنا جعفر بن محمد، عن يزيد بن سمعان، عن عبد الله بن ثور، عن عبد الحميد ابن وهب، عن
أبي الخلال، قال: سألت عثمان بن عفّان عن جائزة السلطان، فقال:
لحم طريّ ذكي.

عكرمة والجائزة

: جعفر بن محمد، عن يحيى بن محمد العامريّ، عن المعتمر، عن عمران بن حدير، قال: انطلقت أنا
ورجل إلى عكرمة، فرأى الرجل عليه عمامة متخرّقة، فقال الرجل:
عندنا عمائم، ألا نبعث إليك بعمامة منها؟ قال عكرمة: إنا لا نقبل من الناس شيئا، إنما نقبل من
الأمراء.

الحسن البصري وخميصته

: وقال هشام بن حسان: رأيت على الحسن البصري خميصة «3» لها أعلام يصلّي فيها، أهداها إليه
مسلمة بن عبد الملك.

وكان النبي صلّى الله عليه وسلّم يلبس خفّين أسودين أهداهما إليه النجاشي صاحب الحبشة.
وقال نافع: كان عبد الله بن عمر يقبل هدايا أهل الفتنة، مثل المختار وغيره.
ودخل مالك بن أنس على هارون الرشيد فشكا إليه دينا لزمه فأمر له بألف دينار

(231/1)

عين. فلما وضع يديه للقيام، قال: يا أمير المؤمنين، وزوجت ابني محمدا فصار عليّ فيه ألف دينار.
قال: ولابنه محمد ألف دينار.

قال: فلقد مات مالك وتركها لوارثه في مزود.

وقال الأصمعي: حدثني إسحاق بن يحيى بن طلحة قال: كان الربيع بن خثيم في ألف ومائة من
العطاء فكلم فيه أبي معاوية فألحقه بألفين؛ فلما حضر العطاء نودي الربيع بن خثيم، فقبل له: في
ألفين. فقعد، فنظروا فوجدوا على اسمه مكتوبا: كَلِّمْ فِيهِ يَحْيَى بن طلحة أمير المؤمنين فألحقه بألفين.
وقال رجل لإبراهيم بن أدهم: يا أبا إسحاق، كنت أريد أن تقبل مني هذه الجبة كسوة. قال: إن كنت
غنيا قبلتها منك، وإن كنت فقيرا لم أقبلها منك. قال: فإني غني. قال: وكم مالك؟ قال: ألفا دينار.
قال: فأنت تودّ أنّها أربعة آلاف؟ قال:

نعم. قال: فأنت فقير، لا أقبلها منك.

وأمر إبراهيم بن الأغلب المعروف بزيادة الله، بمال يقسم على الفقهاء، فكان منهم من قبل ومنهم من
لم يقبل، فكان أسد بن الفرات فيمن قبل، فجعل زيادة الله يغمص «1» على كل من قبل منهم،
فبلغ ذلك أسد بن الفرات، فقال: لا عليه، إنما أخذنا بعض حقوقنا والله سائله عما بقي! وقد
فخرت العرب بأخذ جوائز الملوك وكان من أشرف ما يتمولونه، فقال ذو الرمة:

وما كان مالي من تراث ورثته ... ولا دية كانت ولا كسب مأثم

ولكن عطاء الله من كلّ رحلة ... إلى كلّ محبوب السّرادق خضرم «2»

وقال آخر يهجو مروان بن أبي حفصة ويعيبه بأخذه من العامة ويفخر بأنه لا يأخذ إلا من الملوك،
فقال:

(232/1)

عطايا أمير المؤمنين، ولم تكن ... مقصّمة من هؤلاء وأولئك

وما نلت حتّى شبت إلا عطية ... تقوم بها مصرورة في رداككا

تفضيل بعض الناس على بعض في العطاء

ذكر عمر بن الخطاب رضي الله عنه الفقراء فقال: إن سعيد بن خذيم منهم.

فأعطاه ألف دينار، وقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إذا أعطيت فأغن» .

وقدم على رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم وفد من العرب فأعطاهم وفضل رجلا منهم؛ فقبل له في ذلك، فقال: كل القوم عيال عليه.

الرسول صَلَّى الله عليه وسلّم والعباس بن مرداس : وأعطى النبي صَلَّى الله عليه وسلّم يوم حنين المؤلفة قلوبهم، فأعطى الأقرع بن حابس التميمي. وعيينة بن حصن الفزاري، مائة من الإبل، وأعطى العباس بن مرداس السلمي خمسين؛ فشق ذلك عليه، فقال أبياتا. فاتاه بها وأنشده إياها وهي:

أيدهب نهي ونهب العبي ... د بين عيينة والأقرع

ولا كان حصن ولا حابس ... يفوقان مرداس في مجمع

وما كنت غير امريء منهم ... ومن تضع اليوم لم يرفع

فقال رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم لبلال: اقطع عني لسان العباس. فأعطاه حتى أرضاه.

الرسول صَلَّى الله عليه وسلّم وصفوان بن أمية

: وقال صفوان بن أمية: لقد غزوت مع رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم وما خلق الله خلقا أبغض إليّ منه فما زال يعطيني حتى ما خلق الله خلقا أحب إليّ منه. وكان صفوان بن أمية من المؤلفة قلوبهم.

(233/1)

شكر النعمة

سليمان التميمي قال: إن الله أنعم على عباده بقدر قدرته، وكلّفهم من الشكر بقدر طاقتهم.

وقالوا: مكتوب في التوراة: اشكر لمن أنعم عليك، وأنعم على من شكرك.

وقالوا: كفر النعمة يوجب زوالها، وشكرها يوجب المزيد فيها.

وقالوا: من حمدك فقد وفّك حق نعمتك.

وجاء في الحديث: «من نشر معروفا فقد شكره، ومن ستره فقد كفره» .

وقال عبد الله بن عباس: لو أن فرعون مصر أسدى إليّ يدا صالحة لشكرته عليها.

وقالوا: إذا قصرت يداك عن المكافأة فليطل لسانك بالشكر.

وقالوا: ما نحل الله تعالى عباده شيئا أقلّ من الشكر، واعتبر ذلك بقول الله عز وجل: وَقَلِيلٌ مِّنْ

عِبَادِي الشَّاكِرُونَ

. «1»

الواقدي ويحيى البرمكي في قوم جاءوا يشكرونه

: محمد بن صالح الواقدي قال: دخلت على يحيى بن خالد البرمكي، فقلت: إن ها هنا قوما جاءوا يشكرون لك معروفا. فقال: يا محمد، هؤلاء يشكرون معروفا، فكيف لنا بشكر شكرهم. للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في شكر النعمة وكفرها
: وقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ما أنعم الله على عبده نعمة فرأى عليه أثرها إلا كتب: حبيب الله شاركا لأنعمه. وما أنعم الله على عبده نعمة فلم ير أثرها عليه إلا كتب: بغيض الله كافرا لأنعمه.

(234/1)

بين عدي بن أرطاة وعمر بن عبد العزيز

: وكتب عدي بن أرطاة إلى عمر بن عبد العزيز: إني بأرض كثرت فيها النعم، وقد خفت على من قبلي من المسلمين قلة الشكر والضعف عنه فكتب إليه عمر رضي الله عنه: إن الله تعالى لم ينعم على قوم نعمة فحمدوه عليها إلا كان ما أعطوه أكثر مما أخذوا. واعتبر ذلك لقول الله تعالى: وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ
«1». فأني نعمة أفضل مما أوتي داود وسليمان.

بين النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عائشة في أبيات لابن جناب
: وسمع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عائشة رضي الله عنها تنشد أبيات زهير بن جناب:
إرفع ضعيفك لا يجر بك ضعفه ... يوما فتدركه عواقب ما جنى «2»
يجزيك أو يثني عليك فإن من ... أثني عليك بما فعلت كمن جزى
فقال النبي عليه الصلاة والسلام: صدق يا عائشة، لا شكر الله من لا يشكر الناس.
الخشني قال: أنشدني الرياشي:

إذا أنا لم أشكر على الخير أهله ... ولم أذمم الجيس اللئيم المذمما «3»
فقيم عرفت الخير والشرّ باسمه ... وشق لي الله المسامع والفما
وأنشدني في الشكر:

سأشكر عمرا ما تراخت مني ... أيادي لم تمن وإن هي جلت
فتي غير محبوب الغنى عن صديقه ... ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت
رأى خلتي من حيث يخفي مكانها ... فكانت قذى عينيه حتى تجلت «4»

(235/1)

قلة الكرام في كثرة اللئام

قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الناس كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة.

وقالت الحكماء: الكرام في اللئام كالغرة في الفرس.

وقال الشاعر:

تفاخري بكثرتها قريط ... وقال والد الحجل الصقور

فإن أك في شراكم قليلا ... فإنني في خباركم كثير

بغاث الطير أكثرها فراخا ... وأم الصقر مقالات نزور «1»

وقال السموأل:

تعبرنا أنا قليل عديدنا ... فقلت لها إن الكرام قليل

وما ضرنا أنا قليل وجارنا ... عزيز وجار الأكتنين ذليل

وقال حبيب:

ولقد نكون ولا كريم نناله ... حتى نخوض إليه ألف لئيم

وقال ابن أبي حازم:

وقالوا: لو مدحت فتى كريما ... فقلت وكيف لي بفتى كريم

بلوت ومزّ بي خمسون حولا ... وحسبك بالمجرب من عليم

فلا أحد يعدّ ليوم خير ... ولا أحد يعود على عديم «2»

وقال دعبل:

ما أكثر الناس لا بل ما أقلهم ... والله يعلم أيّ لم أقل فندا «3»

إني لأغلق عيني ثم أفتحها ... على كثير ولكن ما أرى أحدا

(236/1)

وأحسن ما قيل في هذا المعنى قول حبيب الطائي:

إنّ الجياد كثير في البلاد وإن ... قلّوا، كما غيرهم قلّ وإن كثروا

لا يدهمّك من دهمانهم عجب ... فإنّ جلّهم أو كلهم بقر
وكلّما أضحت الأخطار بينهم ... هلكتي تبين من أضحت له خطر
لو لم تصادف شيات البهم أكثر ما ... في الخيل لم تحمد الأوضاح والغرر «1»

لكسرى في الشح

: الأصمعي قال: قال كسرى. أي شيء أضرت؟ فأجمعوا على الفقر. فقال كسرى:
الشح أضرت منه، لأن الفقير يجد الفرجة فيتسع.

من جاد أولا وضمّ آخرا

نزل أعرابيّ برجل من أهل البصرة، فأكرمه وأحسن إليه ثم أمسك، فقال الأعرابي:
تسرّي فلما جاذب المرء نفسه ... رأى أنّه لا يستقيم له السّرو «2»
وكان يزيد بن منصور يجري لبشار العقيليّ وظيفة في كل شهر، ثم قطعها عنه؛ فقال:
أبا خالد ما زلت سابح غمرة ... صغيرا فلما شبت خيمت بالشّاطي «3»
جريت زمانا سابقا ثم لم تزل ... تأخر حتى جئت تقطو مع القاطي «4»
كسّور عبد الله بيع بدرهم ... صغيرا، فلما شبّ بيع بقيراط

(237/1)

وقال مسلم بن الوليد صريع الغواني لمحمد بن منصور بن زياد:
أبا حسن قد كنت قدّمت نعمة ... وألحقت شكرا ثم أمسكت وانيا «1»
فلا ضمير لم تلحقك مني ملامة ... أسأت بنا عودا وأحسننت باديا
فأقسم لا أجزيك بالسّوء مثله ... كفى بالذي جازيتني لك جازيا
وقال سليمان الأعمى، وهو أخو صريع الغواني، في سليمان بن علي:
يا سوءة يكبر الشيطان إن ذكرت ... منها العجائب جاءت من سليمانا
لا تعجبنّ بخير زلّ عن يده ... فالكوكب النّحس يسقي الأرض أحيانا

من ضمّ أولا ثم جاد آخرا

قدم الحارث بن خالد المخزوميّ على عبد الملك فلم يصله، فرجع وقال فيه:
صحبتك إذ عيني عليها غشاوة ... فلما انجلت قطعّت نفسي ألومها
حبست عليك النّفس حتّى كأنّما ... بكفّيك يجري بؤسها ونعيمها

فبلغ قوله عبد الملك، فأرسل إليه فردّه وقال: أرأيت عليك غضاضة «2» من مقامك بباي؟ قال: لا، ولكنني اشتقت إلى أهلي ووطني، ووجدت فضلا من القول فقلت، وعليّ دين لزميني. قال: وكم دينك؟ قال ثلاثون ألفا. قال: فقضاء دينك أحب إليك أم ولاية مكة؟ قال: بل ولاية مكة. فولاه إياها.

وقدم الحطيئة المدينة فوقف إلى عتيبة بن النهاس العجليّ، فقال: أعطني. فقال: مالك عندي حقّ فأعطيكه، وما في مالي فضل عن عيالي فأعود به عليك. فخرج عنه مغضبا، وعرفه به جلساؤه، فأمر برده، ثم قال له: يا هذا، إنك وقفت إلينا فلم تستأنس ولم تسلم، وكتمتنا نفسك، كأنك الحطيئة؟ قال: هو ذلك. قال: اجلس فلك عندنا كلّ ما تحب، فجلس فقال له: من أشعر الناس؟ قال الذي يقول:

(238/1)

ومن يجعل المعروف من دون عرضه ... يفره ومن لا يتق الشتم يشتم «1»
يعني زهيرا. قال: ثم من؟ قال: الذي يقول:
من يسأل الناس يجرموه ... وسائل الله لا يخيب
يعني عبيدا. قال: ثم من؟ قال: أنا ...
فقال لوكيله: خذ بيد هذا فامض به إلى السوق، فلا يشيرون إلى شيء إلا اشتريته له. فمضى معه إلى السوق، فعرض عليه الخبز والقر، فلم يلتفت إلى شيء منه. وأشار إلى الأكسية والكرابيس الغلاظ والأقبية، فاشترى له منها حاجته؛ ثم قال: أمسك.
قال: فإنه قد أمرني أن أبسط يدي بالنفقة. قال: لا حاجة لي أن يكون له على قومي يد أعظم من هذه. ثم أنشأ يقول:

سئلت فلم تبخل ولم تعط طائلا ... فسيان لا ذمّ عليك ولا حمد
وأنت امرؤ لا الجود منك سجيّة ... فتعطي وقد يعدي على النائل الوجد «2»

من مدح أميراً فخبية

قال سعيد بن سلم: مدحني أعرابي فأبلغ، فقال:
ألا قل لساري الليل لا تخش ضلّة ... سعيد بن سلم نور كلّ بلاد
لنا سيّد أرى على كلّ سيد ... جواد حثا في وجه كل جواد

قال: فتأخّرت عنه قليلا، فهجاني فأبلغ، فقال:
لكلّ أخي مدح ثواب علمته ... وليس لمدح الباهليّ ثواب
مدحت سعيدا والمديح مهزّة «3» ... فكان كصفوان عليه تراب
ومدح الحسن بن رجاء أبا دلف فلم يعطه شيئا؛ فقال:

(239/1)

أبا دلف ما أكذب الناس كلّهم ... سواي فإنيّ في مديحك أكذب
وقال آخر في مثل هذا المعنى:
إنيّ مدحتك كاذبا فأثبتني ... لما مدحتك ما يثاب الكاذب
وقال آخر في مثل هذا المعنى:
لئن أخطأت في مدحك ما أخطأت في منعي
لقد أحللت حاجاتي ... بواد غير ذي زرع
ومدح حبيب الطائي عيّاش بن لهيعة، وقدم عليه مصر واستسلفه مائتي مثقال، فشاور فيها زوجته،
فقالته له: هو شاعر، يمدحك اليوم ويهجوك غدا؛ فاعتلّ عليه واعتذر إليه ولم يقض حاجته، فقال
فيه:

عيّاش، إنك للثيم وإنّي ... مذ صرت موضع مطلبي للثيم
ثم هجاه حتى مات، وهجاه بعد موته فقال فيه:
لا سقيت أطلالك الدائرة ... ولا انقضت عثرتك العاثره
يا أسد الموت تخلّصته ... من بين فكّي أسد القاصره «1»

لابن عبد ربه

: ومن قولنا في هذا المعنى - وسألت بعض موالي السلطان إطلاق محبوس فتلكأ فيه، فقلت:

حاشا لمثلك أن يفكّ أسيرا ... أو أن يكون من الزّمان مجيرا
ليست قوافي الشّعر فيك مدارعا ... سودا وضلّت أوجها وصدورا
هلاّ عطفك برحمة لما دعت ... ويلا عليك مدائحي وثبورا «2»
لو أنّ لؤمك عاد جودا عشره ... ما كان عندك حاتم مذكورا

(240/1)

ربيعة الرقي ويزيد بن حاتم

: قال: ومدح ربيعة الرقي يزيد بن حاتم الأزدي، وهو والي مصر، فاستبطأه ربيعة، فشخص عنه من مصر وقال:

أراني ولا كفران لله راجعا ... بخفي حنين من نوال ابن حاتم «1»

فبلغ قوله يزيد بن حاتم، فأرسل في طلبه فردّ إليه. فلما دخل عليه قال له: أنت القائل:

أراني ولا كفران لله راجعا

قال: نعم. قال: فهل قلت غير هذا؟ قال: لا والله. قال: لترجعن بخفي حنين مملوءة مالا فأمر بخلع

نعليه وملئت له مالا؛ فقال فيه لما عزل عن مصر وولي يزيد بن أسيد السلمى مكانه:

بكي أهل مصر بالدموع السّواجم ... غداة غدا منها الأغرّ ابن حاتم «2»

وفيها يقول:

لشتان ما بين البيزدين في الندى ... يزيد بن سليم والأغرّ ابن حاتم

فهّم الفقى الأزديّ إنفاق ماله ... وهمّ الفقى القيسي جمع الدرّاهم

فلا يحسب التّمتمام أيّ هجوته ... ولكنني فضّلت أهل المكارم «3»

أجواد أهل الجاهلية

الذين انتهى إليهم الجود في الجاهلية ثلاثة نفر: حاتم بن عبد الله بن سعد الطائي، وهرم بن سنان المرّي، وكعب بن مامة الإيادي.

(241/1)

شيء عن حاتم

: ولكن المضروب به المثل حاتم وحده، وهو القائل لغلامه يسار، وكان إذا اشتدّ البرد وقلب الشتاء

أمر غلامه فأوقد نارا في يفاع من الأرض لينظر إليها من أضلّ الطريق ليلا فيصمد نحوه، فقال في

ذلك:

أوقد فإنّ اللّيل ليل قرّ ... والريح يا موقد ربح صرّ «1»

علّ يرى نارك من يمرّ ... إن جلبت ضيفا فأنت حرّ

وقالوا: لم يكن حاتم ممسكا شيئا ما عدا فرسه وسلاحه، فإنه كان لا يجود بهما.

ومرّ حاتم في سفره على عنزة وفيهم أسير، فاستغاث بحاتم ولم يحضره فكأكه، فاشتراه من العنزيين وأطلقه وأقام مكانه في القيد حتى أذى فداءه.

وقالت نوار امرأة حاتم: أصابتنا سنة اقشعرت لها الأرض واغبرّ أفق السماء، وراحت الإبل حدبا حدابير»

، وضنت المراضع على أولادها فما تبضّ «3» بقطرة، وحلقت «4» السنة المال وأيقنّا بالهلاك. فو الله إنا لفي ليلة صتبر «5» بعيدة ما بين الطرفين، إذ تضاعى صبيتنا جوعا: عبد الله وعديّ وسفانة: فقام حاتم إلى الصبيّين وقمت أنا إلى الصبية، فو الله ما سكتوا إلا بعد هدأة من الليل، وأقبل يعلّني بالحديث. فعرفت ما يريد فتناومت، فلما تهورت النجوم إذا شيء قد رفع كسر البيت ثم عاد، فقال: من هذا؟ قالت: جارتك فلانة، أتيتك من عند صبية يتعاونون عواء الذئاب، فما وجدت معولا إلا عليك يا أبا عديّ، فقال: أعجلهم فقد أشبعك الله وإياهم: فأقبلت المرأة تحمل اثنين ويمشي بجانبها أربعة؛ كأنها نعامه حولها رثاها؛ فقام إلى فرسه فوجأ لبته بمديّة فخرّ، ثم كسطه عن جلده، ودفع المديّة إلى المرأة فقال لها: شأنك؛ فاجتمعنا على اللحم نشوي ونأكل، ثم جعل يمشي في الحى

(242/1)

يأتيهم بيتنا بيتنا فيقول: هبوا أيها القوم، عليكم بالنار. فاجتمعوا والنفع في ثوبه ناحية ينظر إلينا، فلا والله إن ذاق منه مزعة وإنه لأحوج إليه منا؛ فأصبحنا وما على الأرض من الفرس إلا عظم وحافر. فأنشأ حاتم يقول:

مهلا نوار أقليّ اللوم والعدلا ... ولا تقولي لشيء فات ما فعلا

ولا تقولي لمال كنت مهلكه ... مهلا وإن كنت أعطي الأنس والخبلا «1»

يرى البخيل سبيل المال واحدة ... إن الجواد يرى في ماله سبلا

ورئي حاتم يوما يضرب ولده لما رآه يضرب كلبة كانت تدلّ عليه أضيافه وهو يقول:

أقول لابني وقد سطت يديه ... بكلبة لا يزال يجلدّها «2»

أوصيك خيرا بما فإن لها ... عندي يدا لا أزال أحمدها

تدل ضيفي عليّ في غلس اللي ... ل إذا النار نام موقدها

ذكرت طيء عند عديّ بن حاتم أن رجلا يعرف بأبي الخيريّ مر بقبر حاتم فنزل به وجعل ينادي: أبا عدي: أقر أضيافك. قال: فيقال له: مهلا ما تكلم من رمة بالية؟ فقال: إن طيئا يزعمون أنه لم ينزل

به أحد إلا قرأه، كالمستهزيء فلما كان في السحر وثب أبو خيري يصيح: وراحلتاه: فقال له أصحابه: ما شأنك؟

قال: خرج والله حاتم بالسيف حتى عقر ناقتي وأنا أنظر إليها. فتأملوا راحلته فإذا هي لا تبعث. فقالوا: قد والله أقرأك. فنحروها وظلوا يأكلون من لحمها، ثم أردفوه وانطلقوا، فبينما هم في مسيرهم إذ طلع عليهم عدي بن حاتم ومعه جمل قد قرنه ببعيره، فقال إن حاتما جاء في النوم فذكر لي قولك وأنه أقرأك وأصحابك راحلتك، وقال أبياتا رددها علي حتى حفظتها، وهي:
أبا الخيري وأنت امرؤ ... حسود العشيرة شتّامها
فماذا أردت إلى رمّة ... بداوية صحب هامها «3»

(243/1)

أتبغي أذاها وإعسارها ... وحولك غوث وأنعامها
وإنّا لنطعم أضيافنا ... من الكوم بالسيف نعتامها «1»
وأمرني بدفع راحلة عوض راحلتك، فخذها؛ فأخذها.
ولحاتم بن عبد الله أيضا:
أماويّ قد طال التجنّب والهجر ... وقد عذرتنا في طلابكم العذر
أماويّ إنّ المال غاد ورائح ... ويبقى من المال الأحاديث والذكر
أماويّ إمّا مانع فمبيّن ... وإما عطاء لا ينهنه الزجر
أماويّ إني لا أقول لسائل ... إذا جاء يوما حلّ في مالي التزّر «2»
أماويّ ما يغني الثراء عن الفتى ... إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر
أماويّ إن يصبح صداي بقفرة ... من الأرض لا ماء لدي ولا خمر
تري أنّ ما أنفقت لم يك ضربي ... وأنّ يدي مما بخلت به صفر
إذا أنا دلاني الذين يلونني ... بمظلمة زلج جوانبها غبر «3»
وراحوا سراعا ينفضون أكفهم ... يقولون قد أدمى أضافرنا الحفر
أماويّ إنّ المال مال بذلته ... فأؤله شكر وآخره ذكر
وقد يعلم الأقوم لو أنّ حاتما ... أراد ثراء المال كان له وفر
فإني وجدّي ربّ واحد أمه ... أجرت فلا قتل عليه ولا أسر

ولا أظلم ابن العمّ إن كان إخوتي ... شهودا وقد أودى بإخوته الدهر
 غنينا زمانا بالتصعلك والغنى ... وكلا سقانا بكاسيهما الدهر
 فما زادنا بأوا على ذي قرابة ... غنانا، ولا أزرى بأحلامنا الفقر «4»
 وأما هرم بن سنان فهو صاحب زهير الذي يقول فيه:
 متى تلاق على علته هرما ... تلق السّماحة في خلق وفي خلق

(244/1)

وكان سنان أبو هرم سيد غطفان، وماتت أمه وهي حامل به، وقالت: إذا أنا مت فشقوا بطني فإن
 سيد غطفان فيه. فلما ماتت شقوا بطنها فاستخرجوا منها سنانا. وفي بني سنان يقول زهير:
 قوم أبوهم سنان حين تنسبهم ... طابوا وطاب من الأولاد ما ولدوا
 لو كان يقعد فوق الشمس من كرم ... قوم بأوهم أو مجدهم، قعدوا
 جنّ إذا فرعوا إنس إذا أمنوا ... مرزءون بماليل إذا قصدوا «1»
 محسدون على ما كان من نعم ... لا ينزع الله منهم ماله حسدوا
 وقال زهير في هرم بن سنان:
 وأبيض فيّاض يدهاه غمامة ... على معتفيه ما تغبّ نوائله «2»
 تراه إذا ما جئته متهلّلا ... كأنك تعطه الذي أنت سائله
 أخو ثقة لا تتلف الخمر ماله ... ولكنه قد يتلف المال نائله
 أخذ الحسن بن هانيء هذا المعنى فقال:
 فتى لا تغول الخمر شحمة ماله ... ولكن أيا دعوّ وبوادي
 وقال زهير في هرم بن سنان وأهل بيته:
 إليك أعملتها فتلا مرافقها ... شهرين يجهض من أرحامها العلق «3»
 حتى دفعن إلى حلو شمائله ... كالغيث ينبث في آثاره الورق
 من أهل بيت يرى ذو العرش فضلهم ... بيني لهم في جنان الخلد مرتفق
 المطعمون إذا ما أزمة أزمتم ... والطيبون ثيابا كلّموا عرقوا
 كأنّ آخرهم في الجود أوّهم ... إنّ الشّمائل والأخلاق تتفق
 إن قامروا قمرؤا أو فاخروا فخرؤا ... أو ناضلوا نضلوا أو سابقوا سبقوا «4»

(245/1)

تنافس الأرض موتاهم إذا دفنوا ... كما تنوفس عند الباعة الورق «1»
وقال فيهم أيضا:

وفيهم مقامات حسان وجوههم ... وأندية ينتابها القول والفعل
على مكثريهم حقّ من يعتفيهم ... وعند المقلّين السماحة والبذل
فما كان من خير أتوه فإتّما ... توارثه آباء آبائهم قبل
وهل ينبت الخطّيّ إلا وشيجه ... وتغرس إلا في منابتها النخل «2»
وأما كعب بن مامة الإياديّ فلم يأت عنه إلا ما ذكر من إثارة رفيقه التّمريّ بالماء حتى مات عطشا
ونجا التّمريّ، وهذا أكثر من كل ما أثنى لغيره. وله يقول حبيب:
يجود بالنفس إن ضنّ البخيل بها ... والجود بالنفس أقصى غاية الجود
وله ولحاتم الطائي يقول:

كعب وحاتم اللذان تقسّما ... خطط العلاء من طارف وتليد
هذا الذي خلف السحاب ومات ذا ... في الجدّ ميتة خضرم صنديد «3»
إلا يكن فيها الشّهيد فقومه ... لا يسمحون به بألف شهيد

أجواد أهل الإسلام

وأما أجواد أهل الإسلام فأحد عشر رجلا في عصر واحد، لم يكن قبلهم ولا بعدهم مثلهم.
فأجواد الحجاز ثلاثة في عصر واحد: عبيد الله بن العباس، وعبد الله بن جعفر، وسعيد بن العاص.
وأجواد البصرة خمسة في عصر واحد وهم: عبد الله بن عامر بن كريز، وعبيد الله

(246/1)

ابن أبي بكره مولى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ومسلم بن زياد، وعبيد الله بن معمر القرشي ثم
التميمي. وطلحة الطلحات، وهو طلحة بن عبد الله بن خلف الخزاعي، وله يقول الشاعر يرثيه، ومات
بسجستان وهو وال عليها.

نصّر الله أعظما دفنوها ... بسجستان طلحة الطلحات

وأجواد أهل الكوفة ثلاثة في عصر واحد، وهم: عتّاب بن ورقاء الرّياحي وأسماء ابن خارجة الفزاريّ. وعكرمة بن ربعي الفيّاض.

فمن جود عبيد الله بن عباس

أنه أول من فطّر جيرانه. وأول من وضع الموائد على الطرق، وأول من حيّا على طعامه، وأول من أهدبه، وفيه يقول شاعر المدينة:

وفي السنّة الشهباء أطعمت حامضاً ... وحلوا ولحماً تامكاً وممزّجاً «1»

وأنت ربيع لليتامى وعصمة ... إذا الخل من جوّ السّماء تطلّعا

أبوك أبو الفضل الذي كان رحمة ... وغوثاً ونوراً للخلائق أجمعاً

ومن جوده أنه أتاه رجل وهو بفناء داره فقام بين يديه فقال: يا بن عباس إن لي عندك يدا وقد احتجت إليها. فصعد فيه بصره وصوبه «2»، فلم يعرفه، ثم قال له: ما يدك عندنا؟ قال: رأيتك واقفاً بزمام وغلامك يمتح «3» لك من مائها والشمس قد صهرتك، فظللّتك بطرف كسائي حتى شربت. قال: إني لأذكر ذلك وإنه يتردّد بين خاطري وفكري. ثم قال لقيّمه: ما عندك؟ قال: مائتا دينار وعشرة آلاف درهم.

قال: ادفعها إليه وما أراها تفي بحق يده عندنا. فقال له الرجل: والله لو لم يكن لإسماعيل ولد غيرك لكان فيه ما كفاه، فكيف وقد ولد سيد الأولين والآخرين محمداً صلّى الله عليه وسلّم، ثم شفع بك وبأبيك.

(247/1)

ومن جوده أيضاً: أنّ معاوية حبس عن الحسين بن عليّ صلّاته حتى ضاقت عليه حاله، فقيل [له]: لو وجّهت إلى ابن عمك عبيد الله، فإنه قد قدم بنحو من ألف ألف درهم. فقال الحسين: وأين تقع ألف ألف من عبيد الله؟ فوالله هو أجود من الريح إذا عصفت، وأسخى من البحر إذا زخر. ثم وجه إليه مع رسوله بكتاب ذكر فيه حبس معاوية عنه صلّاته وضيق حاله وأنه يحتاج إلى مائة ألف درهم.

فلما قرأ عبيد الله كتابه، وكان من أرقّ الناس قلباً وألينهم عطفاً. انهملت عيناه ثم قال: ويلك يا معاوية مما اجترحت يداك «1» من الإثم حين أصبحت لئن المهادر رفيع العماد، والحسين يشكو ضيق الحال وكثرة العيال. ثم قال لقهروانته: احمل إلى الحسين نصف ما أملكه من فضّة وذهب وثوب ودابة، وأخبره أبي شاطرته مالي، فإن أقتعه ذلك وإلا فارجع واحمل إليه الشطر الآخر. فقال له القيم: فهذه

المؤمن التي عليك من أين تقوم بها؟ قال: إذا بلغنا ذلك دلتك على أمر يقيم حالك! فلما أتى الرسول برسالته إلى الحسين قال: إنا لله! حملت «2» والله على ابن عمي وما حسبته يتسع لنا بهذا كله.

فأخذ الشطر من ماله. وهو أول من فعل ذلك في الإسلام. ومن جوده أن معاوية بن أبي سفيان أهدى إليه وهو عنده بالشام من هدايا التبروز حللا كثيرة ومسكا وآنية من ذهب وفضة، ووجهها مع حاجبه، فلما وضعها بين يديه نظر إلى الحاجب وهو ينظر إليها، فقال: هل في نفسك منها شيء؟ قال: نعم والله، إن في نفسي منها ما كان في نفس يعقوب من يوسف عليهما السلام. فضحك عبيد الله وقال: فشأنك بما فهي لك. قال: جعلت فداك، أخاف أن يبلغ ذلك معاوية فيجد عليّ. قال: فاختمها بخاتمك وادفعها إلى الخازن، فإذا حان خروجنا حملها إليك ليلا. فقال الحاجب: والله لهذه الحيلة في الكرم أكثر من الكرم، ولوددت أني لا أموت حتى أراك مكانه - يعني معاوية - فظنّ عبيد الله أنها مكيدة منه، قال: دع عنك هذا الكلام، فإننا قوم نفي بما وعدنا ولا ننقص ما أكدنا.

(248/1)

ومن جوده أيضا أنه أتاه سائل وهو لا يعرفه فقال له: تصدّق، فإني نبتت أن عبيد الله بن عباس أعطى سائلا ألف درهم واعتذر إليه! فقال له: وأين أنا من عبيد الله؟ قال أين أنت منه في الحسب أم كثرة المال؟ قال: فيهما. قال: أما الحسب في الرجل فمروءته وفعله، وإذا شئت فعلت، وإذا فعلت كنت حسيبا. فأعطاه ألفي درهم واعتذر له من ضيق الحال: فقال له السائل: إن لم تكن عبيد الله بن عباس فأنت خير منه، وإن كنت هو فأنت اليوم خير منك أمس. فأعطاه ألفا أخرى. فقال السائل: هذه هزة كريم حسيب، والله لقد نقرت «1» حبة قلبي فأفرغتها في قلبك، فما أخطأت إلا باعتراض الشك بين جوانحي.

ومن جوده أيضا: أنه جاءه رجل من الأنصار فقال: يا بن عم رسول الله، إنه ولد لي في هذه الليلة مولود، وإني سمّيته باسمك تبركا مني به، وإن أمه ماتت. فقال عبيد الله: بارك الله لك في الهبة، وأجرل لك الأجر على المصيبة. ثم دعا بوكيله فقال: انطلق الساعة فاشتر للمولود جارية تحضنه، وادفع إليه مائتي دينار للنفقة على تربيته. ثم قال للأنصاري. عد إلينا بعد أيام، فإنك جئتنا وفي العيش ييس وفي

المال قلة. قال الأنصاري: لو سبقت حاتما بيوم واحد ما ذكرته العرب أبدا، ولكنه سبقك فرصت له تاليا، وأنا أشهد أنّ عفوك أكثر من مجهوده، وطلّ كرمك أكثر من وابله.

جود عبد الله بن جعفر

ومن جود عبد الله بن جعفر أن عبد الرحمن بن أبي عمّار دخل على نحّاس يعرض قيانا له؛ فعلق واحدة منهن، فشهر بذكرها حتى مشى إليه عطاء وطاووس ومجاهد يعذلونه، فكان جوابه أن قال: يلومني فيك أقوام أجالسهم ... فما أبالي أطار اللوم أم وقعا

(249/1)

فانتهى خبره إلى عبد الله بن جعفر، فلم يكن له هم غيره، فحج فبعث إلى مولى الجارية فاشتراها منه بأربعين ألف درهم، وأمر قيمة جواريه أن تزيتها وتحليها ففعلت؛ وبلغ الناس قدومه فدخلوا عليه، فقال: مالي لا أرى ابن أبي عمّار زارنا؟

فأخبر الشيخ، فأتاه مسلّما. فلما أراد أن ينهض استجلسه، ثم قال: ما فعل حبّ فلانة؟ قال: في اللحم والدم والمخ والعصب. قال: أتعرفها لو رأيتها؟ قال: لو أدخلت الجنة لم أنكرها. فأمر بها عبد الله أن تخرج إليه، وقال له: إنما اشتريتها لك، وو الله ما دنوت منها، فشأنك بها مباركا لك فيها. فلما ولى قال: يا غلام، احمل معه مائة ألف درهم ينعم بها معها. قال: فبكى عبد الرحمن فرحا وقال: ياهل البيت، لقد خصّكم الله بشرف ما خصّ به أحدا قبلكم من صلب آدم، فتهنئكم هذه النعمة، وبورك لكم فيها.

ومن جوده أيضا أنه أعطى امرأة سألته مالا عظيما، فقبل له: إنما لا تعرفك وكان يرضيها اليسير. قال: إن كان يرضيها اليسير فإني لا أرضى إلا بالكثير، وإن كانت لا تعرفني فأنا أعرف نفسي.

جود سعيد بن العاص

ومن جود سعيد بن العاص أنه مرض وهو بالشام، فعاده معاوية ومعه شر حبيبل بن السّمط، ومسلم بن عقبة المرّي، ويزيد بن شجرة الرّهاوي. فلما نظر سعيد معاوية وثب عن صدر مجلسه إعظاما لمعاوية، فقال له معاوية: أقسمت عليك أبا عثمان ألا تتحرّك، فقد ضعفت بالعلة. فسقط؛ فنبادر معاوية: نحوه حتى حنا عليه، وأخذ بيده فأقعده على فراشه وقعد معه، وجعل يسأله عن علته ومنامه وغذائه، ويصف له ما ينبغي أن يتوقّاه، وأطال القعود معه؛ فلما خرج التفت إلى شرحبيل بن السّمط، ويزيد ابن شجرة، فقال: هل رأيتما خللا في مال أبي عثمان؟ فقالا: ما رأينا شيئا ننكره.

فقال لمسلم بن عقبة: ما تقول؟ قال: رأيت. قال: وما ذاك؟ قال: رأيت على حشمه ومواليه ثيابا
وسخة، ورأيت صحن داره غير مكنوس، ورأيت التجار يخاصمون

(250/1)

قهرمانه. قال: صدقت، كل ذلك قد رأيته. فوجه إليه مع مسلم بثلاثمائة ألف، فسبق رسول يبشّره
بها ويخبره بما كان. فغضب سعيد وقال للرسول: إن صاحبك ظن أنه أحسن فأساء، وتأول فأخطأ؛
فأما وسخ ثياب الحشم فمن كثرة حركته اتسخ ثوبه، وأما كنس الدار فليست أخلاقنا أخلاق من
جعل داره مرآته وتزيّنه لبسه، ومعروفه عطره، ثم لا يبالي بمن مات هزلا من ذي لحمة أو حرمة. وأما
منازعة التجار قهرماني فمن كثرة حوائجه وبيعه وشرائه؛ لم يجد بدّا من أن يكون ظالما أو مظلوما. وأما
المال الذي أمر به أمير المؤمنين فوصلته كل ذي رحم قاطعة وهنأته كرامته المنعم بها عليه، وقد قبلناه
وأمرنا لصاحبك منه بمائة ألف، ولشر حبييل بن السّمط بمثلها، وليزيد بن شجرة بمثلها، وفي سعة الله
وبسط يد أمير المؤمنين ما عليه معولنا.

فركب مسلم بن عقبة إلى معاوية فأعلمه، فقال: صدق ابن عمي فيما قال، وأحطأت فيما انتهيت
إليه، فاجعل نصيبك من المال لروح بن زباع عقوبة لك، فإنه من جنى جنابة عوقب بمثلها، كما أنه
من فعل خيرا كوفيء عليه.

ومن جوده أيضا أن معاوية كان يداول بينه وبين مروان بن الحكم في ولاية المدينة، فكان مروان
يقارضه «1»، فلما دخل على معاوية قال له: كيف تركت أبا عبد الملك؟ يعني مروان. قال: تركته
منقّدا لأمرك، مصلحا لعملك. قال معاوية: إنه كصاحب الخبزة: كفي إنضاجها فأكلها! قال: كلا يا
أمير المؤمنين؛ إنه من قوم لا يأكلون إلا ما حصدوا، ولا يحصدون إلا ما زرعوا. قال: فما الذي باعد
بينك وبينه؟ قال خفته على شرفي وخافني على مثله. قال: فأي شيء كان له عندك؟ قال:

أسوؤه حاضرا وأسرّه غائبا. قال: يا أبا عثمان، تركتنا في هذه الحروب. قال: حملت الثقل وكفيت
الحزم. قال: فما أبطأ بك؟ قال غناؤك عني أبطأني عنك، وكنت قريبا لو دعوت لأجبنك، ولو أمرت
لأطعنك. قال: ذلك ظننا بك. فأقبل معاوية على أهل الشام فقال يأهل الشام، هؤلاء قومي وهذا
كلامهم. ثم قال: أخبرني عن مالك،

(251/1)

فقد نبئت أنك تتحرى فيه. قال: يا أمير المؤمنين، لنا مال يخرج لنا منه فضل، فإذا كان ما خرج قليلا أنفقناه على قلته، وإن كان كثيرا فكذلك، غير أنا لا ندخر منه شيئا عن معسر ولا طالب ولا مستحمل، ولا نستأثر منه بفلذة لحم ولا مزعة «1» شحم. قال: فكم يدوم لك هذا؟ قال: من السنة نصفها. قال: فما تصنع في باقيها؟ قال: نجد من يسلفنا ويسارع إلى معاملتنا. قال: ما أحد أحوج إلى أن يصلح من شأنه منك. قال: إن شأننا لصالح يا أمير المؤمنين، ولو زدت في مالي مثله ما كنت إلا بمثل هذه الحال. فأمر له معاوية بخمسين ألف درهم، وقال: اشتر بها ضيعة تعينك على مروأتك. فقال سعيد: بل اشتري بها حمدا وذكرها باقيا. أطعم بها الجائع، وأزوج بها الأيم، وأفك بها العاني «2»، وأواسي بها الصديق، ما وأصلح بها حال الجار فلم تأت عليه ثلاثة أشهر وعنده منها درهم. فقال معاوية: ما فضيلة بعد الإيمان بالله هي أرفع في الذكر ولا أنبه في الشرف من الجود، وحسبك أن الله تبارك وتعالى جعل الجود أحد صفاته.

ومن جوده أيضا ما حكاه الأصمعي، قال: كان سعيد بن العاص يسمر معه سماره إلى أن ينقضي حين من الليل، فانصرف عنه القوم ليلة ورجل قاعد لم يقيم، فأمر سعيد بإطفاء الشمعة وقال: حاجتك يافتى؟ فذكر أن عليه دينا أربعة آلاف درهم. فأمر له بها، وكان إطفأؤه للشمعة أكثر من عطائه.

جود عبيد الله بن أبي بكر

ومن جود عبيد الله بن أبي بكر أنه أدلى إليه رجل بجرمة، فأمر له بمائة ألف درهم، فقال: أصلحك الله، ما وصلني أحد بمثلها قط، ولقد قطعت لساني عن شكر غيرك، وما رأيت الدنيا في يد أحد أحسن منها في يدك، ولولا أنت لم تبق لها بهجة إلا أظلمت، ولا نور إلا انطمس.

(252/1)

جود عبد الله بن معمر القرشي التيمي

ومن جود عبيد الله بن معمر القرشي، أن رجلا أتاه من أهل البصرة كانت له جارية نفيسة قد أذبحها بأنواع الأدب حتى برعت وفاقته في جميع ذلك، ثم إن الدهر قعد بسيدها ومال عليه. وقدم عبيد الله بن معمر البصرة من بعض وجوهه، فقالت لسيدها: إني أريد أن أذكر لك شيئا أستحي منه، إذ فيه

جفاء مني، غير أنه يسهل ذلك عليّ ما أرى من ضيق حالك وقلة مالك وزوال نعمتك، وما أخافه عليك من الاحتياج وضيق الحال، وهذا عبید الله بن معمر قدم البصرة، وقد علمت شرفه وفضله وسعة كفه وجود نفسه، فلو أذنت لي فأصلحت من شأنني ثم تقدمت بي إليه وعرضتني عليه هدية، رجوت أن يأتيك من مكافأته ما يقيلك الله به وينهضك إن شاء الله. قال: فبكي وجدا عليها وجزعا لفراقها منه، ثم قال لها: لولا أنك نطقت بهذا ما ابتدأتك به أبدا. ثم نحض بها حتى أوقفها بين يدي عبید الله فقال: أعزك الله، هذه ارية رببتها ورضيت بها لك، فاقبلها مني هدية. فقال: مثلي لا يستهدي من مثلك؛ فهل لك في بيعها فأجزل لك الثمن عليها حتى ترضى؟ قال: الذي تراه. قال: يقنعك مني عشر بدر في كل بدرة عشرة آلاف درهم؟ قال: والله يا سيدي ما امتد أمني إلى عشر ما ذكرت، ولكن هذا فضلك المعروف وجودك المشهور. فأمر عبید الله بإخراج المال حتى صار بين يدي الرجل وقبضه، وقال للجارية: ادخلي الحجاب. فقال سيدها: أعزك الله! لو أذنت لي في وداعها! قال: نعم. فوقفت وقام، وقال لها وعيناه تدمعان:

أبوح بحزن من فراقك موجع ... أقاسي به ليلا يطيل تفكري
ولولا قعود الدهر بي عنك لم يكن ... يفرقنا شيء سوى الموت فاعذري
عليك سلام لا زيارة بيننا ... ولا وصل إلا أن يشاء ابن معمر
قال عبید الله بن معمر: قد شئت ذلك، فخذ جاريتك وبارك الله لك في المال.
فذهب بجاريتته وماله فعاد غنياً.

(253/1)

فهؤلاء أجواد الإسلام المشهورون في الجود المنسوبون إليه، وهم أحد عشر رجلا كما ذكرنا وسميّا، وبعدهم طبقة أخرى من الأجواد، قد شهرتوا بالجود وعرفوا بالكرم، وحمدت أفعالهم، وسندكر ما أمكننا ذكره منها إن شاء الله تعالى.

الطبقة الثانية من الأجواد

فمنهم الحكم بن حنطب

قيل لنصيب بن رباح: خرف شعرك أبا محجن! قال لا، ولكن خرف الكرم؛ لقد رأيتني ومدحت الحكم بن حنطب، فأعطاني ألف دينار ومائة ناقة وأربعمائة شاة.
وسأل أعرابي الحكم بن حنطب، فأعطاه خمسمائة دينار، فبكي الأعرابي، فقال:

ما يبكيك يا أعرايي؟ لعلك استقللت ما أعطيناك! قال: لا والله، ولكني أبكي لما تأكل الأرض منك، ثم أنشأ يقول:

وكأنّ آدم حين حان وفاته ... أوصاك وهو يجود بالحباء «1»

بنيه أن ترعاهم فرعيتهم ... فكفيت آدم عليّة الأبناء «2»

العتبي قال: أخبرني رجل من أهل منبج، قال: قدم علينا الحكم بن حنطب وهو مملق «3» فأغنانا! قال له: كيف أغناكم وهو مملق؟ قال: علّمنا المكارم، فعاد غنينا على فقيرنا.

ومنهم معن بن زائدة

وكان يقال فيه: حدّث عن البحر ولا حرج، وحدّث عن معن ولا حرج.

وأتاه رجل يسأله أن يحمله، فقال: يا غلام، أعطه فرسا وبرذونا وبغلا وعيرا وبعيرا وجارية. وقال: لو عرفت مركوبا غير هؤلاء لأعطيتك.

(254/1)

العتبي قال: لما قدم معن بن زائدة البصرة واجتمع إليه الناس، أتاه مروان بن أبي حفصة فأخذ بعضادتي «1» الباب، فأنشده شعره الذي قاله فيه:

فما أحجم الأعداء عنك بقيّة ... عليك، ولكن لم يروا فيك مطمعا

له راحتان الحتف والجود فيهما ... أبي الله إلا أن يضنّ وينفعها

ومنهم يزيد بن المهلب

وكان هشام بن حسان إذا ذكره قال: والله إن كانت السفن لتجري في جوده.

وقيل ليزيد بن المهلب: مالك لا تبني دارا؟ قال: منزلي دار الإمارة أو الحبس.

ولما أتى يزيد بن عبد الملك برأس يزيد بن المهلب، نال منه بعض جلسائه فقال له: مه «2» ! إن

يزيد بن المهلب طلب جسيما وركب عظيما ومات كريما.

ودخل الفرزدق على يزيد بن المهلب في الحبس فأنشده:

صحّ في قيدك السماحة والمج ... د وفكّ العناة والإفضال

قال: أتمدحني وأنا في هذه الحال؟ قال: أصبتك رخيصا فاشتريتك. فأمر له بعشرة آلاف.

وقال سليمان بن عبد الملك لموسى بن نصير: اغرم!

ديتك خمسين مرة. قال: ليس عندي ما أغرم. قال: والله لتغرمن ديتك مائة مرة. قال يزيد بن

المهلب: أنا أغرمها عنه يا أمير المؤمنين. قال: اغرم. فغرمها عنه مائة ألف.
العيني قال: أخبرني عوانة قال: استعمل الوليد بن عبد الملك عثمان بن حيان المري على المدينة وأمره بالغلظة على أهل الظنة؛ فلما استخلف سليمان أخذه بألفي ألف درهم؛ فاجتمعت القيسية في ذلك فتحملوا شطرها وضاقوا ذرعا بالشرط الثاني.

(255/1)

ووافق ذلك استعمال سليمان يزيد بن المهلب على العراق. فقال عمر بن هبيرة: عليكم بيزيد بن المهلب، فما لها أحد غيره! فتحملوا إلى يزيد وفيهم عمر بن هبيرة، والققعاق بن حبيب، والهديل بن زفر بن الحارث، وانتهوا إلى رواق يزيد. قال يحيى ابن أقتل - وكان حاجبا ليزيد بن المهلب وكان رجلا من الأزد - فاستأذنت لهم فخرج يزيد إلى الرواق فقرب ورحب، ثم دعا بالغداء، فأتوا بطعام ما أنكروا منه أكثر مما عرفوا، فلما تغدوا تكلم عثمان بن حيان وكان لسنا مفوها، وقال: زادك الله في توفيقك أيها الأمير، إن الوليد بن عبد الملك وجهني إلى المدينة عاملا عليها، وأمرني بالغلظة على أهل الظنة والأخذ عليهم؛ وإن سليمان أغرمني غرما، والله ما يسعه مالي ولا تحمله طاقتي؛ فأتيناك لتحمل من هذا المال ما خفّ عليك، وما بقي والله ثقيل عليّ. ثم تكلم كل منهم بما حضره، وقد اختصرنا كلامهم.

فقال يزيد بن المهلب: مرحبا بكم وأهلا، إن خير المال ما قضى فيه الحقوق وحملت به المغارم، وإنما لي من المال ما فضل عن إخواني، وإيم الله لو علمت أن أحدا أملاً بحاجتكم مني لهديتكم إليه فاحتكموا وأكثروا. فقال عثمان بن حيان:

النصف أصلح الله الأمير. قال: نعم وكرامة، اغدوا علي مالكم فخذوه.
فشكروا له وقاموا فخرجوا. فلما صاروا على باب السرادق قال عمر بن هبيرة:
فتح الله رأيكم، والله ما يبالي يزيد أنصفها تحمّل أم كلّها. فمن لكم بالنصف الباقي؟ قال القوم: هذا والله الرأي! وسمع يزيد مناجاتهم، فقال لحاجبه: انظر يا يحيى إن كان بقي على القوم شيء فليرجعوا، فرجعوا إليه وقالوا: أقلنا «1» قال: قد فعلت. قالوا: فإن رأيت أن تحملها كلّها فأت أهلها، وإن أبيت فما لها أحد غيرك، قال: قد فعلت.

وغدا يزيد بن المهلب إلى سليمان فقال: يا أمير المؤمنين، أتاني عثمان بن حيان وأصحابه. قال: أمسك في المال؟ قال: نعم. قال سليمان: والله لأخذته منهم. قال

(256/1)

يزيد: إني قد حملته. قال: فأدّه: قال يزيد والله ما حملته إلا لأؤدّيه ثم قال: يا أمير المؤمنين، إن هذه الحمالة وإن عظم خطبها، فحمدها والله أعظم منها، ويدي مبسوطة بيدك، فابسطها لسؤالها. ثم غدا يزيد بالمال على الخزان فدفعه إليهم فدخلوا على سليمان فأخبروه بقبض المال، فقال: وقت يمين سليمان احمّلوا إلى أبي خالد ماله.

فقال عدي بن الرقاع العاملي:

ولله عينا من رأى كحمالة ... تحمّلها كبش العراق يزيد

الأصمعي قال: قدم على يزيد بن المهلب قوم من قضاة من بني ضبّة، فقال رجل منهم:

والله ما ندري إذا ما فاتنا ... طلب إليك من الذي نتطلب؟

ولقد ضربنا في البلاد فلم نجد ... أحدا سواك إلى المكارم ينسب

فاصبر لعادتنا التي عودتنا ... أو لا فأرشدنا إلى من نذهب؟

فأمر له بألف دينار؛ فلما كان في العام المقبل وفد عليه فقال:

مالي أرى أبوابهم مهجورة ... وكأنّ بابك مجمع الأسواق

أرجوك أم خافوك أم شاموا الندى ... بيدك فاجتمعوا من الآفاق

إني رأيتك للمكارم عاشقا ... والمكرمات قليلة العشاق

فأمر له بعشرة آلاف درهم.

ومر يزيد بن المهلب في طريق البصرة بأعرابية، فأهدت إليه عنزا، فقبلها وقال لابنه معاوية: ما عندك

من نفقة؟ قال: ثمانمائة درهم. قال: ادفعها إليها! قال إنها لا تعرفك ويرضيها اليسير قال: إن كانت

لا تعرفني فأنا أعرف نفسي، وإن كان يرضيها اليسير فأنا لا أرضى إلا بالكثير.

(257/1)

ومنهم يزيد بن حاتم

وكتب إليه رجل من العلماء يستوصله، فبعث إليه ثلاثين ألف درهم، وكتب إليه: «أما بعد، فقد

بعثت إليك بثلاثين ألفا، لا أكثرها امتنانا، ولا أقلّها تجرّرا، ولا أستشيك عليها ثناء، ولا أقطع لك بها

رجاء، والسلام» .

وكان ربيعة الرقي قد قدم مصر فأتى يزيد بن حاتم الوردى فلم يعطه شيئاً، فشغل عنه ببعض الأمر، فخرج وهو يقول:

أراني ولا كفران لله راجعا ... بخفي حنين من نوال ابن حاتم
فسأل عنه يزيد، فأخبر أنه قد خرج وقال كذا، وأنشد البيت؛ فأرسل في طلبه فأتي به، فقال: كيف
قلت؟ فأنشده البيت: فقال شغلنا عنك! ثم أمر بحقيقه فخلعتنا من رجله وملئنا مالا، وقال: ارجع
بهما بدلا من خفي حنين! فقال فيه لما عزل عن مصر وولي مكانه يزيد بن حاتم:
بكى أهل مصر بالدموع السّواجم ... غداة غدا منها الأغرّ ابن حاتم
وفيها يقول:

لشتان ما بين اليزيديين في التدى ... يزيد سليم والأغرّ ابن حاتم
فهمّ الفتى الأزديّ إتلاف ماله ... وهمّ الفتى القيسيّ جمع الدراهم
فلا يحسب التتمام أيّ هجوته ... ولكنني فضلت أهل المكارم
وخرج إليه رجل من الشعراء يمدحه، فلما بلغ مصر وجده قد مات؛ فقال فيه:
لئن مصر فاتتني بما كنت أرتجي ... وأخلفني منها الذي كنت آمل
فما كلّ ما يحشى الفتى بمصيبه ... ولا كلّ ما يرجو الفتى هو نائل
وما كان بيني لو لقيتك سالما ... وبين الغنى إلا ليال قلائل

(258/1)

ومنهم أبو دلف

واسمه القاسم بن إسماعيل، وفيه يقول عليّ بن جبلة:

إنما الدنيا أبو دلف ... بين مبداه ومحتضره «1»

فإذا وليّ أبو دلف ... ولّت الدنيا على أثره

وقال فيه رجل من شعراء الكوفة:

الله أجرى من الأرزاق أكثرها ... على العباد، على كفي أي دلف

بارى الرياح فأعطى وهي جارية ... حتى إذا وقفت أعطى ولم يقف «2»

ما خطّ «لا» كاتباه في صحيفته ... يوما كما خطّ «لا» في سائر الصحف

فأعطاه ثلاثين ألفاً.

ومدحه آخر فقال فيه:

يشبهه الرعد إذا الرعد رجف ... كأنه البرق إذا البرق خطف
كأنه الموت إذا الموت أرف ... تحمله إلى الوغى الخيل القطف «3»
إن سار سار المجد أو حلّ وقف ... انظر بعينيك إلى أسنى الشرف
هل ناله بقدرة أو بكلف ... خلق من الناس سوى أبي دلف
فأعطاه خمسين ألفاً.

ومن أخبار معن بن زائدة

شيء عنه:

قال شراحيل بن معن بن زائدة: حج هارون الرشيد وزميله أبو يوسف القاضي، وكنت كثيرا ما
أسايره، إذ عرض له أعراي من بني أسد فأنشده شعرا مدحه فيه

(259/1)

وأفرط، فقال له هارون: ألم أهلك عن مثل هذا في مدحك يا أبا بني أسد؟ إذا قلت فينا فقل كقول
القائل في أب هذا:

بنو مطر يوم اللقاء كأنهم ... أسود لها في غيل خفان أشبل «1»
هم يمنعون الجار حتى كأنما ... لجارهم بين السماكين منزل «2»
بهاليل في الإسلام سادوا ولم يكن ... كأولهم في الجاهلية أول
وما يستطيع الفاعلون فعاهم ... وإن أحسنوا في النائبات وأجملوا
هم القوم إن قالوا أصابوا وإن دعوا ... أجابوا وإن أعطوا أطابوا وأجزلوا
ومنهم خالد بن عبد الله القسري

وهو الذي يقول فيه الشاعر:

... إلى خالد حتى أنحن بخالد ... فنعم الفتى يرجى ونعم المؤمل
بيننا خالد بن عبد الله القسري جالس في مظلة له، إذ نظر إلى أعراي يخب «3» به بعيره مقبلا نحوه؛
فقال لحاجبه. إذا قدم فلا تحجبه. فلما قدم أدخله عليه، فسلم وقال:
أصلحك الله قل ما بيدي ... فما أطيق العيال إذ كثروا

أناخ دهر ألقى بكلكله ... فأرسلوني إليك وانتظروا «4»
فقال خالد: أرسلوك وانتظروا؟ والله لا تنزل حتى تنصرف إليهم بما يسرهم.
وأمر له بمجانزة عظيمة وكسوة شريفة.

ومنهم عدي بن حاتم

دخل عليه ابن دارة فقال: إني مدحتك. قال: أمسك حتى آتيك بمالي ثم امدحني على حسبه، فإني
أكره ألا أعطيك ثمن ما تقول، لي ألف شاة، وألف درهم، وثلاثة

(260/1)

أعبد، وثلاث إماء، وفرسي هذا حبس في سبيل الله، فامدحني على حسب ما أخبرتك. فقال:
تجن قلوصي في معدّ، وإمّا ... تلاقي الربيع في ديار بني ثعل
وأبقى الليالي من عدي بن حاتم ... حساما كنصل السيف سلّ من الخلل «1»
أبوك جواد لا يشقّ غباره ... وأنت جواد لست تعذر بالعلل
فإن تفعلوا شراً فمثلكم اتقي ... وإن خيرا فمثلكم فعل
قال له عدي: أمسك؛ لا يبلغ مالي أكثر من هذا.

أصفاد الملوك على المدح

سعيد بن مسلم الباهلي قال: قدم على الرشيد أعرابي من باهلة وعليه جبة حبرة، ورداء يمان قد شدّه
على وسطه ثم ثناه على عاتقه، وعمامة قد عصبتها على فوديه وأرخی لها عذبة «2» من خلفه، فمثل
بين يدي الرشيد، فقال سعيد: يا أعرابي، خذ في شرف أمير المؤمنين. فاندفع في شعره. فقال الرشيد:
يا أعرابي، أسمعك مستحسنا وأنكرك متهما؛ فقل لنا بيتين في هذين - يعني محمدا الأمين وعبد الله
المأمون ابنيه، وهما عن حفافيه، فقال: يا أمير المؤمنين، حملتني على الوعر القرد «3» ورجعتني عن
السهل الجدد «4»، روعة الخلافة، وبهر الدرجة، ونفور القوافي على البديهة؛ فأرودني «5» تتألف
لي نوافر ويسكن روعي. قال: قد فعلت، وجعلت اعتذارك بدلا من امتحانك. قال: يا أمير المؤمنين،
نقّست الخناق، وسهلت ميدان السباق؛ فأنشأ يقول:

(261/1)

بنيت لعبد الله ثم محمد ... ذرا قبة الإسلام فاخضر عودها
هما طنباها، بارك الله فيهما ... وأنت أمير المؤمنين عمودها «1»
فقال الرشيد: وأنت يا أعرابي، بارك الله فيك! فسل ولا تكن مسألتك دون إحسانك. قال الهنيدة
«2» يا أمير المؤمنين. فأمر له بمائة ناقة وسبع خلع.

المهدي ومروان ابن أبي حفصة

: وقال مروان بن أبي حفصة: دخلت على المهدي فاستنشدني، فأنشدته الشعر الذي أقول فيه:
طرتك زائرة فحي خيالها ... بيضاء تنشر بالخباء دلالها
قادت فؤادك فاستقاد ومثلها ... قاد القلوب إلى الصبا فأملها
حتى انتهيت إلى قولي:
شهدت من الأنفال آخر آية «3» ... بترائهم فرجوتهم إبطالها
هل تلمسون من السماء نجومها ... بأكفكم أو تسترون هلالها
أو تجحدون مقالة عن ربكم ... جبريل بلغها النبي فقلها
قال: وأنشدته أيضا شعري الذي أقول فيه:
يا بن الذي ورث النبي محمدا ... دون الأقارب من ذوي الأرحام
الوحي بين بني البنات وبينكم ... قطع الخصام فلات حين خصام
ما للنساء مع الرجال فريضة ... نزلت بذلك سورة الأنعام
أتى يكون وليس ذاك بكائن ... لبني البنات ورائة الأعمام

(262/1)

ألغى سهامهم الكتاب فحاولوا ... أن يشرعوا فيها بغير سهام
ظفرت بنو ساقى الحجيج بحقهم ... وغررتهم بتوهم الأحلام
قال مروان بن أبي حفصة: فلما أنشدت المهدي الشعرين قال: وجب حقك على هؤلاء - وعنده
جماعة من أهل بيته - قد أمرت لك بثلاثين ألفا، وفرضت على موسى خمسة آلاف، وعلى هارون
مثلها، وعلى علي أربعة آلاف، وعلى العباس كذا، وعلى فلان كذا فحسبت سبعين ألفا. قال: فأمر
بالثلاثين ألفا فأتى بها، ثم قال: اغد على هؤلاء وخذ ما فرضت لك. فأتيت موسى فأمر لي بخمسة
آلاف، وأتيت هارون فأمر لي بمثلها، وأتيت عليا، قال: قصر بي دون إخوتي فلن أقصر بنفسي. فأمر

لي بخمسة آلاف فأخذت من الباقيين سبعين ألفاً.

عبد الملك وأعشى ربعة

: ودخل أعشى ربعة على عبد الملك بن مروان، وعن يمينه الوليد وعن يساره سليمان؛ فقال له عبد الملك: ماذا بقي يا أبا المغيرة؟ قال: مضى ما مضى وبقي ما بقي. وأنشأ يقول:

وما أنا في حقي ولا في خصومتي ... بمهتضم حقي ولا قارع سني «1»
ولا مسلم مولاي من سوء ما جنى ... ولا خائف مولاي من سوء ما أجنى
وفضلي في الأقسام والشعر أني ... أقول الذي أعني وأعرف ما أعني
وأنّ فؤادي بين جنبيّ عالم ... بما أبصرت عيني وما سمعت أذني
وإني وإن فضّلت مروان وابنه ... على الناس، قد فضّلت خير أب وابن
فضحك عبد الملك وقال للوليد وسليمان: أتلوماني على هذا؟ وأمر له بعشرة آلاف.

(263/1)

عبد الرحمن بن الحكم والفرزدق

: العتبي قال: دخل الفرزدق على عبد الرحمن الثقفي بن أم الحكم، فقال له عبد الرحمن: أبا فراس، دعني من شعرك الذي لا يأتي آخره حتى ينسى أوله، وقل في بيتين يعلقان «1» أفواه الرواة، وأعطيكها عطية لم يعطها أحد قبلي فغدا عليه وهو يقول:

وأنت ابن بطحاوي قريش فإن تشأ ... فكن من تقيف سيل ذي حدب غمر «2»
وأنت ابن فرع ماجد لعقيلة ... تلقت له الشمس المضينة بالبدر
قال: أحسنت، وأمر له بعشرة آلاف.

الفضل بن يحيى وفتى من التجار

: أبو سويد قال: أخبرني الكوفي قال: اعترض الفضل بن يحيى بن خالد في وقت خروجه إلى خراسان فتى من التجار كان شخص إلى الكوفة فقطع به وأخذ جميع ما كان معه، فأخذ بعنان دابة الفضل وقال:

سأرسل بيتنا ليس في الشعر مثله ... يقطع أعناق البيوت الشوارد
أقام الندى والبأس في كلّ منزل ... أقام به الفضل بن يحيى بن خالد
قال فأمر له بمائة ألف درهم.

زبيدة وابن أبي حفصة في أبيات مدح بها الأمين

: العتيبي: قال أبو الجنوب مروان بن أبي حفصة أبياتا ورفعها إلى زبيدة ابنة جعفر يمتدح ابنها محمدا، وفيها يقول:

الله درك يا عقيلة جعفر ... ماذا ولدت من العلا والسؤدد «3»

(264/1)

إنّ الخلافة قد تبين نورها ... للناظرين على جبين محمد
فأمرت أن يملاً فمه دراً.

الحسن بن سهل وعلي بن جبلة

: وقال الحسن بن رجاء الكاتب: قدم علينا علي بن جبلة إلى عسكر الحسن بن سهل، والمأمون هناك بانبا علي خديجة بنت الحسن بن سهل، والمعروفة ببوران، ونحن إذ ذاك نجري علي نيف وسبعين ألف فلاح. وكان الحسن بن سهل مع المأمون يتصيح؛ فكان الحسن يجلس للناس إلى وقت انتباهه، فلما قدم علي بن جبلة نزل بي، فقلت له: قد قوي شغل الأمير. قال: إذا لا أضيع معك! قلت: أجل. فدخلت على الحسن بن سهل في وقت ظهوره فأعلمته مكانه؛ فقال: ألا ترى ما نحن فيه؟ قلت:

لست بمشغول عن الأمر له. فقال: يعطى عشرة آلاف إلى أن تفرغ له. فأعلمت علي بن جبلة؛ فقال في كلمة له:

أعطيتني يا وليّ الحقّ مبتدنا ... عطية كافات حمدي ولم ترني

ما شمت برقك حتى نلت ريقه ... كأنما كنت بالجدوى تبادرني «1»

ابن طوق ورجل عرض له

: عرض رجل لابن طوق وقد خرج متنزها في الرحبة فناوله رقعة فيها جميع حاجته؛ فأخذها فإذا فيها:

جعلتك دنيابي فان أنت جدت لي ... بخير وإلا فالسلام على الدنيا
فقال: والله لأصدقنّ ظنك. فاعطاه حتى أغناه.

عبد الله بن طاهر ودعبل بن علي

: عرض دعبل بن علي الشاعر لعبد الله بن طاهر الخراساني وهو راكب في حرّاقة له في دجلة، فأشار إليه برقعة، فأمر بأخذها، فإذا فيها:

(265/1)

عجبت لحرّاقة بن الحس ... ين كيف تسير ولا تغرق
وبحران من تحتها واحد ... وآخر من فوقها مطبق
وأعجب من ذاك عيدانها ... إذا مسّها كيف لا تورق
فأمر له بخمسة آلاف درهم وجارية وفرس.
وخرج عبد الله بن طاهر فتلقاه دعبل برقعة فيها:
طلعت فئاتك بالسعادة فوقها ... معقودة بلواء ملك مقبل «1»
تتمتّ فوق طريدتين كأنّما ... تهفو يقصّ لها جناحا أجدل «2»
ربح البخيل على احتيال عرضه ... بندى يديك ووجهك المتهلّل
لو كان يعلم أنّ نيلك عاجل ... ما فاض منه جدول في جدول
فأمر له بخمسة آلاف.

ووقف رجل من الشعراء إلى عبد الله بن طاهر فأنشده:
إذا قيل: أيّ فتى تعلمون ... أهشّ إلى البأس والنائل
وأضرب للهام يوم الوغى ... وأطعم في الزمن الماحل؟
أشار إليك جميع الأنام ... إشارة غرقى إلى ساحل
فأمر له بخمسة آلاف درهم.

أحمد بن مطير قال: أنشدت عبد الله بن طاهر أبياتا كنت مدحت بها بعض الولاة، وهي:
له يوم بؤس فيه للناس أبؤس ... ويوم نعيم فيه للناس أنعم
فيقطر يوم الجود من كفه الندى ... ويقطر يوم البؤس من كفه الدّم
فلو أنّ يوم البؤس لم يثن كفه ... على الناس لم يصبح على الأرض مجرم
ولو أنّ يوم الجود فرغ كفه ... لبذل الندى ما كان بالأرض معدم

(266/1)

فقال لي عبد الله: كم أعطاك؟ قلت: خمسة آلاف. قال: فقبلتها؟ قلت: نعم. قال لي: أخطأت؛ ما ثن هذه إلا مائة ألف.

أبو جعفر وحماد عجرد

: ودخل حماد عجرد على أبي جعفر بعد موت أبي العباس أخيه فأنشده:

أبوك بعد أبي العباس إذ بانا ... يا أكرم الناس أعرافا وعيدانا
لو مجّ عود على قوم عصارته ... لمجّ عودك فينا المسك والبانا «1»
فأمر له بخمسة آلاف درهم.

سعيد بن خالد وموسى شهوات

: القحذمي قال: جاء موسى شهوات إلى سعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان، فقال:

إن هنا جارية تعشقتها، وأبوا أن ينقصوني عن مائتي دينار. فقال: بورك فيه فذهب إلى سعيد بن خالد بن أسيد، وأمّه عائشة بنت طلحة الطلحات فدعا بمطرف «2» خزّ فبسطه وعقد في كل ركن من أركانه مائة دينار، وقال لموسى. خذ المطرف بما فيه. فأخذه، ثم غدا عليه فأنشده:

أبا خالد أعني سعيد بن خالد ... أخا العرف، لا أعني ابن بنت سعيد
ولكنني أعني ابن عائشة الذي ... أبو أبويه خالد بن أسيد
عميد الندى ما عاش يرضى به الندى ... فإن مات لم يرض الندى بعميد
دعوه دعوه إنكم قد رقدتم ... وما هو عن أحسابكم برقود

للزبيرى في آل مروان

: العتي قال: سمعت عمي ينشد لأبي العباس الزبيرى:

وكلّ خليفة ووليّ عهد ... لكم يا آل مروان الفداء
إمارتكم شفاء حيث كانت ... وبعض امارة الأقوام ذاء

(267/1)

فأنتم تحسنون إذا ملكتم ... وبعض القوم إن ملكوا أساءوا

أجعلكم وغيركم سواء ... وبينكم وبينهم الهواء

هم أرض لأرجلكم وأنتم ... لأيديهم وأرجلهم سماء

فقلت له: كم أعطى عليها؟ قال: عشرين ألفاً.

أبو مسلم ورؤية

: الأصمعي قال: حدثني رؤية قال: دخلت على أبي مسلم صاحب الدعوة، فلما أبصرني نادى: يا رؤية. فأجبتة:

لبيك إذ دعوتني لبيكا ... أحمد رباً ساقني إليك

الحمد والتعمية في يديكا

قال: بل في يدي الله تعالى. قلت له: وأنت إذا أنعمت أجدت. ثم قلت: يا أذن لي أمير المؤمنين في الإنشاد؟ قال: نعم؛ فأنشدته:

ما زال يأتي الملك في أقطاره ... وعن يمينه وعن يساره

مشمراً لا يصطلي بناره ... حتى أقرّ الملك في قراره

فقال: يا رؤية، إنك أتيتنا وقد شفّ المال واستنفده الإنفاق، وقد أمرنا لك بجائزة، وهي تافهة يسيرة،

ومنك العود وعلينا المعول، والدهر أطرق مستتبّ «1»، فلا تجعل بيننا وبينك الأسدّة «2». قال

رؤية: فقلت: الذي أفادني الأمير من كلامه أكثر من الذي أفادني من ماله.

ودخل نصيب بن رباح على هشام فأنشده:

إذا استبق الناس العلا سبقتهم ... يمينك عفوا ثمّ صلّت شمالكا

فقال هشام: بلغت غاية المدح فسلني. فقال: يا أمير المؤمنين، يداك بالعطيّة أطلق

(268/1)

من لساني بالمسألة. قال: لا بد أن تفعل. قال: لي ابنة نفضت عليها من سوادي فكسّدها، فلو أنفقها أمير المؤمنين بشيء يجعله لها. قال: فأقطعها أرضاً، وأمر لها بحلي وكسوة. فنفقت السوداء.

عبد الله بن جعفر ونصيب

: الرياشي عن الأصمعي قال: مدح نصيب بن رباح عبد الله بن جعفر فأمر له بمال كثير وكسوة شريفة ورواحل موقرة «1» برّاً وتمراً؛ فقليل له: أتفعل هذا بمثل هذا العبد الأسود؟ قال: أما لئن كان عبداً إن شعره فيّ حرّاً؛ ولئن كان أسوداً إنّ ثنائه لأبيض، وإنما أخذ مالا يفنى وثيابا تبلى ورواحل تنضى «2»، وأعطى مديحا يروى وثناء يبقى.

هشام وأبو النجم

: وذكروا عن أبي النجم العجلي أنه أنشد هشاما شعره الذي يقول فيه:

الحمد لله الوهوب المجرل

وهو من أجود شعره، حتى انتهى إلى قوله:

والشمس في الجوّ كعين الأحول

وكان هشام أحول، فأغضبه ذلك، فأمر به فطرد. فأمل أبو النجم رجعته، فكان يأوي إلى المسجد،

فأرق هشام ذات ليلة فقال لحاجبه: أبغني رجلا عربيا فصيحاً يحدثني وينشدني. فطلب له ما سأل،

فوجد أبا النجم، فأتى به، فلما دخل عليه قال:

أين تكون منذ أقصيناك؟ قال: حيث ألفاني رسولك. قال: فمن كان أبا النجم مثواك؟ قال: رجلين،

أتعدى عند أحد هما وأتعشى عند الآخر. قال: فما لك من الولد؟ قال: ابنتان، قال أزوجتهما؟ قال:

زوّجت إحدا هما. قال: فبم أوصيتها ليلة أهديتها؟ قال: قلت لها:

(269/1)

سبيّ الحماة وابنتي عليها ... وأن أبت فازدلفي إليها «1»

ثم اقرعي بالعود مرفقيها ... وجددي الخلف به عليها

لا تخبري الدهر بذاك ابنيها

فقال: فهل أوصيتها بعد هذا؟ قال: نعم.

أوصيت من برّة قلبا برّا ... بالكلب خيرا والحماة شرّا

لا تسأمي خنقا لها وجرّا ... والحيّ عمّيهم بشرّ طرّا

وإن كسوك ذهباً ودرّا ... حتى يروا حلو الحياة مرّا

قال هشام: ما هكذا أوصى يعقوب ولده. قال أبو النجم: ولا أنا كيعقوب، ولا ولدي كولده. قال:

فما حال الأخرى؟ قال هي ظلامه التي أقول فيها:

كأنّ ظلامه أخت شيبان ... يتيمة ووالداها حيّان

الرأس قمل كلّه وصنّان ... وليس في الرجلين إلّا خيطان

فهي التي يدعر منها الشيطان

قال هشام لحاجبه: ما فعلت بالدنانير التي أمرتك بقبضها؟ قال: هي عندي، وهي خمسمائة دينار.

قال له: ادفعها لأبي النجم ليجعلها في رجلي ظلامه مكان الخيطين.

مروان بن محمد وطريح وذو الرمة

: أبو عبيدة قال: حدّثني يونس بن حبيب قال: لما استخلف مروان بن محمد دخل عليه الشعراء يهنئونه بالخلافة، فتقدّم إليه طريح بن إسماعيل الثقفي، خال الوليد بن يزيد، فقال: الحمد لله الذي أنعم بك على الإسلام إماما، وجعلك لأحكام دينه قواما، ولأمة محمد المصطفى جنّة «2» ونظاما. ثم أنشده شعره الذي يقول فيه:

تسوء عدالك في سداد ونعمة ... خلافتنا تسعين عاما وأشهرا

(270/1)

فقال مروان: كم الأشهر؟ قال: وفاء المائة يا أمير المؤمنين، تبلغ فيها أعلى درجة وأسعد عاقبة في النصر والتمكين. فأمر له بمائة ألف درهم.

ثم تقدّم إليه ذو الرمة متحانيا كبرة، قد انحلت عمامته منحدره عن وجهه، فوقف يسوّيها، فقيل له: تقدّم. قال: إني أجلّ أمير المؤمنين أن أخطب بشرفه مادحا بلوثة عمامتي. فقال مروان: ما أملت أنه أبقت لنا منك ميّ ولا صيدح»

في كلامك إمتاعا. قال: بلى والله يا أمير المؤمنين؛ أرد منه قراحا، والأحسن امتداحا، ثم تقدّم فأنشد شعرا يقول فيه:

فقلت لها سيري، أمامك سيّد ... تفرّع من مروان أو من محمّد

فقال له: ما فعلت ميّ؟ فقال:

طويت غدائرها ببرد بلى ... ومحا التراب محاسن الخدّ

فالتفت مروان إلى العباس بن الوليد، فقال: أما ترى القوافي تنثال انثيالاً؟ يعطى بكل من سمّي من آبائي ألف دينار. قال ذو الرمة: لو علمت لبلغت به عبد شمس.

المنصور وابن هرمة

: الربيع حاجب المنصور قال: قلت يوما للمنصور: إن الشعراء ببابك وهم كثيرون، طالت أيامهم ونفدت نفقاتهم. فقال: اخرج إليهم فاقراً عليهم السلام، وقل لهم من مدحني منكم فلا يصفني بالأسد، فإنما هو كلب من الكلاب؛ ولا بالحية، فإنما هي دويبة منتنة تأكل التراب؛ ولا بالجبل، فإنما هو حجر أصم؛ ولا بالبحر، فإنما هو غطامط لجب «2»؛ ومن ليس في شعره هذا فليدخل؛ ومن

كان في شعره فلينصرف. فانصرفوا كلهم إلا إبراهيم بن هرمة، فإنه قال له. أنا له يا ربيع، فأدخلني.
فأدخله، فلما مثل بين يديه، قال المنصور: يا ربيع، قد علمت أنه لا

(271/1)

يجيبك أحد غيره؛ هات يا بن هرمة. فأنشده قصيدته التي يقول فيها:
له لحظات عن حفا في سريره ... إذا كرها فيها عذاب ونائل
لهم طينة بيضاء من آل هاشم ... إذا اسودّ من كوم التراب القبائل
إذا ما أبي شيئا مضى كالذي أبي ... وإن قال إني فاعل فهو فاعل
فقال: حسبك! ها هنا بلغت، هذا عين الشعر، قد أمرت لك بخمسة آلاف درهم. فقامت إليه
وقبلت رأسه وأطرافه ثم خرجت، فلما كادت أن أخفى على عينيه سمعته يقول: يا إبراهيم! فأقبلت
إليه فرعا، فقلت: لبيك فداك أبي وأمي. قال:
احتفظ بما فليس لك عندنا غيرها! فقلت: بأبي وأمي أنت، أحفظها حتى أوافيك بما على الصراط
بخاتم الجهبذ «1» .

جعفر وابن الجهم

: علي بن الحسين قال؛ أنشد علي بن الجهم جعفرا المتوكل شعره الذي أوله:
هي النفس ما حملتها تتحمل
وكان في يد المتوكل جوهرتان، فأعطاه التي في يمينه؛ فأطرق متفكرا في شيء يقوله ليأخذ التي في
يساره، فقال: مالك مفكرا؟ إنما تفكر فيما تأخذ به الأخرى! خذها لا بورك لك فيها! فأنشأ يقول:
بسرّ من را إمام عدل ... تعرف من بحره البحار
يرجى ويخشى لكلّ أمر ... كأنه جنّة ونار
الملك فيه وفي بنيه ... ما اختلف الليل والنهار
يداه في الجود ضرّتان ... عليه كلتاها تغار
لم تأت منه اليمين شيئا ... إلا أتت مثله اليسار
وقال آخر في الهول:

(272/1)

إذا سألت الندى عن كلِّ مكرمة ... لم تلف نسبتها إلا إلى الهول
لو زاحم الشمس ألفى الشمس مظلمة ... لو زاحم الصَّمَّ أَلجأها إلى الميل «1»
أمضى من الدهر إن نابتة نائبة ... وعند أعدائه أمضى من السَّيل
ودخل شاعر من أهل الرِّيِّ. يقال له أبو يزيد، على عبد الله بن طاهر صاحب خراسان، فأنشده:
اشرب هنيئاً عليك التاج مرتفقا ... من شادمهر ودع غمدان لليمن «2»
فأنت أولى بتاج الملك تلبسه ... من هوذة بن عليّ وابن ذي يزن
فأمر له بعشرة آلاف درهم.
ودخلت ليلي الأخيلىة على الحجاج فأنشدته:
إذا ورد الحجاج أرضاً مريضة ... تتبع أقصى دائها فشفاها
شفاها من الداء العضال الذي بها ... غلام إذا هزّ القناة سقاها «3»
فقال لها: لا تقولي غلام، ولكن قولي: همام. ثم قال: أي النساء أحب إليك أنزلك عندها؟ قالت:
ومن نساؤك أيها الأمير؟ قال: أم الجلّاس بنت سعيد بن العاص الأموية، وهند بنت أسماء بن خارجة
الفزارية، وهند بنت المهلب بن أبي صفرة العنكيّة. قالت: القيسية أحب إليّ. فلما كان من الغد
دخلت عليه. قال: يا غلام، أعطها خمسمائة. قالت: أيها الأمير، أحسبها أدما «4». قال قائل:
إنما أمر لك بشاء. قالت: الأمير أكرم من ذلك. فجعلها إبلا على استحياء، وإنما كان أمر لها بشاء
أولاً.

(273/1)

كتاب الجمّانة في الوفود

فرش الكتاب الوفود

قال الفقيه أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربّته:
قد مضى قولنا في الأجواد والأصفاد «1» على مراتبهم ومنازلهم، وما جروا عليه، وما ندبوا إليه من
الأخلاق الجميلة، والأفعال الجزيلة. ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في الوفود الذين وفدوا على النبي
صلّى الله عليه وسلّم، وعلى الخلفاء والملوك؛ فإنها مقامات فضل، ومشاهد حفل؛ يتخيّر لها الكلام،
وتستهذب الألفاظ، وتستجزل المعاني. ولا بد للوفاد عن قومه أن يكون عميدهم وزعيمهم الذي عن

قوته ينزعون «2»، وعن رأيه يصدرن؛ فهو واحد يعدل قبيلة، ولسان يعرب عن ألسنة، وما ظنك بوافد قوم يتكلم بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم أو خليفته، أو بين يدي ملك جبار في رغبة أو رهبة، فهو يوطد لقومه مرةً ويتحفظ من أمامه أخرى. أتراه مدخرا نتيجة من نتائج الحكمة، أو مستبقيا غريبة من غرائب الفطنة؛ أم تظن القوم قدّموه لفضل هذه الخطة إلا وهو عندهم في غاية الحذقة «3» واللّسن، ومجمع الشعر والخطابة. ألا ترى أنّ قيس بن عاصم المنقريّ لما وفد على النبي صلى الله عليه وسلم بسط له رداءه وقال: هذا سيد الوبر. ولما توفي قيس بن عاصم قال فيه الشاعر «4»:

عليك سلام الله قيس بن عاصم ... ورحمته ما شاء أن يترحمّا

(274/1)

تحيّة من ألبسته منك نعمة ... إذا زار عن شحط بلادك سلّما «1»
 وما كان قيس هللكه هلك واحد ... ولكنه بنيان قوم تهدّما

وفود العرب على كسرى

ابن الفطامي عن الكلبيّ قال: قدم النعمان بن المنذر على كسرى وعنده وفود الروم والهند والصين، فذكروا من ملوكهم وبلادهم. فافتخر النعمان بالعرب وفضّلهم على جميع الأمم، لا يستثنى فارس ولا غيرها، فقال كسرى وأخذته عزة الملك: يا نعمان، لقد فكرت في أمر العرب وغيرهم من الأمم، ونظرت في حال من يقدم عليّ من وفود الأمم، فوجدت الروم لها حظّ في اجتماع ألفتها، وعظم سلطانتها، وكثرة مدائنها، ووثيق بنيانها: وأنّ لها ديناً بيّن حلالها وحرامها ويردّ سفيهاها ويقيم جاهلها. ورأيت الهند نحوا من ذلك في حكمتها وطبّها، مع كثرة أنهار بلادها وثمارها، وعجيب صناعاتها، وطيب أشجارها، ودقيق حسابها، وكثرة عددها. وكذلك الصين في اجتماعها. وكثرة صناعات أيديها في آلة الحرب وصناعة الحديد، وفروسيتها وهمتها، وأنّ لها ملكا يجمعها. والترك والخزر على ما بهم من سوء الحال في المعاش، وقلة الريف والثمار والحصون، وما هو رأس عمارة الدنيا من المساكن والملابس، لهم ملوك تضمّ قواصيمهم وتدبّر أمرهم. ولم أر للعرب شيئا من خصال الخير في أمر دين ولا دنيا، ولا حزم ولا قوة، مع أن مما يدل على مهانتها وذلتها وصغر همتها، ومحلّتهم التي هم بها مع الوحوش النافرة، والطير الحائرة، يقتلون أولادهم من الفاقة، ويأكل بعضهم بعضا من الحاجة، قد خرجوا من مطاعم الدنيا وملابسها، ومشاربها وهوها ولدانتها، فأفضل طعام ظفر به ناعمهم لحوم

الإبل التي يعافها كثير من السباع لثقلها وسوء طعمها وخوف دائها، وإن قرى أحدهم ضيفا عدّها مكربة، وإن أطعم أكلة عدّها غنيمة؛ تنطق بذلك أشعارهم، وتفتخر بذلك رجالهم، ما خلا هذه التّوخية التي

(275/1)

أسس جدّي اجتماعها، وشدّ مملكتها، ومنعها من عدوّها؛ فجرى لها ذلك إلى يومنا هذا، وإنّ لها مع ذلك آثارا ولبوسا، وقرى وحصونا، وأمورا تشبه بعض أمور الناس - يعني اليمن - ثم لا أراكم تستكبنون على ما بكم من الذلّة والقلة والفاقة والبؤس، حتى تفتخروا وتريدوا أن تنزلوا فوق مراتب الناس.

قال النعمان: أصلح الله الملك، حقّ لأمة الملك منها أن يسمو فضلها، ويعظم خطبها، وتعلو درجتها. إلا أنّ عندي جوابا في كل ما نطق به الملك، في غير ردّ عليه، ولا تكذيب له، فإنّ أمني من غضبه نطقت به.

قال كسرى: قل فأنت آمن.

قال النعمان: أما أمتك أيها الملك فليست تنازع في الفضل، لموضعها الذي هي به من عقولها وأحلامها، وبسطة محلّها، وبجوحة عزّها، وما أكرمها الله به من ولاية آبائك وولايتك. وأما الأمم التي ذكرت، فأيّ أمة تقرّها بالعرب إلا فضلتها.

قال كسرى: بماذا؟

قال النعمان: بعزّها ومنعتها وحسن وجوهها وبأسها وسخائها وحكمة أسنتها وشدة عقولها وأنفتها ووفائها:

فأما عزّها ومنعتها؛ فإنّها لم تزل مجاورة لآبائك الذين دوخوا البلاد، ووطدوا الملك، وقادوا الجند، لم يطمع فيهم طامع، ولم ينلهم نائل، حصونهم ظهور خيلهم، ومهادهم الأرض، وسقوفهم السماء، وجنتهم «1» السيوف، وعدّتهم الصبر. إذ غيرها من الأمم إنما عزّها الحجارة والطين وجزائر البحور. وأما حسن وجوهها وألوانها فقد يعرف فضلهم في ذلك على غيرهم من الهند، والصين المنحفة، والترك المشوّهة، والروم المقشّرة.

(276/1)

وأما أنسابها وأحسابها، فليست أمة من الأمم إلا وقد جهلت آباءها وأصولها وكثيرا من أولها، حتى إن أحدهم ليسأل عمن وراء أبيه دنيا فلا ينسبه ولا يعرفه وليس أحد من العرب إلا يسمي آباءه أبا فأبا، حاطوا بذلك أحسابهم، وحفظوا به أنسابهم، فلا يدخل رجل في غير قومه: ولا ينتسب إلى غير نسبه، ولا يدعى إلى غير أبيه.

وأما سخاؤها، فإن أدنانهم رجلا الذي تكون عنده البكرة والناب عليها بلاغه «1» في حمولة وشبعه وريته، فيطرقة الطارق «2» الذي يكتفي بالفلذة «3» ويجتزيء بالشربة فيعقرها له ويرضى أن يخرج عن دنياه كلها فيما يكسبه حسن الأحداثة وطيب الذكر.

وأما حكمة ألسنتهم فإن الله تعالى أعطاهم في أشعارهم وروثق كلامهم وحسنه ووزنه وقوافيه، مع معرفهم بالأشياء، وضربهم للأمثال، وإبلاغهم في الصفات ما ليس لشيء من ألسنة الأجناس. ثم خيلهم أفضل الخيل، ونساؤهم أعف النساء، ولباسهم أفضل اللباس ومعادنهم الذهب والفضة، وحجارة جباهم الجزع «4»، ومطاباهم التي لا يبلغ على مثلها سفر، ولا يقطع بمثلها بلد قفر. وأما دينها وشريعته، فإنهم متمسكون به، حتى يبلغ أحدهم من نسكه بدينه أن لهم أشهراً حرماً، وبلداً محرماً، وبيتاً محجوجاً ينسكون فيه مناسكهم، ويذبحون فيه ذبائحهم، فيلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه، وهو قادر على أخذ ثاره وإدراك رغبته منه، فيحجزه كرمه ويمنعه دينه عن تناوله بأذى. وأما وفائها، فإن أحدهم يلحظ اللحظة ويوميء بالإيماء فهي ولث «5» وعقدة لا يحلها إلا خروج نفسه، وإن أحدهم ليرفع عوداً من الأرض فيكون رهناً بدينه فلا

(277/1)

يغلق رهنه ولا تخفر ذمته، وإن أحدهم ليلبغه أن رجلاً استجار به، وعسى أن يكون نائياً عن داره، فيصاب، فلا يرضى حتى يفنى تلك القبيلة التي أصابته أو تفنى قبيلته لما خفر من جواره؛ وإنه ليلجأ إليهم الجرم المحدث من غير معرفة ولا قرابة، فتكون أنفسهم دون نفسه، وأمواهم دون ماله. وأما قولك أيها الملك: يندون أولادهم، فإنما يفعله من يفعله منهم بالإناث أنفة من العار وغيره من الأزواج.

أما قولك: إن أفضل طعامهم لحوم الإبل على ما وصفت منها، فما تركوا ما دونها إلا احتقاراً له، فعمدوا إلى أجلها وأفضلها، فكانت مراكبهم وطعامهم مع أنها أكثر البهائم شحوماً، وأطيبها لحوماً،

وأرقها ألبانا، وأقلها غائلة، وأحلاها مضغة، وإنه لا شيء من اللّحمان يعالج ما يعالج به لحمها إلا استبان فضلها عليه.

وأما تحاربهم وأكل بعضهم بعضا، وتركهم الانقياد لرجل يسوسهم ويجمعهم؛ فإنما يفعل ذلك من يفعله من الأمم إذا أنست من نفسها ضعفا وتخوّفت نحوض عدوها إليها بالزحف، وإنه إنما يكون في المملكة العظيمة أهل بيت واحد يعرف فضلهم على سائر غيرهم، فيلقون إليهم أمورهم، وينقادون لهم بأزمتهم: وأما العرب فإن ذلك كثير فيهم، حتى لقد حاولوا أن يكونوا ملوكا أجمعين، مع أنفتهم من أداء الخراج والوظف «1» بالعسف.

وأما اليمن التي وصفها الملك فإنما أتى جدّ الملك وليّها الذي أتاه عند غلبة الحبش له على ملك متّسق؛ وأمر مجتمع؛ فأتاه مسلوبا طريدا مستصرخا، وقد تقاصر عن إيوانه، وصغر في عينه ما شيّد من بنائه. ولولا ما وتر «2» به من يليه من العرب لمال إلى مجال، ولوجد من يجيد الطعان ويغضب للأحرار من غلبة العبيد الأشرار.

قال: فعجب كسرى لما أجابه النعمان به؛ وقال: إنك لأهل لموضعك من الرياسة

(278/1)

في أهل إقليمك ولما هو أفضل. ثم كساه من كسوته، وسرّحه إلى موضعه من الحيرة. فلما قدم النعمان الحيرة وفي نفسه ما فيها مما سمع من كسرى من تنقص العرب وتهجين أمرهم، بعث إلى أكثم بن صيفي وحاجب بن زرارة التميميين، وإلى الحارث ابن عباد وقيس بن مسعود البكرين، وإلى خالد بن جعفر، وعلقمة بن معد يكرب الزبيدي، والحارث بن ظالم المري؛ فلما قدموا عليه في الخورنق، قال لهم: قد عرفتم هذه الأعاجم وقرب جوار العرب منها، وقد سمعت من كسرى مقالات تخوّفت أن يكون لها غور، وأن يكون إنما أظهرها لأمر أراد أن يتخذ به العرب خوفا «1» كبعض طماطمتة «2» في تأديتهم الخراج إليه، كما يفعل بملوك الأمم الذين حوله. فافتصّ عليهم مقالات كسرى وما ردّ عليه؛ فقالوا: أيها الملك، وفقك الله، ما أحسن ما رددت، وأبلغ ما حججته به؛ فمرنا بأمرك، وادعنا إلى ما شئت.

قال: إنما أنا رجل منكم، وإنما ملكت وعززت بمكانكم وما يتخوّف من ناحيتكم، وليس شيء أحبّ إليّ مما سدّد الله به أمركم، وأصلح به شأنكم، وأدام به عزّكم؛ والرأي أن تسيروا بجماعتكم أيها الرهط وتنتقلوا إلى كسرى، فإذا دخلتم نطق كل رجل منكم بما حضره، ليعلم أنّ العرب الرهط وتنتقلوا إلى

كسرى، فإذا دخلتم نطق كل رجل منكم بما حضره، ليعلم أنّ العرب على غير ما ظن أو حدّته نفسه؛ ولا ينطق رجل منكم بما يغضبه، فإنه ملك عظيم السلطان، كثير الأعوان مترف معجب بنفسه، ولا تنخزلوا «3» له انخزال الخاضع الذليل، وليكن أمر بين ذلك، تظهر به وثاقة حلومكم، وفضل منزلتكم، وعظمة أخطاركم؛ وليكن أول من يبدأ منكم بالكلام أكثم بن صيفي، لسنيّ حاله، ثم تتابعوا على الأمر من منازلكم التي وضعتكم بها؛ فإنما دعائي إلى التّقدمة بينكم علمي بميل كل رجل منكم على التّقدم قبل صاحبه؛ فلا يكون ذلك منكم فيجد في آدابكم مطعنا؛ فإنه ملك مترف، وقادر مسلّط.

(279/1)

ثم دعا لهم بما في خزائنه من طرائق حلل الملوك، كل رجل منهم حلّة، وعمّمه عمامة، وختّمه بياقوته؛ وأمر لكل رجل منهم بنجبية مهيبة وفرس نجبية، وكتب معهم كتابا: أما بعد، فإن الملك ألقى إليّ من أمر العرب ما قد علم، وأجبت به بما أحببت أن يكون منه على علم، ولا يتلجج في نفسه أن أمة من الأمم التي احتجرت دونه بمملكته، وحمت ما يليها بفضل قوّتها، تبلغها في شيء من الأمور التي يتعزّز بها ذو والحزم والقوة والتدبير والمكيدة. وقد أوفدت إليها الملك رهطا من العرب؛ لهم فضل في أحسابهم وأنسابهم وعقولهم وآدابهم؛ فليسمع الملك، وليغمض عن جفاء إن ظهر من منطلقهم، وليكرمني بإكرامهم وتعجيل سراحهم، وقد نسبتهم في أسفل كتابي هذا إلى عشائرتهم.

فخرج القوم في أهبتهم حتى وقفوا بباب كسرى بالمدائن، فدفعوا إليه كتاب النعمان، فقرأه وأمر بإنزالهم إلى أن يجلس لهم مجلسا يسمع منهم. فلما أن كان بعد ذلك بأيام، أمر مرازبته «1» ووجوه أهل مملكته، فحضرُوا وجلسوا على كراسي عن يمينه وشماله؛ ثم دعا بهم على الولاء والمراتب التي وضعهم النعمان بها في كتابه؛ وأقام التّرجمان ليؤدي إليه كلامهم، ثم أذن لهم في الكلام. فقام أكثم بن صيفي فقال: إن أفضل الأشياء أعاليها، وأعلى الرجال ملوكها، وأفضل الملوك أعمّها نفعا، وخير الأزمنة أخصبها، وأفضل الخطباء أصدقها.

الصدق منجاة، والكذب مهواة، والشرّ لجامه «2»، والحزم مركب صعب، والعجز مركب وطيء. آفة الرأي الهوى، والعجز مفتاح الفقر، وخير الأمور الصبر. حسن الظن ورطة، وسوء الظن عصمة.

إصلاح فساد الرعية خير من إصلاح فساد الراعي.

من فسدت بطانته كان كالغاصّ بالماء. شر البلاد بلاد لا أمير بها. شر الملوك من

(280/1)

خافه البريء. المرء يعجز لا المحالة. أفضل الأولد البررة. وخير الأعوان من لم يراء «1» بالنصيحة. أحقّ الجنود بالنصر من حسنت سريرته. يكفيك من الزاد ما بلّغك الخلّ. حسبك من شرّ سماعة. الصمت حكم وقليل فاعله. البلاغة الإيجاز. من شدد نفر، ومن تراخى تألف. فتعجب كسرى من أكنم، ثم قال: ويحك يا أكنم! ما أحكمك وأوثق كلامك لولا وضعك كلامك في غير موضعه.

قال أكنم: الصدق ينيء عنك لا الوعيد.

قال كسرى: لو لم يكن للعرب غيرك لكفى.

قال أكنم: ربّ قول أنفذ من صول.

ثم قام حاجب بن زرارة التميمي، فقال وري زندك، وعلت يدك، وهيب سلطانك. إن العرب أمة قد غلظت أكبادها، واستحصدت مرّتها «2»، ومنعت درّتها «3»؛ وهي لك وامقة «4» ما تألفتها، مسترسلة ما لا ينتها، سامعة ما ساحتها، وهي العلقم مرارة، والصاب غضاضة، والعسل حلاوة، والماء الزلال سلاسة. نحن وفودها إليك، وألسنتها لديك؛ ذمتنا محفوظة، وأحساننا ممنوعة، وعشائرننا فينا سامعة مطيعة؛ إن نؤب لك حامدين خيرا فلك بذلك عموم محمدتنا، وإن نذم لم نخص بالذمّ دونها.

قال كسرى: يا حاجب، ما أشبهه حجر التلال بألوان صخرها.

قال حاجب: بل زئير الأسد بصولتها.

قال كسرى: وذلك.

(281/1)

ثم قام الحارث بن عباد البكري فقال: دامت لك المملكة باستكمال جزيل حظّها، وعلوّ ثنائها. من طال رشاؤه كثر متحه «1»، ومن ذهب ماله قلّ منحه. تناقل الأقاويل يعرف اللب؛ وهذا مقام

سيوحف «2» بما ينطق فيه الرَّكْب، وتعرف به كنه حالنا العجم والعرب؛ ونحن جيرانك الأدنون، وأعوانك المعينون، خيولنا جمّة، وجيوشنا فحمة، إن استنجدتنا فغير ربح «3»، وإن استطرفتنا فغير جهض»

، وإن طلبتنا فغير غمض، لا ننثني لذعر، ولا نتنكر لدهر، رماحنا طول، وأعمارنا قصار .
 قال كسرى: أنفـس عزيزة، وأمة والله ضعيفة.

قال الحارث: أيها الملك، وأنى يكون لضعيف عزة، أو لصغير مـرة؟

قال كسرى: لو قصر عمرك لم تستول على لسانك نفسك.

قال الحارث: أيها الملك، إن الفارس إذا حمل نفسه على الكتبية مغرّرا بنفسه على الموت، فهي منية استقبلها، وحياة استدبرها؛ والعرب تعلم أنى أبعث الحرب قدما، وأحبسها وهي تصرّف بهم، حتى إذا جاشت نارها، وسعرت لظاها، وكشفت عن ساقها، جعلت مقادها رمحى، وبرقها سيفي، ورعدا زئيري، ولم أقصر عن خوض خضاخصها «5»، حتى أنغمس في غمرات لججها، وأكون فلكا لفرساني إلى مجوحة كبشها، فأستمطرها دما، وأترك حماتها جزر السباع وكلّ نسر قشعم «6» .
 ثم قال كسرى لمن حضره من العرب: أكذلك هو؟

(282/1)

قالوا: فعاله أنطق من لسانه.

قال كسرى: ما رأيت كاليوم وفدا أحشد، ولا شهودا أوفد.

ثم قام عمرو بن الشريد السلمي فقال: أيها الملك نعم بالك، ودام في السرور حالك؛ إن عاقبة الكلام متدبرة، وأشكال الأمور معتبرة، وفي كثير ثقله، وفي قليل بلغة، وفي الملوك سورة العزّ «1»، وهذا منطلق له ما بعده، شرف فيه من شرف، وخمل فيه من خمل، لم نأت لضيـمك، ولم نـفد لسخطك، ولم نتعرض لرفدك. إنّ في أموالنا مرتقدا، وعلى عزنا معتمدا؛ إن أورينا نارا أثقينا، وإن أود «2» دهر بنا اعتدنا، إلا أنا مع هذا لجوارك حافظون، ولمن رامك مكافحون، حتى يحمد الصدر، ويستطاب الخبر.

قال كسرى: ما يقوم قصد منطلقك بإفراطك، ولا مدحك بدمك.

قال عمرو: كفى بقليل قصدي هاديا، وبأيسر إفراطي مخبرا، ولم يلم من عزفت «3» نفسه عما يعلم، ورضي من القصد بما بلغ.

قال كسرى: ما كل ما يعرف المرء ينطق به. اجلس.

ثم قام خالد بن جعفر الكلبي فقال: أحضر الله الملك إسعادا، وأرشدته إرشادا؛ إن لكل منطق فرصة، ولكل حاجة غصة، وعي المنطق أشد من عي السكوت، وعتار القول أنكى من عتار الوعث «4»، وما فرصة المنطق عندنا إلا بما نهوى، وغصة المنطق بما لا نهوى غير مستساغة، وتركى ما أعلم من نفسي ويعلم من سمعي أنني له مطيق أحب إلي من تكلفي ما أتخوف ويتخوف مني. وقد أوفدنا إليك ملكنا النعمان، وهو لك من خير الأعوان، ونعم حامل المعروف والإحسان. أنفسنا بالطاعة لك باخعة «5»، وراقبنا بالنصيحة خاضعة، وأيدنا لك بالوفاء رهينة.

(283/1)

قال له كسرى: نطقت بعقل، وسموت بفضل، وعلوت بنبل.

ثم قام علقمة بن علاثة العامري فقال: أنهت لك سبيل الرشاد، وخضعت لك رقاب العباد: إن للأقويل مناهج، وللآراء مواج، وللعويص مخارج؛ وخير القول أصدق، وأفضل الطلب أنجح. إننا وإن كانت المحبة أحضرتنا، والوفادة قربنا، فليس من حضرك منا بأفضل ممن عزب «1» عنك، بل لو قست كل رجل منهم وعلمت منهم ما علمنا، لوجدت له في آبائه دنيا أندادا وأكفاء، كلهم إلى الفضل منسوب، وبالشرف والسودد موصوف، وبالرأي الفاضل والأدب النافذ معروف، يحمي حماه، ويروى نداماه، ويدود أعداه؛ لا تخمد ناره، ولا يجترز منه جاره. أيها الملك، من يبيل العرب يعرف فضلهم؛ فاصطنع العرب، فإنما الجبال الرواسي عزًا، والبحور الزواجر طميا «2»، والنجوم الزواهر شرفا، والحصى عددا؛ فإن تعرف لهم فضلهم يعزوك، وإن تستصرخهم لا يخذلوك.

قال كسرى - وخشي أن يأتي منه كلام يحمل على السخط عليه: حسبك، أبلغت وأحسن.

ثم قام قيس بن الشيباني فقال: أطاب الله بك المرشد، وجتبتك المصائب، ووقاك مكروه الشصائب «3»؛ ما أحقنا إذ أتيناك بإسماعك ما لا يحق صدرك، ولا يزرع لنا حقدا في قلبك؛ لم نقدم أيها الملك لمساماة، ولم ننتسب لمعاداة، ولكن لتعلم أنت ورعبتك ومن حضرك من وفود الأمم أنا في المنطق غير محجمين، وفي اليأس غير مقصرين؛ إن جورينا فغير مسبوقين، وإن سومينا فغير مغلوبين. قال كسرى: غير أنكم إذا عاهدتم غير وافين. وهو يعرض به في تركه الوفاء بضمانه السواد «4».

(284/1)

قال قيس: أيا الملك، ما كنت في ذلك إلا كواف غدر به، أو كخافر «1» أخفر بدمته.

قال كسرى: ما يكون لضعيف ضمان، ولا لدليل خفارة.

قال قيس: أيها الملك، ما أنا فيما خفر من ذمتي، أحقّ بالزامي العار منك فيما قتل من رعيتك، وانتهك من حرمتك.

قال كسرى: ذلك، لأن من ائتمن الخانة، واستنجد الأئمة، ناله من الخطأ ما نالني، وليس كلّ الناس

سواء؛ كيف رأيت حاجب بن زرارة لم يحكم قواه فيبرم، ويعهد فيوفي، ويعد فينجز؟

قال: وما أحقّه بذلك وما رأيت له إلا لي.

قال كسرى: القوم يزل فأفضلها أشدّها.

ثم قام عامر بن الطفيل العامريّ فقال: كثر فنون المنطق، وليس القول أعمى من حندس «2»

الظلماء، وإنما الفخر في الفعال، والعزّ في النجدة؛ والسودد مطاوعة القدرة. وما أعلمك بقدرنا،

وأبصرك بفضلنا؛ وبالحرّي «3» إن أدالت الأيام، وثابت الأحلام، أن تحدث لنا أمورا لها أعلام.

قال كسرى: وما تلك الأعلام؟

قال: مجتمع الأحياء من ربيعة ومضر، على أمر يذكر.

قال كسرى: وما الأمر الذي يذكر؟

قال: مالي علم بأكثر مما خبرني به مخبر.

(285/1)

قال كسرى: متى تكاهنت يا بن الطفيل؟

قال: لست بكاهن، ولكني بالرمح طاعن.

قال كسرى: فإن أتاك آت من جهة عينك العوراء ما أنت صانع؟

قال: ما هيبتي في قفائي بدون هيبتي في وجهي، وما أذهب عيني عيث «1» ولكن مطاوعة العيث.

ثم قام عمرو بن معد يكرب الزبيدي فقال: إنما المرء بأصغريه: قلبه ولسانه فبلاغ المنطق الصواب،

وملاك التّجعة الارتباد، وغفو الرأي خير من استكراه الفكرة، وتوقّف الخبرة خير من اعتساف الحيرة،

فاجتبد «2» طاعتنا بلفظك، واكتظم «3» بادرنا بحلمك، وألن لنا كنفك «4» يسلس لك قيادنا،

فإنّا أناس لم يوقس «5» صفاتنا قراع مناقير من أراد لنا قضمًا، ولكن منعنا حمانا من كل من رام لنا

هضما.

ثم قام الحارث بن ظالم المرّي فقال: إنّ من آفة المنطق الكذب، ومن لؤم الأخلاق الملق «6»، ومن خطل الرأي خفة الملك المسلّط، فإن أعلمناك أن مواجعتنا لك عن ائتلاف، وانقيادنا لك عن تصاف، ما أنت لقبول ذلك منا بخلق، ولا للاعتماد عليه بحقيق، ولكن الوفاء بالعهود، وإحكام ولث العقود، والأمر بيننا وبينك معتدل، ما لم يأت من قبلك ميل أو زلل.

قال كسرى: من أنت؟

قال: الحارث بن ظالم.

قال: إن في أسماء آبائك لدليلا على قلة وفائك، وأن تكون أولى بالعدر، وأقرب من الوزر.

(286/1)

قال الحارث: إنّ في الحق مغضبة، والسرو التغافل «1»

، ولن يستوجب أحد الحلم إلا مع القدرة، فلتشبه أفعالك مجلسك.

قال كسرى: هذا فتى القوم.

ثم قال كسرى: قد فهمت ما نطقت به خطباؤكم، وتفنّن فيه متكلموكم ولولا أي أعلم أن الأدب لم يثقف أودكم، ولم يحكم أمركم، وأنه ليس لكم ملك يجمعكم فتتطقون عنده منطق الرعية الخاضعة الباخعة، فنطقتم بما استولى على ألسنتكم، وغلب على طباعكم، لم أجز لكم كثيرا مما تكلمتم به. وإني لأكره أن أجبّه «2»

وفودي أو أحق صدورهم، والذي أحبّ هو إصلاح مدبركم، وتألّف شواذكم، والإعذار إلى الله فيما بيني وبينكم؛ وقد قبلت ما كان في منطقتكم من صواب. وصفحتم عما كان فيه من خلل؛ فانصرفوا إلى ملككم فأحسنوا مؤازرته والتزموا طاعته، واردعوا سفهاءكم وأقيموا أودهم، وأحسنوا أدبهم، فإن في ذلك صلاح العامة.

وفود حاجب بن زرارة على كسرى

العيني عن أبيه: أن حاجب بن زرارة وفد على كسرى لما منع تقيما من ريف العراق، فاستأذن عليه، فأوصل إليه فقال: أسيّد العرب أنت؟ قال: لا. قال: فسيّد مصر؟ قال: لا. قال: فسيّد بني أبيك أنت؟ قال: لا. ثم أذن له فدخل عليه. قال:

من أنت؟ قال: سيد العرب! قال: أليس قد أوصلت إليك: أسيّد العرب أنت؟

فقلت: لا، حتى اقتصرت بك على بني أبيك، فقلت: لا؟ قال له: أيها الملك، لم أكن كذلك حتى دخلت عليك، فلما دخلت عليك صرت سيد العرب. قال كسرى:

زه «3»

! املنوا فاه درًا. ثم قال: إنكم معشر العرب غدر، فإن أذنت لكم أفسدتم البلاد، وأغرتم على العباد، وأذيتموني. قال حاجب: فإني ضامن للملك ألا يفعلوا.

(287/1)

قال: فمن لي بأن تفي أنت؟ قال: أرهنيك قوسي. فلما جاء بما ضحك من حوله وقالوا: هذه العصا يفي! قال كسرى: ما كان ليسلمها لشيء أبدا. فقبصها منه، وأذن لهم أن يدخلوا الريف. ومات حاجب بن زرارة، فارتحل عطارد بن حاجب إلى كسرى يطلب قوس أبيه؛ فقال له: ما أنت الذي رهنتها! قال: أجل. قال: فما فعل؟ قال: هلك، وهو أبي، وقد وفي له قومه ووفى هو للملك. فردّها عليه وكساه حلة.

فلما وفد إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عطارد بن حاجب، وهو رئيس تميم، وأسلم على يديه، أهداها للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلم يقبلها؛ فباعها من رجل من اليهود بأربعة آلاف درهم. ثم إن مضر أتت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالوا: يا رسول الله، هلك قومك وأكلتهم الضبع. يريدون الجوع- والعرب يسمون السنة الضبع والذئب. قال جرير:

من ساقه السنة الحصاء والذئب «1»

فدعا لهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأحيوا، وقد كان دعا عليهم فقال: اللهم اشدد وطأتك على مضر، وابعث عليهم سنين كسني يوسف.

وفود أبي سفيان إلى كسرى

الأصمعي قال: حدثنا عبد الله بن دينار عن عبد الله بن بكر المري، قال: قال أبو سفيان: أهديت لكسرى خيلا وأدما، فقبل الخيل وردّ الأدم، وأدخلت عليه فكأن وجهه وجهان من عظمه، فألقى إليّ محدة كانت عنده، فقلت: واجوعاه! أهذه حظّي من كسري بن هرمز؟ قال: فخرجت من عنده، فما أمرّ على أحد من حشمه إلا أعظمها، حتى دفعت إلى خازن له: فأخذها وأعطاني ثمانمائة إناء من فضة وذهب.

قال الأصمعي؛ فحدثت بهذا الحديث التوشحان الفارسي، فقال: كانت وظيفة المخدّة ألفا، إلا أن الخازن اقتطع منها مائتين.

(288/1)

وفود حسان بن ثابت على النعمان بن المنذر

قال: وفد حسان بن ثابت على النعمان بن المنذر، قال: فلقيت رجلا ببعض الطريق، فقال لي: أين تريد؟ قلت: هذا الملك. قال: فإنك إذا جنته متروك شهرا، ثم تترك شهرا آخر، ثم عسى أن يأذن لك؛ فإن أنت خلوت به وأعجبته فأنت مصيب منه خيرا، وإن رأيت أبا أمامة النابغة فاطعن «1»؛ فإنه لا شيء لك! قال:

فقدمت عليه، ففعل بي ما قال، ثم خلوت به وأصبت مالا كثيرا ونادمته فبينما أنا معه إذا رجل يرتجز حول القبة ويقول:

أنام أم يسمع ربّ القبة ... يا أوهب الناس لعنس صلبه «2»

ضراية بالمشفر الأذبه ... ذات هيات في يديها جذبه «3»

فقال النعمان: أبو أمامة، ائذنوا له فدخل فحيّاه وشرب معه، ووردت التعم السود. ولم يكن لأحد من العرب بعير أسود غيره ولا يفتحل أحد فحلا أسود.

فاستأذنه النابغة في الإنشاد، فأذن له، فأنشده قصيدته التي يقول فيها:

فإنك شمس والملوك كواكب ... إذا طلعت لم يبد منهنّ كوكب

فأمر له بمائة ناقة من الإبل السود برعاتها؛ فما حسدت أحدا قط حسدي له في شعره وجزير عطائه.

وفود قريش على سيف بن ذي يزن بعد قتله الحبشة

نعيم بن حمّاد قال: أخبرنا عبد الله بن المبارك، عن سفيان الثوري، قال: قال ابن عباس: لما ظفر

سيف بن ذي يزن بالحبشة، وذلك بعد مولد النبي صلّى الله عليه وسلّم، أتته وفود العرب وأشرفها

وشعراؤها تمنّئه وتمدحه وتذكر ما كان من بلائه وطلبه بثأر قومه،

(289/1)

فأتاه وفد قريش، فيهم: عبد المطلب بن هاشم، وأمّية بن عبد شمس، وأسد بن عبد العزى، وعبد الله بن جدعان، فقدموا عليه وهو في قصر له يقال له غمدان، وله يقول أبو الصلت، والد أمّية ابن أبي الصلت:

لم يدرك الثأر أمثال ابن ذي يزن ... لجح في البحر للأعداء أحوالا «1»

أتى هرقل وقد شالت نعمته ... فلم يجد عنده القول الذي قال «2»

ثم انثنى نحو كسرى بعد تاسعة ... من السنين لقد أبعدت إيغالا

حتى أتى ببني الأحرار يقدمهم ... إنك عمري لقد أسرعت إرقالا «3»

من مثل كسرى وبهرام الجنود له ... ومثل وهرز يوم الجيش إذ جالا

لله درهم من عصبه خرجوا ... ما إن رأينا لهم في الناس أمثالا

صيدا جحاحجة، بيضا خصارمة ... أسدا تربب في الغابات أشبالا «4»

أرسلت أسدا على سود الكلاب فقد ... غادرت أوجههم في الأرض أفلالا

اشرب هنيئا عليك التاج مرتفقا ... في رأس غمدان دارا منك محلالا

ثم اطل بالمسك إذ شالت نعمتهم ... وأسبل اليوم في بريدك إسبالا «6»

تلك المكارم لا قعبان من لبن ... شيبا بماء فعادا بعد أبوالا «7»

فطلبوا الإذن عليه، فأذن لهم، فدخلوا، فوجدوه متضمخا بالعنبر، يلمع ويص المسك في مفرق

رأسه، وعليه بردان أخضران قد ائترز بأحدهما وارتردى بالآخر، وسيفه بين يديه، والملوك عن يمينه

وشماله، وأبناء الملوك والمقاول.

فدنا عبد المطلب فاستأذنه في الكلام، فقال له: قل. فقال: إن الله تعالى أيها

(290/1)

الملك أحلك محلا رفيعا صعبا منيعا، باذخا «1»

شامخا؛ وأنتك منبتا طابت أرومته، وعزت جرثومته «2»

، ونبل أصله، وبسق فرعه، في أكرم معدن، وأطيب موطن؛ فأنت أبيت اللعن رأس العرب، وربيعها

الذي به تخصب، وملكها الذي به تنقاد، وعمودها الذي عليه العماد، ومعقلها الذي إليه يلجأ

العباد، سلفك خير سلف، وأنت لنا بعدهم خير خلف، ولن يهلك من أنت خلفه، ولن يخمل من

أنت سلفه. نحن أيها الملك أهل حرم الله وذمته وسدنة «3»

بيته، أشخصنا إليك الذي أنهجك لكشف الكرب الذي فدحنا، فنحن وفد التهنة لا وفود المرزنة.
قال: من أنت أيها المتكلم.

قال: أنا عبد المطلب بن هاشم.

قال: ابن أختنا؟ قال: نعم. فأدناه وقربه؛ ثم أقبل عليه وعلى القوم وقال: مرحبا وأهلا، وناقاة ورحلا،
ومستناخا سهلا، وملكا رجلا «4»

، يعطي عطاء جزلا.

فذهبت مثلا.

وكان أول ما تكلم به قد سمع الملك مقاتلكم، وعرف قرابتكم، وقبل وسيلتكم فأهل الشرف والنباهة
أنتم، ولكم القربى ما أقمتم، والحباء إذا طعنتم.

قال: ثم استنهضوا إلى دار الضيافة والوفود، وأجريت عليهم الأنزال. فأقاموا ببابه شهرا لا يصلون
إليه ولا يأذن لهم في الانصراف. ثم انتبه إليهم انتباهة، فدعا بعبد المطلب من بينهم، فخلا به وأدنى
مجلسه، وقال: يا عبد المطلب، إني مفوض إليك من سرّ علمي أمرا غيرك كان لم أبح له به، ولكنتي
رأيتك موضعه فأطلعتك عليه؛ فليكن مصونا حتى يأذن الله فيه؛ فإنّ الله بالغ أمره: إني أجد في العلم
المخزون؛ والكتاب المكنون الذي ادخرناه لأنفسنا، واحتجبناه دون غيرنا، خبرا

(291/1)

عظيما، وخطرا جسيما، فيه شرف الحياة، وفضيلة الوفاة، للناس كافة، ولرهطك عامة، ولنفسك
خاصة.

قال عبد المطلب: مثلك أيها الملك من برّ وسرّ وبشرّ، ما هو؟ فذاك أهل الوبر، زمرا بعد زمر.

قال ابن ذي يزن: إذا ولد مولود بتهامة، بين كنفه شامة، كانت له الإمامة، إلى يوم القيامة.

قال عبد المطلب: أبيت اللعن، لقد أبت بخير ما آب به أحد؛ فلولا إجلال الملك لسألته أن يزيدني
في البشارة ما أزداد به سرورا.

قال ابن ذي يزن: هذا حينه الذي يولد فيه أو قد ولد، يموت أبوه وأمه، ويكفله جدّه وعمه؛ قد
وجدناه مرارا، والله باعته جهارا، وجاعل له منّا أنصارا، يعزّ بهم أوليائه، ويذلّ بهم أعداءه، ويفتتح

كرائم الأرض، ويضرب بهم الناس عن عرض «1»

؛ يحمد التيران، ويكسر الأوثان، ويعبد الرحمن، قوله حكم وفصل؛ وأمره حزم وعدل، يأمر بالمعروف

ويفعله، وينهى عن المنكر ويبطله.

فقال عبد المطلب: طال عمرك، ودام ملكك، وعلا جدك، وعز فخرك؛ فهل الملك يسرني بأن يوضح فيه بعض الإيضاح؟

فقال ابن ذي يزن: والبيت ذي الطنب، والعلامات والتصب، إنك يا عبد المطلب، لجده من غير كذب. فخرّ عبد المطلب ساجدا.

قال ابن ذي يزن: ارفع رأسك؛ ثلج صدرك، وعلا أمرك؛ فهل أحسست شيئا مما ذكرت لك؟ قال عبد المطلب: أيها الملك، كان لي ابن كنت له محبا، وعليه حدبا مشفقا،

(292/1)

فزوجته كريمة من كرائم قومه، يقال لها آمنة بنت وهب بن عبد مناف، فجاءت بغلام بين كتفيه شامة، فيه كل ما ذكرت من علامة؛ مات أبوه وأمه وكفلته أنا وعمّه.

قال ابن ذي يزن: إن الذي قلت لك كما قلت، فاحفظ ابنك واحذر عليه اليهود؛ فإنهم له أعداء، ولن يجعل الله لهم سبيلا، اطو ما ذكرت لك، دون هؤلاء الرهط الذين معك، فإني لست آمن أن تدخلهم التفاسية، من أن تكون لكم الرئاسة، فيبغون له الغوائل، وينصبون له الحبال، وهم فاعلون وأبناؤهم. ولولا أي أعلم أن الموت مجتاحي قبل مبعثه، لسرت بخيلي ورجلي حتى أصير بيثرب دار مهاجرة؛ فإني أجد في الكتاب الناطق، والعلم السابق، أن يثرب دار هجرته، وبيت نصرته؛ ولولا أي أتوقى عليه الآفات، وأحذر عليه العاهات، لأعلنت على حداثة سنّه أمره، وأوطأت أقدام العرب عقبه؛ ولكني صارف إليك ذلك عن غير تقصير مني بمن معك.

ثم أمر لكل رجل منهم بعشرة أعبد، وعشر إماء سود، وخمسة أرطال فضة، وحلّتين من حلال اليمن، وكرش «1»

مملوءة عنبرا، وأمر لعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك، وقال: إذا حال الحول فأنبئني بما يكون من أمره.

فما حال الحول حتى مات ابن ذي يزن، فكان عبد المطلب بن هشام يقول: يا معشر قريش، لا يغبطني رجل منكم بجزيل عطاء الملك فإنه إلى نفاذ، ولكن يغبطني بما يبقى لي ذكره وفخره العقبي. فإذا قالوا له: وما ذاك؟ قال: سيظهر بعد حين.

وفود عبد المسيح على سطيح

جرير بن حازم عن عكرمة عن ابن عباس، قال: لما كان ليلة ولد النبي صلى الله عليه وسلم، ارتج إيوان كسرى، فسقطت منه أربع عشرة شرفة؛ فعظم ذلك على أهل مملكته،

(293/1)

فما كان أوشك أن كتب إليه صاحب اليمن يخبره أن بحيرة ساوة غاضت تلك الليلة، وكتب إليه صاحب السماوة يخبره أن وادي السماوة انقطع تلك الليلة، وكتب إليه صاحب طبرية أن الماء لم يجر تلك الليلة في بحيرة طبرية؛ وكتب إليه صاحب فارس يخبره أن بيوت النيران خمدت تلك الليلة، ولم تخمد قبل ذلك بألف سنة.

فلما تواترت الكتب أبرز سريره وظهر لأهل مملكته، فأخبرهم الخبر؛ فقال المويزان «1»
: أيها الملك، إني رأيت تلك الليلة رؤيا هالتي. قال له: وما رأيت؟ قال:

رأيت إبلا صعبا، تقود خيلا عرابا، قد اقتحمت دجلة، وانتشرت في بلادنا. قال:

رأيت عظيما، فما عندك في تأويلها؟ قال: ما عندي فيها ولا في تأويلها شيء، أرسل إلى عاملك بالبحيرة، يوجه إليك رجلا من علمائهم، فإنهم أصحاب علم بالحدثان.

فبعث إليه عبد المسيح بن نفيلة الغساني: فلما قدم عليه أخبره كسري الخبر. فقال له:

أيها الملك. والله ما عندي فيها ولا في تأويلها شيء ولكن جهّزني إلى خال لي بالشام، يقال له

سطيح، قال: جهّزه. فلما قدم على سطيح وجده قد احتضر؛ فناداه فلم يجبه، وكلمه فلم يردّ عليه، فقال عبد المسيح:

أصمّ أم يسمع غطريف اليمن ... يا فاضل الخطّة أعيت من ومن «2»

أتاك شيخ الحيّ من آل سنن ... أبيض فضفاض الرداء والبدن

رسول قيل العجم يهوي للوثن ... لا يرهب الوعد ولا ريب الزّمن «3»

فرفع إليه رأسه، وقال: عبد المسيح، على جمل مشيح، إلى سطيح، وقد أوفى على الضريح؛ بعثك

ملك بني ساسان، لارتجاج الإيوان، وخمود النيران، ورؤيا المويزان؛ رأى إبلا صعبا، تقود خيلا عرابا.

قد اقتحمت في الواد، وانتشرت في البلاد يا عبد المسيح، إذا ظهرت التّلاوة، وفاض وادي

السّماوة، وغاضت بحيرة ساوة وظهر صاحب الهراوة، وخمدت نار فارس، فليست بابل للفرس مقاما،

ولا الشام

(294/1)

لسطيح شاما. يملك منهم ملوك وملكات، عدد سقوط الشرفات، وكل ما هو آت آت. ثم قال:
إن كان ملك بني ساسان أفرطهم ... فإنّ ذا الدّهر أطوار دهاير «1»
منهم بنو الصرح بهرام وإخوته ... والمهرمان وسابور وسابور
فربّما أصبحوا منهم بمنزلة ... يهاب صوهم الأسد المهاصير «2»
حتّوا المطيّ وجدّوا في رحاهم ... فما يقوم لهم سرح ولا كور «3»
والناس أولاد علات فمن علموا ... أن قد أقلّ فمحقور ومهجور
والخير والشرّ مقرونان في قرن ... فالخير متّبِع والشرّ محذور «4»
ثم أتى كسرى فأخبره، فغمه ذلك. ثم تعزّى فقال: إلى أن يملك منا أربعة عشر ملكا يدور الزمان.
فهلكوا كلهم في أربعين سنة.

وفود همدان على النبي صلّى الله عليه وسلّم
قدم مالك بن نمط في وفد همدان على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فلقوه مقبلا من تبوك، فقال
مالك بن نمط: يا رسول الله نصيّة «5»
من همدان، من كل حاضر وباد، أتوك على قلص نواج، متصلة بجبائل الإسلام، لا تأخذهم في الله
لومة لائم، من مخالاف خارف ويام وشاكر، عهدهم لا ينقض، عن سنّة ماحل «6»
ولا سوداء عنقفير «7»
، ما أقامت لعلع، وما جرى اليعفور بصلّع «8» .

(295/1)

فكتب إليهم النبي صلّى الله عليه وسلّم: هذا كتاب من محمد رسول الله إلى مخالاف خارف، وأهل
جناب الهضب، وجفاف الرمل، مع وفدها ذي المشعار مالك بن نمط ومن أسلم من قومه، أن لهم
فراعها ووهاطها وعزازها، ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، يأكلون علافها، ويرعون عفاها، لنا من
دفتهم وصرامهم ما سلموا بالميثاق والأمانة، وهم من الصدقة التلب «1»
والناب والفصيل والفاراض الداجن والكبش الحوري؛ وعليهم الصالغ «2» والقارح.
وفود النخع على النبي صلّى الله عليه وسلم
قدم أبو عمرو التخي على النبي صلّى الله عليه وسلّم فقال: يا رسول الله، إني رأيت في طريقي هذه

رؤيا، رأيت أتنا تركتها في الحيّ ولدت جديا أسفع أحوى «3». فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل لك من أمة تركتها مصرّة «4» حملا؟ قال: نعم، تركت أمة لي أظنها قد حملت؟ قال: فقد ولدت غلاما وهو ابنك. قال: فما باله أسفع أحوى؟ قال: ادن منّي. فدنا منه؛ فقال: هل بك برص تكتمه؟ قال نعم، والذي بعثك بالحق ما رآه مخلوق ولا علم به. قال: فهو ذلك. قال: ورأيت التّعمان بن المنذر عليه قرطان ودملجان ومسكتان. قال: ذلك ملك العرب عاد إلى أفضل زيّه وبهجته. قال: ورأيت عجوزا شمطاء تخرج من الأرض قال: تلك بقيّة الدنيا. قال: ورأيت نارا خرجت من الأرض فحالت بيني وبين ابن لي يقال له عمرو، ورأيتها تقول: لظى لظى! بصير وأعمى! أطمعوني! آكلكم آكلكم! أهلككم ومالككم. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: تلك فتنة في آخر الزمان. قال: وما الفتنة يا رسول الله؟ قال: يقتل الناس إمامهم ثم

(296/1)

يشتجرون «1» اشتجار أطباق الرأس - وخالف رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصابعه - يحسب المسيء أنه محسن، ودم المؤمن عند المؤمن أحلى من شرب الماء. وفود كلب على النبي صلى الله عليه وسلم قدم قطن بن حارثة العليمي في وفد كلب على النبي صلى الله عليه وسلم، فذكر كلاما، فكتب له رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا نسخته: هذا كتاب من محمد رسول الله لعمانر كلب وأحلافها، ومن ظاره «2» الإسلام من غيرها، مع قطن بن حارثة العليمي، بإقامة الصلاة لوقتها، وإيتاء الزكاة لحقها، في شدة عقدها، ووفاء عهدتها، بمحضر شهود من المسلمين: سعد بن عبادة، وعبد الله ابن أنيس، ودحية بن خليفة الكلبي، عليهم في الهمولة الراعية البساط الطّوار «3»، في كلّ خمسين ناقة غير ذات عوار «4»، والحمولة الماترة لهم لاغية، وفي الشّويّ الوريّ «5» مسنة حامل أو حائل، وفيما سقى الجدول من العين المعين العشر من ثمرها مما أخرجت أرضها، وفي العدى «6» شطره بقيمة الأمين، فلا تزداد عليهم وظيفة ولا يفرّق. يشهد الله تعالى على ذلك ورسوله. وكتب ثابت بن قيس بن شماس. وفود ثقيف على النبي صلى الله عليه وسلم

وفدت تقيف على النبي صلى الله عليه وسلم، فكتب لهم كتابا حين أسلموا: أن لهم ذمة الله، وأن واديهم حرام، عضاهه «7» وصيده وظلم فيه، وأن ما كان لهم من دين إلى أجل فبلغ

(297/1)

أجله فإنه لباط «1» مبراً من الله ورسوله، وأن ما كان لهم من دين ومن رهن وراء عكاظ، فإنه يقضى إلى رأسه ويلاط بعكاظ ولا يؤخر.

وفود مذحج على النبي صلى الله عليه وسلم

وفد ظبيان بن حداد في سراة مذحج على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال بعد السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، والثناء على الله عز وجل بما هو أهله.

الحمد لله الذي صدع الأرض بالنبات، وفتق السماء بالرجع»

. ثم قال: نحن قوم من سراة مذحج من يحابر بن مالك. ثم قال: فتوقلت «3» بنا القلاص؛ من أعالي الحوف ورءوس الهضاب، ترفعها عر «4» الربا وتخفضها بطنان الرقاق، وتلحقها دياجي الدجي. ثم قال: وسروات الطائف كانت لبني مهلائيل بن قينان: غرسوا وديانه وذلّلوا خشانه، ورعوا قربانه. ثم ذكر نوحا حين خرج من السفينة بمن معه، قال فكان أكثر بنيه نباتا. وأسرعهم نباتا، عاد وثمرود، فرماهم الله بالدمالق «5»، وأهلكهم بالصواعق. ثم قال: وكانت بنو هانيء من ثمود تسكن الطائف، وهم الذين خطوا مشاربها، وأتوا جداولها، وأحيوا غراسها، ورفعوا عريشها. ثم قال: وإن حمير ملكوا معاقل الأرض وقرارها، وكهول الناس وأعمارها، ورءوس الملوك وقرارها، فكان لهم البيضاء والسوداء، وفارس الحمراء، والجزية الصفراء؛ فبطروا النعم، واستحقوا النقم، فضرب الله بعضهم ببعض. ثم قال: وإن قبائل من الأزد نزلوا على عهد عمرو بن عامر، ففتحو فيها الشرائع، وبنوا فيها المصانع، واتخذوا الدسائع «6»؛ ثم ترامت مذحج بأستنها، وتنزّت بأعنتها: فغلب العزيز أذلها، وقتل

(298/1)

الكثير أقلها. ثم قال: وكان بنو عمرو بن جذيمة يخبطون عضيدها «1»، ويأكلون حصيدها، ويرشحون خضيدها «2».

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم. إن نعيم الدنيا أقل وأصغر عند الله من خراء بعيضة، ولو

عدلت عند الله جناح ذباب لم يكن لكافر منها خلاق، ولا لمسلم منها لحاق.

وفود لقيط بن عامر بن المنتفق على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وفد لقيط بن عامر بن المنتفق على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومعه صاحب له يقال له نهيك بن

عاصم بن مالك بن المنتفق.

قال لقيط: فخرجت أنا وصاحبي حتى قدمنا المدينة لانسلاخ رجب، فأتينا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ

وسلّم، فوافيناه حين انصرف من صلاة الغداة، فقام في الناس خطيبا، فقال: أيها الناس، ألا إني قد

خبأت لكم صوتي منذ أربعة أيام، لتسمعوا الآن، ألا فهل من امريء قد بعثه قومه؟ - فقالوا: اعلم

لنا ما يقول رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ألا، ثم لعله أن يلهيه حديث نفسه أو حديث صاحبه

أو يلهيه ضالّ، ألا وإني مسئول هل بلغت، ألا اسمعوا ألا اجلسوا.

فجلس الناس وقمت أنا وصاحبي، حتى إذا فرغ لنا فؤاده وبصره، قلت: يا رسول الله، ما عندك من

علم الغيب؟ فضحك لعمر الله وهزّ رأسه، وعلم أيّ أتبعني سقطه؛ فقال: ضنّ ربك بمفاتيح خمس من

الغيب لا يعلمهن إلا الله - وأشار بيده - قلت: وما هي؟ قال: علم المنية، قد علم متى منية أحدكم

ولا تعلمونه؛ وعلم ما في غد وما أنت طاعم غدا، ولا تعلمه، وعلم المنيّ حين يكون في الرحم، قد

علمه ولا

(299/1)

تعلمونه؛ وعلم الغيب، يشرف عليكم آزين مستنين «1» فيظلّ يضحك، قد علم أن عونكم قريب.

قال لقيط: قالت: لن نعدم من رب يضحك خيرا.

وعلم يوم الساعة. قلت: يا رسول الله، إني سألتك عن حاجتي فلا تعجلني.

قال: سل عما شئت.

قال: قلت: يا رسول الله، علمنا مما لا يعلم الناس ومما تعلم؛ فإننا من قبيل لا يصدّقون تصديقنا

أحدا؛ من مذحج التي تدنو إلينا، وختعم التي توالينا، وعشيرتنا التي نحن منها.

قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: تلبثون ما لبثتم، ثم يتوقّى نبيكم ثم تلبثون حتى تبعث الصيحة،

فلعمر إلهك ما تدع على ظهرها من شيء إلا مات، والملائكة الذين عند ربك؛ فيصبح ربك يطوف

في الأرض وقد خلت عليه البلاد، فيرسل ربك السماء بهضب «2» من عند العرش، فلعمر إلهك ما

تدع على ظهرها من مصرع قتيل، ولا مدفن ميّت، إلا شقّت القبر عنه حتى تخلقه من قبل رأسه

فيستوي جالسا، ثم يقول ربك: مهيم «3» - لما كان فيه - فيقول: يا رب، أمس! اليوم! والعهد
بالحياة يحسبه حديث عهد بأهله.

فقلت: يا رسول الله، كيف يجمعنا بعد ما تفرقنا الرياح والبلبل والسباع؟
قال: أبنك بمثل ذلك في إلّ «4» الله، أشرفت على الأرض وهي مدرة «5» يابسة فقلت: لا تحيا
هذه أبدا، ثم ارسل ربك عليها السماء فلم تلبث إلا أياما حتى أشرفت

(300/1)

عليها وهي شربة واحدة «1» ، ولعمر إلهك هو أقدر على أن يجمعكم من الماء على أن يجمع نبات
الأرض، فتخرجون من الأصواء - قال ابن إسحاق: الأصواء أعلام القبور - ومن مصارعكم،
فتنظرون إليه وينظر إليكم.

قال: قلت: يا رسول الله، وكيف، نحن ملء الأرض وهو شخص واحد ننظر إليه وينظر إلينا؟
قال: أبنك بمثل ذلك في إلّ الله: الشمس والقمر آية منه صغيرة تروغها ويريانكم ساعة واحدة،
ولعمر إلهك هو أقدر على أن يراكم وتروه من أن تروهما ويرياكم، لا تضارون في رؤيتهما.

قال: قلت: يا رسول الله، فما يفعل بنا ربنا إذا لقيناه؟

قال: تعرضون عليه بادية له صفحاتكم لا يخفي عليه منكم خافية، فيأخذ ربك بيده غرفة من الماء،
فينضح بها قبلكم، فلعمر إلهك ما تخطيء وجه أحدكم منها قطرة. فأما المسلم فتدع وجهه مثل
الريطة «2» البيضاء، وأما الكافر فتخطمه «3» بمثل الحمم «4» الأسود. ثم ينصرف نبيكم ويتفرق
على أثره الصالحون. قال: فتسلكون جسرا من النار، فيطأ أحدكم الجمر يقول: حس! يقول ربك: أو
إنه؟ فتطّلون على حوض الرسول لا يظمأ والله ناهله، فلعمر إلهك ما يبسط أحد منكم يده إلا
وضع عليها قدح يطهره من الطّوف «5» والبول والأذى، وتحبس الشمس والقمر ولا ترون منهما
واحدا.

قال: قلت: يا رسول الله، فبم نصبر يومئذ؟

(301/1)

قال: بمثل بصرک ساعتک هذه؛ وذلك قبل طلوع الشمس في يوم أشرقته الأرض وواجهته الجبال.

قال: قلت: يا رسول الله، فبم نجزي من سيئاتنا وحسناتنا؟

قال: الحسنه بعشر أمثالها، والسيئة بمثلها، إلا أن يعفو.

قال: قلت: يا رسول الله، فلما الجنة وما النار؟

قال: لعمر إلهك إنَّ للنار لسبعة أبواب، ما منها بابان إلا يسير الراكب بينهما سبعين عاما. وإن

للجنة لثمانية أبواب، ما منها بابان إلا يسير الراكب بينهما سبعين عاما.

قال: قلت: يا رسول الله، فعلام نطلع من الجنة؟

قال: على أكمة من عسل مصقى، وأنهار من كأس ما بها من صداع ولا ندامة وأنهار من لبن لم يتغير

طعمه، وماء غير آسن وفاكهة لعمر إلهك ما تعلمون، وخير من مثله معه، وأزواج مطهرة.

قال: قلت: يا رسول الله، أو لنا فيها أزواج؟ أو منهن صالحات؟

قال: الصالحات لل صالحين، تلذون بهن مثل لذاتكم في الدنيا، ويلذذن بكم، غير أن لا توالد.

قال لقيط: قلت: أقصى ما نحن بالغون ومنتھون إليه، فلم يجبه النبي صلى الله عليه وسلم.

قال: قلت: يا رسول الله، علام أبيعك؟ قال: فبسط إلي يده وقال: على إقامة الصلاة، وإيتاء

الزكاة، وزيال الشرك «1»، وألا تشرك بالله إله غيره.

قال: فقلت: وإن لنا ما بين المشرق والمغرب؟

فقبض صلى الله عليه وسلم يده وظن أني مشترط شيئا لا يعطينيه.

قال: قلت لخل منها حيث شئنا، ولا يجزي عن امرئ إلا نفسه؟ فبسط إلي يده

(302/1)

وقال: ذلك لك: حلّ حيث شئت، ولا يجزي عنك إلا نفسك. قال: فانصرفنا عنه.

وفود قبيلة على النبي صلى الله عليه وسلم

خرجت قبيلة بنت مخزومة التميمية تبغي الصّحبة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان عمّ بناقما،

وهو أثوب بن أزهري، قد انتزع منها بناقما، فبكت جويرية منهن حديباء قد أخذتها الفرصة «1»،

عليها سبيح من صوف، فرحمتها فذهبت بها. فبينما هما تتركان «2» الجمل إذ انتفخت منه الأرنب؛

فقال الثعلب: الفصية. والله لا يزال كعبك أعلى من كعب أثوب. ثم سرح الثعلب، فسّمته اسما

غير الثعلب نسيه ناقل الحديث. ثم قالت فيه مثل ما قالت في الأرنب، فبينما هما تتركان الجمل إذ

برك الحمل وأخذته رعدة. فقالت الحديباء: أخذتك والأمانة إخذة أثوب. قالت قبيلة: فقلت لها: فما أصنع، ويحك! قالت: قلبي ثيابك ظهورها لبطونها، وأدحرجي ظهرك لبطنك، وقلبي أحلاس «3» جملك. ثم خلعت سبيجها فقلبت، ثم ادحرجت ظهرها لبطنها، فلما فعلت ما أمرتني به انتفض الحمل، ثم قام فأنج «4» وبال، فقالت: أعيدي عليه أداتك. ففعلت، ثم خرجنا نرتك، فإذا أثوب يسعى وراءنا بالسيف صلتا، فوألنا إلى حواء ضخم فداراه، حتى ألقى الحمل إلى رواقه الأوسط، وكان جملا ذلولا، واقتحمت داخله وأدركني بالسيف، فأصابت ظبته طائفة من قرون رأسه؛ ثم قال: ألقى إلي ابنة أخي يادفار «5». فألقبتها إليه. فجعلها على منكبه وذهب بها. وكنت أعلم به من أهل البيت، وخرجت إلى أخت لي ناكح في بني شيبان أبتغي الصحبة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فينما أنا عندها تحسب أي نائمة، إذ جاء زوجها من السامر، فقال لها: وأبيك لقد وجدت لقيلة صاحب صدق. قالت أختي: من هو؟

(303/1)

قال: حريث بن حسان الشيباني، وافد بكر بن وائل عاويا ذا صياح. فقالت أختي: الويل لي، لا تخبرها فتتبع أبا بكر بن وائل بين سمع الأرض وبصرها، ليس معها أحد من قومها. قال: لا ذكرته.

قالت: وسمعت ما قالوا: فغدون إلى جملي فشددت عليه، ثم نشدت عنه فوجدته غير بعيد. فسألته الصحبة فقال: نعم وكرامة، وركابه مناخة عنده.

قالت: فسرت معه صاحب صدق؛ حتى قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي بالناس صلاة الغداة: قد أقيمت حين شق الفجر، والنجوم شابكة في السماء، والرجال لا تكاد تعارف من ظلمة الليل؛ فصففت مع الرجال؛ وأنا امرأة قريبة عهد بجاهلية؛ فقال الرجل الذي يليني من الصف: امرأة أنت أم رجل؟ فقلت: لا بل امرأة. فقال: إنك كدت تفتنني، فصلي في النساء وراءك. فإذا صف من نساء قد حدث عند الحجرات لم أكن رأيته إذ دخلت؛ فكنت فيهن؛ حتى إذا طلعت الشمس دنوت؛ فجعلت إذا رأيت رجلا ذا رواء وذا قشر «1» طمح إليه بصري لأرى رسول الله فوق الناس، حتى جاء رجل؛ فقال: السلام عليك يا رسول الله. فقال: وعليك السلام ورحمة الله. وعليه تعني النبي صلى الله عليه وسلم - أسما ملتين، كانتا مزعفرتين وقد نفضتا؛ ومعه عسيب نخلة مقشوّ «2» غير خوصتين من أعلاه: وهو قاعد

القرفصاء. فلما رأيت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متخشعا في الجلسة أرعدت من الفرق، فقال جليسه: يا رسول الله، أرعدت المسكينة. فقال رسول الله، ولم ينظر إلي وأنا عند ظهره: يا مسكينة، عليك السكينة.

قالت: فلما قالها صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أذهب الله ما كان دخل في قلبي من الرعب. وتقدم صاحبي أول رجل فبايعه على الإسلام عليه وعلى قومه، ثم قال: يا رسول الله، اكتب بيننا وبين تميم كتابا بالدهناء لا يجاوزها إلينا منهم إلا مسافر أو مجاوز.

(304/1)

قال: يا غلام، اكتب له بالدهناء.

قالت: فلما رأيت أمر بأن يكتب له؛ شخص بي. وهي وطني وداري؛ فقلت: يا رسول الله؛ إنه لم يسألك السوية من الأرض إذ سألك؛ إنما هذه الدهناء مقيد الجمل ومرعى الغنم؛ ونساء بني تميم وأبناؤها وراء ذلك. فقال: أمسك يا غلام، صدقت المسكينة المسلم أخو المسلم، يسعهما الماء والشجر. ويتعاونان على الفتان «1» .

فلما رأى حريث أن قد حيل دون كتابه، قال كنت أنا وأنت كما قال في المثل:

حتفها تحمل ضأن بأظلافها! فقلت: أما والله ما علمت إن كنت لدليلا في الظلماء، جوادا لدى الرحل، عفيفا عن الرفيقة حتى قدمنا على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولكن لا تلمني أن أسأل حظي إذ سألت حظك. قال: وأي حظ لك في الدهناء لا أبالك.

قلت مقيد جملي تريده لجمل امرأتك! فقال: لا جرم إني أشهد رسول الله أني لك أخ ما حييت؛ إذ أثبت عليّ عنده. فقلت: أما إذ بدأتها فلن أضيعها.

فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أيلام ابن هذه أن يفصل الخطئة، وينتصر من وراء الحجرة. فبكيت ثم قلت: فقد والله ولدته يا رسول الله حراما، فقاتل معك يوم الريدة، ثم ذهب يمتري من خير، فأصابته حماتها فمات فقال: لو لم تكوني مسكينة لجررناك على وجهك. أيغلب أحميدكم على أن يصاحب صويحبه في الدنيا معروفا، فإذا حال بينه وبينه من هو أولى به استرجع ثم قال: رب آسني لما أمضيت، وأعني على ما أبقيت. فو الذي نفس محمد بيده إن أحدكم لبيكي فيستعبر له صويحبه؛ فيا عباد الله لا تعذبوا إخوانكم ثم كتب لها في قطعة آدم أحمر: لقليلة والنسوة من بنات قبيلة يظلمن حقًا، ولا يكرهن على منكح، وكل مؤمن مسلم لمن نصير أحسن ولا تسئن.

(305/1)

كتاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأَكِيدِر دومة
من محمد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأَكِيدِر دومة، حين أجاب إلى الإسلام، وخلع الأنداد
والأصنام، مع خالد بن الوليد سيف الله في دومة الجندل وأكتافها:
إن لنا الضاحية من الضحل والبور والمعامي وأغفال الأرض والحلقة والسلاح والحافر والحسن، ولكم
الضامنة من النخل والمعين من المعمور، لا تعدل سارحتكم ولا تعد فاردتكم «1»، ولا يحظر عليكم
النبات. تقيمون الصلاة لوقتها، وتؤتون الزكاة لحقها، عليكم بذلك عهد الله والميثاق، ولكم به
الصدق والوفاء. شهد الله ومن حضر من المسلمين.
كتابه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لوائل بن حجر الحضرمي
من محمد رسول الله إلى الأقيال العباهلة «2» والارواح المشاييب «3» من أهل حضر موت بإقامة
الصلاة، وإيتاء الزكاة: في التبعة «4» شاة، لا مقورة الألياط ولا ضناك، وانطوا الشبجة «5» والتيمة
لصاحبها، وفي السيوب الخمس؛ لا خلط، ولا وراط،

(306/1)

ولا شناق، ولا شغار «1»، ومن أجبي فقد أربي «2»، وكل مسكر حرام.
حديث جرير بن عبد الله البجلي
قدم جرير بن عبد الله البجلي على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فسأله عن منزله ببيشة، فقال
سهل ودكداك «3»، وسلم وأراك، وحمض وعلاك، إلى نخلة ونخلة، ماؤها ينبوع، وجنابها مريع،
وشتاؤها ربيع.
فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إن خير الماء الشبم «4»، وخير المال الغنم، وخير المرعى
الأراك، والسلم إذا أخلف كان لجينا، وإذا أسقط كان درينا «5»، وإذا أكل كان لبينا.
وفي كلامه عليه السلام: إن الله خلق الأرض السفلى من الزبد الجفاء والماء والكباء.
حديث عياش بن أبي ربيعة
بعث رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عياش بن أبي ربيعة إلى بني عبد كلال وقال له: خذ كتابي

بيمينك وادفعه بيمينك في أيماهم، فهم قائلون لك اقرأ. فاقراً: لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ
وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ

«6». فإذا فرغت منها فقل: آمن محمد وأنا أول المؤمنين. فلن تأتيك حجة إلا وقد دحضت ولا
كتاب زخرف إلا وذهب

(307/1)

نوره ومع «1» لونه، وهم قارئون، فإذا رطنوا فقد ترجموا. فقل: حسن، آمنت بالله وما أنزل من
كتاب الله. فإذا أسلموا فسلهم فضيبتهم الثلاثة التي إذا تخصروا بها سجد لهم، وهي الأثل قضيبت
ملمع ببياض، وقضيبت ذو عجر كأنه من خيزران، والأسود البهيم، كأنه من ساسم «2». ثم اخرج
بها فحرقها في سوقهم.

حديث راشد بن عبد ربه السلمي

عبد الله بن الحكم الواسطي عن بعض أشياخ أهل الشام، قال: قال استعمل رسول الله صلى الله عليه
وسلم أبا سفيان بن حرب على نجران، فولاه الصلاة والحرب، ووجه راشد بن عبد ربه أميراً على
القضاء والمظالم. قال راشد بن عبد ربه:

ضحأ القلب عن سلمى وأقصر شأوه ... وردت عليه ما نفتته تماضر
وحكمه شيب القذال عن الصبا ... وللشيب عن بعض الغواية زاجر
فأقصر جهلي اليوم وارتد باطلاي ... عن الجهل لما ابيض مني الغدائر
على أنه قد هاجه بعد صحوة ... بمعرض ذي الآجام عيس بواكر
ولما دنت من جانب الغوط أخصبت ... وحلت ولا قاها سليم وعامر
وخبرها الركبان أن ليس بينها ... وبين قرى بصرى ونجران كافر

فألقت عصاها واستقرت بها التوى ... كما قر عينا بالإياب المسافر «3»

وفود نابغة بني جعدة على النبي صلى الله عليه وسلم

وفد أبو ليلي نابغة بني جعدة على النبي صلى الله عليه وسلم، فأنشده شعره الذي يقول فيه:
بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا ... وإنا لنبغي فوق ذلك مظهرا

(308/1)

قال له النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إلى أين أبا ليلى؟ قال: إلى الجنة. قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إن شاء الله.

فلما انتهى إلى قوله:

ولا خير في حلم إذا لم تكن له ... بوادر تحمي صفوه أن يكدرًا

قال له النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لا يفضض الله فاك! فعاش مائة وثلاثين سنة لم تنفض له سنّ، وبقي حتى وفد على عبد الله بن الزبير في أيامه بمكة وامتدحه، فقال له: يا أبا ليلى، إن أدنى وسائلك عندنا الشعر، لك في مال الله حقان: حق برؤيتك رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحق بشركتك أهل الإسلام في فيئهم. ثم أحسن صلته وأجازه.

وفود طهفة بن أبي زهير النهدي على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما قدمت وفود العرب على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قام طهفة ابن أبي زهير، فقال: يا رسول الله، أتيناك من غوري تامة بإكوار الميس «1»، ترمى بنا العيس، نستحلب الصبيّر، ونستحلب الخبير؛ ونستعضد البربر، ونستخيل الرّهام «2»، ونستخيل الجهام «3»، من أرض غائلة التّطاء، «4»، غليظة الوطاء، قد نشف المدهن «5» ويبس الجعثن «6»، وسقط الأملوج «7»، ومات العسلوج «8»؛ وهلك الهدّي، ومات الودي «9»، برئنا يا رسول الله من الوثن والعن «10»، وما يحدث الزمن؛ لنا دعوة السلام، وشريعة الإسلام، ما طمى

(309/1)

البحر، وقام تعار؛ ولنا نعم همّل أغفال، ما تبضّ ببال؛ ووقير «1» كثير الرّسل، قليل الرّسل، أصابتها سنّة حمراء مؤزلة «2». ليس بها علل ولا نحل. فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اللهم بارك لهم في محضها ومحضها ومذقها «3»، وابعث راعيها في الدّثر «4»، بيانع الثمر، وافجر له الثمد «5»، وبارك له في المال والولد، من أقام الصلاة كان مسلما، ومن آتى الزكاة كان محسنا، ومن شهد أن لا إله إلا الله كان مخلصا. لكم يا بني نهد، ودائع الشّرك، ووضائع الملك، لا تلطط «6» في الزكاة، ولا تلحد في الحياة، ولا تتناقل عن الصلاة.

وكتب معه كتابا إلى بني نهد: بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى بني نهد بن زيد، السلام

على من آمن بالله ورسوله، لكم يا بني نهد في الوظيفة الفريضة، ولكم الفارض «7» والفريش، وذو العنان الركوب والفلو الضبيس «8»، لا يمنع سرحكم، ولا يعضد طلحكم، ولا يحبس دركم، ما لم تضمروا الإماق «9»، وتأكلوا الرباق «10». من أقر بما في هذا الكتاب فله من رسول الله صلى الله عليه وسلم الوفاء بالعهد والذمة، ومن أبي عليه فعليه الرّبوّة.

وفود جبلة بن الأيهم على عمر بن الخطاب رضي الله عنه

العجلي قال: حدّثني أبو الحسن عليّ بن أحمد بن عمرو بن الأجدع الكوفي؟؟؟

قال: حدّثني إبراهيم بن عليّ مولى بني هاشم، قال: حدّثنا ثقات شيوخننا أن؟؟؟ بن

(310/1)

الأيهم بن أبي شمر الغساني لما أراد أن يسلم كتب إلى عمر بن الخطاب من الشام يعلمه بذلك ويستأذنه في القدوم عليه. فسّر بذلك عمر والمسلمون، فكتب إليه أن اقدم ولك مالنا وعليك ما علينا، فخرج جبلة في خمسمائة فارس من عكّ وجفنة، فلما دنا من المدينة ألبسهم ثياب الوشي المنسوج بالذهب والفضة، ولبس يومئذ جبلة تاجه وفيه قرط مارية، وهي جدّته فلم يبق يومئذ بالمدينة أحدٌ إلا خرج ينظر إليه، حتى النساء والصبيان، وفرح المسلمون بقدومه وإسلامه، حتى حضر الموسم من عامه ذلك مع عمر ابن الخطاب؛ فبينما هو يطوف بالبيت إذ وطيء على إزاره رجل من بني فزارة فحلّه، فالتفت إليه جبلة مغضبا. فلطمه فهشم أنفه، فاستعدى عليه الفزاري عمر بن الخطاب. فبعث إليه فقال: ما دعاك يا جبلة إلى أن لطمت أخاك هذا الفزاري فهشمت أنفه؟ فقال: إنّه وطيء إزاري فحلّه، ولولا حرمة هذا البيت لأخذت الذي فيه عيناه. فقال له عمر: أمّا أنت فقد أقررت. إمّا أن ترضيه وإلا أقدته «1» منك قال: أتقيده مني وأنا ملك وهو سوقة؟ قال: يا جبلة، إنه قد جمعك وإياه الإسلام، فما تفضله بشيء إلا [بالتقى] بالعافية. قال: والله لقد رجوت أن أكون في الإسلام أعزّ مني في الجاهلية. قال عمر: دع عنك ذلك. قال: إذن أنتصّر. قال: إن تنصّرت ضربت عنقك. قال: واجتمع قوم جبلة وبنو فزارة فكادت تكون فتنة، فقال جبلة: أخربي إلى غد يا أمير المؤمنين. قال: ذلك لك. فلما كان جنح الليل خرج جبلة وأصحابه، فلم يئن «2» حتى دخل القسطنطينية على هرقل، فتنصّر وأقام عنده، وأعظم هرقل قدوم جبلة، وسر بذلك وأقطعه الأموال والأرضين والرّباع.

ثم بعث عمر بن الخطاب رسولا إلى هرقل يدعو إلى الإسلام، فأجابه إلى المصالحة على غير الإسلام، فلما أراد أن يكتب جواب عمر قال للرسول: ألقيت ابن عمك هذا

(311/1)

الذي ببلدنا- يعني جبلة- الذي أتانا راغبا في ديننا؟ قال: ما لقيتته.

قال: القه، ثم اتني أعطك جواب كتابك.

وذهب الرسول إلى باب جبلة، فإذا عليه من القهارة والحجاب والبهجة وكثرة الجمع مثل ما على باب هرقل.

قال الرسول: فلم أزل ألتطف في الإذن حتى أذن لي، فدخلت عليه، فرأيت رجلا أصهب اللحية ذا

سبال؛ وكان عهدي به أسمر أسود اللحية والرأس. فنظرت إليه فأنكرته، فإذا هو قد دعا بسحالة

الذهب «1» فذرهما في لحيته حتى عاد أصهب، وهو قاعد على سرير من قوارير، قوائمه أربعة أسود

من ذهب، فلما عرفني رفعتني معه في السرير، فجعل يسألني عن المسلمين، فذكرت خيرا، وقلت: قد

أضعفوا أضعافا على ما تعرف. فقال: كيف تركت عمر بن الخطاب؟ قلت: بخير. فرأيت النعم قد تبين

فيه لما ذكرت له من سلامة عمر. قال: فأنحدرت عن السرير. فقال: لم تأبى الكرامة التي أكرمناك بها؟

قلت: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهي عن هذا.

قال: نعم، صلى الله عليه وسلم، ولكن نق قلبك من الدنس ولا تبال علام قعدت. فلما سمعته يقول:

صلى الله عليه وسلم طمعت فيه، فقلت له: ويحك يا جبلة! ألا تسلم وقد عرفت الإسلام وفضله؟

قال: أبعد ما كان مني؟

قلت: نعم، قد فعل رجل من بني فزارة أكثر مما فعلت: ارتد عن الإسلام وضرب وجوه المسلمين

بالسيف، ثم رجع إلى الإسلام وقبل ذلك منه وخلفته بالمدينة مسلما.

قال: ذرني من هذا؛ إن كنت تضمن لي أن يزوجني عمر ابنته ويولياني الأمر بعده رجعت إلى الإسلام.

قلت: ضمننت لك التزويج ولم أضمن لك الإمرة.

قال: فأومأ إلى خادم بين يديه، فذهب مسرعا، فإذا خدم قد جاءوا يحملون الصناديق فيها الطعام،

فوضعت، ونصبت موائد الذهب وصحاف الفضة، وقال لي:

(312/1)

كل، فقبضت يدي. وقلت: إن رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم نهي عن الأكل في آنية الذهب والفضة. فقال نعم صَلَّى الله عليه وسلّم، ولكن تق قلبك وكل فيما أحببت. قال: فأكل في الذهب والفضة وأكلت في الخليج «1»؛ فلما رفع الطعام جيء بطساس الفضة وأباريق الذهب، وأوماً إلى خادم بين يديه، فمرّ مسرعاً، فسمعت حسناً، فالتفت، فإذا خدم معهنّ الكراسي مرصعة بالجواهر، فوضعت عشرة عن يمينه وعشرة عن يساره، ثم سمعت حسناً، فإذا عشر جوار قد أقبلن مطمومات الشعر «2» متكسرات في الحلّى عليهن ثياب الديباج، فلم أر وجوها قط أحسن منهن، فأقعدهنّ على الكراسي عن يمينه؛ ثم سمعت حسناً، فإذا عشر جوار أخرى، فأجلسهن على الكراسي عن يساره؛ ثم سمعت حسناً، فإذا جارية كأنها الشمس حسناً؛ وعلى رأسها تاج، على ذلك التاج طائر لم أر أحسن منه، وفي يدها اليمنى جام «3» فيها مسك وعنبر، وفي يدها اليسرى جامة فيها ماء ورد، فأومات إلى الطائر أو قال: فصفرت بالطائر، فوقع في جام ماء الورد فاضطرب فيه، ثم أومات إليه أو قال: فصفرت به، فطار حتى نزل على صليب في تاج جبلة؛ فلم يزل يرفرف حتى نفص ما في ريشه عليه. وضحك جبلة من شدة السرور حتى بدت أنيابه؛ ثم التفت إلى الجوّاري اللواتي عن يمينه، فقال: بالله أطرّبنني؛ فاندفعن يتغنين يخففن بعيدهنّن ويقلن:

الله درّ عصابة نادمتهم ... يوماً بجلّق في الزمان الأوّل

يسقون من ورد البريص عليهم ... بردى يصفّق بالرحيق السلسل «4»

أولاد جفنة حول قبر أبيهم ... قبر ابن مارية الكريم المفضل

يغشون حتى ما تهرّ كلابهم ... لا يسألون عن السواد المقبل

بيض الوجوه أعقّة أحسابهم ... شمّ الأنوف من الطراز الأوّل

قال: فضحك حتى بدت نواجذه، ثم قال: أتدري من قائل هذا؟ قلت: لا. قال:

(313/1)

قائله حسان بن ثابت شاعر رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم.

ثم التفت إلى الجوّاري اللاتي عن يساره، فقال: بالله أبكيننا. فاندفعن يتغنين ويخففن بعيدهنّن ويقلن:

لمن الدار أقفرت بمعان ... بين أعلى اليرموك فالخمان «1»

ذاك معنى لآل جفنة في الدّه ... ر محلاً لحادث الأزمان

قد أراي هناك دهرا مكينا ... عند ذي الناج مقعدي ومكاني
ودنا الفصح فالولائد ينظم ... ن سراعاً أكلّة المرجان
لم يعلّن بالمغافر والصّم ... غ ولا نقف حنظل الشّريان «2»
قال: فبكي حتى جعلت الدموع تسيل على لحيته؛ ثم قال: أتدري من قائل هذا؟
قلت: لا أدري. قال: حسان بن ثابت. ثم أنشأ يقول:
تنصّرت الأشراف من عار لطمّة ... وما كان فيها لو صبرت لها ضرر
تكتفني منها لجاج ونخوة ... وبعث لها العين الصحيحة بالعور
فيا ليت أمي لم تلدني وليتني ... رجعت إلى الأمر الذي قال لي عمر
ويا ليتني أرعى المخاض بقفرة ... وكنت أسيرا في ربيعة أو مضر
ويا ليت لي بالشام أدنى معيشة ... أجالس قومي ذاهب السمع والبصر
ثم سألني عن حسان: أحّي هو؟ قلت: نعم، تركته حيّا. فأمر لي بكسوة ومال ونوق موقرة برآ. ثم قال
لي: إن وجدته حيّا فادفع إليه الهدية واقرئه سلامي، وإن وجدته ميتا فادفعها إلى أهله وانحر الجمال
على قبره.

فلما قدمت على عمر أخبرته خبر جبلة وما دعوته إليه من الإسلام والشرط الذي شرطه وأني
ضمنت له التزويج ولم أضمن له الإمرة، فقال: هلا ضمننت له الإمرة؛ فإذا أفاء الله به إلى الإسلام
قضى عليه بحكمه عز وجل.

(314/1)

ثم ذكرت له الهدية التي أهداها إلى حسان بن ثابت، فبعث إليه وقد كفّ بصره، فأتي به وقائد يقوده،
فلما دخل قال: يا أمير المؤمنين، إني لأجد رياح آل جفنة عندك! قال: نعم. هذا رجل أقبل من
عنده. قال: هات يا بن أخي إنه كريم من كرام مدحتهم في الجاهلية فحلف ألاّ بلقي أحدا يعرفني إلا
أهدى إليّ معه شيئا. فدفعت إليه الهدية. المال والثياب، وأخبرته بما كان أمر به في الإبل إن وجد
ميتا. فقال:

وددت أني كنت ميتا فنحرت على قبري.

قال الزبير: وانصرف حسان وهو يقول:

إنّ ابن جفنة من بقيّة معشر ... لم تغدّهم آباؤهم باللوم

لم ينسني بالشّام إذ هو ربّها ... ملكا ولا متنصرا بالروم
يعطي الجزيل ولا يراه عنده ... إلا كبعض عطية المذموم
فقال له رجل كان في مجلس عمر: أتذكر ملوكا كفره أبادهم الله وأفناهم؟ قال:
ممن الرجل؟ قال: مزني. قال: أما والله لولا سوابق قومك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لطوّقتك
طوق الحمامة.

قال: ثم جهزي عمر إلى قيصر وأمرني أن أضمن لجملة ما اشترط به.
قلما قدمت القسطنطينية وجدت الناس منصرفين من جنازته، فعلمت أن الشقاء غلب عليه في أم
الكتاب.

وفود الأحنف على عمر بن الخطاب رضي الله عنه

المدائني قال: قدم الأحنف بن قيس التميمي على عمر بن الخطاب رضي الله عنه، في أهل البصرة
وأهل الكوفة، فتكلموا عنده في أنفسهم وما ينوب كلّ واحد منهم، وتكلم الأحنف فقال:
يا أمير المؤمنين، إن مفاتيح الخير بيد الله، وقد أتتك وفود أهل العراق، وإنّ

(315/1)

إخواننا من أهل الكوفة والشام ومصر نزلوا منازل الأمم الخالية، والملوك الجابرة، ومنازل كسرى
وقيصر وبني الأصغر «1»، فهم من المياه العذبة والجنان المخصبة في مثل حولاء السلى وحدقة
البعير «2»، تأتيهم ثمارهم غصّة لم تتغيّر؛ وإنا نزلنا أرضا نشاشة طرف في فلاة وطرف في ملح
أجاج، جانب منها منابت القصب، وجانب سبخة نشاشة لا يجف ترابها، ولا ينبت مرعاها، تأتينا
منافعها في مثل مريء النعامة، يخرج الرجل الضعيف منّا يستعذب الماء من فرسخين، وتخرج المرأة
بمثل ذلك ترتق «3» ولدها ترنيق العنز، تخاف عليه العدو والسبع، فإذا ترفع خسيستنا. وتتعش
ركيستنا «4»، وتجبر فافتنا، وتزيد في عيالنا عيالا، وفي رجالنا رجالا، وتصفر درهمنا، وتكبر قفيزنا،
وتأمر لنا بحفر نهر نستعذب به الماء هلكننا.

قال عمر: هذا والله السيد! هذا والله السيد! قال الأحنف: فما زلت أسمعها بعدها.
فأراد زيد بن جبلة أن يضع منه، فقال: يا أمير المؤمنين، إنه ليس هناك، وأمّه باهليّة.
قال عمر: هو خير منك إن كان صادقا. يريد: إن كانت له نية.
فقال الأحنف:

أنا ابن الباهلية أرضعتني ... بثدي لا أجد ولا وخيم «5»
 أغضّ على القذى أجفان عيني ... إذا شرّ السفيه إلى الحلیم «6»
 قال فرجع الوفد واحتبس الأحنف عنده حولا وأشهرا، ثم قال: إن رسول الله

(316/1)

صلّى الله عليه وسلّم حدّثنا كل منافق صنع اللسان، وإني خفتك فاحتبستك، فلم يبلغني عنك إلا خير؛ رأيت لك جولا «1» ومعقولا؛ فارجع إلى منزلك واتق الله ربك. وكتب إلى أبي موسى الأشعري أن يحتفر لهم نورا.

وفود الأحنف وعمرو بن الأهمم على عمر بن الخطاب رضي الله عنه

العتي عن أبيه قال: وفد الأحنف وعمرو بن الأهمم على عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأراد أن يقرع بينهما في الرياسة، فلما اجتمعت بنو تميم، قال الأحنف:
 ثوى قدح عن قومه طالما ثوى ... فلما أتاهم قال قوموا تناجزوا
 فقال عمرو بن الأهمم: إنا كنا وأنتم في دار جاهلية فكان الفضل فيها لمن جهل، فسفكنا دماءكم، وسبينا نساءكم، وإنّا اليوم في دار الإسلام والفضل فيها لمن حلم؛ فغفر الله لنا ولك.
 قال: فغلب يومئذ عمرو بن الأهمم على الأحنف ووقعت القرعة لآل الأهمم فقال عمرو بن الأهمم:
 لما دعيتي للرياسة منقر ... لدى مجلس أضحي به التجم باديا
 شددت لها أزري وقد كنت قبلها ... لأمثالها مما أشدّ إزاريا
 وعمرو بن الأهمم: هو الذي تكلم بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلّم، وسأله عن الزبرقان، فقال عمرو: مطاع في أدنيه، شديد العارضة، مانع لما وراء ظهره.
 فقال الزبرقان: والله يا رسول الله إنه ليعلم مني أكثر مما قال، ولكن حسدي.
 قال: أما والله يا رسول الله، إنه لزمر «2» المروءة، ضيق العطن «3»؛ أحمق الوالد

(317/1)

لئيم الخال؛ والله ما كذبت في الأولى ولقد صدقت في الأخرى؛ رضيت عن بن عمي فقلت أحسن ما علمت ولم أكذب، وسخطت عليه فقلت أقبح ما علمت ولم أكذب.

فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا.

وفود عمرو بن معديكرب على عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذ أوفده سعد

لما فتحت القادسيّة على يدي سعد بن أبي وقاص، أبلى فيها عمرو بن معديكرب بلاء حسنا، فأوفده سعد على عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكتب إليه معه بالفتح وأثنى في الكتاب على عمرو؛ فلما قدم على عمر بن الخطاب سأله عن سعد، فقال:

أعرابي في نموته «1»، أسد في تأمورته «2»، نبطي في جبايته، يقسم بالسويّة، ويعدل في القضية وينقل «3» في السريّة؛ وينقل إلينا حقنا نقل الدّرة. فقال عمر: لشدّ ما تقارضتما الثناء. وكان عمر قد كتب إلى سعد يوم القادسيّة أن يعطي الناس على قدر ما معهم من القرآن؛ فقال سعد لعمرو بن معديكرب ما معك من القرآن؟ قال: ما معي شيء. قال: إن أمير المؤمنين كتب إليّ أن أعطي الناس على قدر ما معهم من القرآن. فقال عمرو:

إذا قتلنا ولا يبكي لنا أحد... قالت قريش ألا تلك المقادير

نعطي السويّة من طعن له نفذ... ولا سويّة إذ تعطي الدنانير

قال: فكتب سعد بأبياته إلى عمر، فكتب إليه أن يعطي على مقاماته في الحرب.

(318/1)

وفود أهل اليمامة على أبي بكر الصديق رضي الله عنه

وفد أهل اليمامة على أبي بكر الصديق رضي الله عنه، بعد إيقاع خالد وقتله مسلمة الكذاب، فقال لهم أبو بكر: ما كان يقول صاحبكم؟ قالوا: أعفنا يا خليفة رسول الله. قال: لا بد أن تقولوا. قالوا: كان يقول: يا ضفدع كم تنقن. لا الشراب تمنعين، ولا الماء تكذّرين، لنا نصف الأرض ولقريش نصفها، ولكن قريش قوم لا يعدلون. فقال لهم أبو بكر: ويحكم! ما خرج هذا من إلّ ولا بر، فأين ذهب بكم؟ قال أبو عبيد؛ الإلّ: الله تعالى. والبر الرجل الصالح.

وفود عمرو بن معديكرب على مجاشع بن مسعود

وفد عمرو بن معديكرب الزبيدي على مجاشع بن مسعود السلمي - وكانت بين عمرو وبين سليم حروب في الجاهلية - فقدم عليه البصرة يسأله الصلّة، فقال له: اذكر حاجتك. فقال له: حاجتي صلّة مثلي. فأعطاه عشرة آلاف درهم، وفرسا من بنات الغبراء، وسيفا جازا «1»، ودرعا حصينة، وغلاما خبازا؛ فلما خرج من عنده. قال له أهل المجلس: كيف وجدت صاحبك؟ قال لله بنو سليم!

ما أشد في الهيجاء لقاءها، وأكرم في الأواء «2» عطاءها، وأثبت في المكرمات بناءها. والله يا بني سليم، لقد قاتلناكم في الجاهلية فما أجبناكم، ولقد هاجبناكم فما أفحمناكم، ولقد سألناكم فما أبخلناكم:

فلله مسئولا نوالا ونائلا ... وصاحب هيج يوم هيج مجاشع

(319/1)

وفود الحسن بن علي رضي الله عنهما على معاوية رضي الله عنه

أبو بكر بن أبي شيبة قال: وفد الحسن بن علي رضي الله عنهما على معاوية بعد عام الجماعة، فقال له معاوية: والله لا حيونتك بجائزة ما أجزت بها أحدا قبلك ولا أجزى بها أحدا بعدك. فأمر له بمائة ألف.

وفي بعض الحديث إن النبي صلى الله عليه وسلم دخل على ابنته فاطمة، فوجد الحسن طفلا يلعب بين يديها، فقال لها: إن الله تعالى سيصلح على يدي ابنك هذا بين فئتين عظيمتين من المسلمين.

وفود زيد بن منية على معاوية رحمه الله

العتبي قال: قدم زيد بن منية على معاوية من البصرة - وهو أخو يعلى ابن منية صاحب جمل عائشة، ومتولي تلك الحروب، ورأس أهل البصرة. وكان عتبة بن أبي سفيان قد تزوج ابنة يعلى بن منية - فلما دخل على معاوية شكاه إليه ديننا لزمه. فقال:

يا كعب، أعطه ثلاثين ألفا. فلما ولى قال: وليوم الجمل ثلاثين ألفا أخرى. ثم قال له الحق بصهرك - يعني عتبة - فقدم عليه مصر، فقال: إني سرت إليك شهرين، أخوض فيهما المتالف، ألبس أردية الليل مرة، وأخوض في لجج السراب أخرى، موقرا من حسن الظن بك، وهاربا من دهر قطم، ودين لزم، بعد غنى جدعنا به أنوف الحاسدين، فلم أجد إلا إليك مهربا وعليك معولا. فقال عتبة: مرحبا بك وأهلا! إن الدهر أعاركم غنى، وخلطكم بنا، ثم استرد ما أمكنه أخذه، وقد أبقى لكم منا ما لا ضيعة معه، وأنا واضع يدي ويدك بيد الله فأعطاه ستين ألفا، كما أعطاه معاوية رحمه الله.

(320/1)

وفود عبد العزيز بن زرارة على معاوية رحمه الله

العيني عن أبيه قال: وفد عبد العزيز بن زرارة على معاوية وهو سيّد أهل الكوفة. فلما أذن له وقف بين يديه، وقال: يا أمير المؤمنين، لم أزل أهنر ذوائب الرّجال إليك؛ إذ لم أجد معولاً إلا عليك، امتطى الليل بعد النهار، وأسم المجاهل بالآثار، يقودني إليك أمل، وتسوقني بلوى، والمجتهد يعذر، وإذ بلغتك فقطني.

فقال معاوية: احطط عن راحلتك رحلها.

وخرج عبد العزيز بن زرارة مع يزيد بن معاوية إلى الصائفة، فهلك هناك؛ فكتب به يزيد بن معاوية إلى معاوية، فقال لزرارة: أتاني اليوم نعي سيد شباب العرب. قال زرارة: يا أمير المؤمنين، هو ابني أو ابنك. قال: بل ابنك. قال:

للموت ما تلد الوالدة.

أخذه سابق البربري فقال:

وللموت تغذو الولدات سخالها... كما لخراب الدهر تبنى المساكن
وقال آخر:

للموت يولد منّا كلّ مولود... لا شيء يبقى ولا يفنى بوجود

وفود عبد الله بن جعفر على يزيد بن معاوية

المدائني قال: قدم عبد الله بن جعفر على يزيد بن معاوية، فقال له: كم كان عطاؤك؟ فقال له: ألف ألف. قال: قد أضعفناها لك. قال: فذاك أبي وأمي وما قلتها لأحد قبلك! قال: أضعفناها لك ثانية. فقيل ليزيد: أتعطي رجلاً واحداً أربعة آلاف ألف؟ فقال: ويحكم، إنما أعطيتها أهل المدينة أجمعين، فما يده فيها إلا عارية.

فلما كان في السنة الثانية قدم عبد الله بن جعفر، وقدم مولى له يقال له نافع،

(321/1)

كانت له منزلة من يزيد بن معاوية. قال نافع: فلما قدمنا عليه أمر لعبد الله بن جعفر بألف ألف، وقضى عنه ألف ألف، ثم نظر إليّ فتبسم، فقلت: هذه لتلك الليلة. وكنت سامرته ليلة في خلافة معاوية وأسمعتة فيها، فذكرته بها وقدمت عليه هدايا من مصر كثيرة، فأمر بها لعبد الله بن جعفر؛ وكانت له مائة ناقة، فقلت لابن جعفر: لو سألته منها شيئاً لحتلبه في طريقنا؟

ففعّل، فأمر بصرفها كلها إليه. فلما أراد الوداع أرسل إليّ فدخلت عليه، فقال: ويلك! إنما أحرّكت لأتفرغ إليك، هات قول جميل.

خليليّ فيما عشتما هل رأيتما ... قتيلا بكى من حبّ قاتله قبلي
قال؛ فأسمعته، فقال: أحسنت والله؛ هات حاجتك! فما سألته شيئا إلا أعطانيه، فقال: إن يصلح الله هذا الأمر من قبل ابن الزبير تلقنا بالمدينة؛ فإن هذا لا يحسن إلا هناك. فمنع والله من ذلك شؤم ابن الزبير.

وفود عبد الله بن جعفر على عبد الملك بن مروان

قال بديح: وفد عبد الله بن جعفر على عبد الملك بن مروان، وكان زوج ابنته أم كلثوم من الحجاج على ألفي ألف في السر وخمسمائة ألف في العلانية، وحملها إليه إلى العراق، فمكثت عنده ثمانية أشهر. قال بديح: فلما خرج عبد الله بن جعفر إلى عبد الملك بن مروان، خرجنا معه حتى دخلنا دمشق، فإننا لنحطّ رحالنا إذ جاءنا الوليد بن عبد الملك على بغلة وردة ومعه الناس، فقلنا: جاء إلى ابن جعفر ليحييه ويدعوه إلى منزله. فاستقبله ابن جعفر بالترحيب، فقال له: لكن أنت لا مرحبا بك ولا أهلا! فقال: مهلا يا بن أخي، فلست أهلا لهذه المقالة منك. قال: بلى، ولشّرّ منها، قال: وفيم ذلك؟ قال: إنك عمدت إلى عقيلة نساء العرب، وسيدة بني عبد مناف، ففرشتها عبد ثقيف يتفخّذها. قال: وفي هذا عتب عليّ يا بن أخي؟ قال: وما أكثر من هذا؟ قال: والله إنّ أحق الناس أن لا يلومني في هذا لأنت وأبوك؛ إن كان من

(322/1)

البلکم من الولاية ليصلون رحمي، ويعرفون حقي، وإنك وأباك منعتاني ما عند كما حتى ركبني من الدّين ما والله لو أن عبدا مجدّعا حبشياً أعطاني بما ما أعطاني عبد ثقيف لزوجتها؛ فإنما فديت بما رقبتي من النار. قال: فما راجعه كلمة حتى عطف عنانه، ومضى حتى دخل على عبد الملك - وكان الوليد إذا غضب عرف ذلك في وجهه - فلما رآه عبد الملك قال: مالك أبا العباس؟ قال: إنك سلّطت عبد ثقيف وملكته ورفعته حتى تفخّذ نساء عبد مناف، وأدركته الغيرة. فكتب عبد الملك إلى الحجاج يعزم عليه ألا يضع كتابه من يده حتى يطلّقها ... فما قطع الحجاج عنها رزقا ولا كرامة يجربها عليها حتى خرجت من الدنيا. قال: وما زال واصلا لعبد الله بن جعفر حتى هلك. قال بديح: فما كان يأتي علينا هلال إلا وعندنا غير مقبلة من الحجاج، عليها لطف وكسوة وميرة، حتى لحق عبد

الله بن جعفر بالله.

ثم استأذن ابن جعفر على عبد الملك، فلما دخل عليه استقبله عبد الملك بالترحيب، ثم أخذ بيده فأجلسه معه على سريره، ثم سأله فألطف المسألة، حتى سأله عن مطعمه ومشربه. فلما انقضت مسألته، قال له يحيى بن الحكم: أمن خبثة كان وجهك يا أبا جعفر؟ قال: وما خبثة؟ قال: أرضك التي جئت منها. قال: سبحان الله، رسول الله صلى الله عليه وسلم يسميها طيبة وتسميها خبثة؟ لقد اختلفتما في الدنيا وأظنكما في الآخرة مختلفين.

فلما خرج من عنده هياً له ابن جعفر هدايا وألطافاً. فقلت لبديح: ما قيمة ذلك؟ قال: قيمته مائة ألف. من وصفاء ووصائف وكسوة وحرير ولطف من لطف الحجاز. قال: فبعثني بها، فدخلت عليه وليس عنده أحد. فجعلت أعرض عليه شيئاً شيئاً. قال: فما رأيت مثل إعظامه لكل ما عرضت عليه من ذلك، وجعل يقول كلما أريته شيئاً: عافى الله أبا جعفر! وما رأيت كاليوم، وما نريد أن يتكلف لنا شيئاً من هذا، وإن كنا لمتذممين محتشمين. قال: فخرجت من عنده وأذن لأصحابه.

والله لبينا أنا عند بن جعفر أحدثه عن تعجب عبد الملك وإعظامه لما أهدى

(323/1)

إليه، إذا بفارس قد أقبل علينا، فقال أبا جعفر، إن أمير المؤمنين يقرأ السلام عليك، ويقول لك: جمعت له وخش رقيق الحجاز وأباقهم وحبست عنا فلانة، فابعث بها إلينا - وذلك أنه حين دخل عليه أصحابه جعل يحدّثهم عن هدايا ابن جعفر ويعظمها عندهم، فقال له يحيى بن الحكم: وماذا أهدى إليك ابن جعفر؟ جمع لك وخش رقيق الحجاز وأباقهم وحبس عنك فلانة. قال: ويلك، وما فلانة هذه؟

قال: ما لم يسمع واد أحد بمثلها قطّ جمالا وكمالا وخلقا وأدبا، لو أراد كرامتك بعث بها إليك. قال: وأين تراها. وأين تكون؟ قال: هي والله معه، وهي نفسه التي بين جنبيه - فلما قال الرسول ما قال، وكان ابن جعفر في أذنه بعض الوقر، إذا سمع ما يكره تصام، فأقبل عليه فقال: ما يقول يا بديح؟ قال: قلت: فإنّ أمير المؤمنين يقرأ السلام ويقول: إنه جاءني بريد من ثغر كذا يقول: إن الله نصر المسلمين وأعزهم. قال: اقرأ أمير المؤمنين السلام، وقل له: أعز الله نصرك، وكبت عدوك.

فقال الرسول: يا أبا جعفر، إني لست أقول هذا. وأعاد مقالته الأولى. فسألني فصرفته إلى وجه آخر. فأقبل عليّ الرسول، فقال: يا ماصّ... أبرسل أمير المؤمنين تهكم، وعن أمير المؤمنين تجيب هذا

الجواب؟ أما والله لأطلنّ دمك. فانصرف، وأقبل عليّ بن جعفر فقال: من ترى صاحبنا؟ قال: صاحبك بالأمس. قال: أظنه! فما الرأي عندك؟ قلت: يا أبا جعفر، قد تكلفت له ما تكلفت، فإن منعها إياه جعلتها سببا لمنعك، ولو طلب أمير المؤمنين إحدى بناتك ما كنت أرى أن تمنعها إياه. قال: ادعها لي فلما أقبلت. رحّب بها ثم أجلسها إلى جنبه، ثم قال: أما والله ما كنت أظن أن يفرق بيني وبينك إلا الموت. قالت: وما ذاك؟ قال: إنه حدث أمر، وليس والله كائنا فيه إلا ما أحببت، جاء الدهر فيه بما جاء. قالت: وما هو؟ قال: إن أمير المؤمنين بعث يطلبك. فإن تهوى فذاك، وإلا والله لم يكن أبدا. قالت: ما شيء لك فيه هوى ولا أظنّ فيه فرجا عنك إلا فديته بنفسي، وأرسلت عينها بالبكاء. فقال لها: أما إذا فعلت فلا تترين مكروها: فمسحت عينيها، وأشار إليّ فقال: ويحك يا بديح استحثها قبل أن تتقدم إليّ من القوم بادرة. قال: ودعا بأربع

(324/1)

وصائف ودعا من صاحب نفقته بخمسائة دينار، ودعا مولاة له كانت تلي طيبه، فدحست لها ربعة عظيمة مملوءة طيبا، ثم قال: عجّلها وبلك. فخرجت أسوقها حتى انتهت إلى الباب؛ وإذا الفارس قد بلغ عني، فما تركني الحجاب أن تمس رجلاي الأرض حتى أدخلت على عبد الملك وهو يتلظّي، فقال لي يا ماصّ، وكذا أنت الحبيب عن أمير المؤمنين والمتهمك برسله؟ قلت: يا أمير المؤمنين، إيدن لي أتكلم. قال: وما تقول يا كذا وكذا؟ قلت: إيدن لي جعلني الله فداك أتكلم. قال: تكلم. قلت: يا أمير المؤمنين، أنا أصغر شأنا، وأقل خطرا من أن يبلغ كلامي من أمير المؤمنين ما أرى، وهل أنا إلا عبد من عبيد أمير المؤمنين، نعم، قد قلت ما بلغك، وقد يعلم أمير المؤمنين إنّما نعيش في كنف هذا الشيخ، وأنّ الله لم يزل إليه محسنا، فجاءه من قبلك شيء ما أتاه قطّ مثله، إنّما طلبت نفسه التي بين جنبيه، فأجبت بما بلغك لأسهل الأمر عليه؛ ثم سألتني فأخبرته واستشارني فأشرت عليه، وها هي ذه قد جنتك بما. قال: أدخلها وبلك! قال: فأدخلتها عليه وعنده مسلمة ابنة، غلام ما رأيت مثله ولا أجمل منه حين اخضرّ شاربه. فلما جلست وكلمها أعجب بكلامها، فقال: لله أبوك، أمسكك لنفسي أحبّ إليك أم أهبك لهذا الغلام، فإنه ابن أمير المؤمنين، قالت: يا أمير المؤمنين، لست لك بحقيقة، وعسى أن يكون هذا الغلام لي وجهها. قال: فقام من مكانه ما راجعها، فدخل، وأقبل عليها مسلمة فقال:

يا لكاع «1» ، أعلى أمير المؤمنين تختارين؟ قالت: يا عدوّ نفسه إنما تلومني أن اخترتك؟ لعمر الله لقد قال رأي من اختارتك. قال: فضيّقت والله مجلسه. واطّلع علينا عبد الملك قد ادهن بدهن واري الشيب، وعليه حلة تتلأأ كأنها الذهب، بيده محضرة «2» يخطر بها، فجلس مجلسه على سريره، ثم قال: إيها، لله أبوك، أمسكك لنفسي أحبّ لك أم أهبك لهذا الغلام؟ قالت: ومن أنت أصلحك الله؟ قال لها الخصي: هذا أمير المؤمنين! قالت: لست مختارة على أمير المؤمنين أحدا. قال: فأين

(325/1)

قولك آنفا؟ قالت: رأيت شيخا كبيرا، وأرى أمير المؤمنين أشبّ الناس وأجملهم، ولست مختارة عليه أحدا، قال: دونكها يا مسيلمة قال بديح، فنشرت عليه الكسوة والدنانير التي معي، وأريته الجواري والطيب. قال: عافى الله ابن جعفر! أخشي ألا يكون لها عندنا نفقة وطيب وكسوة؟ فقلت: بلى، ولكنه أحبّ أن يكون معها ما تكتفي به حتى تستأنس. قال: فقبضها مسلمة، فلم تلبث عنده إلا يسيرا حتى هلكت.

قال بديح: فو الله الذي ذهب بنفس مسلمة، ما جلست معه مجلسا ولا وقفت موقفا أنازعه فيه الحديث، إلا قال: ابغني مثل فلانة. فأقول: ابغني مثل ابن جعفر.

قال: فقلت لبديح: ويلك! فما أجازه به؟ قال: قال حين دفع إليه حاجته ودينه: لأجيزنك جائزة لو نشر لي مروان من قبره ما زدته عليها. فأمر له بمائة ألف. وايم الله إني لا أحسبه أنفق في هديته ومسيره ذلك وجاريتته التي كانت عدل نفسه مائتي ألف.

وفود الشعبي على عبد الملك بن مروان

كتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف: أن ابعث إليّ رجلا يصلح للدين والدنيا، أتخذه سميرا وجليسا وخليّا. فقال الحجاج: ما ماله إلا عامر الشعبي.

وبعث به إليه؛ فلما دخل عليه وجده قد كبا مهتما، فقال: ما بال أمير المؤمنين؟ قال ذكرت قول زهير «1» :

كأني وقد جاوزت سبعين حجّة ... خلعت بها عني عذار لجامي
رمتني بنات الدهر من حيث لا أرى ... فكيف بمن يرمى وليس برامي
فلو أنني أرمى بنبل رأيتها ... ولكنتي أرمى بغير سهام

على الراحيتين تارة وعلى العصا ... أنوء ثلاثا بعدهنّ قيامي «2»
قال له الشّعي: ليس كذلك يا أمير المؤمنين، ولكن كما قال لبيد بن ربيعة، وقد بلغ سبعين حجة:

(326/1)

كأني وقد جاوزت سبعين حجة ... خلعت بها عن منكبّي رداثيا
خليفة الله ماذا تأمرنّ بنا ... لسنا إليكم ولا في دار منتظر
ما زلت بعدك في همّ يؤرّقني ... قد طال في الحيّ إصعادي ومنحدري
لا ينفع الحاضر المجهود بادينا ... ولا يعود لنا باد على حضر
إنّا لنرجو إذا ما الغيث أخلفنا ... من الخليفة ما نرجو من المطر
نال الخلافة إذ كانت له قدرا ... كما أتى ربّه موسى على قدر
هذى الأرامل قد قصّيت حاجتها ... فمن حاجة هذا الأرملة الذّكر
فقال: يا جرير، والله لقد وليت هذا الأمر وما أملك إلا ثلاثمائة، فمائة أخذها عبد الله، ومائة أخذتها
أم عبد الله، يا غلام أعطه المائة الباقية.

فقال: والله يا أمير المؤمنين، إنّها لأحبّ مال إليّ كسبته. ثم خرج، فقالوا له: ما وراءك؟ قال ما
يسوءكم! خرجت من عند أمير يعطي الفقراء ويمنع الشعراء، وإني عنه لراض. ثم أنشأ يقول:
رأيت رقى الشيطان لا تستفزّه ... وقد كان شيطاني من الجنّ راقيا

وفود الحجاج بابراهيم بن محمد بن طلحة على عبد الملك بن مروان

عمران بن عبد العزيز قال: لما ولي الحجاج بن يوسف الحرّمين بعد قتله ابن الزبير، استخلص إبراهيم
بن محمد بن طلحة فقربه وعظّم منزلته. فلم تزل تلك حاله عنده حتى خرج إلى عبد الملك بن مروان،
فخرج معه معادلا، لا يقصّر له في برّ ولا إعظام، حتى حضر به عبد الملك. فلما دخل عليه لم يبدأ
بشيء بعد السلام إلا أن قال له: قدمت عليك أمير المؤمنين برجل الحجاز، لم أدع له بها نظيرا في
الفضل والأدب والمروءة وحسن المذهب، مع قرابة الرحم، ووجوب الحق، وعظم قدر الأبوة، وما
بلوت منه في الطاعة والنصيحة وحسن الموازنة، وهو إبراهيم بن محمد بن طلحة، وقد

(327/1)

أحضرتة بابك ليسهل عليه إذك، وتعرف له ما عرفتك. فقال: أذكرتنا رحماً قريبة وحفاً واجباً، يا غلام، إيذن لإبراهيم بن محمد بن طلحة. فلما دخل عليه أدناه عبد الملك حتى أجلسه على فراشه، ثم قال له: يا بن طلحة، إنَّ أبا محمد ذكرنا ما لم نزل نعرفك به في الفضل والأدب والمروءة وحسن المذهب، مع قرابة الرحم ووجوب الحق وعظم قدر الأبوة، وما بلاه منك في الطاعة والنصيحة وحسن الموازنة، فلا تدعن حاجة في خاصة نفسك وعامتك إلا ذكرتها. فقال: يا أمير المؤمنين، إن أول الحوائج، وأحق ما قدّم بين يدي الأمور، ما كان لله فيه رضا، ولحق نبيه صلى الله عليه وسلّم أداء، ولك فيه ولجماعة المسلمين نصيحة، وعندني نصيحة لا أجد بداً من ذكرها، ولا أقدر على ذلك إلا وأنا خال، فأخلىني يا أمير المؤمنين ترد عليك نصيحتي. قال:

دون أبي محمد؟ قال: نعم، دون أبي محمد؟ قال عبد الملك للحجاج: قم. فلما خطر «1» الستر أقبل عليّ فقال: يا بن طلحة، قل نصيحتك. فقال: تالله يا أمير المؤمنين، لقد عمدت إلى الحجاج في تغطرسه وتعجرفه وبعده من الحق وقربه من الباطل، فولبته الحرمين، وهما ما هما، وبهما ما بهما من المهاجرين والأنصار، والموالي الأخيار، يطوهم بطغام «2» أهل الشام، ورعاع لا روية لهم في إقامة حق ولا في إزاحة باطل، ويسومهم الخسف، ويحكم فيهم بغير السنة بعد الذي كان من سفك دمائهم، وما انتهك من حرمهم؛ ثم ظننت أن ذلك فيما بينك وبين الله زاهق، وفيما بينك وبين نبيك غدا إذا جاتك «3» للخصومة بين يدي الله في أمته. أما والله لا تنجو هنالك إلا بحجة. فارب «4» على نفسك أودع. فقال له عبد الملك: كذبت ومنت «5» وظن بك الحجاج ما لم يجده فيك؛ وقد يظنّ الخير بغير أهله؛ قم فأنت الكاذب المائن. قال:

فقمت وما أعرف طريقاً. فلما خطرقت الستر لحقني لاحق فقال: احبسوا هذا، وقال للحجاج: ادخل. فدخل، فمكث ملياً من النهار لا أشك أنهما في أمري، ثم خرج

(328/1)

الآذن فقال: ادخل يا بن طلحة. فلما كشف لي الستر لقيني الحجاج وهو خارج وأنا داخل؛ فاعتنقني وقبّل ما بين يعيني، وقال: أمّا إذا جرى الله المتواخين خيراً بفضل تواصلهما، فجزاك الله عني أفضل الجزاء؛ فو الله لمن سلمت لك لأرفعنّ ناظر، ولأعلينّ كعبك، ولأتبعنّ الرجال غبار قدميك. قال: فقلت: يهزأ بي وحقّ الكعبة!

فلما وصلت إلى عبد الملك، أدناني حتى أدناني عن مجلسي الأول؛ ثم قال: يا بن طلحة، لعلّ أحداً

شاركك في نصيحتك هذه! قلت: والله يا أمير المؤمنين، ما أعلم أحدا أنصع عندي يدا ولا أعظم معروفا من الحجاج. ولو كنت محابيا أحدا لغرض دنيا لحابيته. ولكني آثرت الله ورسوله، وآثرتك والمؤمنين عليه. قال: قد علمت أنك لم ترد الدنيا، ولو أردتها لكانت لك في الحجاج، ولكن أردت الله والدار الآخرة. وقد عزلته عن الحرمين لما كرهت من ولايته عليهما، وأعلمته أنك استنزلتني له عنهما استقلالاً لهما؛ ووليته العراقيين وما هنالك من الأمور التي لا يدحضها إلا مثله، وأعلمته أنك استدعيتني إلى ولايته عليهما استزادة له، لألزمه بذلك من حَقِّ ما يؤدِّي إليك عني اجر نصيحتك. فخرج معه فإنك غير ذامٍ لصحبته فخرجت مع الحجاج وأكرمني أضعاف إكرامه.

وفود رسول المهلب على الحجاج بقتل الأزارقة

أبو الحسن المدائني قال: لما هزم المهلب بن أبي صفرة قطري بن الفجاءة صاحب الأزارقة، بعث إلى مالك بن بشير فقال له: إني موفدك إلى الحجاج فسر فإنما هو رجل مثلك. وبعث إليه بجائزة، فردّها وقال: إنما الجائزة بعد الاستحقاق. وتوجّه.

فلما دخل على الحجاج، قال له: ما اسمك؟ قال: مالك بن بشير. قال: ملك وبشارة. كيف تركت المهلب؟ قال: أدرك ما أمل وأمن من خاف. قال: كيف هو بجنده؟ قال: والد رؤوف: قال: فكيف جنده له؟ قال: أولاد بررة. قال: كيف رضاهم

(329/1)

عنه؟ قال: وسعهم بالفضل وأقنعهم بالعدل. قال: فكيف تصنعون إذا لقيتم عدوكم؟ قال: نلقاهم بحدنا فنطمع فيهم، ويلقوننا بحدّهم فيطمعون فينا. قال: كذلك الحدّ إذا لقي الحدّ. قال: فما حال قطري؟ قال: كادنا ببعض ما كدناه. قال: فما منعكم من اتّباعه؟ قال: رأينا المقام من ورائه خيرا من اتّباعه. قال: فأخبرني عن ولد المهلب.

قال: أعباء القتال بالليل، حماة السرح بالنهار. قال: أيّهم أفضل؟ قال: ذلك إلى أيّهم. قال: لتقولن. قال: هم كحلقة مضروبة لا يعرف طرفاها. قال: أقسمت عليك هل روأت «1» في هذا الكلام؟ قال: ما أطلع الله على غيبه أحدا. فقال الحجاج لجلسائه: هذا والله الكلام المطبوع لا الكلام المصنوع.

وفود جرير بن عبد الملك بن مروان

لما مدح جرير بن الخنفي الحجاج بن يوسف بشعره الذي يقول فيه:

من سدّ مطّلع التّفاق عليكم ... أم من يصول كصوله الحجّاج
ويشعره الذي يقول فيه:

أم من يغار على التّساء حفيظة ... إذ لا يثقن بغيره الأزواج «2»
وقوله:

دعا الحجّاج مثل دعاء نوح ... فأسمع ذا المعارج فاستجابا
قال له الحجّاج: إن الطّاقة تعجز عن المكافأة، ولكني موفدك على أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان،
فسر إليه بكتابي هذا فسار إليه؛ ثم استأذنه في الإنشاد فأذن له، فقال:
أتصحو أم فؤادك غير صاحي

(330/1)

قال له عبد الملك: بل فؤادك. فلما انتهى إلى قوله:
تعزّت أمّ حزره ثم قالت: ... رأيت الواردين ذوي امتياح «1»
ثقي بالله ليس له شريك ... ومن عند الخليفة بالتّجاح
سأشكر إن رددت إليّ ريشي ... وأثبتّ القوادم في جناحي «2»
ألستم خير من ركب المطايا ... وأندى العالمين بطون راح
ارتاح عبد الملك، وكان متكئا فاستوى جالسا، وقال: من مدحنا منكم فليمدحنا بمثل هذا أو
ليسكت! ثم قال له: يا جرير، أترى أم حزره ترويهما مائة ناقة؟؟ نعم كلب؟ قال: إذا لم تروها يا أمير
المؤمنين فلا أروها الله. فأمر له بمائة ناقة من نعم كلب. كلها سود الحدقة. فقال: يا أمير المؤمنين، إنهما
أبّاق «3» ونحن مشايخ وليس بأحدنا فضل عن راحلته، فلو أمرت بالرّعاء. فأمر له بثمانية من
الرعاء، وكانت بين يدي عبد الملك صحاف من فضة يقرعها بقضيب في يده، فقال له جرير:
والحلب يا أمير المؤمنين، وأشار إلى صحفة منها؛ فنبذها إليه بالقضيب، قال: خذها لا نفعتك! ففي
ذلك يقول جرير.

أعطوا هنيذة يحدوها ثمانية ... ما في عطائهم من ولا سرف «4»

وفود جرير عن أهل الحجاز على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه

قدم جرير بن الخطفي على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، عن أهل الحجاز، فاستأذنه في الشعر،

فقال: مالي وللشعر يا جرير؟ إني لفي شغل عنه! قال يا أمير المؤمنين، إنها رسالة عن أهل الحجاز.
قال: فهاهما إذا. فقال:

(331/1)

كم من ضير أمير المؤمنين لدى ... أهل الحجاز دهاه البؤس والضرر
أصابت السنة الشهباء ما ملكت ... يمينه فحناه الجهد والكبر «1»
ومن قطع الحشا عاشت محبأة ... ما كانت الشمس تلقاها ولا القمر
لما اجتلتها صروف الدهر كارهة ... قامت تنادي بأعلى الصوت: يا عمر!
وفود دكين الراجز على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه

قال دكين بن رجاء الفقيمي الراجز: مدحت عمر بن عبد العزيز وهو والي المدينة، فأمر لي بخمس
عشرة ناقة كرائم صعبا، فكرهت أن أرمي بها الفجاج فنتشر علي، ولم تطب نفسي ببيعها، فقدمت
علينا رفقة من مصر، فسألتهم الصّحبة، فقالوا: إن خرجت الليلة. فقلت: إني لم أودّع الأمير ولا بدّ
وداعه.

قالوا: فإن الأمير لا يحجب عن طارق ليل. فاستأذنت عليه، فأذن لي وعنده شيخان لا أعرفهما.
فقال لي: يا دكين، إن لي نفسا تواقفة، فإن أنا صرت إلى أكثر مما أنا فيه فبعين ما أريتك. قلت له:
أشهد لي بذلك أيها الأمير. قال: إني أشهد الله. قلت:
ومن خلقه! قال: هذين الشيخين. قلت لأحدهما: من أنت يرحمك الله أعرفك؟ قال:
سالم بن عبد الله. فقلت: لقد استسمنت الشاهد. وقلت للآخر: من أنت يرحمك الله؟
قال: أبو يحيى مولى الأمير. وكان مزاحم يكنى أبا يحيى. قال دكين: فخرجت بمن إلى بلدي، فرمى الله
في أذناهم بالبركة، حتى اتخذت منهنّ الضياع والرّباع والغلمان.
فإني لبصحراء فلج «2»، إذا يريد يركض إلى الشام، فقلت له: هل من مغربة خبر؟
قال: مات سليمان بن عبد الملك. قلت: فمن القائم بعده؟ قال: عمر بن عبد العزيز.
قال: فأنخت قلوصي فألقيت عليها أداي وتوجهت عنده؛ فلقيت جريرا في الطريق

(332/1)

جائيا من عنده، فقلت: من أين أبا حذرة؟ قال: من عند أمير يعطي الفقراء ويمنع الشعراء قلت: فما ترى فإني خرجت إليه؟ قال: عول عليه في مال ابن السبيل كما فعلت. فانطلقت فوجدته قاعدا على كرسي في عرصة «1» داره، قد أحاط الناس به فلم أجد إليه سبيلا للوصول، فناديت بأعلى صوتي: يا عمر الخيرات والمكارم ... وعمر الدسائع العظام «2»
إني امرؤ من قطن بن دارم ... أطلب حاجي من أخي مكارم
إذ نتجى والليل غير نائم ... في ظلمة الليل وليلي عاتم
عند أبي يحيى وعند سالم

فقام أبو يحيى ففرج لي، وقال: يا أمير المؤمنين، إن لهذا البدويّ عندي شهادة عليك. قال: أعرفها، أدن مني يا دكين، أنا كما ذكرت لك أن لي نفسا تواقّة، وأن نفسي تاقّت إلى أشرف منازل الدنيا، فلما أدركتها وجدتها تتوق إلى الآخرة؛ والله ما رزأت من أمور الناس شيئا فأعطيك منه، وما عندي إلا ألفا درهم، أعطيك أحدهما. فأمر لي بألف درهم. فو الله ما رأيت ألفا كانت أعظم بركة منها.

وفود كثير والأحوص ونصيب على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه

حماد الراوية قال: قال لي كثير عزة: ألا أخبرك عما دعاني إلى ترك الشعر؟ قلت:

نعم. قال: شخصت أنا والأحوص ونصيب إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، وكل واحد منا يدل عليه بسابقة وإخاء قديم، ونحن لا نشك أن سيشركنا في خلافته، فلما رفعت لنا أعلام خصاصة «3» ، لقينا مسلمة بن عبد الملك، وهو يومئذ

(333/1)

فتى العرب، فسلمنا فردّ، ثم قال: ما بلغكم أن إمامكم لا يقبل الشعر؟ قلنا: ما توضّح إلينا خبر حتى انتهينا إليك. ووجمنا وجمة عرف ذلك فينا. فقال: إن يك ذو دين بني مروان قد وليّ وخشيتم حرمانه، فإن ذا دنيانا قد بقي، ولكم عندي ما تحبون، وما ألبث حتى أرجع إليكم وأمنحكم ما أنتم أهله.

فلما قدم كانت رحالنا عنده بأكرام منزل عليه؛ فأقمناه عنده أربعة أشهر يطلب لنا الإذن هو وغيره، فلا يؤذن لنا؛ إلى أن قلت في جمعة من تلك الجمع لو أي دنوت من عمر فسمعت كلامه فحفظته، كان ذلك رأيا. ففعلت، فكان مما حفظت من كلامه: «لكل سفر زاد لا محالة، فترودوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة بالتقوى، وكونوا كمن عاين ما أعدّ الله له من ثوابه أو عقابه، فترغبوا

وترهبوا، ولا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم وتنفادوا لعدوكم في كلام كثير لا أحفظه، ثم قال: «أعوذ بالله أن آمركم بما أنهى عنه نفسي، فتحسر صفقتي، وتظهر عيلتي، وتبدو مسكنتي، في يوم لا ينفع فيه إلا الحق والصدق» ! ثم بكى حتى ظننت أنه قاض نخبه، وارتج المسجد وما حوله بالبكاء، وانصرفت إلى صاحبي فقلت لهما: خذا في شرح «1» من الشعر غير ما كنا نقول لعمر وآبائه؛ فإن الرجل آخري وليس بدنيوي.

إلى أن استأذن لنا مسلمة في يوم جمعة بعد ما أذن للعامّة. فلما دخلت سلّمت ثم قلت: يا أمير المؤمنين، طال الثواء وقلّت الفائدة، وتحدّث بجفائك إيانا وفود العرب.

قال: يا كثير، إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ
«2» أفي واحد من هؤلاء أنت؟

قلت: بلى، ابن سبيل منقطع به، وأنا صاحبك. قال: ألسنت صاحب أبي سعيد؟

قلت: بلى، قال: ما أرى ضيف أبي سعيد منقطعاً به. قلت: يا أمير المؤمنين، أتأذن لي في الإنشاد؟

قال: نعم، ولا تقل ولا تقل إلا حقاً. فقلت:

وليت فلم تشتم علياً ولم تخف ... برياً ولم تقبل إشارة مجرم

(334/1)

وصدّقت بالفعل المقال مع الذي ... أتيت فأمسى راضياً كلّ مسلم
ألا إنّما يكفي الفتى بعد زيغته ... من الأود الباقي ثقاف المقوم «1»
وقد لبست لبس الهلوك ثيابها ... تراءى لك الدنيا بكفّ ومعصم «2»
وتومض أحياناً بعين مريضة ... وتبسم عن مثل الجمان المنظّم
فأعرضت عنها مشمئزاً كأنّما ... سقتك مدوفاً من سهام وعلقم «3»
وقد كنت من أجبهاها في ممّتع ... ومن بحرهما في مزيد الموج مفعم
وما زلت تواقفاً إلى كلّ غاية ... بلغت بها أعلى البناء المقوم
فلما أتاك الملك عفواً ولم يكن ... لطالب دنيا بعده من تقدّم
تركت الذي يفنى وإن كان موقفاً ... وآثرت ما يبقى برأي مصمّم
وأضررت بالفاني وشمّرت للذي ... أمامك في يوم من الشرّ مظلم

ومالك إذا كنت الخليفة مانع ... سوى الله من مال رغب ولادم
سما لك هم في الفؤاد مؤرق ... بلغت به أعلى المعالي بسلم
فما بين شرق الأرض والغرب كلها ... مناد ينادي من فصيح وأعجم
يقول أمير المؤمنين ظلمني ... بأخذ لدينار ولا أخذ درهم
ولا بسط كفّ لامريء غير مجرم ... ولا السّفك منه ظالما ملء محجم
ولو يستطيع المسلمون لقسّموا ... لك الشّطر من أعمارهم غير ندم
فأريح بها من صفقة لمبايع ... وأعظم بما أعظم بما ثم أعظم
قال: فأقبل عليّ وقال: إنك مسئول عما قلت. ثم تقدّم الأحوص فاستأذنه في الإنشاد، فقال: قل،
ولا تقل إلا حقًا. فقال:

وما الشّعر إلا حكمة من مؤلّف ... بمنطق حقّ أو بمنطق باطل
فلا تقبلن إلا الذي وافق الرّضا ... ولا ترجعنا النساء الأرامل
رأيناك لم تعدل عن الحقّ ممنة ... ولا شامة فعل الظلوم المخاتل «4»

(335/1)

ولكن أخذت الحقّ جهدك كلّه ... تقدّم مثال الصالحين الأوائل
فقلنا ولم نكذب بما قد بدا لنا ... ومن ذا يردّ الحقّ من قول قائل
ومن ذا يردّ السّهم بعد مضائه ... على فوقه إذ عار من نزع نابيل «1»
ولولا الذي قد عودتنا خلائف ... غطاريف كانوا كالتليوث البواسل
لما وخذت شهرا برحلي شملته ... تقدّم متان البيد بين الرّواحل «2»
ولكن رجونا منك مثل الذي به ... حيننا زمانا من ذويك الأوائل
فإن لم يكن للشّعر عندك موضع ... وإن كان مثل الدرّ في نظر قائل
وكان مصيبا صادقا لا يعيبه ... سوى أنه يبني بناء المنازل
فإنّ لنا قربي ومحض مودّة ... وميراث آباء مشوا بالمناصل
فذاذوا عدوّ السلم عن عقر دارهم ... وأرسوا عمود الدين بعد التّمايل
وقبلك ما أعطى الهنيدة جلة ... على الشعر كعبا من سديس وبازل «3»
رسول الإله المستضاء بنوره ... عليه السلام بالضحى والأصائل

فقال: إنك مسئول عما قلت. ثم تقدم نصيب فاستأذنه في الإنشاد؛ فلم يأذن له، وأمره بالغزو إلى دابق. فخرج إليها وهو محموم. وأمر لي بثلاثمائة، وللأحوص بمثلها، ولنصيب بمائة وخمسين.

وفود الشعراء على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه

ابن الكلبي: لما استخلف عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، وفدت إليه الشعراء كما كانت تفد إلى الخلفاء قبله؛ فأقاموا ببابه أياما لا يأذن لهم بالدخول، حتى قدم عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود على عمر بن عبد العزيز، وعليه عمامة قد أرخى طرفيها، وكانت له منه مكانة، فقال جرير:

(336/1)

يأيها الرجل المرخي عمامته ... هذا زمانك إني قد مضى زماني
أبلغ خليفتنا إن كنت لاقيه ... أني لذي الباب كالمصفود في قرن «1»
وحش المكانة من أهلي ومن ولدي ... نائي الخلة عن داري وعن وطني
قال: نعم أبا حزره ونعمي عين. فلما دخل على عمر قال: يا أمير المؤمنين، إن الشعراء ببابك؛
وأقوالهم باقية؛ وسناهم مسنونة. قال: يا عون، مالي وللشعراء؟ قال:
يا أمير المؤمنين، إن النبي صلى الله عليه وسلم قد مدح وأعطى، وفيه أسوة لكل مسلم. قال: ومن
مدحه؟ قال: عباس بن مرداس؛ فكساه حلة قطع بها لسانه. قال: وتروي قوله؟
قلت: نعم:

رأيتك يا خير البرية كلها ... نشرت كتابا جاء بالحق معلما
ونورت بالبرهان أمرا مدمسا ... وأطفأت بالبرهان نارا مضرما «2»
فمن مبلغ عني النبي محمدا ... كلّ امرئ يجزي بما قد تكلمنا
تعالى علواً فوق عرش إلها ... وكان مكان الله أعلى وأعظما
قال: صدقت؛ فمن بالباب منهم؟ قال: ابن عمك عمر بن أبي ربيعة. قال: لا قرب الله قرابته، ولا
حيّا وجهه! أليس هو القائل؟

ألا ليت أيّ يوم حانت منيتي ... شممت الذي ما بين عينيك والقم
وليت طهوري كان ريقك كله ... وليت حنوطي من مشاشك والدم «3»
ويا ليت سلمى في القبور ضجيعتي ... هنالك أو في جنة أو جهنم
فليتة والله تمنى لقاءها في الدنيا، ويعمل عملا صالحا. والله لا دخل عليّ أبدا فمن بالباب غير من

ذكرت؟ قلت: جميل بن معمر العذري. قال: هو الذي يقول:
ألا ليتنا نحيا جميعا وإن نمت ... يوافي لدى الموتى ضريحى ضريحها

(337/1)

فما أنا في طول الحياة براغب ... إذا قيل قد سوى عليها صفيحها
أظللّ نهارى لا أراها ويلتقى ... مع الليل روحي في المنام وروحها
اعزب به؛ فو الله لا دخل عليّ أبدا. فمن غير من ذكرت؟ قلت: كثير عزة.
قال: هو الذي يقول:

رهبان مدين والذين عهدتهم ... ييكون من حذر العذاب فعودا
لو يسمعون كما سمعت حديثها ... خزوا لعزة. راكعين سجودا
اعزب به. فمن بالباب غير من ذكرت؟ قلت: الأحوص الأنصاري. قال: أبعده الله ومحقه، أليس هو
القائل وقد أفسد على رجل من أهل المدينة جارية هرب بها منه:
الله بيني وبين سيدها ... يفرّ عني بها وأتبع
اعزب به. فمن بالباب غير من ذكرت؟ قلت: همام بن غالب الفرزدق. قال:
أليس هو القائل يفخر بالزنا:

هما دلتاني من ثمانين قامة ... كما انقضّ باز أقمم الرّيش كاسره
فلما استوت رجلاي في الارض قالتا ... أحيّ يرحى أم قتيل نحاذره
وأصبحت في القوم الجلوس وأصبحت ... مغلّقة دوبي عليها دساكره «1»
فقلت ارفعوا الأسباب لا يشعروا بنا ... وولّيت في أعقاب ليل أبادره
اعزب به. فو الله لا دخل عليّ أبدا، فمن بالباب غير من ذكرت؟ قلت: الأخطل التغلبي. قال:
أليس هو القائل:

فلست بصائم عمري ... ولست بأكل لحم الأضاحي
ولست بزاجر عنسا بكورا ... إلى بطحاء مكّة للنّجاح
ولست بقائم كالعير يدعو ... قبيل الصبح جيّ على الفلاح
ولكني سأشربها شولا ... وأسجد عند منبلج الصباح

(338/1)

اعزب به. فو الله لا وطيء لي بساطا أبدا وهو كافر؛ فمن بالباب غير من ذكرت؟ قلت: جرير بن الخطفي. قال: أليس هو القائل:

لولا مراقبة اليعون أريننا ... مقل المها وسوالف الآرام «1»
هل ينهينك أن قتلن مرقشا ... أو ما فعلن بعروة بن حزام
ذمّ المنازل بعد منزلة اللوى ... والعيش بعد أولئك الأقوام
طرقتك صائدة القلوب وليس ذا ... حين الزيارة فارجعي بسلام
فإن كان ولا بد فهذا. فأذن له؛ فخرجت إليه فقلت: ادخل أبا حزرة. فدخل وهو يقول:
إنّ الذي بعث النبيّ محمدا ... جعل الخلافة في إمام عادل
وسع الخلائق عدله ووفاءه ... حتى ارعوى وأقام ميل المائل
والله أنزل في القرآن فريضة ... لابن السبيل وللفقير العائل
إني لأرجو منك خيرا عاجلا ... والنفس مولعة بحبّ العاجل
فلما مثل بين يديه قال: اتق الله يا جرير ولا تقبل إلا حقا. فأنشأ يقول:
كم بالمامة من شعناء أرملة ... ومن يتيم ضعيف الصوت والنظر
من يعدك تكفي فقد والده ... كالفرخ في العيش لم ينهض ولم يطر
يدعوك دعوة ملهوف كأنّ به ... خبلا من الجنّ أو مساً من التشر «2»
خليفة الله ماذا تأمرنّ بنا ... لسنا إليكم ولا في دار منتظر
ما زلت بعدك في هم يؤرّقني ... قد طال في الحيّ إصعادي ومنحدري
لا ينفع الحاضر المجهود بادينا ... ولا يعود لنا باد على حضر
إنّا لنرجو إذا ما الغيث أخلفنا ... من الخليفة ما نرجو من المطر
نال الخلافة إذ كانت له قدرا ... كما أتى ربّه موسى على قدر
هذي الأرامل قد قضيت حاجتها ... فمن حاجة هذا الأرملة الذكر

(339/1)

فقال: يا جرير، والله لقد وليت هذا الأمر وما أملك إلا ثلاثمائة، فمائة أخذها عبد الله، ومائة أخذتها أمر عبد الله، يا غلام أعطه المائة الباقية.

فقال: والله يا أمير المؤمنين، إنها لأحب مال إليّ كسبته. ثم خرج، فقالوا له: ما وراءك؟ قال ما يسوءكم! خرجت من عند أمير يعطي الفقراء ويمنع. الشعراء، وإني عنه لراض. ثم أنشأ يقول:
رأيت رقي الشيطان لا تستنفره ... وقد كان شيطاني من الجن راقيا «1»

وفود نابغة بني جعدة على ابن الزبير رحمه الله تعالى

الزبير بن بكار قاضي الحرمين، قال: أقحمت السنة نابغة بني جعدة، فوفد إلى ابن الزبير، فدخل عليه في المسجد الحرام، ثم أنشده:

حكيت لنا الصديق لما وليتنا ... وعثمان والفاروق فارتاح معدم
وسويت بين الناس في الحق فاستووا ... فعاد صباحا حالك اللون مظلم
أتاك أبو ليلى يجوب به الدجى ... دجى الليل جؤاب الفلاة عثمتم «2»
لتجبر منه جانبا زعزعت به ... صروف الليالي والزمان المصتم

فقال له ابن الزبير: هون عليك أبا ليلى، فالشعر أدنى وسائلك عندنا؛ أما صفوة أموالنا فلا ل الزبير، وأما عفوته «3» فإن بني أسد وتيما تشغلها عنك، ولكن لك في مال الله سهمان: سهم برؤيتك رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسهم بشركتك المسلمين في فيئهم. ثم أخذ بيده ودخل به دار النعم، فأعطاه قلائص سبعا، وجملا رحيلًا، وأوقر «4» له

(340/1)

الركاب برًا وتمرًا وثيابًا. فجعل النابغة يستعجل فيأكل الحب صرفًا. فقال ابن الزبير: ويح أي ليلى! لقد بلغ به الجهد. قال النابغة: أشهد لسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ما وليت قريش فعدلت، واسترحمت فرحمت، وحدثت فصدقت، ووعدت خيرا فأنجزت، فأنا والنبيون فرّاط القاصفين.

قال الزبير بن بكار: الفارط: الذي يتقدم إلى الماء يصلح الرشاء والدلاء والقاصف: الذي يتقدم لشراء الطعام.

وفود أهل الكوفة على ابن الزبير رحمه الله تعالى

قال: لما قتل مصعب بن الزبير المختار بن أبي عبيد، خرج حاجًا فقدم على أخيه عبد الله بن الزبير بمكة ومعه وجوه أهل العراق، فقال له: يا أمير المؤمنين جنتك بوجوه أهل العراق، لم أدع لهم بها نظيرًا، لتعطيهم من هذا المال. قال: جنتني بعييد أهل العراق لأعطيهم مال الله. والله لا فعلت. فلما

دخلوا عليه وأخذوا مجالسهم، قال لهم: يا أهل الكوفة، وددت والله أن لي بكم من أهل الشام صرف الدينار والدرهم، بل لكل عشرة رجلا. قال عبيد الله بن ظبيان: أتدري يا أمير المؤمنين ما مثلنا ومثلك فيما ذكرت؟ قال: وما ذلك؟ قال: فإن مثلنا ومثلك ومثل أهل الشام كما قال أعشى بكر من وائل:

علقتها عرضا وعلقت رجلا ... غيري وعلق أخرى غيرها الرجل «1»

أحبيناك نحن، وأحببت أنت أهل الشام، وأحب أهل الشام عبد الملك.

ثم النصرف القوم من عنده خائنين. فكاتبوا عبد الملك بن مروان وغدروا بمصعب بن الزبير.

(341/1)

وفود رؤية على أبي مسلم

الأصمعي قال: حدثنا رؤية قال: قدمت على أبي مسلم صاحب الدعوة، فأنشدته، فناداني: يا رؤية، فنوديت له من كل مكان: يا رؤية! فأجبت:

لبيك إذ دعوتني لبيكا ... أحمد ربًا ساقني إليك

الحمد والتعمة في يديكا

قال: بل في يدي الله عز وجل. قلت: وأنت لما أنعمت حمدت. ثم استأذنت في الإنشاد فأذن لي، فأنشدته:

ما زال يأتي الملك من أقطاره ... وعن يمينه وعن يساره

مشمرا لا يصطلي بناه ... حتى أقر الملك في قراره

فقال: إنك أتيتنا وقد شفّ «1» المال واستنفضه الإنفاق، وقد امرنا لك بجائزة وهي تافهة يسيرة،

ومنك العود وعلينا المعول، والدهر أطرق مستتب «2»، فلا تلق بجنبك الأسد «3» .

قال: فقلت: الذي أفادني الأمير من كلامه أحب إلي من الذي أفادني من ماله.

وفود العتاي على المأمون

الشيباني قال: كان كلثوم العتاي أيام هارون الرشيد في ناحية المأمون، فلما خرج إلى خراسان شيعه إلى قومس حتى وقف على سنداد كسرى، فلما حاول وداعه قال له المأمون: لا تدع زيارتنا إن كان لنا من هذا الأمر شيء. فلما أفضت الخلافة إلى المأمون وفد إليه العتاي زائرا، فحجب عنه، فتعرض

ليحيى بن أكتهم فقال: أيها القاضي، إن رأيت أن تذكر بي أمير المؤمنين. فقال له يحيى: ما أنا بالحاجب. قال

(342/1)

له: قد علمت، ولكنك ذو فضل وذو الفضل معوان. فدخل على المأمون فقال: يا أمير المؤمنين، أجزني من العتابي ولسانه فلم يأذن له وشغل عنه، فلما رأى العتابي جفاهه قد تهادى. كتب إليه: ما على ذا كنا افترقنا بسندا ... د ولا هكذا رأينا الإخاء لم أكن أحسب الخلافة يزدا ... د بما ذو الصفاء إلا صفاء تضرب الناس بالثقة السم ... ر على غدرهم وتنسى الوفاء فلما قرأ أبياته دعا به، فلما دنا منه سلم بالخلافة ووقف بين يديه، فقال: يا عتابي، بلغتنا وفاتك فعمتتنا، ثم انتهت إلينا وفادتك فسررتنا. فقال: يا أمير المؤمنين، لو قسم هذا البرّ على أهل منى وعرفات لوسعهم؛ فإنه لا دين إلا بك، ولا دنيا إلا معك! قال: سل حاجتك. قال: يدك بالعطية أطلق من لساني بالمسألة فأحسن جائزته. وانصرف.

وفود أبي عثمان المازني على الواثق

أبو عثمان بكر بن محمد قال: وفدت على الواثق، فلما دخلت وسلمت قال: هل خلّيت وراءك أحدا يهملك أمره؟ قلت أختي لي ربّيتها فكأنها بنتي. قال: ليت شعري. ما قالت حين فارقتها؟ قال: أنشدتني قول الأعرشي: تقول ابنتي يوم جدّ الرحيل ... أرانا سواء ومن قد يتم أبانا، فلا رمت من عندنا ... فإننا نخاف بأن نخترم «1» أرانا إذا أضمرتك البلا ... د نجفى وتقطع منا الرّحم «2» قال: ليت شعري، ما قلت لها؟ قال: أنشدتها يا أمير المؤمنين قول جرير: تقي بالله ليس له شريك ... ومن عند الخليفة بالتّجاح

(343/1)

قال: أتاك النجاح. وأمر له بعشرة آلاف درهم. ثم قال: حدّثني حديثاً ترويه عن أبي مَهْدِيَّةٍ مستظرفاً. قلت: يا أمير المؤمنين، حدّثني الأصمعي قال: قال لي أبو مَهْدِيَّةٍ: بلغني أن الأعراب والأعزاب سواء في الهجاء. قلت: نعم. قال: فاقراً:

الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا

ولا تقرأ: الأعراب، ولا يغرّتك العزب وإن صام وصلى! فضحك الواصل حتى شغل برجله «1»، وقال: لقد لقي أبو مَهْدِيَّةٍ من العزبة شراً. وأمر لي بخمسمائة دينار.

الوافدات على معاوية وفود سودة ابنة عمارة على معاوية

عامر الشعبي قال: وفدت سودة بنت عمارة بن الأشتر الهمدانية على معاوية بن أبي سفيان، فاستأذنت عليه فأذن لها، فلما دخلت عليه سلّمت عليه، فقال لها: كيف أنت يا بنة الأشتر؟ قالت: بخير يا أمير المؤمنين. قال لها: أنت القائلة لأخيك:

شَمَّرَ كَفْعَلُ أَبِيكَ يَا بِنَ عِمَارَةَ ... يَوْمَ الطَّعَانِ وَمَلْتَقَى الْأَقْرَانَ

وَانصُرَ عَلِيًّا وَالْحُسَيْنَ وَرَهْطَهُ ... وَاقْصِدْ لَهْنَدَ وَابْنَهَا بَهْوَانَ

إِنَّ الْإِمَامَ أَخَا النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ... عِلْمَ الْهُدَى وَمَنَارَةَ الْإِيمَانِ

فَقَدْ الْجِيُوشَ وَسِرَ أَمَامَ لَوَائِهِ ... قَدَمَا بِأَبْيَضِ صَارِمٍ وَسَنَانِ

قالت: يا أمير المؤمنين، مات الرأس، وبتر الذنب؛ فذع عنك تذكّار ما قد نسي. قال: هيهات، ليس مثل مقام أخيك ينسى. قالت: صدقت والله يا أمير المؤمنين، ما كان أخي خفيّ المقام، ذليل المكان، ولكن كما قالت الخنساء:

وَإِنَّ صَخْرًا لَتَأْتِمَّ الْهُدَاةُ بِهِ ... كَأَنَّهُ عِلْمٌ فِي رَأْسِهِ نَارٌ

وبالله أسأل يا أمير المؤمنين إغفائي مما استعفيت به. قال: قد فعلت، فقولي حاجتك. قالت: يا أمير المؤمنين، إنك للناس سيد، ولأمورهم مقلّد، والله سائلك

(344/1)

عما افترض عليك من حقّنا، ولا تزال تقدم علينا من ينهض بعزّك، ويبسط سلطانك، فيحصدنا حصاد السّنبل، ويدوسنا دياس البقر، ويسومنا الخسيصة، ويسألنا الجلييلة؛ هذا ابن أرطاة قدم بلادي، وقتل رجالي، وأخذ مالي، ولولا الطاعة لكان فينا عزّ ومنعة، فإما عزلته فشكرناك، وإما لا فعرفناك! فقال معاوية: إياي تمّدين بقومك؟ والله لقد هممت أن أردّك إليه على قتب «1» أشرس

فينفد حكمه فيك. فسكتت، ثم قالت:

صلى الإله على روح تضمّنه ... قبر فأصبح فيه العدل مدفونا

قد حالف الحق لا يبغي به ثنا ... فصار بالحق والإيمان مقرونا

قال: ومن ذلك؟ قالت: علي بن أبي طالب رحمه الله تعالى. قال: ما أرى عليك منه أثرا! قالت: بلى،

أتيته يوما في رجل ولاه صدقاتنا فكان بيننا وبينه ما بين الغث «2» والسمين، فوجدته قائما يصلي،

فانفتل من الصلاة ثم قال برأفة وتعطف: ألك حاجة؟ فأخبرته خبر الرجل. فبكى، ثم رفع يديه إلى

السماء فقال: اللهم إني لم آمرهم بظلم خلقك، ولا ترك حقك. ثم أخرج من جيبه قطعة من جراب

فكتب فيه:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ*

... قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ، فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ

... وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ، بَقِيَتْ لِلَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ

«3». إذا أتاك كتابي هذا فاحتفظ بما في يديك حتى يأتي من يقبضه منك. والسلام.

فغزله يا أمير المؤمنين. ما خزمه بخزام «4»، ولا ختمه بختام.

فقال معاوية: اكتبوا لها بالإنصاف لها والعدل عليها. فقالت: ألي خاصة أم لقومي عامة؟ قال: وما

أنت وغيرك؟ قالت: هي والله إذا الفحشاء واللؤم، إن لم

(345/1)

يكن عدلا شاملا، وإلا يسعني ما يسع قومي. قال: هيهات! لمظكم «1» ابن أبي الجرأة على

السلطان، فبطينا ما تفتطمون، وغركم قوله:

فلو كنت بؤابا على باب جنة ... لقلت لهمدان ادخلوا بسلام

وقوله:

ناديت همدان والأبواب مغلقة ... ومثل همدان سنى فتحة الباب «2»

كالهندواي لم تغفل مضاربه ... وجه جميل وقلب غير وجاب «3»

اكتبوا لها بحاجتها.

وفود بكاره الهلالية على معاوية

محمد بن عبد الله الخزاعي عن الشعبي قال: استأذنت بكاره الهلالية على معاوية بن أبي سفيان، فأذن

لها، وهو يومئذ بالمدينة، فدخلت عليه، وكانت امرأة قد أسنت وعشى «4» بصرها وضعفت قوتها، ترعرش بين خادمين لها؛ فسلمت وجلست. فردّ عليها معاوية السلام، وقال: كيف أنت يا خالة؟ قالت: بخير يا أمير المؤمنين. قال: غيرك الدهر! قالت: كذلك هو ذو غير، من عاش كبير ومن مات قبر. قال عمرو ابن العاص: هي والله القائلة يا أمير المؤمنين:

يا زيد دونك فاستشر «5» من دارنا ... سيفا حساما في التراب دفينا
قد كنت أذخره ليوم كريهة ... فالיום أبرزه الزمان مصونا
قال مروان: وهي والله القائلة يا أمير المؤمنين:
أترى ابن هند للخلافة مالكا ... هيهات ذاك وإن أراد بعيد

(346/1)

متتكَ نفسك في الخلاء ضلالة ... أغراك عمرو للشقا وسعيد
قال سعيد بن العاصي: هي والله القائلة:
قد كنت أطمع أن أموت ولا أرى ... فوق المنابر من أمية خاطبا
فالله أحر مدتي فتناولت ... حتى رأيت من الزمان عجائبا
في كل يوم للزمان خطيبهم ... بين الجميع لآل أحمد عائبا
ثم سكتوا. فقالت: يا معاوية، كلامك أعشى بصري وقصر حجتي، أنا والله قائلة ما قالوا، وما خفي
عليك مني أكثر. فضحك وقال: ليس يمنعا ذلك من برك.
اذكري حاجتك قالت: أما الآن فلا.

وفود الزرقاء على معاوية

عبيد الله بن عمرو الغساني عن الشعبي قال: حدثني جماعة من بني أمية ممن كان يسمر مع معاوية قالوا: بينما معاوية ذات ليلة مع عمرو وسعيد وعتبة والوليد، إذ ذكروا الزرقاء ابنة عدي بن غالب بن قيس الهمدانية، وكانت شهدت مع قومها صقّين، فقال: أيكم يحفظ كلامها؟ قال بعضهم: نحن نحفظه يا أمير المؤمنين. قال:
فأشيروا عليّ في أمرها. فقال بعضهم: نشير عليك بقتلها. قال: بنس الرأي أشرتم به عليّ؛ أيحسن بمثلي أن يتحدث عنه أنه قتل امرأة بعد ما ظفر بها.

فكتب إلى عامله بالكوفة أن يوفدها إليه مع ثقة من ذوي محارمها وعدة من فرسان قومها، وأن يمهد لها وطاء لينا، ويسترها بستر خفيف «1»، ويوسع لها في النفقة؛ فأرسل إليها عامله فأقرأها الكتاب، فقالت: إن كان أمير المؤمنين جعل الخيار إليّ فإني لا آتية، وإن كان حتم فالطاعة أولى. فحملها وأحسن جهازها على ما أمر به.

(347/1)

فلما دخلت على معاوية قال: مرحبا وأهلا، قدمت خير مقدم قدمه وافد! كيف حالك؟
قالت: بخير يا أمير المؤمنين، أدام الله لك النعمة.
قال: كيف كنت في مسيرك؟ قالت: ربيبة بيت أو طفلا ممهدا.
قال: بذلك أمرناهم، أتدرين فيم بعثت إليك؟ قالت: أني لي بعلم ما لم أعلم. قال:
ألست الراكبة الجمل الأحمر، والواقفة بين الصقيين يوم صفين تحضين على القتال وتوقدين الحرب؟
فما حملك على ذلك؟
قالت: يا أمير المؤمنين، مات الرأس، وبتر الذنب، ولم يعد ما ذهب، والدهر ذو غير، ومن تفكر أبصر، والأمر يحدث بعده الأمر.
قال لها معاوية: صدقت، أتخفظين كلامك يومئذ؟
قالت: لا والله لا أحفظه، ولقد أنسيته.
قال: لكني أحفظه، لله أبوك حين تقولين: أيها الناس، ارعوا وارجعوا، إنكم قد أصبحتم في فتنه غشتكم «1» جلايب الظلم، وجارت بكم عن قصد المحجة، فياها فتنه عمياء، صماء بكماء، لا تسمع لناعقها، ولا تنساق لقائدها، إن المصباح لا يضيء في الشمس، ولا تنير الكواكب مع القمر، ولا يقطع الحديد إلا الحديد، ألا من استرشدنا أرشدناه، ومن سألنا أخبرناه. أيها الناس، إن الحق كان يطلب ضالته فأصابها، فصبرا يا معشر المهاجرين والأنصار على الغصص، فكأن قد اندمل شعب الشتات «2»، والتأمت كلمة العدل، ودمغ الحق باطله؛ فلا يجهلن أحد فيقول: كيف العدل وأني؟ ليقض الله أمرا كان مفعولا. ألا وإنّ خضاب النساء الحنّاء، وخضاب الرجال الدماء، ولهذا اليوم ما بعده:
والصبر خير في الأمور عواقبا

(348/1)

إيها في الحرب قدما غير ناكصين «1» ولا متشاكسين.
ثم قال لها: والله يا زرقاء لقد شركت عليا في كل دم سفكه.
قالت: أحسن الله بشارتك، وأدام سلامتك؛ فمثلك بشرٍ بخيرٍ وسرٍّ جليسه.
قال أو يسرك ذلك؟ قالت: نعم والله، لقد سررت بالخبر فأتي لي بتصديق الفعل.
فضحك معاوية وقال: والله لوفاءكم له بعد موته أعجب من حبكم له في حياته.
اذكري حاجتك.

قالت يا أمير المؤمنين، آليت على نفسي ألا أسأل أميرا أعنت عليه أبدا، ومثلك أعطى عن غير
مسألة، وجاد عن غير طلبية.

قال: صدقت! وأمر لها وللذين جاءوا معها بجوائز وكسا.

وفود أم سنان بنت خيثمة على معاوية رحمه الله

سعيد بن حدافة قال: حبس مروان بن الحكم هو والي المدينة غلاما من بني ليث في جنابة جناها،
فأنته جدة الغلام أم أبيه، وهي أم سنان بنت خيثمة بن خرشة المدحجية، فكلمته في الغلام فأغلظ
لها مروان. فخرجت إلى معاوية، فدخلت عليه فانتسبت فعرفها، فقال لها: مرحبا يا بنة خيثمة، ما
أقدمك أرضنا وقد عهدتك تشتمينا وتحصين علينا عدونا؟ قالت: إن لبي عبد مناف أخلاقا طاهرة
وأعلاما ظاهرة وأحلاما وافرة، لا يجهلون بعد علم، ولا يسفهون بعد حلم، ولا ينتقمون بعد عفو،
وإن أولى الناس بالتباع ما سنّ آباؤهم لأنت. قال: صدقت! نحن كذلك، فكيف قولك:

عزب الرقاد فمقلتي لا ترقد ... والليل يصدر بالهموم ويورد
يا آل مذحج لا مقام فشمروا ... إن العدو لآل أحمد يقصد

(349/1)

هذا عليّ كالهلال تحفه ... وسط السماء من الكواكب أسعد
خير الخلائق وابن عمّ محمد ... إن يهدكم بالتور منه تمتدوا
ما زال مذ شهد الحروب مظفرا ... والنصر فوق لوائه ما يفقد
قالت: كان ذلك يا أمير المؤمنين، وأرجو أن تكون لنا خلفا بعده فقال رجل من جلسائه: كيف يا
أمير المؤمنين وهي القائلة:

إما هلكت أبا الحسين فلم تزل ... بالحق تعرف هاديا مهديًا -

فاذهب عليك صلاة ربك ما دعت ... فوق الغصون حمامة قمريًا

قد كنت بعد محمد خلفا كما ... أوصى إليك بنا فكنت وفيًا

فاليوم لا خلف يؤمل بعده ... هيهات نأمل بعده إنسيًا

قالت: يا أمير المؤمنين، لسان نطق، وقول صدق؛ ولئن تحقق فيك ما ظننا فحظك الأوفر. والله
ورثك الشنآن «1» في قلوب المسلمين إلا هؤلاء. فأدحض «2» مقالتهم، وأبعد منزلتهم، فإنك إن
فعلت ذلك تزدد من الله قربا، ومن المؤمنين حبا.

قال: وإنك لتقولين ذلك؟ قالت سبحان الله! والله ما مثلك مدح بباطل. ولا اعتذر إليه بكذب؛
وإنك لتعلم ذلك من رأينا وضمير قلوبنا. كان والله عليّ أحب إلينا منك، وأنت أحب إلينا من
غيرك. قال: ممن؟ قالت: من مروان بن الحكم وسعيد ابن العاص. قال: وبم استحققت ذلك عندك؟
قالت: بسعة حلمك وكرم عفوكم.

قال: فإنهما يطمعان في ذلك. قالت: هما والله من الرأي على ما كنت عليه لعثمان بن عفان رحمه
الله. قال: والله لقد قاربت، فما حاجتك؟

قالت: يا أمير المؤمنين، إن مروان تبّنك «3» بالمدينة تبّنك من لا يريد منها البراح، لا يحكم بعدل،
ولا يقضي بسنة، يتتبع عثرات المسلمين، ويكشف عورات المؤمنين، حبس ابن ابني، فأتيته، فقال
كيت وكيت فألقمته أحسن من الحجر،

(350/1)

وألقته أمر من الصّاب ثم رجعت إلى نفسي باللائمة، وقلت: لم لا أصرف ذلك إلى من هو أولى
بالعفو منه؟ فأتيته يا أمير المؤمنين، لتكون في أمري ناظرا، وعليه معديا.
قال: صدقت! لا أسألك عن ذنبه والقيام بحجته. اكتبوا لها باطلاقه.
قالت: يا أمير المؤمنين؛ وأني لي بالرجعة وقد نفذ زادي، وكلت راحلتي؟ فأمر لها براحلة وخمسة آلاف
درهم.

وفود عكرشة بنت الأطرش على معاوية رحمه الله تعالى

أبو بكر الهذلي عن عكرمة قال: دخلت عكرشة بنت الأطرش بن رواحة على معاوية متوكئة على
عكاز لها، فسلمت عليه بالخلافة ثم جلست؛ فقال لها معاوية: الآن يا عكرشة صرت عندك أمير

المؤمنين؟ قالت: نعم، إذ لا عليّ حيّ قال: أأنت المقلّدة حمائل السيوف بصقّين، وأنت واقفة بين الصّفين تقولين: أيها الناس، عليكم أنفسكم لا يضركم من ضلّ إذا اهتديتم إن الجنة لا يرحل عنها من أوطنها، ولا يهرم من سكنها، ولا يموت من دخلها؛ فابتاعوها بدار لا يدوم نعيمها، ولا تنصرم همومها، وكونوا قوما مستبصرين في دينهم مستظهرين بالصبر على طلب حقهم؛ إن معاوية دلف «1» إليكم بعجم العرب غلف «2» القلوب، لا يفقهون الإيمان ولا يدرون ما الحكمة؛ دعاهم بالدنيا فأجابوه، واستدعاهم إلى الباطل فلبّوه، فالله عباد الله في دين الله؛ إياكم والتواكل، فإن ذلك ينقض عرى الإسلام، ويطفئ نور الحق هذه بدر الصغرى، والعقبة الأخرى. يا معشر المهاجرين والأنصار، امضوا على بصيرتكم، واصبروا على عزيمتكم، فكأنني بكم غدا ولقد لقيتم أهل الشام كالحمر الناهقة تصقع «3» صقع البقر، وتروث روث العناق.

(351/1)

فكأنني أراك على عصاك هذه وقد انكفأ عليك العسكران يقولون: هذه عكرشة بنت الأطرش بن رواحة. فإن كدت لتقتلين أهل الشام لولا قدر الله، وكان أمر الله قدرا مقدورا، فما حملك على ذلك؟ قالت: يا أمير المؤمنين قال الله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءٍ إِن تُبَدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ «1» وإن اللبيب إذا كره أمرا لا يجب إعادته، قال: صدقت، فاذكري حاجتك. قالت: إنه كانت صدقاتنا تؤخذ من أغنيائنا فتردّ على فقرائنا؛ وإنّا قد فقدنا ذلك، فما يجبر لنا كسير؛ ولا ينعش لنا فقير؛ فإن كان ذلك عن رأيك فمثلك تنبّه من الغفلة وراجع التوبة، وإن كان عن غير رأيك فما مثلك استعان بالخونة ولا استعمل الظلمة.

قال معاوية: يا هذه، إنه ينوبنا من أمور رعيّتنا أمور تنبتق، وبحور تنفهب «2» .

قالت: يا سبحان الله. والله ما فرض الله لنا حقا فجعل فيه ضررا على غيرنا، وهو علام الغيوب. قال معاوية: يا أهل العراق، نتهكم عليّ بن أبي طالب فلم تطاقوا! ثم أمر بردّ صدقاتهم فيهم وإنصافهم.

قصة درامية الحجونية مع معاوية رحمه الله تعالى

سهل بن أبي سهل التميمي عن أبيه قال: حج معاوية، فسأله عن امرأة من بني كنانة كانت تنزل بالحجون، يقال له دارمية الحجونية؛ وكانت سوداء كثيرة اللحم، فأخبر بسلامتها؛ فبعث إليها فجاء بها؛ فقال: ما حالك يا بنة حام؟ فقالت: لست لحام إن عبتني؛ أنا امرأة من بني كنانة. قال: صدقت.

أتدريين لم بعثت إليك؟

قالت: لا يعلم الغيب إلا الله. قال: بعثت إليك لأسألك: علام أحببت علياً وأبغضتني؟ وواليته وعاديتني؟ قالت: أو تعفني. قال: لا أعفيك. قالت: أما إذ أبيت، فإني أحببت علياً على عدله في الرعية، وقسمه بالسوية؛ وأبغضتك على قتال

(352/1)

من هو أولى منك بالأمر، وطلبتك ما ليس لك بحق. وواليت علياً على ما عقد له رسول الله صلى الله عليه وسلم من الولاء، وحبّه المساكين. وإعظامه لأهل الدين. وعاديتك على سفكك الدماء، وجورك في القضاء، وحكمك بالهوى.

قال: فلذلك انتفح بطنك، وعظم ثدياك، وربت عجيزتك «1»، قالت: يا هذا، بهند والله كان يضرب المثل في ذلك لا بي. قال معاوية: يا هذه اربعي «2»، فإننا لم نقل إلا خيراً؛ إنه إذا انتفخ بطن المرأة تم خلق ولدها، وإذا عظم ثديها تروى رضيعها. وإذا عظمت عجيزتها رزن مجلسها. فرجعت وسكنت. قال لها: ويا هذه، هل رأيت علياً؟ قالت: إي والله. قال: فيكيف رأيت؟ قال: رأيت والله لم يفتنه الملك الذي فتنك، ولم تشغله النعمة التي شغلتك. قال: فهل سمعت كلامه؟ قالت: نعم والله، فكان يجلو القلوب من العمى كما يجلو الزيت صدأ الطست. قال: صدقت! فهل لك من حاجة؟ قالت: أو تفعل إذا سألتك؟ قال: نعم. قالت: تعطيني مائة ناقة حمراء فيها فحلها وراعيها. قال: تصنعين بها ماذا؟

قالت: أغذو بألبانها الصغار، وأستحيي بها الكبار، وأكتسب بها المكارم، وأصلح بها بين العشائر.

قال: فإن أعطيتك ذلك فهل أحلّ عندك محل علي بن أبي طالب؟

قالت: ماء ولا كصداء «3»، ومرعى ولا كالسعدان «4»، وفقى ولا كمالك، يا سبحان الله، أو دونه؟ فأنشأ معاوية يقول:

إذا لم أعد بالحلم مني عليكم ... فمن ذا الذي بعدي يؤمل للحلم

خذيها هنيئاً واذكري فعل ماجد ... جزاك على حرب العداوة بالسلم-

ثم قال: أما والله لو كان علي حياً ما أعطاك منها شيئاً.

قالت: لا والله، ولا وبرة واحدة من مال المسلمين.

(353/1)

وفود أم الخير بنت حريش على معاوية

عبيد الله بن عمر الغساني عن الشعبي، قال: كتب معاوية إلى واليه بالكوفة أن يحمل إليه أم الخير بنت الحريش بن سراقه البارقي برحلهما، وأعلمه أنه مجازيه بالخير خيرا وبالشر شراً بقولها فيه، فلما ورد عليه كتابه ركب إليها فأقرأها كتابه؛ فقالت: أما أنا فغير زائغة عن طاعة، ولا معتلة بكذب، ولقد كنت أحب لقاء أمير المؤمنين لأمر تختلج في صدري.

فلما شيعها وأراد مفارقتها قال لها: يا أم الخير، إن أمير المؤمنين كتب إلي أنه مجازيني بالخير خيرا وبالشر شراً؛ فمالى عندك؟ قالت: يا هذا لا يطمعنك برك بي أن أسرك بباطل. ولا تؤيسك معرفتي بك أن أقول فيك غير الحق.

فسارت خير مسير حتى قدمت على معاوية. فأنزلها مع الحرم؛ ثم أدخلها في اليوم الرابع وعنده جلساؤه؛ فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

فقال لها: وعليك السلام يا أم الخير، بحق ما دعوتني بهذا الاسم. قالت: يا أمير المؤمنين، مه، فإن بديهة السلطان مدحضة لما يجب علمه، ولكل أجل كتاب. قال:

صدقت! فكيف حالك يا خالة؟ وكيف كنت في مسيرك؟ قالت: لم أزل يا أمير المؤمنين في خير وعافية حتى صرت إليك؛ فأنا في مجلس أنيق، عند ملك رفيق. قال معاوية: بحسن نيّتي ظفرت بكم. قالت:

يا أمير المؤمنين، يعيدك الله من دحض المقال وما تردي عاقبته. قال: ليس هذا أردنا. أخبرينا كيف

كان كلامك إذ قتل عمار بن ياسر؟ قالت: لم أكن زورته «1» قبل، ولا رويته بعد؛ وإنما كانت كلمات نفضها لساني عند الصدمة؛ فإن أحببت أن أحدث لك مقالا غير ذلك فعلت. فالتفت معاوية إلى جلسائه فقال: أبكم يحفظ كلامها؟ فقال رجل منهم: أنا أحفظ بعض كلامها يا أمير المؤمنين.

قال: هات. قال: كأني بها وعليها برد زبيديّ كثيف بين النسيح، وهي على جمل أرمك «2» وقد أحيط حولها، ويدها سوط منتشر الضفيرة، وهي كالفحل يهدر في شقشقته «3»، تقول:

(354/1)

يا أيّها النَّاس اتَّقُوا رَبَّكُمْ، إنّ زلزلة السّاعة شيء عظيم! إنّ الله قد أوضح لكم الحق، وأبان الدليل، وبين السبيل، ورفع العلم، ولم يدعكم في عماء مدهمة: فأين تريدون رحمكم الله؟ أفرارا عن أمير المؤمنين، أو فرارا من الزحف، أم رغبة عن الإسلام، أم ارتدادا عن الحق؟ أما سمعتم الله جل ثناؤه

يقول: وَلَنْبَلُونَكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبَلُّوا أَخْبَارَكُمْ
 «1» .

ثم رفعت رأسها إلى السماء وهي تقول: اللهم قد عيل الصبر، وضعف اليقين، وانتشرت الرعبة،
 ويبدك يا رب أزيمة القلوب، فاجمع اللهم بها الكلمة على التقوى، وألف القلوب على الهدى، وارد
 الحق إلى أهله. هلموا رحمكم الله إلى الإمام العادل والرضيّ التقيّ، والصدّيق الأكبر؛ إنّا إحن بدرية،
 وأحقاد جاهلية، وضغائن أحدية وثب بها واثب حين الغفلة، ليدرك ثارات بني عبد شمس.

ثم قالت: فَقَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ إِيَّاهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ

«2» . صبرا يا معشر المهاجرين والأنصار، قاتلوا على بصيرة من ربكم، وثبات من دينكم؛ فكأنني
 بكم غدا ولقد لقيتم أهل الشام كحمر مستنفرة، فرّت من قسورة «3»، لا تدري أين يسلك بها من
 فجاج الأرض، باعوا الآخرة بالدنيا، واشتروا الضلالة بالهدى وباعوا البصيرة بالعمى وعمّا قليل
 ليصبحنّ نادمين، حتى تحلّ بهم الندامة فيطلبون الإقالة، ولات حين مناص. إنه من ضلّ والله عن
 الحق وقع في الباطل. ألا إن أولياء الله استصغروا عمر الدنيا فرفضوها، واستطابوا الآخرة فسعوا لها
 فالله الله أيها الناس، قبل أن تبطل الحقوق، وتعطلّ الحدود، ويظهر الظالمون، وتقوى كلمة الشيطان؛
 فإلى أين تريدون رحمكم الله عن ابن عم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وصهره وأبي سبطيه، خلق من
 طينته، وتقترع من نبعته «4»، وخصّه بسرّه، وجعله باب مدينته، وأعلم بحبه المسلمين، وأبان ببغضه
 المنافقين؛ ها هو ذا مفلق الهام، ومكسر الأصنام؛ صلى

(355/1)

والناس مشركون، وأطاع والناس كارهون، فلم يزل في ذلك حتى قتل مبارزي بدر، وأفنى أهل أحد،
 وهزم الأحزاب، وقتل الله به أهل خيبر، وفرّق به جمع هوازن؛ فيا لها من وقائع زرعت في قلوب نفاقا،
 وردّة وشقاقا، وزادت المؤمنين إيمانا، وقد اجتهدت في القول؛ وبالغت في النصيحة، وبالله التوفيق،
 والسلام عليكم ورحمة الله.

فقال معاوية: يا أم الخير، ما أردت بهذا الكلام الا قتلي، ولو قتلتك ما حرجت في ذلك.

قالت: والله ما يسوءني أن يجري قتلي علي يدي من يسعدني الله بشقائه.

قال: :: هيهات يا كثيرة الفضول. ما تقولين في عثمان بن عفان رحمه الله؟

قالت: وما عسيت أن أقول في عثمان، استخلفه الناس وهم به راضون، وقتلوه وهم له كارهون.

قال معاوية: يا أم الخير؛ هذا أصلك الذي تبينين «1». قالت: لكن الله يشهد وكفى بالله شهيدا؛ ما أردت بعثمان نقصا، ولكن كان سابقا إلى الخير، وإنه لرفيع الدرجة غدا.

قال: فما تقولين في طلحة بن عبيد الله؟ قالت: وما عسى أن أقول في طلحة؟ اغتيل من مأمنه، وأتى من حيث لم يحذر، وقد وعده رسول الله صلى الله عليه وسلم الجنة. قال: فما تقولين في الزبير؟ قالت: وما أقول في ابن عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم وحواريه، وقد شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة، وقد كان سابقا إلى كل مكرمة في الإسلام، وأنا أسألك بحق الله يا معاوية، فإن قريشا تحدّثت أنك أحلمها: أن تسعني بفضل حلمك، وأن تعفيني من هذه المسائل، وتسألني عما شئت من غيرها. قال نعم ونعمة عين، قد أعفيتك منها. ثم أمر لها بجائزة رقيقة وردّها مكرمة.

(356/1)

وفود أروى بنت عبد المطلب علي معاوية رحمه الله

العباس بن بكار قال: حدّثني عبد الله بن سليمان المدني وأبو بكر الهذلي، أن أروى بنت الحارث بن عبد المطلب دخلت على معاوية وهي عجوز كبيرة؛ فلما رآها معاوية قال: مرحبا بك وأهلا يا عمّة، فكيف كنت بعدنا؟

فقالت: يا بن أخي، لقد كفرت يد النعمة، وأسأت لابن عمك الصحبة، وتسمّيت بغير اسمك، وأخذت غير حقلك، من غير دين كان منك ولا من آبائك، ولا سابقة في الإسلام، بعد أن كفرتم برسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتعس الله منكم الجدود «1»، وأضرع «2» منكم الخدود، وردّ الحقّ إلى أهله ولو كره المشركون، وكانت كلمتنا هي العليا، ونبينا صلى الله عليه وسلم هو المنصور، فولّيتم علينا من بعده، تحتجون بقرابتكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن أقرب إليه منكم وأولى بهذا الأمر؛ فكنا فيكم بمنزلة بني إسرائيل في آل فرعون، وكان علي بن أبي طالب رحمه الله بعد نبينا بمنزلة هارون من موسى، فغايتنا الجنة وغايتكم النار.

فقال لها عمرو بن العاص: كفى أيتها العجوز الضالة، وأقصري عن قولك مع ذهاب عقلك، إذ لا تجوز شهادتك وحدك.

فقالت له وأنت يا بن النباغة «3» تتكلم! وأملك كانت أشهر امرأة تغني بمكة، وآخذهن لأجرة! اربع

على طلحك، واعن بشأن نفسك؛ فو الله ما أنت من قريش في اللباب من حسبها ولا كريم منصبها؛ ولقد ادعاك خمسة نفر من قريش، [كلهم يزعم أنه أبوك] فسئلت أمك عنهم، فقالت: كلهم أتاني، فانظروا أشبههم به فألحقوه به، فغلب عليك شبه العاص بن وائل فلاحقت به.

(357/1)

فقال مروان: كفى أيتها العجوز، وأقصدي لما جئت له. فقالت: وأنت أيضا يا بن الزرقاء تتكلم! ثم التفتت إلى معاوية فقالت: والله ما جرأ عليّ هؤلاء غيرك، وإن أمك القائلة في قتل حمزة: نحن جزيناكم بيوم بدر ... والحرب بعد الحرب ذات سعر ما كان لي عن عتبة من صبر ... فشكر وحشيّ على دهري حتى ترمّ أعظمي في قبري «1» فأجابتها بنت عمي وهي تقول: خزيت في بدر وبعد بدر ... يا بنة جبّار عظيم الكفر فقال: معاوية عفا الله عما سلف يا عمّة! هات حاجتك. قالت: مالي إليك حاجة، وخرجت عنه. ثم الجزء الأوّل بعون الله وتوفيقه وبليه - إن شاء الله تعالى - الجزء الثاني وأوله: «كتاب المرجانة في مخاطبة الملوك»

(358/1)

الجزء الثاني

كتاب المرجانة في مخاطبة الملوك

فرش كتاب المرجانة في مخاطبة الملوك

قال أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربّه:

قد مضى قولنا في الوفود والوفادات، ومقاماتهم بين يدي نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم، وبين يدي الخلفاء والملوك. ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه وتأييده وتسديده في مخاطبة الملوك، والتزلف إليهم بسحر البيان، الذي يمازج الرّوح لطافة، ويجري مع النفس رقة. والكلام الرقيق مصايد القلوب،

وإن منه لما يستعطف المستشيط «1» غيظا، والمندمل حقدا، حتى يطفىء حمرة غيظه، ويسل «2»
دقائق حقه.

وإن منه لما يستميل قلب اللئيم، ويأخذ بسمع الكريم وبصره. وقد جعله الله تعالى بينه وبين خلقه
وسيلة نافعة. وشافعا مقبولا؛ قال تبارك وتعالى: فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ
الرَّحِيمُ
«3» .

وسنذكر في كتابنا هذا إن شاء الله تعالى من تخلّص من أنشودة الهلاك، وتفلتت من حبال المنية،
بحسن التوصل، ولطيف التوصل، ولين الجواب، ورقيق الاستعتاب؛ حتى عادت سيناته حسنات،
وعوض بالثواب بدلا من العقاب وحفظ هذا الباب أوجب على الإنسان من حفظ عرضه، وألزم له
من قوام بدنه.

(3/2)

البيان

كنه البيان:

كلّ شيء كشف لك قناع المعنى الخفي حتى يتأذى إلى الفهم ويتقبّله العقل، فذلك البيان الذي ذكره
الله في كتابه، ومن به على عباده؛ فقال تعالى:
الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ. خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ
«1» .

وسئل النبي صلى الله عليه وسلم: فيم الجمال؟ فقال «في اللسان» . يريد البيان.

وقال صلى الله عليه وسلم: «إنّ من البيان لسحرا» .

وقالت العرب: أنفذ من الرميّة كلمة فصيحة.

وقال الراجز:

لقد خشيت أن تكون ساحرا ... راوية مرّا ومرّا شاعرا «2»

وقال سهل بن هارون: العقل رائد الروح؛ والعلم رائد العقل، والبيان ترجمان العلم.

وقالوا: البيان بصر والعي عمى، كما أنّ العلم بصر والجهل عمى؛ والبيان من نتاج العلم. والعي من
نتاج الجهل.

وقالوا: ليس لمنقوص البيان بهاء. ولو حكَّ بيافوخه «3» عنان السماء.

وقال صاحب المنطق: حدَّ الإنسان: الحيّ الناطق المبين.

وقال: الروح عماد البدن، والعلم عماد الروح، والبيان عماد العلم.

تبجيل الملوك وتعظيمهم

قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه» .

(4/2)

وقالت العلماء: لا يؤمّ ذو سلطان في سلطانه، ولا يجلس على تكرمته إلا بإذنه.

وقال زياد بن أبيه: لا يسلم على قادم بين يدي أمير المؤمنين.

وقال يحيى بن خالد بن برمك: مساءلة الملوك عن حالها من سجيّة النوكى «1» ؛ فإذا أردت أن

تقول: كيف أصبح الأمير؟ فقل: صبح الله الأمير بالنعمة والكرامة.

وإذا كان عليلا فأردت أن تسأله عن حاله، فقل: أنزل الله على الأمير الشفاء والرحمة؛ فإن الملوك لا

تسأل ولا تشمت ولا تكيف. وأنشد:

إن الملوك لا يخاطبونا ... ولا إذا ملّوا يعاتبونا

وفي المقال لا ينازعونا ... وفي العطاس لا يشمتونا

وفي الخطاب لا يكتفونا ... يثنى عليهم ويحجلونا

فافهم وصاتي لا تكن مجنونا

ابن صبيح والفضل بن يحيى في علتة

: اعتلّ الفضل بن يحيى، فكان إسماعيل بن صبيح الكاتب إذا أتاه عائدا لم يزد على السلام عليه

والدعاء له، ويخفف في الجلوس، ثم يلقي حاجبه فيسأله عن حاله ومأكله ومشربه ونومه. وكان غيره

يطيل الجلوس. فلما أفاق من علتة قال: ما عادني في علتّي هذه إلا إسماعيل بن صبيح.

بين معاوية وأصحابه

: وقال أصحاب معاوية له: إنّنا ربما جلسنا عندك فوق مقدار شهوتك، فنريد أن تجعل لنا علامة

نعرف بها ذلك فقال: علامة ذلك أن أقول: إذا شتمت وقيل ذلك لي زيد، فقال: إذا قلت: على بركة

الله.

وقيل ذلك لعبد الملك بن مروان، فقال: إذا وضعت الخيزرانة في يدي.

(5/2)

في خدمة الملوك

: ومن تمام خدمة الملوك أن يقرب الخادم إليه نعليه ولا يدعه يمشي إليهما، ويجعل النعل اليمنى مقابلة الرجل اليمنى، واليسرى مقابلة اليسرى، وإذا رأى متكأ يحتاج إلى إصلاح أصلحه قبل أن يؤمر؛ فلا ينتظر في ذلك أمره؛ ويتفقد الدواة قبل أن يأمره، وينفض عنها الغبار إذا قربها إليه. وإن رأى بين يديه قرطاسا قد تباعد عنه قربته ووضع بين يديه على كسره.

الحجاج والشعبي:

ودخل الشعبي على الحجاج، فقال له: كم عطاءك؟ قال: ألفين. قال: ويحك! كم عطاؤك؟ قال: ألفان. قال: فلم لخت فيما لا يلحن فيه مثلك؟ قال: لحن الأمير فلحنت، وأعرب الأمير فأعربت؛ ولم أكن ليلحن الأمير فأعرب أنا عليه، فأكون كالمقزع «1» له بلحنه، والمستطيل عليه بفضل القول قبله! فأعجبه ذلك منه ووهبه مالا.

قبلة اليد

عبد الرحمن بن أبي ليلى عند عبد الله بن عمر، قال: كنا نقبل يد النبي صلى الله عليه وسلم. ومن حديث وكيع بن سفيان، قال: قبل أبو عبيدة يد عمر بن الخطاب. ومن حديث الشعبي قال: لقي النبي عليه الصلاة والسلام جعفر بن أبي طالب فالتزمه وقبل ما بين عينيه. قال إياس بن دغفل: رأيت أبا نصره يقبل خد الحسين. الشيباني عن أبي الحسن عن مصعب قال: رأيت رجلا دخل على علي بن الحسين في المسجد فقبل يده ووضعها على عينيه؛ فلم ينهه.

(6/2)

العتي قال: دخل رجل على عبد الملك بن مروان فقبل يده، وقال: يدك يا أمير المؤمنين أحق يد بالتقبيل، لعلوها في المكارم، وطهرها من المآثم؛ وأنت تقلل التشريب «1»، وتصفح عن الذنوب؛ فمن أراد بك سوءا جعله الله حصيد سيفك، وطريد خوفك.

بين المنصور وأبي بكر الهجري:

الأصمعي قال: دخل أبو بكر الهجريّ على المنصور، فقال: يا أمير المؤمنين، نغض «2» فمي، وأنتم أهل البيت بركة، فلو أذنت فقبلت رأسك، لعل الله يمسك عليّ ما بقي من أسناني. قال: اختر بينها وبين الجائزة. فقال: يا أمير المؤمنين، أيسر عليّ من ذهاب الجائزة ألا تبقى في فمي حاكّة. فضحك المنصور وأمر له بجائزة.

بين سليمان وجعفر بن يحيى:

ودخل جعفر بن يحيى في زيّ العامة وكتمان النباهة على سليمان صاحب بيت الحكمة، ومعه ثمامة بن أشرس، فقال ثمامة: هذا أبو الفضل. فنهض إليه سليمان فقبل يده وقال له: بأبي أنت، ما دعاك إلى أن تحمّل عبدك هذه المنة التي لا أقوم بشكرها، ولا أقدر أن أكافئ عليها.

عبد الله بن عباس وزيد بن ثابت:

الشّعبي قال: ركب زيد بن ثابت، فأخذ عبد الله بن عباس بركابه، فقال له: لا تفعل يا بن عمّ رسول الله صلّى الله عليه وسلم. قال: هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا. قال له زيد: أرني يدك. فأخرج إليه يده، فأخذها وقبلها، وقال: هكذا أمرنا رسول الله صلّى الله عليه وسلم أن نفعل بأهل بيت نبينا.

(7/2)

أنواع القبيل:

وقالوا قبلة الإمام في اليد، وقبلة الأب في الرأس، وقبلة الأخ في الخد، وقبلة الأخت في الصدر، وقبلة الزوجة في الفم.

من كره من الملوك تقبيل اليد

هشام ورجل قبل يده:

العتي قال: دخل رجل على هشام بن عبد الملك فقبل يده، فقال أفّ له، إن العرب قبلت الأيدي إلا هلوعا «1»، ولا فعلته العجم إلا خضوعا.

واستأذن رجل المأمون في تقبيل يده، فقال له: إنّ قبلة اليد من المسلم ذلّة، ومن الدّمّي خديعة؛ ولا حاجة بك أن تذلّ، ولا بنا أن نخدع.

بين المهدي وأبي دلّامة في مثله:

واستأذن أبو دلامة الشاعر المهدي في تقبيل يده، فقال: أما هذه فدعها قال: ما منعت عيالي شيئا أيسر فقدنا عليهم من هذه.

حسن التوقيع في مخاطبة الملوك

قال هارون الرشيد لمعن بن زائدة: كيف زمانك يا معن؟ قال: يا أمير المؤمنين، أنت الزمان؛ فإن صلحت صلح الزمان، وإن فسدت فسد الزمان.

بين الرشيد وابن سلم في مثله:

وهذا نظير قول سعيد بن سلم، وقد قال له أمير المؤمنين الرشيد: من بيت قيس في الجاهلية؟ قال: يا أمير المؤمنين، بنو فزارة. قال: فمن بيتهم في الإسلام؟ قال: يا أمير المؤمنين، الشريف من شرفتموه. قال: صدقت! أنت وقومك.

(8/2)

ودخل معن بن زائدة على أبي جعفر، فقال له كبرت يا معن. قال: في طاعتك يا أمير المؤمنين. قال: وإنك لجلد! قال: على أعدائك يا أمير المؤمنين. قال: وإنّ فيك لبقية. قال هي لك يا أمير المؤمنين. قال: أي الدولتين أحب إليك أو أبغض، أدولتنا أم دولة بني أمية؟ قال: ذلك إليك يا أمير المؤمنين، إن زاد برك على برهم كانت دولتك أحب إليّ، وإن زاد برهم على برك كانت دولتهم أحب إليّ. قال: صدقت.

قال هارون الرشيد لعبد الملك بن صالح، أهذا منزلك؟ قال: هو لأمر المؤمنين ولي به. قال: كيف ماؤه؟ قال: أطيب ماء. قال: فكيف هواؤه؟ قال: أصحّ هواء. قال أبو جعفر المنصور لجريز بن يزيد: إني أردتك لأمر. قال: يا أمير المؤمنين قد أعد الله لك مني قلبا معقودا بطاعتك، ورأيا موصولاً بنصيحتك، وسيفا مشهورا على عدوك؛ فإذا شئت فقل. وقال المأمون لطاهر بن الحسين: صف لي ابنك عبد الله. قال: يا أمير المؤمنين إن مدحته عبته، وإن ذمته اغتبته، ولكنه قدح «1» في كفّ مثقّف ليوم نضال في خدمة أمير المؤمنين. وأمر بعض الخلفاء رجلا بأمر؛ فقال: أنا أطوع لك من الرداء، وأذلّ لك من الحداء. وقال آخر: أنا أطوع لك من يدك، وأذلّ لك من نعلك. وهذا قاله الحسن بن وهب لمحمد بن عبد الملك الزيات. وقال المنصور لمسلم بن قتيبة: ما ترى في قتل أبي مسلم؟ قال: لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا

«2» . قال: حسبك أبا أمية.

وقال المأمون ليزيد بن يزيد: ما أكثر الخلفاء في ربيعة! قال: بلى، ولكنّ منابرهم الجدوع.

(9/2)

وقال المنصور لإسحاق بن مسلم: أفرطت في وفائك لبني أمية. قال: يا أمير المؤمنين، إنه من وفي لمن لا يرجي كان لمن يرجي أوفى.

الرشيد وابن صالح:

وقال هارون لعبد الملك بن صالح: صف لي منبج. قال: رقيقة الهواء، لينة الوطاء. قال: فصف لي منزلك بما. قال: دون منازل أهلي، وفوق منازل أهلها. قال:

ولم وقدرك فوق أقدارهم؟ قال: ذلك خلق أمير المؤمنين أتأسى به، وأفقو أثره، وأخذو مثاله.

المأمون وغلّام في الديوان:

ودخل المأمون يوماً بيت الديوان، فرأى غلاماً جميلاً على أذنه قلم، فقال: من أنت يا غلام؟ قال: أنا الناشيء في دولتك، والمتقلّب في نعمتك، والمؤتمّل لخدمتك، الحسن بن رجاء. قال المأمون: بالإحسان في البديهة تفاضلت العقول؛ ارفعوا هذا الغلام فوق مرتبته.

المتوكل وابن الجهم في رأس إسحاق بن إسماعيل:

علي بن يحيى قال: إني عند المتوكل حين دخل عليه الرسول برأس إسحاق بن إسماعيل، فقام علي بن الجهم يخطر «1» بين يدي المتوكل ويقول:

أهلاً وسهلاً بك من رسول ... جئت بما يشفي من الغليل

برأس إسحق بن إسماعيل

فقال المتوكل: قوموا التقطوا هذا الجوهر لنلا يضيع.

ودخل عقّال بن شبّة على أبي عبيد الله كاتب المهدي، فقال: يا بن عقّال، لم أرك منذ اليوم! قال:

والله إني لألّقاك بشوق، وأغيب عنك بتوق «2» .

(10/2)

وقال عبد العزيز بن مروان لنصيب بن رباح - وكان أسود-: يا نصيب هل لك فيما يثمر المحادثة؟ يريد المنادمة. فقال: أصلح الله الأمير، اللون مرمد، والشعر مفلفل، ولم أقعد إليك بكريم عنصر، ولا بحسن منظر، وإنما هو عقلي ولساني؛ فإن رأيت ألا تفرق بينهما فافعل.

ولما ودّع المأمون الحسن بن سهل عند مخرجه من مدينة السلام، قال له: يا أبا محمد، ألك حاجة تعهد إليّ فيها؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، أن تحفظ عليّ من قلبك ما لا أستعين على حفظه إلا بك.

وقال سعيد بن مسلم بن قتيبة للمأمون: لو لم أشكر الله إلا على حسن ما أبلايني في أمير المؤمنين من قصده إليّ بحديثه، وإشارته إليّ بطرفه، لكان ذلك من أعظم ما توجهه النعمة، وتفرضه الصنيعة. قال المأمون: ذلك والله لأن الأمير يجد عندك من حسن الإفهام إذا حدثت، وحسن الفهم إذا حدثت، ما لا يجده عند غيرك.

مدح الملوك والتزلف إليهم

في سير العجم أن أردشير بن يزدرج لما استوثق له أمره، جمع الناس فخطبهم خطبة حصّهم فيها على الألفة والطاعة، وحدّهم المعصية ومفارقة الجماعة، وصنّف لهم الناس أربعة أصناف، فخروا له سجداً، وتكلم متكلمهم، فقال: لا زلت أيها الملك محبواً من الله بعز النصر، ودرك الأمل «1»، ودوام العافية، وتمام النعمة، وحسن المزيد؛ ولا زلت تتابع لديك المكرمات، وتشفع إليك الدّمات، حتى تبلغ الغاية التي يؤمن زوالها، ولا تنقطع زهرتها، في دار القرار التي أعدّها الله لنظرانك من أهل الزلفى عنده، والحظوة لديه، ولا زال ملكك وسلطانك باقين بقاء الشمس والقمر، زاندين زيادة البحور والأنهار، حتى تستوى أقطار الأرض كلها في علوك عليها، ونفاذ أمرك فيها؛ فقد أشرق علينا من ضياء نورك ما عمّنا عموم ضياء الصباح،

(11/2)

ووصل إلينا من عظيم رأفتك ما اتصل بأنفسنا اتصال النسيم: فأصبحت قد جمع الله بك الأيادي بعد افتراقها، وألف بين القلوب بعد تباغضها، وأذهب عنا الإحن والحسائك «1» بعد توقّد نيرانها، بفضلك الذي لا يدرك بوصف، ولا يحدّ بنعت.

فقال أردشير: طوي للممدوح إذا كان للممدح مستحقاً، وللداعي إذا كان للإجابة أهلاً.

دخل حسان بن ثابت على الحارث الجففيّ فقال: أنعم صباحاً أيها الملك، السماء غطاؤك، والأرض وطاؤك ووالدي ووالدي فداؤك. أتى يناوتك المنذر «2»؟ فو الله لقدالك أحسن من وجهه، ولأتمك

أحسن من أبيه، ولظلك خير من شخصه، ولصمتك أبلغ من كلامه، ولشمالك خير من يمينه. ثم أنشأ يقول:

ونبتت أن أبا منذر ... يساميك للحدث الأكبر
قدالك أحسن من وجهه ... وأمك خير من المنذر
ويسرى يديك إذا أعسرت كيمنى يديه فلا تتمر «3» ودخل خالد بن عبد الله القسريّ على عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة، فقال:

يا أمير المؤمنين، من تكون الخلافة قد زانته فأنت قد زنتها، ومن تكون شرفته فأنت قد شرفتها، وأنت كما قال الشاعر:

وإذا الدرّ زان حسن وجوه ... كان للدرّ حسن وجهك زينا
فقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: أعطي صاحبكم مقولا ولم يعط معقولا.

المأمون ومادح له عند دخوله بغداد:

ذكر ابن أبي طاهر قال: دخل المأمون بغداد، فتلقاها وجوه أهلها، فقال له رجل

(12/2)

منهم: يا أمير المؤمنين، بارك الله لك في مقدمك، وزاد في نعمتك، وشكرك عن رعيتك، تقدّمت من قبلك، وأتبع من بعدك، وآيست أن يعاين مثلك أما فيما مضى فلا نعرفه، وأما فيما بقى فلا نرجوه؛ فنحن جميعا ندعو لك، ونثني عليك.

خصب لنا جنابك، وعذب شرابك. وحسنت نظرتك، وكرمت مقدرتك. جبرت الفقير «1» ،

وفككت الأسير، فأنت يا أمير المؤمنين كما قال الأول:

ما زلت في البذل للنوال وإطلاق لعان بجرمه علق «2»

حتى تمنى البراء أنهم ... عندك أسرى في القيد والحلق

بين خالد القسري وبعضهم في مثله:

ودخل رجل على خالد بن عبد الله القسري فقال: أيها الأمير، إنك لتبذل ما جلّ، وتجبر ما اعتلّ، وتكثر ما قل، ففضلك بديع، ورأيك جميع.

وقال رجل للحسن بن سهل: لقد صرت لا أستكثر كثيرك ولا أستقلّ قليلك! قال: وكيف ذلك؟

قال: لأنك أكثر من كثيرك، وأنّ قليلك أكثر من قليل غيرك.

وقال خالد بن صفوان لوال دخل عليه: قدمت فأعطيت كلاً بقسطه من نظرك ومجلسك، وصلاتك وعداتك، حتى كأنك من كل أحد، أو كأنك لست من أحد! وقال الرشيد لبعض الشعراء: هل أحدثت فينا شيئاً؟ قال: يا أمير المؤمنين، المديح كله دون قدرك، والشعر فيك فوق قدرتي، ولكني أستحسن قول العتّابي:

ماذا عسى مادح يثني عليك وقد ... ناداك في الوحي تقديس وتطهير
فتّ الممدوح إلا أنّ ألسننا ... مستنطقات بما تخفي الضمائر

لابن صفوان في مدح رجل:

مدح خالد بن صفوان رجلاً فقال: قريع المنطق، جزل الألفاظ، عريّ اللسان،

(13/2)

قليل الحركات، حسن الإشارات، حلو الشمائل، كثير الطلاوة، صموتا قنولا، يهنأ الجرب، ويداوي الدبر «1»، ويقلّ الخزّ، ويطبق المفصل. لم يكن بالزمر «2» في مروءته، ولا بالهدر «3» في منطقته، متبوعاً غير تابع.

كأنه علم في رأسه نار «4»

الرشيد وسهل بن هارون:

دخل سهل بن هارون على الرشيد، فوجده يضاحك ابنه المأمون، فقال: اللهم زده من الخيرات، وابسط له في البركات، حتى يكون كلّ يوم من أيامه موفياً على أمسه، مقصراً عن غده. فقال له الرشيد: يا سهل، من روى من الشعر أحسنه وأجوده، ومن الحديث أصحّه وأبلغه، ومن البيان أفصحه وأوضحه، إذا رام أن يقول لم يعجزه؟ قال سهل: يا أمير المؤمنين، ما ظننت أحداً تقدمني سبقني إلى هذا المعنى. فقال: بل أعشى همدان حيث يقول:

وجدتك أمس خير بني لؤيّ ... وأنت اليوم خير منك أمس
وأنت غدا تزيد الخير ضعفاً ... كذاك تزيد سادة عبد شمس

المأمون وسهل ابن هارون:

وكان المأمون قد استثقل سهل بن هارون، فدخل عليه يوماً والناس عنده على منازلهم، فتكلم المأمون بكلام ذهب فيه كل مذهب، فلما فرغ أقبل سهل بن هارون على ذلك الجمع فقال: مالكم تسمعون ولا تعون، وتفهمون ولا تعجبون، وتعجبون ولا تصفون؟ أما والله إنه ليقول ويفعل في اليوم القصير

مثل ما قالت وفعلت بنو مروان في الدهر الطويل، عربكم كعجمهم، وعجمهم كعرب بني تميم؛ ولكن كيف يشعر بالدواء من لا يعرف الدواء؟ قال: فرجع له المأمون إلى رأيه الأول.

(14/2)

الحجاج وزيد العتكي:

وكان الحجاج بن يوسف يستثقل زياد بن عمرو العتكي، فلما أثنى الوفد على الحجاج عند عبد الملك بن مروان، قال زياد: يا أمير المؤمنين، إنَّ الحجاج سيفك الذي لا ينو «1»، وسهمك الذي لا يطيش، وخادمك الذي لا تأخذه فيك لومة لائم. فلم يكن بعد ذلك عند الحجاج أحد أخفّ ولا أحبّ إليه منه.

لابن شيبه في صالح بن المنصور:

حدّث الشيباني قال: أقام المنصور صالحا ابنه فتكلم في أمر فأحسن؛ فقال شيبه ابن شيبه: تالله ما رأيت كاليوم أبن بيانا، ولا أعرب لسانا، ولا أربط جأشا، ولا أبلّ ريقا، ولا أحسن طريقا. وحق لمن كان المنصور أباه، والمهدي أخاه، أن يكون كما قال زهير: هو الجواد فإن يلحق بشأوهما ... على تكاليفه فمثله لحقا «2» أو يسبقاه على ما كان من مهل ... فمثل ما قدّما من صالح سبقا

لابن شيبه في الخلافة:

وخرج شيبه بن شيبه من دار الخلافة يوما، فقيل له: كيف رأيت الناس؟ قال: رأيت الداخل راجيا، والخارج راضيا.

لبعض الخلفاء في ابن شيبه:

وقيل لبعض الخلفاء: إن شيبه بن شيبه يستعمل الكلام ويستعدّ له، فلو أمرته يصعد المنبر فجأة لافتضح. قال: فأمر رسولا فأخذ بيده فصعده المنبر: فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي صلّى الله عليه وسلم، ثم قال: ألا إن لأمير المؤمنين أشباها أربعة: فمنها الأسد الخادر «3»، والبحر الزاخر، والقمر الباهر، والربيع الناضر؛ فأما الأسد الخادر

(15/2)

فأشبهه منه صولته ومضاءه، وأما البحر الزاخر فأشبهه منه جوده وعطاءه، وأما القمر الباهر فأشبهه منه نوره وضيائه، وأما الربيع الناضر فأشبهه منه حسنه وبهائه. ثم نزل.

بين عبد الملك وذو حاجة:

قال عبد الملك بن مروان لرجل دخل عليه: تكلم بحاجتك. قال: يا أمير المؤمنين، بمر «1» الدرجة وهيبة الخلافة يمنعاني من ذلك. قال: فعلى رسلك، فإننا لا نحب مدح المشاهدة، ولا تزكية اللقاء. قال: يا أمير المؤمنين، لست أمدحك، ولكن أحمد الله على النعمة فيك. قال: حسبك فقد أبلغت. ودخل رجل على المنصور، فقال له: تكلم بحاجتك. فقال: يبقيك الله يا أمير المؤمنين. قال: تكلم بحاجتك، فإنك لا تقدر على هذا المقام كل حين. قال والله يا أمير المؤمنين، ما أستقصر أجلك، ولا أخاف بخلك، ولا أغتتم مالك؛ وإنّ عطاءك لشرف، وإن سؤالك لزين، وما لامريء بذل وجهه إليك نقص ولا شين. قال:

فأحسن جائزته وأكرمه.

بين المأمون والعماني:

حدّث إبراهيم بن السندي قال: دخل العمانيّ على المأمون، وعليه قلنسوة طويلة وخف ساذج، فقال له: إياك أن تشدني إلاّ وعليك عمامة عظيمة الكور «2» وخفان رائقان. قال: فعدا عليه في زي الأعراب فأنشده، ثم دنا فقبل يده وقال: قد والله يا أمير المؤمنين أنشدت يزيد بن الوليد، وإبراهيم بن الوليد، ورأيت وجوههما، وقبلت أيديهما، وأخذت جوائزهما؛ وأنشدت مروان وقبلت يده وأخذت جائزته، وأنشدت المنصور ورأيت وجهه وقبلت يده وأخذت جائزته، وأنشدت المهديّ ورأيت وجهه وقبلت يده وأخذت جائزته، إلى كثير من أشباه الخلفاء، وكبراء الأمراء والسادة الرؤساء، فلا والله يا أمير المؤمنين ما رأيت فيهم أبهى منظرا، ولا أحسن وجهها، ولا

(16/2)

أنعم كفاً، ولا أندى راحة «1» منك يا أمير المؤمنين. قال: فأعظم له الجائزة على شعره، وأضعف له على كلامه وأقبل عليه بوجهه وبشره، فبسطه حتى تمنى جميع من حضره أنهم قاموا مقامه.

عمر بن عبد العزيز ووفد العراق ومحمد القرظي:

حدّث العتبي عن سفيان بن عيينة قال: قدم على عمر بن عبد العزيز ناس من أهل العراق، فنظر إلى شاب منهم يتحوّش «2» للكلام، فقال: أكبروا أكبروا. فقال:

يا أمير المؤمنين، إنه ليس بالسِّنّ، ولو كان الأمر كله بالسِّنّ لكان في المسلمين من هو أسنّ منك .
فقال عمر: صدقت رحمك الله، تكلم. فقال: يا أمير المؤمنين، إنّا لم نأتك رغبة ولا رهبة؛ أما الرغبة فقد دخلت علينا منازلنا وقدمت علينا بلادنا؛ وأما الرهبة فقد أمننا الله بعدلك من جورك. قال: فما أنتم؟ قال: وفد الشكر. قال: فنظر محمد بن كعب القرظي إلى وجه عمر يتهلل، فقال: يا أمير المؤمنين؛ لا يغلبنّ جهل القوم بك معرفتك بنفسك؛ فإن ناسا خدعهم الشاء وغرهم شكر الناس فهلكوا، وأنا أعيدك بالله أن تكون منهم. فألقى عمر رأسه على صدره.

التنصل والاعتذار

قال النبي صلّى الله عليه وسلم: «من لم يقبل من متنصل «3» عذرا، صادقا كان أو كاذبا، لم يرد عليّ الحوض» .

وقال: «المعترف بالذنب كمن لا ذنب له. وقال: الاعتراف يهدم الاقتراف» «4» .

وقال الشاعر:

إذا ما امرؤ من ذنبه جاء تائبا ... إليك فلم تغفر له فلك الذنب

(17/2)

واعتذر رجل إلى إبراهيم بن المهدي. فقال: عذرتك غير معتذر، إن المعاذير يشوبها الكذب.
واعتذر رجل إلى جعفر بن يحيى، فقال: قد أغناك الله بالعذر عن الاعتذار، وأغنانا بحسن النية عن سوء الظن.
وقال إبراهيم الموصلي: سمعت جعفر بن يحيى يعتذر إلى رجل من تأخر حاجة ضمناها له، وهو يقول:
أحتجّ إليك بغالب القضاء، وأعتذر إليك بصادق التّية.
وقال رجل لبعض الملوك: أنا من لا يحاّك عن نفسه، ولا يغالطك في جرمه، ولا يلتمس رضاك إلا من جهة عفوك، ولا يستعطفك إلا بالإقرار بالذنب، ولا يستميلك إلا بالاعتراف بالزّلة.
وقال الحسن بن وهب:

ما أحسن العفو من القادر ... لا سيّما عن غير ذي ناصر

إن كان لي ذنب ولا ذنب لي ... فما له غيرك من غافر

أعوذ بالود الذي بيننا ... أن يفسد الأوّل بالآخر

وكتب الحسن بن وهب إلى محمد بن عبد الملك الزيات:

أبا جعفر، ما أحسن العفو كله ... ولا سيّما عن قائل ليس لي عذر
وقال آخر:

أقبل معاذير من يأتيك معتذرا ... إن برّ عندك فيما قال أو فجرا
فقد أطاعك من أرضاك ظاهره ... وقد أجلك من يعصيك مستترا
خير الخليطين من أغضى لصاحبه ... ولو أراد انتصارا منه لانتصرا «1»
وقالت الحكماء: ليس من العدل سرعة العذر «2» .
وقال الأحنف بن قيس: ربّ ملوم لا ذنب له.

(18/2)

وقال آخر:

لعلّ له عذرا وأنت تلوم

وقال حبيب:

البرّ بي منك وطّي العذر عندك لي ... فيما أتاك فلم تقبل ولم تلم
وقام علمك بي فاحتجّ عندك لي ... مقام شاهد عدل غير متّهم
وقال آخر:

إذا اعتذر الجاني محّا العذر ذنبه ... وكلّ امريء لا يقبل العذر مذنب
ومن قولنا في هذا المعنى:

عذيري من طول البكا لوعة الأسى ... وليس لمن لا يقبل العذر من عذر
وقال آخر:

فهنيئنا كألذي قلت ظالما ... فعفو جميل كي يكون لك الفضل
فإن لم أكن للعفو عندك للذي ... أتيت به أهلا فأنت له أهل
ومن الناس من لا يرى الاعتذار، ويقول: إياك وما يعتذر منه.
وقالوا: ما اعتذر مذنب إلا ازداد ذنبا.

وقال الشاعر محمود الوراق:

إذا كان وجه العذر ليس بيّن ... فإنّ أطراح العذر خير من العذر

بين عبد الملك وابن شهاب الزهري:

قال ابن شهاب الزهري: دخلت على عبد الملك بن مروان في رجال من أهل المدينة، فرآني أحدثهم سناً؛ فقال لي: من أنت؟ فانتسبت له. فقال: لقد كان أبوك وعمك نعاقين «1» في فتنة ابن الأشعث. فقلت: يا أمير المؤمنين، إن مثلك إذا عفا لم

(19/2)

يعدّد، وإذا صفح لم يثرّب. فأعجبه ذلك، وقال: أين نشأت؟ قلت: بالمدينة. قال: عند من طلبت؟ قلت: سعيد بن المسيّب، وسليمان بن يسار، وقبيصة بن ذؤيب. قال: فأين أنت من عروة بن الزبير، فإنه بحر لا تكدره الدلاء. فلما انصرفت من عنده لم أبارح عروة بن الزبير حتى مات.

بين محمد بن سليمان وابن السماك:

ودخل ابن السماك على محمد بن سليمان بن علي، فرآه معرضاً عنه، فقال: مالي أرى الأمير كالعاب علي؟ قال: ذلك لشيء بلغني عنك كرهته. قال: إذا لا أبالي. قال: ولم؟ قال: لأنه إذا كان ذنباً غفرته، وإن كان باطلاً لم تقبله.

بين المنصور وجرير بن عبد الله:

دخل جرير بن عبد الله على أبي جعفر المنصور، وكان واجداً عليه، فقال له: تكلم بحجّتك. فقال: لو كان لي ذنب تكلمت بعدري، ولكن عفو أمير المؤمنين أحبّ إليّ من براءتي. **الهادي ومذنب:**

وأتي موسى الهادي برجل، فجعل يقرعه بذنوبه. فقال: يا أمير المؤمنين، إن اعتذاري مما تقرّعتني به ردّ عليك، وإقراري به يلزمني ذنباً لم أجنه، ولكن أقول: فإن كنت ترجو في العقوبة راحة... فلا تزهدن عند المعافاة في الأجر

بين المأمون وابن الفارسي:

سعي بعبد الملك بن الفارسي إلى المأمون، فقال له المأمون: إن العدل من عدّله أبو العباس، وقد كان وصفك بما وصف به، ثم أتتني الأخبار بخلاف ذلك. فقال: يا أمير المؤمنين، إن الذي بلغك عني تحمیل عليّ، ولو كان كذلك لقلت: نعم، كما بلغك. فأخذت بحظّي من الله في الصدق، واتكلت على فضل أمير المؤمنين في سعة عفوّه. قال: صدقت.

(20/2)

المأمون وابن يوسف في حكاية ضده:

محمد بن القاسم الهاشمي أبو العيناء، قال: كان أحمد بن يوسف الكاتب قد تولى صدقات البصرة، فجار فيها وظلم، فكثر الشاكي له والداعي عليه، ووافى باب أمير المؤمنين زهاء خمسين رجلا من جلة البصريين: فعزله المأمون، وجلس لهم مجلسا خاصا وأقام أحمد بن يوسف لمناظرتهم، فكان مما حفظ من كلامه أن قال:

يا أمير المؤمنين، لو أن أحدا ممن ولي الصدقات سلم من الناس لسلم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال الله عز وجل: وَمَنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَحْطُونَ
«1» .

فأعجب المأمون جوابه. واستجزل مقاله، وخلقى سبيله، محمد بن القاسم الهاشمي أبو العيناء قال: قال لي أبو عبد الله أحمد بن أبي داود:

دخلت على الواثق، فقال لي: ما زال قوم في ثلبك ونقصك! فقلت: يا أمير المؤمنين، لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم، والله ولي جزائه، وعقاب أمير المؤمنين من ورائه، وما ذل من كنت ناصره، ولا ضاع من كنت حافظه، فماذا قلت لهم يا أمير المؤمنين؟ قال: قلت أبا عبد الله.

وسعى إليّ بعيب عزة معشر ... جعل الإله خدودهنّ نعالها

قال أبو العيناء: قلت لأحمد بن أبي داود: إن قوما تظافروا عليّ! قال: يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ

«2» قلت: إنهم عدد وأنا واحد! قال: كَمْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةً كَثِيرَةً

«3» قلت: إن للقوم مكرًا! قال: وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ

«4» .

قال أبو العيناء: فحدّثت بهذا الحديث أحمد بن يوسف الكاتب، فقال: ما يرى ابن أبي داود إلا أنّ القرآن أنزل عليه.

بين قتيبة بن مسلم ونهار بن توسعة:

قال: وهجا نهار بن توسعة قتيبة بن مسلم، وكان ولي خراسان بعد يزيد بن المهلب، فقال: كانت خراسان أرضاً إذ يزيد بها ... وكلّ باب من الخيرات مفتوح فبدلت بعده فرداً نطوف به ... كأنما وجهه بالخلّ منضوح «1»
فطلبه فهرب منه، ثم دخل عليه بكتاب أمته؛ فقال: ويحك! بأي وجه تلتقاني؟
قال: بالوجه الذي ألقى به ربي، وذنوبي إليه أكثر من ذنوبي إليك. فقربه ووصله وأحسن إليه.

المنصور وابن فضالة:

وأقبل المنصور يوماً راكباً والفرج بن فضالة جالس عند باب الذهب، فقام الناس إليه ولم يقم. فاستشاط المنصور غيظاً وغضباً، ودعا به فقال: ما منعك من القيام مع الناس حين رأيتني؟ قال: خفت أن يسألني الله تعالى: لم فعلت؟ ويسألك عنه: لم رضيت؟ وقد كرهه رسول الله صلى الله عليه وسلم فسكن غضبه وقربه وقضى حوائجه.

المأمون وابن أكرم:

يجيى بن أكرم، قال: إني عند المأمون يوماً، حتى أتى برجل ترعد فرائضه «2»، فلما مثل بين يديه قال له المأمون: كفرت نعمتي ولم تشكر معروفى! قال: يا أمير المؤمنين، وأين يقع شكري في جنب ما أنعم الله بك عليّ؟ فنظر إليّ وقال متمثلاً:
فلو كان يستغني عن الشكر ماجد ... لكثرة مال أو علو مكان
لما ندب الله العباد لشكره ... فقال اشكروا لي أيها الثقلان «3»

(22/2)

ثم التفت إلى الرجل فقال له: هلاً قلت كما قال أصرم بن حميد:

رشحت حمدي حتى إنني رجل ... كلّي بكلّ ثناء فيك مشغل

خوّلت شكري ما خوّلت من نعم ... فخرّ شكري لما خوّلتني خول «1»

الاستعطاف والاعتراف

بين المهدي وابن داود:

لما سخط المهدي على يعقوب بن داود، قال له: يا يعقوب، قال: لبيك يا أمير المؤمنين تلبية مكروب لموجدتك. قال: ألم أرفع من قدرك إذ كنت وضيعاً، وأبعد من ذكرك إذ كنت خاملاً، وألبسك من

نعمتي ما لم أجد لك بما يدين من الشكر؛ فكيف رأيت الله أظهر عليك وردّ إليك منك؟ قال: إن كان ذلك بعلمك يا أمير المؤمنين فتصديق معترف منيب، وإن كان مما استخرجته دفائن الباغين فعائد بفضلك. فقال: والله لولا الحنث «2» في دمك بما تقدّم لك، لألبستك منه قميصا لا تشدّ عليه زرا. ثم أمر به إلى الحبس، فتولّى وهو يقول: الوفاء يا أمير المؤمنين كرم، والمودّة رحم، وأنت بهما جدير. أخذت الشعراء معنى قوله «ألبستك منه قميصا لا يشدّ عليه زرا» فقال معلّى الطائي:

طوّفته بحسام طوق داهية ... ما يستطيع عليه شدّ أزرار
وقال حبيب:

طوّفته بالحسام طوق ردي ... أغناه عن مسّ طوقه بيده
وقال:

طوّفته بالحسام منصلتنا ... آخر طوق يكون في عنقه

(23/2)

ليزيد بن مزيد أمام الرشيد:

ولما رضي الرشيد عن يزيد بن مزيد أذن له بالدخول عليه فلما مثل بين يديه قال: الحمد لله الذي سهّل لي سبيل الكرامة بلقائك، وردّ عليّ النعمة بوجه الرضا منك؛ وجزاك الله يا أمير المؤمنين في حال سخطك جزاء المحسنين المرغبين «1» وفي حال رضاك جزاء المنعمين المتطولّين؛ فقد جعلك الله وله الحمد تثبت تحرجا عند الغضب، وتمتّن تطولا «2» بالنعم، وتستبقي المعروف عند الصنائع تفضلا بالعفو.

المأمون وإبراهيم بن المهدي:

لما ظفر المأمون بإبراهيم بن المهدي، وهو الذي يقال له ابن شكلة، أمر بإدخاله عليه. فلما مثل بين يديه قال: وليّ الثأر محكم في القصاص، والعفو أقرب للتقوى، [والقدرة تذهب الحفيظة، ومن مدّ له الاعتذار في الأمل هجمت به الأناة على التلف] «3»؛ وقد جعل الله كلّ ذنب دون عفوك، فإن صفحت فبكرمك، وإن أخذت فبحقّك.

قال المأمون: إني شاورت أبا إسحاق والعبّاس في قتلك، فأشارا عليّ به. قال: أما أن يكونا قد نصحاك في عظم قدر الملك ولما جرت عليه عادة السياسة، فقد فعلا؛ ولكنك أبيت أن تستجلب النصر إلا من حيث عودك الله. ثم استعبر باكيا.

قال له المأمون: ما يبكيك.

قال: جدلاً، إذ كان ذنبي إلى من هذه صفته. ثم قال: يا أمير المؤمنين، إنه وإن كان جرمي يبلغ سفك دمي، فحلّم أمير المؤمنين وتفصّله يبلغاني عفوه، ولي بعدهما شفاعة الإقرار بالذنب، وحرمة الأب بعد الأب.

(24/2)

قال المأمون: لو لم يكن في حقّ نسبك ما يبلغ الصفح عن زلتك، لبّغك إليه حسن توصلك ولطف تنصّلك.

فكان تصويب إبراهيم لرأي أبي إسحق والعباس أطف في طلب الرضا ودفع المكروه عن نفسه من تحطّئتهما.

المأمون وإسحاق بن العباس:

وقال المأمون لإسحاق بن العباس: لا تحسبني أغفلت إجلابك مع ابن المهلب وتأيدك لرأيه وإيقادك لناره.

قال: يا أمير المؤمنين، والله لإجرام قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم من جرمي إليك، ولرحمي أسمى من أرحامهم، وقد قال كما قال يوسف لإخوته: لا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَعْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ

«1» وأنت يا أمير المؤمنين أحقّ وارث لهذه المنة وممثل بها.

قال: هيهات. تلك أجرام جاهلية عفا عنها الإسلام، وجرمك جرم في إسلامك وفي دار خلافتك.

قال: يا أمير المؤمنين، فو الله للمسلم أحقّ بإقالة العثرة وغفران الزّلة من الكافر، هذا كتاب الله بيني وبينك. يقول الله تعالى: وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ، الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ

«2» فهي للناس يا أمير المؤمنين سنّة دخل فيها المسلم والكافر، والشريف والمشروف.

قال: صدقت. اجلس. وريت بك زنادي «3»، فلا قدح ناري من الغابرين «4» من أهلك أمثالك.

(25/2)

العتيبي عن أبيه قال: قبض مروان بن محمد بن معاوية بن عمر بن عتبة ما له بالفرسان «1» فقال: إني قد وجدت قطعة عمك لأبيك «إني أقطعك بستاني» .

والبستان لا يكون إلا عامرا، وأنا مسلم إليك الغامر «2» وقابض منك العامر. فقال:
يا أمير المؤمنين، إن سلفك الصالح لو شهدوا مجلسنا هذا كانوا شهودا على ما ادعيت، وشفعاء فيما طلبته، يسألونك بإحسانك إليّ مكافأة إحسان سلفي إليهم فشفع فينا الأموات، وأحفظ منا القربات، واجعل مجلسك هذا مجلسا يلزم من بعدنا شكره. قال: لا والله، إلا أن أجعلها طعمة مني لك، لا قطعة من عمك لأبيك.
قال: قد قبلت ذلك. ففعل.

عبد الملك وابن عتبة وخالد بن يزيد:

العتيبي قال: أمر عبد الملك بن مروان بقطع أرزاق آل أبي سفيان وجوائزهم لموجدة وجدها على خالد بن يزيد بن معاوية. فدخل عليه عمرو بن عتبة. فقال: يا أمير المؤمنين. إن أدنى حَقِّك متعب. وبعضه فادح لنا، ولنا مع حَقِّك علينا حق عليك، بإكرام سلفنا لسلفك. فانظر إلينا بالعين التي نظروا بها إليهم، وضعنا بحيث وضعتنا الرِّحم منك.
قال عبد الملك: إنما يستحق عطيتي من استعطاها، فأما من ظن أنه يكتفي بنفسه فسنكله إلى نفسه. ثم أمر له بعطيّة.

وبلغ ذلك خالدا فقال: أباحرمان يهدّدي؟ يد الله فوق يده باسطة، وعطاء الله دونه مبدول. فأما عمرو فقد أعطى من نفسه أكثر مما أخذ لها.

سليمان بن علي وابن عتبة إمام المسودة:

العتيبي قال: حدثنا طارق بن المبارك، عن عمرو بن عتبة، قال: جاءت دولة

(26/2)

المسودة وأنا حديث السنّ كثير العيال متفرّق المال، فجعلت لا أنزل قبيلة من قبائل العرب إلا شهرت فيها. فلما رأيت أمري لا يكتتم، أتيت سليمان بن علي فاستأذنت عليه قرب المغرب، فأذن لي وهو لا يعرفني؛ فلما صرت إليه قلت: أصلحك الله! لفظني البلاد إليك، ودلني فضلك عليك؛ فإما قبلتني غانما، وإما رددتني سالما.
قال: ومن أنت؟ فانتسبت له؛ فعرفني. وقال: مرحبا، اقعد فتكلم غانما سالما.

قلت: أصلحك الله! إن الحرم التي أنت أقرب الناس إليهن معنا، وأولى الناس بمن بعدنا، قد خفن بخوفنا، ومن خاف خيف عليه. قال: فاعتمد سليمان على يديه وسالت دموعه على خديه، ثم قال: يا ابن أخي، يحقن الله دمك، ويستر حرمك، ويسلم مالك إن شاء الله؛ ولو أمكنني ذلك في جميع قومك لفعلت. فلم أزل في جوار سليمان آمنا.

وكتب سليمان إلى أبي العباس أمير المؤمنين: أما بعد. يا أمير المؤمنين، فإننا إنما حاربنا بني أمية على عقوقهم ولم نحاربهم على أرحامهم، وقد دفت إليّ منهم دافّة «1» لم يشهروا سلاحا، ولم يكثروا جمعا، وقد أحسن الله إليك فأحسن. فإن رأى أمير المؤمنين أن يكتب لهم أمانا ويأمر بإنفاذه إليّ فليفعل. فكتب لهم كتابا منشورا وأنفذه إلى سليمان بن علي، في كل من لجأ إليه من بني أمية، فكان يسميه أبو مسلم: كهف الأتاق «2» .

الرشيد وعبد الملك بن صالح:

دخل عبد الملك بن صالح يوما على الرشيد، فلم يلبث في مجلسه أن التفت الرشيد فقال متمثلا: أريد حياته ويريد قتلي ... عذيرك من خليلك من مراد

(27/2)

ثم قال: أما والله لكأني أنظر إلى شؤبوجها قد همع «1» ، وعارضها قد لمع «2» ، وكأني بالوعيد قد وقع، فأقلع عن براجم «3» بلا معاصم، وجماجم بلا غلاصم «4» ، فمهلا مهلا؛ في والله يسهل لكم الوعر، ويصفو لكم الكدر، وألقت إليكم الأمور مقاليد أزمّتها، فالتدارك التدارك قبل حلول داهية، خبوط باليد لبوط بالرجل.

قال عبد الملك: أفذا «5» ما تكلمت أم توءما يا أمير المؤمنين؟ قال: بل فذا. قال: اتق الله في ذي رحمك وفي رعيتك التي استرعاك الله، ولا تجعل الكفر مكان الشكر، ولا العقاب موضع الثواب؛ فقد محضت لك النصيحة وأديت لك الطاعة، وشددت أواخي ملكك بأثقل من ركني يللم «6» ، وتركت عدوك سبيلا تتعاوره «7» الأقدام، فالله الله في ذي رحمك أن تقطعه بعد أن وصلتته؛ إن الكتاب لنميمة واش وبغي باغ؛ ينهش اللحم، ويلغ «8» في الدم، فكم ليل تمام فيك كابدته، ومقام ضيق فرّجته، وكنت كما قال الشاعر أخو بني كلاب:

ومقام ضيق فرّجته ... بلساني ومقامي وجدل
لو يقوم الفيل أو فيّاله ... زلّ عن مثل مقامي وزحل

فرضي عنه ورُحِبَ به، وقال وريت بك زنادي.

الرشيد وعبد الملك بن صالح:

والنفت الرشيد يوما إلى عبد الملك بن صالح فقال: أكفرا بالنعمة، وغدرا بالإمام؟

(28/2)

قال: لقد بؤت إذا بأعباء الندم، وسعيت في استجلاب النقم؛ وما ذلك يا أمير المؤمنين، إلا بغى باغ نافسني فيك بقديم الولاية، وحقّ القرابة، يا أمير المؤمنين، إنك خليفة الله ورسوله صلّى الله عليه وسلم في أمته، وأمينه على رعيته، لك عليها فرض الطاعة وأداء النصيحة؛ ولها عليك التثبيت في حادثها، والعدل في حكمها.

فقال له هارون: تضع لي من لسانك، وترفع عليّ من جنانك بحيث يحفظ الله لي عليك! هذا قمامة كاتبك يخبرني بفعلك.

فقال عبد الملك: أحقا يا قمامة؟

قال: نعم لقد أردت ختل «1» أمير المؤمنين والغدر به.

فقال عبد الملك: كيف لا يكذب عليّ من خلفي من بهتني «2» في وجهي؟

قال الرشيد: هذا ابنك شاهد عليك.

قال: يا أمير المؤمنين، هو بين مأمور أو عاق؛ فإن كان مأمورا فمعذور، وإن كان عاقا فما أخاف من عقوقه أكثر.

وقال له الرشيد يوما وكان معتلا عليه: أتبقون بالرقة؟ قال: نعم، ونبرغث! قال: يا بن الفاعلة! ما حملك على أن سألتك عن مسألة فرددت عليّ في مسألتين؟ وأمر به إلى الحبس؛ فلم يزل في حبسه حتى أطلقه الأمين.

لعبد الملك بن صالح بعد خروجه من السجن:

إبراهيم بن السندي قال: سمعت عبد الملك بن صالح يقول بعد إخراج المخلوع له من الحبس، وذكر الرشيد وفعله به، فقال: والله إن الملك لشيء ما نويته ولا تمّنته، ولا نصبت له ولا أردته، ولو أردته لكان إليّ أسرع من الماء إلى الحدور «3»، ومن النار إلى بيس العرفج «4»؛ وإني لمأخوذ بما لم أجن، ومستول عما لم أعرف، ولكن حين رأيي للملك قمينا «5»، وللخلافة خطيرا، ورأى لي يدا تنالها إذا مدّت،

(29/2)

وتبلغها إذا بسطت، ونفسا تكمل لخصالها، وتستحقها بفعالها- وإن كنت لم أجن تلك الخصال، ولم أصطع تلك الفعال، ولم أترشح لها في السر، ولا أشرت إليها في الجهر- وراها تحنّ إليّ حين الولادة الواهية، وتميل ميل الهلوك؛ وخاف أن ترغب إلى خير مرغّب، وتنزع إلى أخصب منزع، عاقبني عقاب من سهر في طلبها، وجهد في التماسها، فإن كان إنما حسبني أني أصلح لها وتصلح لي، وأليق بها وتليق بي، فليس ذلك بذنب جنيته فأتوب منه، ولا تناولت له فأحط نفسي عنه؛ وإن زعم أنه لا صرف لعقابه، ولا نجاة من عذابه، إلا أن أخرج له من حدّ العلم والحلم والحزم؛ فكما لا يستطيع المضيع أن يكون مصلحا، كذلك لا يستطيع العاقل أن يكون جاهلا.

وسواء عليه أعاقبني على علمي وحلمي، أم عاقبني على نسبي وسني، وسواء عليه عاقبني على جمالي أو عاقبني على محبة الناس لي. ولو أردتها لأعجلته عن التفكير، وشغلته عن التدبير، ولما كان فيها من الخطب إلا اليسير.

ابن مسلم حين بلغه غضب الخليفة على رجاء:

إبراهيم بن السندي قال: كنت أساير سعد بن سلم، حتى قيل له: إن أمير المؤمنين قد غضب على رجاء بن أبي الضحّاك وأمر بأخذ ماله، فارتاع بذلك وجزع، فقيل له: ما يروعك منه؟ فوالله ما جعل الله بينكما نسبا ولا سببا. فقال: بلى، النعمة نسب بين أهلها، والطاعة سبب مؤكّد بين الأولياء. وبعث بعض الملوك إلى رجل وجد عليه: فقال لما مثل بين يديه: أيها الأمير، إن الغضب شيطان فاستعدّ بالله منه؛ وإنما خلق العفو للمدنب، والتجاوز للمسيء، فلا تضقّ عما وسع الرعيّة من حلمك وعفوك. فعفا عنه وأطلق سبيله.

ولما اتهم قتيبة بن مسلم أبا مجلز على بعض الأمر، قال: أصلح الله الأمير، وأستغفر الرب، أسأل العافية! قال: قد عفونا عنك.

وأرسل بعض الملوك في رجل أراد عقوبته، فلما مثل بين يديه قال: أسألك بالذي

(30/2)

أنت بين يديه أذلّ مني بين يديك؛ وهو على عقابك أقدر منك على عقابي، إلا نظرت في أمري نظر من برئى أحبّ إليه من سقمي، وبراءتي أحبّ إليه من جرمي.

وقال خالد بن عبد الله لسليمان بن عبد الملك حين وجد عليه: يا أمير المؤمنين، إن القدرة تذهب الحفيظة؛ وأنت تجلّ عن العقوبة ونحن مقرّون بالذنب؛ فإن تعف عني فأهل ذلك أنت، وإن تعاقبني فأهل ذلك أنا.

وأمر معاوية بن أبي سفيان بعقوبة روح بن زنباع، فقال له: أنشدك الله يا أمير المؤمنين ألا تضع مني خسيسة أنت رفعتها، أو تنقض مني مريرة أنت أبرمتها «1»، أو تشمت بي عدواً أنت وقمته «2»، إلا أتى حلمك وصفحك على خطئي وجهلي. فقال معاوية: خلياً عنه، إذا أراد الله أمراً يستره. وجد عبد الملك بن مروان على رجل فجفاه وأطرحه، ثم دعا به ليسأله عن شيء، فأراه شاحبا ناحلا؛ فقال له: مذمتي اعتللت؟ فقال:

ما مسّني سقم ولكّنتي ... جفوت نفسي إذ جفاني الأمير

وآليت ألا أرضى عنها حتى يرضى عني أمير المؤمنين. فأعادته إلى نفسه.

وقعد الحسن بن سهل لنعيم بن حازم، فأقبل إليه حافيا حاسرا وهو يقول: ذني أعظم من السماء، ذني أعظم من الأرض. فقال له الحسن: على رسلك أيها الرجل، لا بأس عليك، قد تقدمت لك طاعة، وحدثت لك توبة، وليس للذنب بينهما موضع، ولئن وجد موضعا فما ذنبك في الذنوب بأعظم من عفو أمير المؤمنين في العفو.

المأمون وهاشمي أذنب:

أذنب رجل من بني هاشم ذنبا إلى المأمون، فعاتبه فيه. فقال: يا أمير المؤمنين، من حمل مثل دالّتي، وليس ثوب حرمتي، ومثّ «3» بمثل قرابتي، اغتفر له فوق زلّتي.

(31/2)

قال: صدقت يا بن عمي. وصفح عنه.

واعتذر رجل إلى المأمون من ذنب فقال له: إني وإن كانت زلّتي قد أحاطت بجرمتي فإن فضلك محيط بها. وكرمك موقوف عليها.

أخذه صريع الغواني فقال:

إن كان ذنبي قد أحاط بجرمتي ... فأحط بذنبي عفوك المأمولا.

المنصور ويزيد ابن هبيرة:

ودخل يزيد بن عمر بن هبيرة على أبي جعفر المنصور بعد ما كتب أمانه، فقال:
يا أمير المؤمنين، إن إمارتكم بكر ودولتكم جديدة، فأذيقوا الناس حلاوتها، وجنّبوهم مرارتها، تحفّ
على قلوبهم طاعتكم، وتسرع إلى أنفسهم محبتكم، وما زلت مستبطنًا لهذه الدعوة. فلما قام قال أبو
جعفر: عجبنا من كل من يأمر بقتل هذا! ثم قتله بعد ذلك غدرا.

المنصور بعد هزيمة عبد الله بن علي:

الهيثم بن عدي قال: لما انهزم عبد الله بن علي من الشام، قدم على المنصور وفد منهم، فتكلموا
عنده، ثم قام الحارث فقال: يا أمير المؤمنين، إننا لسنا وفد مباهاة، وإنما نحن وفد توبة، ابتلينا بفتنة
استخفّت كريمنا، واستفرت حلیمنا، ونحن بما قدّمنا معترفون، ومما سلف منا معتذرون. فإن تعاقبنا فقد
أجرمنا وإن تعف عنا فطالما أحسنت إلى من أساء منا.

فقال المنصور للحرس: هذا خطيهم! وأمر برد ضياعه عليه بالغوطة.

لتميم بن جميل بين يدي المعتصم:

قال أحمد بن أبي دواد: ما رأينا رجلا نزل به الموت فما شغله ذلك ولا أذهله عما كان يجب أن
يفعله، إلا تميم بن جميل؛ فإنه كان تغلّب على شاطيء الفرات؛ وأوفى

(32/2)

به الرسول باب أمير المؤمنين المعتصم في يوم الموكب حين يجلس للعامّة، ودخل عليه، فلما مثل بين
يديه، دعا بالنّطع والسيّف، فأحضرا، فجعل تميم بن جميل ينظر إليها ولا يقول شيئا، وجعل المعتصم
يصعد النظر فيه ويصوّبه، وكان جسيما وسيما، ورأى أن يستنطقه لينظر أين جناحه ولسانه من منظره.
فقال: يا تميم، إن كان لك عذر فأت به، أو حجة فأدل بها.

فقال: أما إذ قد أذن لي أمير المؤمنين فأني أقول: الحمد لله الذي أحسن كلّ شيء خلقه، وبدأ خلق
الإنسان من طين، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين. يا أمير المؤمنين، إن الذنوب تحرس اللسانة،
وتصدع الأفئدة، ولقد عظمت الجريرة وكبر الذنب، وساء الظنّ، ولم يبق إلا عفوك أو انتقامك،
وأرجو أن يكون أقربهما منك وأسرعهما إليك أولاهما بامتنانك، وأشبههما بخلائقك. ثم أنشأ يقول:
أرى الموت بين السيّف والنّطع كما منا ... يلاحظني من حيثما أتلفت
وأكبر ظنيّ أنك اليوم قاتلي ... وأيّ امريء مّا قضى الله يفلت

ومن ذا الذي يذلي بعذر وحجة ... وسيف المنايا بين عينيه مصلت «1»
يعزّ على الأوس بن تغلب موقف ... يسلّ عليّ السيف فيه وأسكت
وما جزعي من أن أموت وإنّي ... لأعلم أنّ الموت شيء موقت
ولكنّ خلفي صبية قد تركتهم ... وأكبادهم من حسرة تنفتت
كأنّي أراهم حين أنعمي إليهم ... وقد خمشوا تلك الوجوه وصوتوا
فإن عشت عاشوا خافضين بغبطة ... أذود الردى عنهم وإن متّ موتوا
فكم قائل لا يبعد الله روحه ... وآخر جذلان يسرّ ويشمت
قال: فتبسم المعتصم وقال: كاد والله يا تميم أن يسبق السيف العذل، اذهب، فقد غفرت لك
الصبوة «2»، وتركتك للصبية.

(33/2)

المهدي وأبو عبيد الله بعد قتل ابنه:

وحكي أن أمير المؤمنين المهدي قال لأبي عبيد الله لما قتل ابنه: إنه لو كان في صالح خدمتك وما
تعرفناه من طاعتك، وفاء يجب به الصفح عن ولدك، ما تجاوز أمير المؤمنين ذلك به إلى غيره؛ ولكنه
نكص «1» على عقبه وكفر برّيه. قال أبو عبيد الله: رضانا عن أنفسنا وسخطنا عليها موصول
برضاك وسخطك، ونحن خدم نعمتك، تثبينا على الإحسان فنشكر، وتعاقبنا على الإساءة فنصبر.

المنصور وجعفر ابن محمد:

أبو الحسن المدائني قال: لما حج المنصور مرّ بالمدينة، فقال للربيع الحاجب: عليّ بجعفر بن محمد،
قتلني الله إن لم أقتله. فمطل «2» به، ثم ألح عليه فحضر، فلما كشف الستر بينه وبينه ومثل بين
يديه، همس جعفر بشفتيه، ثم تقرب وسلّم، فقال: لا سلّم الله عليك يا عدوّ الله، تعمل عليّ الغوائل
في ملكي؟ قتلني الله إن لم أقتلك. قال: يا أمير المؤمنين، إنّ سليمان صلّى الله على محمد وعليه،
أعطي فشكر، وإن أيوب ابتلي فصبر، وإن يوسف ظلم فغفر؛ وأنت على إرث منهم، وأحقّ من
تأسى بهم. فنكس أبو جعفر رأسه مليا. وجعفر واقف، ثم رفع رأسه فقال: إليّ أبا عبد الله، فأنت
القريب القرابة، وذو الرّحم الواشجة «3» السليم الناحية، القليل الغائلة «4». ثم صافحه بيمينه،
وعانقه بشماله، وأجلسه معه على فراشه وانحرف له عن بعضه، وأقبل عليه بوجهه يحادثه ويسأله. ثم
قال: يا ربيع، عجل لأبي عبد الله كسوته وجائزته وإذنه.

قال الربيع: فلما حال الستر بيني وبينه أمسكت بثوبه، فقال: ما أرانا يا ربيع إلا وقد حسنا. فقلت: لا عليك! هذه مني لا منه. فقال: هذه أيسر، سل حاجتك.
فقلت له: إني منذ ثلاث أدفع عنك وأداري عليك، ورأيتك إذ دخلت همست

(34/2)

بشفتيك، ثم رأيت الأمر انجلي عنك، وأنا خادم سلطان ولا غنى لي عنه، فأحبّ منك أن تعلمنيه.
قال: نعم، قلت: «اللهم احرسني بعينك التي لا تنام، واكنفني بحفظك الذي لا يرام، ولا أهلك وأنت رجائي، فكم من نعمة أنعمتها عليّ قلّ لك عندها شكري فلم تحرمي، وكم من بليّة ابتليت بها قلّ عندها صبري فلم تخذلني، بك أدراً «1» في نحره، وأستعيذ بخيرك من شرّه، فإنك على كل شيء قدير، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلّم» .

سليمان بن عبد الملك ويزيد بن راشد:

المدائني قال: لما قام يزيد بن راشد خطيباً، وكان فيمن دعا إلى خلع سليمان بن عبد الملك والبيعة لعبد العزيز بن الوليد. فنذر سليمان قطع لسانه. فلما أفضت الخلافة إليه، دخل عليه يزيد بن راشد، فجلس على طرف البساط مفكراً، ثم قال: يا أمير المؤمنين، كن كنبّي الله صلّى الله عليه وسلم: ابتلي فصبر، وأعطي فشكر، وقدر فغفر، قال: ومن أنت؟ قال: يزيد بن راشد. فعفا عنه.

الرشيد ورجل حبسه:

حبس الرشيد رجلاً، فلما طال حبسه كتب إليه: إن كل يوم يمضي من نعيمك يمضي من يؤسي مثله، والأمد قريب والحكم لله، فأطلقه.

أسد القسري ودهقان يعذب:

ومر أسد بن عبد الله القسري وهو والي خراسان، بدار من دور الاستخراج، ودهقان «2» يعذب في حبسه، وحول أسد مساكين يستجدونه. فأمر لهم بدرهم تقسم فيهم. فقال الدهقان: يا أسد، إن كنت تعطي من يرحم فارحم من يظلم فإن السموات تنفرج لدعوة المظلوم. يا أسد، أحذر من ليس له ناصر إلا الله، واتق من

(35/2)

لا جنة «1» له إلا الابتهاال إلى الله. إن الظلم مصرعه وخيم، فلا يغترّ بإبطاء الغياث من ناصر متى شاء أن يجيب أجب، وقد أملى لقوم ليزدادوا إثما. فأمر أسد بالكفّ عنه.

المأمون ورجل من خاصته:

عتب المأمون على رجل من خاصته، فقال: يا أمير المؤمنين، إن قديم الحرمة، وحديث التوبة يمحوان ما بينهما من الإساءة. فقال: صدقت. ورضي عنه.

ملك من ملوك فارس وصاحب مطبخه:

وكان ملك من ملوك فارس عظيم المملكة شديد التّهمة، وكان له صاحب مطبخ، فلما قرّب إليه طعامه صاحب المطبخ سقطت نقطة من الطعام على يديه، فزوى لها الملك وجهه؛ وعلم صاحب المطبخ أنه قاتله، فكفأ الصحيفة على يديه. فقال الملك: عليّ به، فلما أتاها قال له: قد علمت أن سقوط النقطة أخطأت بها يدك، فما عذرک في الثانية؟ قال: استحييت للملك أن يقتل مثلي في سني وقديم حرمتي في نقطة، فأردت أن أعظم ذنبي ليحسن به قتلي، فقال له الملك: لئن كان لطف الاعتذار ينجيك من القتل ما هو بمنجيك من العقوبة، اجلدوه مائة جلدة وخلّوه.

المأمون ومحمد بن عبد الملك:

الشيبياني قال: دخل محمد بن عبد الملك بن صالح على المأمون حين قبض ضياعهم، فقال: يا أمير المؤمنين، محمد بن عبد الملك بين يديك، ربيب دولتك، وسليل نعمتك؛ وغصن من أغصان دوحتك؛ أتأذن في الكلام؟ قال: نعم قال: نستمنح الله حياة ديننا ودنيانا، ورعاية أدياننا وأقصادنا ببقائك؛ ونسأله أن يزيد في عمرک من أعمارنا، وفي أثرک من آثارنا، ويقيك الأذى بأسماعنا وأبصارنا. هذا مقام العائد بفضلک، الهارب إلى كنفک وظلّک، الفقير إلى رحمتک وعدلک. ثم تكلم في حاجته، فقضاها.

(36/2)

عبيد بن أيوب والحجاج:

وقال عبيد بن أيوب، وكان يطلبه الحجاج لجنابة جناها، فهرب منه وكتب إليه:
أذقني طعم النوم أو سل حقيقة... علي فإن قامت ففصل بنانيا «1»
خلعت فؤادي فاستطار فأصبحت... ترامى به البید القفار تراميا «2»
ولم يقل أحد في هذا المعنى أحسن من قول النابغة الذبياني للنعمان بن المنذر:
أتاني أبيت اللعن أنك لم تني... وتلك التي تستكّ منها المسامع

فبت كآني ساورني ضئيلة ... من الرّقش من أنباها السّم نافع «3»
أكلّفتني ذنب امريء وتركته ... كذي العرّ يكوى غيره وهو راتع «4»
فإنك كالليل الذي هو مدركي ... وإن خلت أنّ المتأى عنك واسع
وقال فيه أيضا:

ولست بمستبق أخوا لا تلمّه ... على شعث أي الرجال المهذب؟ «5»
فإن أك مظلوما فعبد ظلمته ... وإن تك ذا عتب فمثلك يعتب
حلفت فلم أترك لنفسك ريبة ... وليس وراء الله للمرء مذهب
لئن كنت قد بلّغت عني جناية ... لمبلغك الواشي أغشّ وأكذب
ألم تر أنّ الله أعطاك سورة ... ترى كلّ ملك دونها يتذبذب «6»
فإنك شمس والملوك كواكب ... إذا طلعت لم يبد منهّن كوكب
وقال ابن الطّثرية:

فهني امراء إماما بريئا علمته ... وإما مسينا تاب منه وأعتبا